التفسير الموضوعی للقرآن الكريم

السياسة الإسلامية

بين الكتاب والسنة

وسائر الكتب السماوية

حضرت آیت الله العظمی الصادقی الطهرانی

فهرس المطالب

المقدمة... ۷

سورة الملک وسيرة الملوکية العادلة علی ضوء آيات بينات... ۸

ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربک... ۱۸

المَلِکية الصالحة نعمة ربانية... ۳۱

مَلک داود ولأنه قتل جالوت... ۳۸

محاجة ملکية ابراهيمية مع نمرود... ٤۱

يوسف عليه‌السلام يتطلب لنفسه وزاره الاقتصاد اصطلاحا لحاله وبامکانه اصلاح رسالی خلالـه... ٤٦

داود وسليمان الملک رب هب لی ملکا لا ينبغی لاحد... ٥٩

ولاية النبی صلی‌الله‌عليه‌وآله علی المؤمنين... ٦٦

يومر محمد بخروجه عن الزمل الی القيام الرسالی مرجعية دينية وسياسية... ۷۸

يؤمر محمد بخروجه عن تدثره الی قيامه الرسالی... ۹۳

«سورة المدثر ـ مکية ـ وآياتها ست وخمسون»... ۹۳

هامة الامور الدينية والسياسية شوری بينهم... ۹۸

معضلة الحکم... ۱۱٤

بعث النبيين يهدف الحکم بين المختلفين والمتخلفين... ۱۱۷

الطاعة المطلقة خاصة باللّه وبرسول اللّه... ۱۲٦

الداعية الرسولية تهدَّد ولا تحدَّد... ۱٤٥

فترة رسولية لا رسالية... ١٥٥

الخلافة الرسولية انتصابية... ١٦٧

سورة الأعراف مكية وآياتها ٢٠٦... ١٧٦

ولاية مطلقة قرآنية خالدة... ١٧٦

قانون ابدى نذارة طليقة قرآنية... ١٩١

افسادان اسرائيليان عالميان يفنيها «عبادا لنا اولى باس شديد»... ٢٠١

ثانيهما الحكومة المهدوية... ٢٠١

سورة الأسرى... ٢٠١

قانون تدرج الوحى القرآنى فى سياسة الخطوة الخطوة... ٢٦٢

ولاية الكافرين على المؤمنين محظورة منكورة... ٢٦٦

وقاية جماعية مفروضة هى سياسة جماعية... ٢٩٧

هل الحاكم الرسولى يُستأذن فانه رئيس كل القوى... ٣١٥

دعوة الى اللّه ومجادلة فى اللّه... ٣٣٣

استقامة فى الدعوة الى اللّه... ٣٤٠

شارع الشرعة والقانون هو اللّه... ٣٥٠

حكم الرسول متبع لكافة المكلفين... ٣٦٧

كونوا مع الصادقين اشخاصا وجماعات فى عبادات وسياسات... ٣٨٥

الايمان الصامد غالب غير مغلوب... ٤١٢

دعائم أربع فى سياس الحفاظ على المؤمنين... ٤١٤

المقدمة

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الحمد للّه رب العالمين وصلى اللّه على خاتم النبيين وأشرفهم محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله والمعصومين الاكرمين عليهم‌السلام.

القرآن كتاب هداية ككل لكافة المكلفين الى يوم الدين ومن ضمنها كاصل حكومى من السياسات الربانية والرسولية والرسالية ما ينفهم عن كافة السياسات المختلفة الخلقية وحتى العادلة فإنها ليست طليقة بحق أن تتبع وإنما سياسة يحق إتّباع عاصمة معصومة تعصم المكلفين عن الأخطاء الجماهيرية وكما نقرء فى زيارة الجامعة مخاطبين ائمة أهل البيت عليهم‌السلام وساسة العباد وأركان البلاد، فإنهم إنما يرأسون الشعوب بسياسة ربانية ورسالية على ضوء الكتاب والسنة كما أن سائر الأحكام الإسلامية ليست إلاّ على ضوءها ولا سيما الكتاب فإنه الأصيل فى كل وارد وشارد والسلام على عباد اللّه الصالحين اجمعين.

سورة الملک وسيرة الملوكية العادلة
على ضوء آيات بينات

«تَبَارَکَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْکُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * [1] الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ»

إنه ليس مَلِكا ومالكا يملک مُلكه ومِلكه، إنما هما بيده لا سواه، وهما له لا سواه، وكل مالک مملوک إلا إياه، وكل ملک يُملک عليه سواه: «قل اللهم مالک الملک..»[2]«ولم يكن له شريک فى الملک».[3]

---

[1] . إنه تعالى متبارك في مُلكه، دون لعنة ولا نكسة ولا نكبة، خلاف ملك الخلق، إلا الملوك الذين هم ضلال الرب في ملكهم، إلا فيما يجهلون ويعجزون للقصور الذاتي، فهو تعالى متبارك في كافة شؤون الربوبية خَلقا وأمرا: «ألا له الخلق والأمر تبارك اللّٰه رب العالمين»٧: ٥٣ ومتبارك في الأمر التشريعي كما التكويني ـ سواء: «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا» (٢٥: ١) ففي ملك السماوات والأرض ككلٍّ وفي كلٍّ: «تبارك الذي بيده ملك السماوات والأرض وما بينهما» ٤٣: ٨٥ ف: «تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير».

[2] . ٣: ٢٦.

[3] . ٧: ١١١.

وفيما إذا يؤتى ملكه من يشاء لا يتحلل هو عنه، ولا يؤتيه المُلك الخاص بـه: «واللّـه يـؤتى ملكه من يشاء واللّه واسع عليم».[1]

فالمَلِک الحق من الخلق ليس وكيلاً عن اللّه بانعزاله ـ سبحانه ـ عن شىء مـن الملـک، ولا شريكا له وليا من الذل، ولا معنيا يعينه ـ بعض الشىء ـ فـى الملـک، وإنمـا يؤتـاه تطبيقـا لحكمه العدل بين الخلق، بشيرا ونذيرا، دون أن يكون له من الأمر شىء: «ليس لک من الأمـر شىء»[2] «فتعالى اللّه الملِک الحق القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر...»[3]

«تبارک» ولأنه بيده الملک فهو متبارک: متعاظم بذاته وصـفاته وأفعالـه، لا تُحـد بركاتـه ولا يُمددُ فيها وإنما يَمددُ، ولا تُعَد نعمائه «وإن تعدوا نعمة اللّـه لا تحصـوها» وبمـا أن الملـک يخصه، فالبركة أيضا تخصه:

«الذى بيده الملک» ان اليد ـ هنا وفى سواه مما نسبت إلـى اللّـه ـ تـوحى بالسـلطة الإلهيـة اللامحدودة غير المغلوبة، والملک قرينة أخرى إضافة إلى القرينة العقلية، يوحى أن اليـد هنـا ليست هى الجارحة الجسدانية، فإن الملک لا تصله هذه اليد، وإنما السلطة، وتقديم الظـرف «بيده» والاستغراق المستفاد من تأخير «الملک» يفيد ان الحصر، أن المُلک ـ أيا كـان ـ إنمـا هو بيد اللّه.

والمُلک أعم من مُلک الخلق والتقدير والتدبير، ومن مُلک النبـوة والسـلطة الزمنيـة، ولمـاذا يؤتيها الفجار إذا كانت هى أيضا منه تعالى؟ له تأويل يأتى فى محله الأنسب.

كلام فى القدرة الإلهية:

«وهو على كل شىء قدير»: فما هو كل شىء، وما هى القدرة؟

فهل يقدر ربّنا أن يجمع بين المتناقضين ذاتيا، أو يخلق نفسه، أو يخلق مثله، أو يلـد مـن لا يولد ولا يُخلق، أو أن يُدخل الدنيا فى بيضة دون أن تصفر الدنيا أو تكبر البيضة، أو ما إلـى

---

[1]. ٢: ٢٤٧.

[2]. ٣: ١٢٨.

[3]. ٥٩: ٢٣.

ذلک من المستحیلات الذاتیة عقلیا؟.

تقول: الأمور المتصورة ـ من حیث تعلق القدرة بها وعدم تعلقها ـ علی أربعة أضرب:

١ ـ الکائنات التی بالإمکان تحویرها وتغییرها، دون حاجة إلی معجزة أو اختـراع، فهـی مـن أبسط الأشیاء التی تتعلق بها القدرة.

٢ ـ التی تحتاج إلی قواعد علمیة کالمخترَعات، فهـی قبـل اختراعهـا قـد تُـزعم مسـتحیلة، ولکنما العلم یثبت إمکانیتها.

٣ ـ التی لا تقدر المحاولات العلمیة علیها من الطرق العادیة، کمعجزات النبیین، التی یزعمها الإنسان ـ ولا سیما المتحلل عن وحی السماء، الشـاک فیـه ـ یزعمهـا: مـن المسـتحیلات، ولکنما من الممکنات الذاتیة، مهما کانت مستحیلة بالنسبة للقدرات المحدودة.

ومن هذه خلق العالم لا من شیء، وسائر الاختصاصات الإلهیة فی خلقه المبـدَع، فاللاشـیء الذی بالإمکان إیجاده بالقدرة اللاّمحدودة، إنه یستحق إسم الشیء بهذه الإمکانیة الاستعدادیة لقبول الخلق، سواء أخلق أم لا یخلق، فالمادة الأولیة کانت هی اللاشـیء الممکـن إیجـاده، وقد خلقت، والسماوات الثمانیة وما فوقها، کانت اللاشـیء الممکـن إیجـاده ولـم تخلـق، ولکنهما علی سواء فی أنهما شیء لإمکانیة خلقهما، مهما کانت الأولی راجحة فـی الحکمـة والثانیة مرجوحة، فهی من المستحیل عرضیا، لا ذاتیا.

٤ ـ الأمور التی لا تستحق إسم الشیء، لأنها لیست کائنة، ولا بالإمکان تکوینهـا: معـدومات مستحیلة التکوین، کالأمثلة المسبقة، فإنها لیست من الأشیاء حتی تشملها القدرة، مهما کانـت إلهیة لا نهائیة.

إن القدرة تعنی إمکانیة تعلقها بشیء مما قدمناه، والاسـتحالة الذاتیـة تعنـی ـ فیمـا تعنیـه ـ استحالة تعلق القدرة بها وإن کانت القدرة الإلهیة، غیر المحدودة، فإذا تعلقت القـدرة بـأمر ـ مما یزعم استحالته ـ فالواقع المقدور، دلیل لا مرد له علی إمکانیته.

فهل بالإمکان الجمع بین النقیضین معا: «أنا أنا ولست أنا» أو سلبهما معا: «أنا لست أنـا ولا لا أنا» مهما کانت القدرة المحاولة لجمعهما أو سلبهما إلهیة؟

وهل بالإمکان أن اللّه خالق نفسه، فخلقُ شیء یسبقه عدمه، وهذا ینـافی الوهیـة المخلـوق،

وخالقية شىء تقتضى كونه قبل مخلوقه، فهل إن اللّه كان قبل كونه! أمران مستحيلان ذاتيا!.
وهل بالإمكان أن يخلق اللّه مثله، فيكون المثل خالقا غير مخلوق مثله. فالإله المخلوق إذا لم يكن مخلوقا، حتى يماثل خالقه. فهو معدوم لم يخلق! فهل المعدوم يماثل الخالق، وإذا كان مخلوقا فكيف يماثل خالقه فى أنه غير مخلوق. أم هل هو مخلوق وغير مخلوق لكى يربح الواجبين: مماثلته خالقه، وعموم القدرة الإلهية لخلق مثله؟.
إنه ـ رغم ما يزعمه الثالثيون وأضرابهم ـ ليس عدم تعلق القدرة الإلهية بالمحالات الذاتية، نقصا فى القدرة، ونقضا فى شمولها، وإنما هى المحالات النسبية، التى لا يقدر عليها إلا اللّه، فيختصها بقدرته ف «إن اللّه على كل شىء قدير».
نسألكم: هل بالإمكان أن يكون اللّه إلها وليس إلها؟ خالقا ولا خالق، عالما ولا عالم! فإذا «نعم» فليس الملحدون خاطئين إذ تمسكوا بأحد جزءى القضية المتناقضة «موجود ومعدوم» إذ زعموا أنه معدوم، وإذا «لا» فلماذا «لا» فهل إلا لأنه من المحالات الذاتية! فكذلك سائر المحالات الذاتية كالأمثلة المسبقة.
فالمستحيل ذاتيا ليس شيئا حتى تتعلق به القدرة، ولا أن القدرة تتعلق باللاشىء الذى يستحيل أن يكون شيئا، اللهم إلا اللاشىء الممكن إيجاده.
فذلك ليس لنقص فى القدرة اللانهائية، وإنما لأن القدرة لا تعنى إلا التى بإمكانها إيجاد الممكن الذاتى، فالنقص كل النقص فى المستحيل الذاتى الذى لا يقبل الإيحاد، إن صح التعبير ب «يقبل ولا يقبل» عن اللاشىء المستحيل وجوده!.
ولئن سألت: هل لا يقدر ربنا أن يخلق المحالات، حالة قبول لخلقها. فالجواب أنه «ليس للمحال جواب»! فإنما الحالة والصفة تخلق فى شىء موجود، لا المعدوم المستحيل الوجود، وفيما إذا كان الشىء موجودا، لا يحمل صفة تناقض كيانه، فهل يحمل ذات اللّه صفة الحدوث، أمهل تحمل ذوات الممكنات صفة الأزلية. كذلك ـ وبالأحرى ـ لا تحمل الذوات المستحيلة الوجود ـ إن صح تعبير الذوات ـ لا تحمل صفة الإمكان والقبول، المناقضة للاستحالة الذاتية!.
فقبول صفة الإمكان للمفروض استحالته الذاتية يحمل تناقضين:

١ ـ فرض القبول للمعدوم حالة عدمه: صفة دون موصوف!.

٢ ـ تحميل الحالة المناقضة لذات المحمول عليه، جمعا بين الصفة والموصوف المتناقضين: مستحيل ذاتى يقبل حالة الإمكان! ظلمات بعضها فوق بعض.

فالمحال الذاتى محال أينما حل، وبجنب القدرة الإلهية أيضا، وليس عنه خبر ولا جواب، إلا أنه «ليس للمحال جواب» يجيب به الإمام الصادق زنديقا سأله: أليس هو قادرا أن يظهر لهم حتى يروه ويعرفوه فيُعبد على يقين؟ فيجيبه: «ليس للمحال جواب» يعنى بذلك: أن المحال ليس شيئا يذكر فيسأل عنه، فلو أن اللّه أظهر نفسه فلتره العيون بمشاهدة الأبصار، وفى ذلك تحول المجرد عن اللامادة إلى المادة، لكى تشاهَد، وهذا محال!.

كما يُسأل الإمام المؤمنين على عليه‌السلام: **«هل يقدر ربک أن يدخل الدنيا فى بيضة من غير أن تصغر الدنيا أو تكبر البيضة؟ قال: إن اللّه تبارک وتعالى لا ينسب إلى العجز، والذى سألته لا يكون».** [1]

وإن كان هنا وجه آخر للجواب، فهو عن وجه آخر للسؤال وكما أجاب على عليه‌السلام **نفسه عن نفس السؤال: «ويلک إن اللّه لا يوصف بالعجز، ومَن أقدر ممن يلطِّف الأرض ويعظِّم البيضة».** [2]

يعنى الحالة الممكنة فى موضع السؤال: أن يلطف اللّه الأرض عن حجمها، برفع الخلل والفواصل عن عناصرها وجزيآتها، ودمجها كما يمكن، فتصبح قدَر البيضة فيدخلها فيها، فالبيضة إذا لا تكبر حجما مهما كبرت ثقلاً، كما الدنيا لا تصغر ثقلاً مهما صغرت حجما، فهذه هى الحالة الممكنة من إدخال الأرض البيضة، بتلطيف الأرض حجما وتكبير البيضة ثقلا!.

ثم استحالة تعلق القدرة الإلهية قد تكون ذاتية عقلية كالأمثلة المسبقة، وقد تكون واقعية كصدور القبيح منه سبحانه، أو خلق المرجوح كونيا؛ وحسب المصلحة الجماعية للكائنات

---

[1]. نور الثقلين ج ١، ص ٣٢، عن التوحيد للصدوق عن عمر بن اذينة عنه عليه‌السلام.

[2]. نور الثقلين ج ١، ص ٣٢ عن ابان بن تغلب عن الصادق عليه‌السلام عنه عليه‌السلام.

أو للمكلفين كالمقترحين المعجزات تعنتا ولجاجا: «قل إنّ اللّه قادر على أن ينزِّل آيـة ولكـن أكثرهم لا يعلمون».[1] فالأخيران ـ رغم إمكانيتهما ذاتيا، وبالنسبة للقدرات المحـدودة أيضـا ـ هما مستحيلان على اللّه، إذ يتنافيان وعدله وحكمته تعالى وتقدس، استحالة بالإختيار.

انه لا قديرَ على كل شىء إلا اللّه، فلا يعجزه شىء، ولا يفوته شىء، يخلق ما يشـاء، ويفعـل ما يريد، إنه عزيز حميد، وهو غالب على أمره، غير مغلوب فيما يريـد، فمـا يحيلـه الإنسـان بحساب قدرته المحدودة، إنه عند اللّه سهل يسير، لا يعزب عنه شىء ولا يعزبه شىء.

وما يحيله العقل واقعيا، من المنكر، أو عقليا من المحال الذاتى، فهو ليس شـيئا يـذكر، أو لا يليق به تعالى حتى تتعلق به قدرته، فما دام القابل ناقصا لا يقبل الكمال، أم هو دون الـنقص والكمال لاستحالة شيئيته، فعدم تعلق القدرة الإلهية به ليس نقصـا فيهـا، ولا نقضـا لعمومهـا وشمولها.

وهل إن القدرة الإلهية تتعلق بالشىء الموجود: خلقُ الشىء شيئا: خلقه كما كان قبل خلفـه؟ فهو من تحصيل الحاصل! أو خلقه شيئا آخر بمعنـى تغييـره وتحـويره؟ أو بمعنـى إعدامـه؟ فليست قدرته محصورة فى حصار الكائنات بعد كونها، فمن هذا الـذى كوّنهـا إلا هـو؟! أم تتعلق قدرته بما كوّنها ويخلق الأشياء من اللاشىء؟ فكيف يتحول اللاشىء شـيئا! أن يخلـق اللّه العالم من اللاشىء؟ وهذا هو الصـحيح المعقـول، أن لا مصـدر لخلـق المـادة الأوليـة وجوديا ولا عدميا، إنما مصدرها أولاً إرادته تعالى: أن خلق الأشياء لا من شىء: «إنما أمرنـا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون»وإنما اسـتحق اسـم الشـىء قبـل تكوينيـة، اعتبـارا بإمكانية تكوينه ومجال كونه المستقبل «علاقة ما يكون».

ثم مصدر الأشياء ثانيا هى المادة الأوليـة ـ المخلوقـة لا مـن شـىء ـ بإرادتـه تعـالى، أن يحوّرها ويحوِّلها ويبدّل ماهيتها، ثم ماهيات الأشياء إلى ما يريد، أو يعدمها، وسوف نخـوض فى البحث عن كيفية التكوين فى محالّها.

إذا فعمـوم قدرتـه تعـالى لـيس إلا لعمـوم الممكنـات: المعـدومات المتمكنـة للإيجـاد،

---

[1] ٦: ٣٧.

والموجودات المتمكنة للتغيير والتحوير، أو الانعدام، فهى كلها أشياء معنية ب «كل شىء» دون المحالات الذاتية فإنها ليست شيئا لكى تتعلق بها القدرة، ودون الموجودات فى وجوداتها، فإن الموجود لا يحتاج إلى الإيجاد، اللهم إلا إبقاءه فإنه أيضا بحاجة إلى القدرة والعناية الإلهية كما فى بداية وجوده، إذا فليست القدرة الإلهية فوضى تتعلق بالمحالات لكى تبرز الفلسفة الكنسية تقوُّلها فى ثالوث، المستحيل عقليا، وان الإبن إله، مولود منذ الأزل، غير مخلوق، وأن الإله المجرد اللامحدود حلّ فى الجسم اللامجرد المحدود.[1]

﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾.

ومن عموم قدرته للأشياء أنها تعم الموت والحياة، فالموت شىء لأنه إعدام للحياة وفصل بين الكائن الحى وبين حياته، والحياة شىء وهى أصل الأشيآء فى الكائنات.

والموت الشىء، المخلوق، هو الموت عن الحياة وبعدها،[2] لا قبلها، فإنه أمر عدمى وليس إعداميا لكى يكون شيئا، وتقدُّمه على الحياة هنا فى التعبير، لا يقدّمه عليها فى الواقع المعنى، إذ لا واقع له قبلها إلا عدم الحياة، وهو ليس شيئا يخلَق، فخلق الموت هو الإماتة: ﴿وأنه هو أمات وأحيى﴾،[3] لا الذى قبل الحياة فإنه كائن قبلها دون خلق، ولم يُذكر إلا فى آية واحدة: ﴿كيف تكفرون باللّه وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾.[4]

ثم إن بلوى الإنسان ليس بالموت قبل الحياة، إذ لا يشعره قبلها، وإنما حالها، بما يعلم انه يدركه لا محالة، فليهيىء له نفسه، وبعدها كذلك، ليذوق ألم الحسرة: ﴿يا ليتنى قدمت لحياتى﴾ فليحسن عمله فى عمله فى حياة التكليف، ليحيى فيها وبعد الموت فى حياة الخلود حياة طيبة.

---

[1]. راجع كتابنا «حوار بين الإلهيين والماديين».

[2]. نور الثقلين ٥: ٣٧٩ عن الكافي عن الباقر عليه‌السلام قال: «ان الله خلق الحياة قبل الموت» وفيه ايضا عنه عليه‌السلام قال: الحياة والموت خلقان من خلق الله، فاذا جاء الموت فدخل في الانسان. لم يدخل في شيء الا وخرجت منه الحياة، وفيه ايضا عنه عليه‌السلام ما الموت؟ قال: هو النوم الذي يأتيكم في كل ليلة. الا انه طويل لا ينتبه منه الى يوم القيامة.
اقول: كل ذلك يعني الموت عن الحياة، لا الذي قبلها، ولا يشمله كذلك.

[3]. ٥٣: ٤٤.

[4]. ٢: ٢٨.

إن التسابق فى الأعمال الحسنة هو الهدف لهذه الازدواجية من الموت والحياة، وليست الحياة فقط هى الباعثة لهذا التسابق، وإنما التى معها الموت علما، وبعدها واقعا، ومهما أنكر الإنسان حياة الحساب بعد الموت، الذى لا ينكره أحد، ولكن احتمال الحساب بعدُ قائم لا يمحى، فليحسب العاقل له حسابا، وكما يحسب كل تاجر حسابات فى احتمالات الفائدة والضرر، ولأن الموت يحمل هذه الذكرى الضرورية، والبلوى العالية، تقدَّم هنا على الحياة رغم تأخره فى غيرها من الآيات، إلا الذى هو قبل الحياة وليس فيه بلوى! «كنتم أمواتا فأحياكم».

«أيكم أحسن عملاً» والعمل هنا يعم عمل القلب ـ وهو أولى ـ وعمل القالب ـ هو أدنى ـ لأن القالب يتبع القلب ويتّبعه فى عمله، وليس كذلك القلب، مهما تأثر هو بالقالب فى خيره وشره.

ثم العمل منه حسن ومنه أحسن، كما أن منه سيّىء ومنه أسوء، والغاية القصوى من بلوى الموت والحياة الوصول إلى واقع العمل الأحسن قلبا وقالبا، وهو الذى يبتغى به وجه اللّه كأعمال المقربين، ودونه الأبرار الذين يريدون الآخرة، فعملهم حسن، كما أن الأسوء هو أعمال الكافرين الذين توافق سيآتهم نياتهم.

ومن حسن العمل الأحسن نسيانه وعدم استعظامه، كما أن من الأحسن ذكر العمل السيء فجبرانه.

فالموت والحياة دليلان، بما معهما من أدلة إلهية، عقلية وفطرية وواقعية، يدلان الناس اليقظين إلى العمل الأحسن، فليس الموت قبل الحياة داخلاً فى المعنى من الموت الابتلاء هنا.

هذا ـ وإن كان بالإمكان شمول الموت هنا لما قبل الحياة أيضا، بتأويل أنه مخلوق ضمن الكائن الميت،[1] وكذلك الحياة غير الدنيوية فإنها حياة وأحيى من الدنيوية، ولكنما البلوى ليست إلا فى الحياة الدنيا لواقع الإختيار والتكليف فيها، وفى الموت عنها علميا حالها، فإنه

---

[1]. ولكن الخلق هنا يوحي بالاستقلال فلا يشمل الموت ضمن الكائن الميت.

الذى يحمل الذكرى، ويحمل صاحبه على التسابق فى الأعمال الحسنة «ليبلوكم أيكم أحسن عملاً»، وللموت رحمات أخرى إضافة إلى البلوى.[1]

ولولا العزة والغلبة الإلهية لم تكن هناك بلوى ولا حسن الأعمال، فبعزته خلق الموت والحياة، وبعزته يحافظ على الأحياء والأموات، وعلى الأرواح والأجساد، وعلى أعمال الإنسان، وبعزته يجازى كلاً على عمله، إذ لا يفوته من أساء.

ولولا مغفرته كانت الحياة الأخرى كلها بلاءً وعذابا، ولكنه يغفر ما دامت المغفرة لا تنافى عدله، ويكفى أن مصير الموحدين كلهم الجنة، بعد المغفرة، أو والعذاب فيما لا يتحمل المغفرة ثم الجنة، فرحمته وسعت كل شىء «وهو العزيز الغفور».

أجل: وإن الخلق عامة، وخلق الموت والحياة خاصة، ليس جزافا دون هدف، وإنما هو الإبتلاء لإظهار المكنون فى علم الله من سلوك المكلفين على الأرض، بلوى: «بتكليف طاعته وعبادته، لا على سبيل الامتحان والتجربة، لأنه لم يزل عليما بكل شىء»[2] و«أكيس المؤمنين أكثرهم للموت ذكرا وأحسنهم له استعدادا» «فليأخذ الإنسان من حياته لموته» واستقرار هذه الحقيقة الحية من واقع الموت فى ضمائر الأحياء، يدعهم أبدا يقظين منتبهين

---

[1]. ان رحمة الموت لا تختص بالبلوى التي تدفع الى التسابق في الصالحات، وانما هي الاهم من فوائده لبني الانسان حال الحياة اعتبارا، وبعد الموت جزاء للحسنى بالحسنى، وللذين كفروا عذاب، وهو رحمة للمحسنين ـ.
وهنا رحمات اخرى نتيجة الموت في النبات والحيوان والانسان: فللانسان: هل يا ترى لو لم يكن موت، اكانت الكرة الارضية بفضائها تسع نسله المتواصل؟ ولو وسعت، فهل بامكان الاولاد ان يتحملوا عبء معايش الآباء والأمهات: الآلاف الالاف! واذا أمكن، فهل بامكان هذه الكثرة الخالدة في الحياة، المعايشة السلمية؟ كيف! ولا تعيش الآن ـ وهي تلمس الموت ليل نهار ـ الا في اضطرابات ناتجة عن تخلفات!.
فيا للموت من رحمة لبني الانسان، بنّاء لحياة سليمة، لو تذكروا بها، وواعظا لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد، ورادعا عن الشرور لمن اراد الحياة سالمة غير منفصمة وان لم يؤمن بالآخرة، وباعثاً على التقوى لمن آمن بالله واليوم الآخر!.
وللحيوان: لو ان بيضات الاسماك البطروخات صارت كلها اسماكا ولم تمت، لاصبحت البحار جامدة من زحامها، فامتنعت الحياة عليها كلها.
ولو ان الجراثيم استمرت على التوالد خمسة ايام دون انقطاع ولا موت لملأت المحيط الى عمق ميل، فكيف الحياة؟!
ولو ان ميكروب الوباء (الكوليرا) ـ الذي يتضاعف كل عشرين دقيقة ـ لو مضى عليه يوم واحد دون عائق، لبلغ وزنه ٧٣٦٦ طنا، وعدده رقم ٥ مع ٢١ صفرا، فاين الحياة!.
ان بعض المحار في البحار تبيض الواحدة منها ستين مليونا، لو بقيت انسالها بين عام وعامين لزادت على الكرة الارضية، فكيف الحياة!.
والذباب الذي ينفص عيش الانسان، تبيض انثاه خمس او ست مرات، في كل مرة ١٢٠ ـ ١٥٠ بيضة، فلو عاشت دون موت لم يعش على وجه الارض انسان ولا حيوان!.
فلولا الموت لم تكن حياة، وانه يتبنى الحياة مادية ومعنوية، خلقية وخلقية، «ليبلوكم أيكم احسن عملاً» سبحان الخلاق العظيم، فهل لا يستحق الموت ـ اذا ـ ان يحتل الرتبة السابقة على الحياة: «خلق الموت والحياة»؟ فان الموت رحمة للاحياء وللاموات!.

[2]. «نور الثقلين» عن الاحتجاج للطبرسي عن الرضا عليه‌السلام في الآية: «فإنه عز وجل خلق خلقه..».

حذرين واعين، للصغيرة والكبيرة، فى النية المستسرة، والعمل الظاهر، لا يدعه يطمئن أو يستريح، إلا أن يسامح عن عقله وضميره، فإن حسن العمل ليس إلا من حسن العقل، وعلى حد تفسير الرسول الأقدس صلى‌الله‌عليه‌وآله: «أيكم احسن عقلاً، ثم قال: أتمكم عقلاً، وأشدكم للّه خوفا، وأحسنكم فيما أمر اللّه عز وجل به ونهى عنه نظرا، وإن كان أقلكم تطوعا».[1]

ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربک

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّکَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّکَ وَلِذَلِکَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّکَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.[2]

ف «لو» تُحيل ذلک الجعل الجاهل القاحل فى ساحة الربوبية فى حقلى التكوين والتشريع، إذ ﴿لكلّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء اللّه لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى اللّه مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾.[3]

وفى حقل التكوين: ﴿ولو شاء اللّه لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون﴾[4] ـ ﴿وكذلک أوحينا إليک قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير. ولو شاء لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء فى رحمته والظالمون ما لهم من ولى ولا نصير﴾.[5]

---

[1]. «مجمع البيان»: أبو قتادة قال: سألت النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله عن قوله «أيكم أحسن عملا» ما عنى به؟ فقال: يقول: أيكم أحسن عقلاً. وفيه عن ابن عمر عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: «أيكم احسن عقلاً، وأروع عن محارم اللّه، وأسرع في طاعة اللّه»، وفي الكافي عن الصادق عليه‌السلام: «ليس يعني أكثركم عملاً، ولكن أصوبكم عملاً، وإنما الإصابة خشية اللّه والنية الصادقة، ثم قال: الإبقاء على العمل حتى يخلص أشد العمل، الا والعمل الخالص الذي لا يريد أن يحمدك عليه أحد إلا اللّه، والنية أفضل من العمل، ألا وإن النية هي العمل، ثم تلا قوله تعالى: ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾ يعني على نيته.»

[2]. ١١: ١١٨ ـ ١١٩.

[3]. ٥: ٤٨.

[4]. ١٦: ٩٣.

[5]. ٤٢: ٨.

ذلک، ولأن الناس أمم فی شرائع اللّه، وأممٍ فی إختیار الخیر والشر علی أیة حـال، إذا ف «لا یزالون مختلفین» تصدیقا للشرعة الکتابیة وتکذیبا، ثم المصدقون لها مختلفون فـی ناسـخها ومنسوخها، ثم الأمة الأخیرة مختلفون فی مذاهب شتی أیادی سبا، ف «ولا یزالون مختلفـین» بشتی الخلافات وشتاتها «إلاّ من رحم ربک» وکما «کان الناس أمة واحد فبعـث اللّـه النبیـین مبشرین ومنذرین وأنزل معهم الکتاب بالحق لیحکم بین الناس فیما إختلفوا فیه وما إختلـف فیه إلاّ الذین أوتوه من بعد ما جاءتهم البینات بغیا بینهم فهدی اللّه الذین آمنوا لمـا اختلفـوا فیه من الحق واللّه یهدی من یشاء إلی صراط مستقیم».[١]

ذلک، فالإختلاف عن الدین الحق وفی الدین الحق لیس إلاّ بغیا بعد مجیء البینات لإیضـاح الحق، ف «من رحم ربک» هم الذین هداهم اللّه فی خِضِـم الخلافـات إلـی الحـق المُـرام «ولذلک خلقهم» وذلک هو الوحدة والرحمة والهدایة وکما قال: «وما خلقت الجـن والإنـس إلا لیعبدون»[٢] عبادة کما یشاء ویرضی وهی الهدی والرحمة المعنیة لهم.

وقول القائل: «ذلک» المذکر لیس لیشیر إلاّ إلی مذکر هو الإختلاف المستفاد مـن «مختلفـین» دون الرحمة المستفادة من «إلاّ من رحم ربک» فقد خلقنا اللّه للإختلاف، وکما حصل ذلـک ببعث النبیین»!.

إنه قول غائل مردود لفظیا ومعنویا، فلفظیا نقول: لیست الرحمة مؤنثا حقیقیـا حتـی تسـتحق أداة التأنیث فی ضمیر راجع إلیه أو إشارة وکما فی «إن رحمة اللّـه قریـب مـن المحسـنین»[٣] و«هذا رحمة من ربی».[٤] ثم «الرحمة» هی أقرب المرجعین فهی أحری ب «ذلک» وقـد یشـیر «ذلک» إلی جعْل الناس أمة واحدة باختیارهم، وهو الرحمة العمیمة المحلقة ـ إذا ـ علی کل الناس علی ضوء تطبیق شرعة اللّه، أم هما معنیان، والإشارة ب «ذلک» لمکـان بعـد المحتـد

---

[١]. ٢: ٢١٣.

[٢]. ٥١: ٥٦.

[٣]. ٧: ٥٦.

[٤]. ١٨: ٩٨.

وعلوِّه، البعيد عن تحقيقه الحقيق، وهذا استخدام فى الإشارة ما ألطفه ثم الرحم المستفاد من الرحمة هو المرجع لفظياً، و «ذلک» اشارة إلى المحتدى البعيد.

وأما الإختلاف فهو بعيد لفظيا ومعنويا، بعدا فى كونه مشارا إليه، وآخر فى أنه خلاف الضرورة الربانية الحاكمة بضرورة الوحدة فى عشرات من آيات اللّه البينات.

أفيكون «ذلک» المشيرة إلى العظيم العظيم فى غاية الخلق، هو الإختلاف الرذيل الرذيل، المرفوض فى محكمة الفطرة والعقلية الإنسانية والشرعة الربانية، أم هو رحمة الوحدة الفضيلة الفضيلة، المفروضة فى كل الحقول! إذ «ما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون»[1] «يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون».[2]

أو ترى ربنا يندد بالإختلاف فى الدين وعن الدين، ويمدح الوحدة فيه ويأمر بها، ثم يجعل غاية الخلق نفس الإختلاف؟.

وترى «إلاّ من رحم ربک» عماذا يستثنى؟ هل عن المجموعة، أن من رحم ربک منهم لا يختلفون؟ وهم مختلفون مع أهل الباطل! نقول: الإختلاف المرفوض هنا هو الإختلاف عن الحق وفى الحق والتفرق فى الدين: فقد «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليک وما أوحينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه»[3] ومن رحم ربک لا يتفرقون فى الدين، بل هم متفقون فيه، فالإختلاف المرفوض فى الدين هو إتباع سائر رفضا لسبيل الدين: «وإن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله».[4]

ومن الإختلاف فى الدين الشک فيه: «ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولو لا كلمة

[1]. ٥١: ٥٦.

[2]. ٢: ٢١.

[3]. ٤٢: ١٣.

[4]. ٦: ١٥٣.

سبقت من ربک لقضى بينهم وإنهم لفى شکٍ منه مريب»[1] ـ «إنکم لفى قول مختلف. يُؤفک عنه من أفِک. قتل الخراصون».[2]

فالإختلاف المرفوض هو المقصِّر، فلا يشمل إختلاف أهل الحق مع من سواهم فإنه مفروض، إنما هو اختلاف أهل الباطل فيما بينهم أنفسهم ومع أهل الحق، واختلاف أهل الحق فيما بينهم دون عذر، و«أهل الرحمة لا يختلفون فى الدين»[3] فإن اللّه «خلقهم ليفعلوا ما يستوجبون به رحمة فيرحمهم»،[4] فالرحمة المقصودة لعباد اللّه هى العبادة الموحِّدة الموحَّدة دون خلاف واختلاف مقصِّر.

والإختلاف بين تقصير وقصور، والأول هو المحظور أن يختلف الناس فى الحق بعدما جاءتهم البينات تغاضيا عنها إبتغاءَ أهواءهم ورغباتهم، وإنما ذلک فى أصل الشرعة وفروعها البينة.

والثانى هو الإختلاف قضيةَ القصور الذاتى زمنَ غياب المعصومين عليهم‌السلام، وذاک فى فروع أحکامية قليلة قليلة جدا، حيث الکتاب المبين والسنة البينة يزيلان أى اختلاف، ويکسحان أى خلاف، إلاّ ما قصر القاصرون عن تفهمه.

ثم لا إختلاف معاندا فى هذه القلة القليلة من الفروع الأحکامية فيما هى منتهى مبالغ الإجتهادات الصالحة، وهنا يصلح القول: للمصيب أجران وللمخطىء أجر واحد.

ذلک، ومهما کانت أسباب الخلافات قاصرة ومقصرة بين الأمم السالفة کثيرة عسيرة، فهى بين أمة القرآن قليلة يسيرة، حيث القرآن ـ وهو المحور الأصيل ـ خالد على مر الزمن، حاکما بين الأصيل والدخيل، دون أى تحريف وتجديف.

فحين يوصَّل القرآن والسنة المؤيَّدة به فى الأصول الإسلامية وفروعها، فقد تستأصل کافة

---

[1]. ١١: ١١٠.

[2]. ٥١: ١٠.

[3]. المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي.

[4]. المصدر.

الخلافات، ولا سيما إذا كان «أمرهم شورى بينهم» بين الرعيل الأعلى من الأمة الإسلامية، والمفروض على كلّ منا رفض الإختلاف قدر الإمكانية، محاولة بكل حول وقوة للحصول على الحق المُرام، ثم الحاصل عليه، عليه توجيه الآخرين لينسلكوا فى سلك الحق، والمحور الأصيل هو الحصول على الحق لنفسک، ومن ثم للآخرين، إذا فوزر الإختلاف عن الدين وفى الدين، ليس فقط على عواتق المتخلفين، بل وكذلک على العارفين الحق، الذين لا يحاولون التوحيد على الحق بدعوة الآخرين، وتوجيههم إلى الحق المبين.

أجل، وإن اللّه لم يخلقنا لنختلف، بل خلقنا لنأتلف على ضوء فطرة اللّه وشرعة اللّه، بعقلية سليمة، حيث العقل الإنسانى طائر قدسى يطير بجناحى الفطرة والشرعة الربانية، إذ الشرعة تتبنى الفطرة كما العقل يتبناها، بفارق أن العقل آخذة منها ومفكرة فى مغزاها وأحكامها ومرماها، والشرعة مبنية أخطاء العقل فى أخذها، شارحة لتفاصيل غير مبينة فيها.

فهذه زوايا ثلاث من هندسة الرسالة الربانية أنفسية وآفاقية، هى متجاوبة مع بعضها البعض، بفارق أن الأنفسيتين مستفيدتان من رسالة الوحى ومن سائر الآيات الآفاقية.

ثم «وتمت كلمة ربک لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين» وهو مِلىء الورود، فريق للمكوث فى هذا الورود وبئس الوِرد المورود، وفريق للنجاة بعد رؤية سجن الخاطئين، ونعم الوِرد المورود ف «إن منكم إلاّ واردها كان على ربک حتما مقضيا. ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جِثيا»[1] فالباقون فيها كثير والناجون عنها قليل: «ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئک كالأنعام بل هم أضل أولئک هم الغافلون».[2]

ذلک، وقد يعنى «أجمعين» هنا فيما سبقت من كلمة ربک التى ألقاها إلى إبليس إذ: «قال فبعزتک لأغوينهم أجمعين. إلاّ عبادک منهم المخلَصين. قال فالحق والحق أقول. لأملأن

---

[1]. ١٩: ٧٢.

[2]. ٧: ١٧٩.

جهنم منک وممن تبعک منهم أجمعين»[1]

وحصيلة البحث الأصيلة حول الآية كما يلى:

١ ـ كون الناس أمة واحدة فى تكوين العقيدة المسيَّرة حقة أو باطلة هو من المستحيل فى حكمة اللّه البالغة.

٢ ـ الإختلاف فى الدين مرفوض على أية حال، وهو الإختلاف المقصِّر، ولأن آيات اللّه بينات هى للتدليل على الذين الحق، فالمختلفون عنه أو فيه هم المقصرون، والموحدون فيه هم أهل الرحمة الربانية.

٣ ـ سائر الإختلافات التى هى طبيعة الحال فى الطاقات والمعطَيات ليست كأصل مقصرةً إلاّ إذا أوجبت إختلافا فى الدين، فعلى المكلفين أن يوحدوا عقيدة الدين رغم سائر الإختلافات التى هى خِلقية قضيةَ الحكمة: «ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سُخريّا ورحمة ربک خير مما يجمعون»[2] فعليهم ان يتحروا عن رحمة ربک وهى الهداية الوحِّدة الموحَّدة رغم درجاتهم فى معطيات.

٤ ـ إنهم «لا يزالون مختلفين» فى الدين «إلاّ من رحم ربک ولذلک» الوحدة والرحمة «خلقهم» فقد خلقهم ليعبدوه فى رحمة الوحدة، فالعبادة رحمة، والإختلاف فيها رحمة، ثم الوحدة فيها رحمة فوق رحمة، فالعبادة الوحَّدة هى الغاية القصوى لخلق الخلق أجمعين.

ذلک وبالتالى عرض لمقاطع من خطب الإمام أمير المؤمنين عليه‌السلام حول ضرورة الوحدة الإيمانية على ضوء دين اللّه:

«وإنما أنتم إخوان على دين اللّه، ما فرق بينكم إلا خبث السرائر وسوء الضمائر، فلا تَوازرون ولاتَنا صحون ولا تَباذلون ولا توادون.. وما يمنع أحدكم أن يستقبل أخاه بما يخاف من عيبه إلاّ خوفة أن يستقبله بمثله»[3]

---

[1]. ٣٨: ٨٥.

[2]. ٤٣: ٣٢.

[3]. الخطبة ١١١.

«وألزموا السواد الأعظم فإن يد اللّه على الجماعة، وإياكم والفرقة فإن الشاذَّ من الناس للشيطان، كما أن الشاذ من الغنم للذئب».[1]

«وألزموا ما عقد عليه حبل الجماعة وبُنيت عليه أركان الطاعة».[2]

«فإياكم والتلوُّن فى دين اللّه، فإن جماعة فيما تكرهون من الحق خير من فرقة فيما تحبون من الباطل، وإن اللّه لم يعط أحدا بفرقة خيرا، ممن مضى ولا ممن بقى».[3]

ذلک، ويجمع جامع الوحدة الإسلامية قول الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله: «المسلمون يتكافىء دمائهم ويسعى بذمتهم أدناهم ويرد عليه أقصاهم وهم يد على من سواهم».[4]

فقد شبه صلى‌الله‌عليه‌وآله المسلمين فى التضافر والتوازر والإجتماع والترامذ باليد الواحدة التى لا تخالف بعضها بعضا فى البسط والقبض، والرفع والخفض، والإبرام والنقض، ومن ناحية أخرى تعنى اليد هنا القوة القاهرة، وهى من قضايا ذلک التضافر، وقال صلى‌الله‌عليه‌وآله: «عليكم بالجماعة فإن يد اللّه على الفسطاط»[5] واليد هنا هى الحفظ والرعاية الخاصة الراصة.

ذلک، فالإختلاف المقصر محظور والإختلاف القاصر غير محظور، فالمختلفون فى الفتيا لاختلافهم عن محور الكتاب والسنة هم المقصرون وقد يندد بهم أمير المؤمنين عليه‌السلام بقوله: «ترد على أحدهم القضية فى حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه، ثم ترد تلک القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه، ثم يجتمع القضاة بذلک عند الإمام الذى استقضاهم فيصوِّب آراءهم جميعا، وإلههم واحد ونبيهم واحد وكتابهم واحد، أفأمرهم اللّه تعالى بالإختلاف فأطاعوه، أم نهاهم عنه فعصَوه، أم أنزل اللّه سبحانه دينا ناقصا فاستعان بهم على إتمامه، أم كانوا شركاءَ له فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى، أم أنزل اللّه سبحانه دينا تاما فقصّر الرسول

---

[1]. الخطبة ١٢٥.

[2]. الخطبة ١٤٩.

[3]. الخطبة ١٧٤.

[4]. في تفسير القمي عن ابي الجارود عن أبي جعفر عليهما‌السلام في الآية يعني أهل الرحمة لا يختلفون في الدين.

[5]. في المعاني باسناده عن أبي بصير قال سألت أبا عبدالله عليه‌السلام عن قول الله عزَّ وجلَّ: «ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون»؟ قال: «خلقهم ليأمرهم بالعبادة» قال: وسألته عن قوله عزَّ وجلَّ: «ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم» قال: خلقهم..

صلى‌الله‌عليه‌وآله عن تبليغه وأداءِه، واللّه سبحانه يقول: ما فرطنا فى الكتاب من شىءٍ، وقال: فيه تبيان كل شىءٍ، وذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضا وأنه لا إختلاف فيه، فقال سبحانه: «ولو كان من عند غير اللّه لوجدوا فيه إختلافا كثيرا»وإن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه، ولا تنقضى غرائبه، ولا تكشف الظلمات إلاّ به».[1]

«أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواءُهم، كلامكم يوهى الصُم الصِّلاب، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء.. ما عزت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم، أغاليل بأضاليل، دفاعَ ذى الدَين المَطول، لا يمنع الضَّيمَ الذليلُ، ولا يُدرك الحق إلاّ بالجد.. المغرور واللّه من غرّرتموه، ومن فاز بكم فقد فاز واللّه بالسهم الأخيب، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل..».[2]

«فانظروا كيف كانوا حيث كانت الأملاء مجتمعة، والأهواء مؤتلفة، والقلوب معتدلة، والأيدى مترادفة، والسيوف متناصرة، والبصائر نافذة، والعزائم واحدة، ألم يكونوا أربابا فى أقطار الأرضين، وملوكا على رقاب العالمين، فانظروا إلى ما صاروا إليه فى آخر آمورهم حين وقعت الفُرقة، وتشتَّت الألفة، واختلفت الكلمة والأفئِدة، وتشعَّبوا مختلفين وتفرقوا متحازبين..» «فإن اللّه سبحانه قد أمتن على جماعة هذه الأمة فيما عقد بينهم من حبل هذه الألفة التى ينتقلون فى ظلها، ويأوون إلى كنفها، بنعمة لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة، لأنها أرجح من كل ثمن، وأجل من كل خطر».[3]

«وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِى هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ».[4]

«وكلاً» مما مضى ويأتى من أنباء «نقص عليك» قصّا تاريخيا صالحا «من أنباءِ الرسل»: هى

---

[1]. الخطبة ١٨.

[2]. الخطبة ٢٩.

[3]. الخطبة ١٩٠.

[4]. ١١: ١٢٠.

أخبارهم ذات الفوائد العظيمة الجسيمة.

كما تقتضيه الحكمة الربانية الخاصة لتبنِّى رسالتک «ما نثبِّت به فؤادک» على ما أمرت به ومن تاب معک من الإستقامة.

فلقد كان صلی‌الله‌علیه‌وآله يجد من قومه، ومن إنحرافات النفوس وأعباء الدعوة بين مختلف الخرافات المعرَّقة فى هذه النفوس، كان يجد ما يحتاج إلى تسلية ربانية بقصّ أنباء الرسل، ليحتاج ما قد يخلد بخلده المنير من تعب أمام هذه العراقيل، أم يأس عن تأثير الدعوة الصالحة، مع أنه هو الصابر الثابت المستمر الصامد، ولكنه على كلّ حال عبد من عباد اللّه، يحتاج إلى تسليات اللّه، تثبتا له فى تبكيت أعداء اللّه، تثبيتا بأنباء الرسل، وتثبيتا هو الأصل له بتنزيل القرآن عليه طول حياته الرسولية نجوما متتالية: «وقال الذين كفروا لولا نزِّل عليه القرآن جملة واحدة كذلک لنثبت به فؤادک ورتلناه ترتيلاً».[1]

ذلک، ومن قبلُ أمرهُ صلی‌الله‌علیه‌وآله بتحضير نفسه المقدسة لهبوط ذلک القول الثقيل الثقيل حيث يُثقله ويثبته فى دعوته: «يا أيها المزمل. قم الليل إلاّ قليلاً. نصفه أو أنقص منه قليلاً. أو زد عليه ورتِّل القرآن ترتيلاً. إنّا سنلقى عليک قولاً ثقيلاً. إنَّ ناشئة الليل هى أشد وطئا وأقوم قيلاً. إنَّ لک فى النهار سبحا طويلاً».[2]

ثم «وجاءک فى هذه» القصص «الحقُّ» و«فى» «هذه» الآيات القرآنية، و«هذه» الشرعة الأخيرة و«هذه» الحياة الدنيا، «جاءک الحق» كله، ما لم يجىء لسائر الرسل، فأنت ـ إذا ـ على الحق كله، ثم وهو «موعظة وذكرى للمؤمنين» بهذه الرسالة السامية، تعظهم بما سلف للسالفين، وتذكِّرهم ما يحق لهم من الحق من رب العالمين.

ذلک، وإذا تكملت العُدات القيمة بعِدّاتها فيک وفى الذين تابوا معک، فلا ضعف ولا فشل ولا فتور، فلا خوف ـ إذا ـ من الذين كفروا بكل ما يعملون ضدک على مكانتهم وما يأملون، وهنا الكلمة الفاصلة، والمفاصلة الحاسمة الجاسمة والقاصمة لظهورهم أولئک

---

[1]. ٢٥: ٣٢.

[2]. ٧٣: ١ ـ ٧.

الأعداء الألداء:

«وَقُلْ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ».[1]

«قل» كما قال أخ لک من قبل وهو شعيب: «ويا قوم إعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب»[2] «وقل للذين لا يؤمنون» وهم «الذين سواء عليهم أءنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون»[3] قل «لكم دينكم ولى دين» فقد تمت المفاصلة بينى وبينكم بعد تكملة الحجج كلها: «اعملوا على مكانتكم...» فقد يؤمَر رسول الهدى صلى‌الله‌عليه‌وآله بعدما ينفض يديه من تبليغ رسالته كأبلغ ما يكون، يؤمر بإعلان هذه المفاصلة بكل تهديد، قطعا للخصام ولكل وِئام أمام هؤلاء الخصام اللئام.

أجل، فعلى ضوء العُدّات الإيمانية وعِدّاتها، رسولية ورسالية، استقامة فى الداعية والدعوة، وعدم الطغيان فيهما والإنحراف عن جادتهما الجادَّة، وعدم الركون إلى الذين ظلموا فى هذه السفرة الطويلة الشاقة، وإقام الصلاة زادا لراحلة السفرة، والصبر على كل نائبة آئبة، والمحاولة التامة لتجميع جميع القوات للوحدة الإيمانية التى هى رحمة مضاعفة، وتذكرا لأنباء الرسل فى دعواتهم.

بهذه البركات السبع تسكر كل دركات جحيم العرقلات الكافرة المتربصة كل دوائر السوء بالكتلة المؤمنة، وبعد تكملة هذه السبع يحق لقبيل الإيمان أن يقول لقبيل الكفر فى الطول التاريخى والعرض الجغرافى: «اعملوا على مكانتكم إنا عاملون» وأين عمل إيمانى جبار من عمل كافر غدار «وانتظروا» العاقبة هنا وفى الأخرى «إنا منتظرون» العاقبة فيهما.

ذلک، ومن موارد الإنتظار فى الأولى بعد كافة التغلبات الإيمانية على الجبهة الكافرة هو إنتظار الدولة المهدوية العالمية التى أخبرت بها الأمم بأسرها مليين وسواهم، وكما هو مذكور فى كتاباتهم، وقد سجلناها فى كتابنا «رسول الإسلام فى الكتب السماوية».

---

[1]. ١١: ١٢٢.

[2]. ١١: ٩٣.

[3]. ٢: ٦.

﴿وَلِلّه غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.[1]

«وللّه» دون سواه «غيب السماوات والأرض» «وإليه» لا سواه «يرجع الأمر كله» دون إبقاء، إذا «فاعبده» لا سواه «وتوكل عليه» دون سواه «وما ربک» الذى رباک بهذه التربية القمة العالية «بغافل عما تعملون» أنت والمؤمنون معک فى بلاغ الرسالة وتطبيقها، ثم وهؤلاء الكفار الذين يؤمنون أو لا يؤمنون: ﴿ولا تحسبن اللّه غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار. مهطعين مقنعى رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وافئدتهم هواء﴾.[2]

وبذلک الدور الختامى للسورة وهو عرض للدور الختامى للرسالة يطيب قلب الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله ويثبت بغيب السماوات والأرض للّه ورجوع الأمر كله إلى اللّه، إذا «فاعبده» بكل جوانب العبودية ولا تفشل «وتوكل عليه» فى مزالق الدعوة إذ «وما ربک بغافل عما تعملون».

وهكذا يلتقى جمال التنسيق بكماله الفنى لفظيا ومعنويا فى البدء والختام ﴿ولو كان من عند غير اللّه لوجدوا فيه إختلافا كثيرا﴾.

ذلک ومن «الموعظة القاصعة الناصعة ما يعظم به إمام الواعظين على أمير المؤمنين عليه‌السلام من قوله: «أيها اليَقِن الكبير الذى قد لهزه القتير! كيف أنت إذا إلتحمت أطواق النار! بعظام الأعناق، ونشبت الجوامع حتى أكلت لحوم السواعد، فاللّه اللّه يا معشر العباد وأنتم سالمون فى الصحة قبل السقم، وفى الفُسحة قبل الضيق، فاسعوا فى فَكاک رقابكم من قبل أن تُغلق رهائنها، أسهروا عيونكم، وأضمروا بطونكم، واستعملوا أقدامكم، وأنفقوا أموالكم، وخذوا من أجسادكم، فجو دوابها على أنفسكم، ولا تبخلوا بها عنها فقد قال اللّه سبحانه: ﴿إن تنصروا اللّه ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ وقال تعالى: ﴿من ذا الذى يُقرض اللّه قرضا حسنا فيُضاعفَه له وله أجر كريم﴾ فلم يستنصركم من ذلّ، ولم يستقرضكم مِن قِلّ، إستنصركم وله جنود

---

[1]. ١١: ١٢٣.

[2]. ١٤: ٤٣.

السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم، واستقرضكم وله خزائن السماوات والأرض وهو الغنى الحميد، وإنما أراد أن يبلوكم أيكم أحسن عملاً، فبادِروا بأعمالكم تكونوا مع جيران اللّه فى داره، وافَقَ بهم رسلَه، وأراهم ملائكته، وأكرم أسماعكم أن تسمع حسيس نار أبدا، وصان أجسادكم أن تلقى لُغوبا ونَصَبا «ذلک فضل اللّه يؤتيه من يشاء واللّه ذو الفضل العظيم»«أقول ما تسمعون واللّه المستعان على نفسى وأنفسكم وهو حسبنا ونعم الوكيل».[1]

ومن قوله فى وصيۀ له خاصۀ للحسن عليهماالسلام اختصارا فيما يلى:

«ومن الوالد الفان، المقرّ للزمان، المدبر العمر، المستسلم للدهر، الذام للدنيا، الساكن مساكن الموتى، الظاعن عنها غدا، إلى المولود المؤمِّل ما لا يُدرک، السالک سبيل من قد هلک، غَرَضِ الأسقام، ورهينۀ الأيام، ورميَّۀ المصائب، وعبد الدنيا وتاجر الغرور، وغريم المنايا، وأسير الموت، وحليف الهموم، وقرين الأحزان، ونَصْب الآفات، وصريع الشهوات، وخليفۀ الأموات ـ

أما بعد، فإن فيما تبيَّنتُ من إدبار الدنيا عنى، وجُموح الدهر على، وإقبال الآخرۀ لى، ما يَزَعُنيعن ذكر مَن سواى، والإهتمام بما ورائى، غيرُ أنى حيث تفرَّد بى ـ دون هموم الناس ـ همٌّ نفسى، فصدَّقنى رأيى، وصرفنى عن هواى، وصرَّح لى محضُ أمرى، فأفضى بى إلى جِدٍّ لا يكون فيه لَعِب، وصدقٍ لا يشويه كَذِب، وجدتک بعضى، بل وجدتک كُلى، حتى كأنَّ شيئا لو أصابک أصابنى، وكأنَّ الموت لو أتاک آتانى، فعنانى من أمرک ما يعنينى من أمر نفسى، فكتبت إليک كتابى مستظهرا به إن أنا بقيت لک أو فنيت

فإنى أوصيک بتقوى اللّه أى بُنىَّ، ولزوم أمره، وعمارۀ قلبک بذكره، والإعتصام بحبله، وأى سببٍ أوثق من سبب بينک وبين اللّه إن أنت أخذتَ به ـ

أحى قلبک بالموعظۀ، وأمِتْه بالزَّهادۀ، وقوِّه باليقين، ونوِّره بالحكمۀ، وذلّله بذكر الموت، وقرِّره بالفَناء، وبصِّره فجائع الدنيا، وحذِّره صولۀ الدهر، وفُحش تقلب الليالى والأيام، .. فأصلح مثواک، ولا تبع آخرتک بدنياک، ودع القول فيما لا تعرف، والخطاب فيما لم تكلَّف،

[1]. الخطبة ۱۸۲.

وأمسک عن طريق إذا خفت ضلالته، فإن الكف عند حيرة الضلال خيرٌ من ركوب الأهوال، وأمر بالمعروف تكن من أهله، وأنكر المنكر بيدک ولسانک، وباين من فعله بجُهدک، وجاهد فی اللّه حق جهاده، ولا تأخذک فی اللّه لومة لائم، وخض الغمرات للحق حيث كان، وتفقَّه فی الدين، وعوِّد نفسک التصبُّر على المكروه، ونعم الخُلُق التصبُّر فی الحق... ورأيت.. أن أبتدئَک بتعليم كتاب اللّه وتأويله، وشرايع الإسلام وأحكامه، وحلاله وحرامه، ولا أجاوز ذلک بک إلی غيره.. وليس طالب الدين من خَبْط أو خَلْط.. وما أكثر ما تجهل من الأمر ويتحير فيه رأيک، ويضل فيه بصرک ثم تُبصره بعد ذلک، فاعتصم بالذی خلقک، ورزقک وسواک، فليكن له تعبدک وإليه رغبتک ومنه شفقتک... إجعل نفسک ميزانا فيما بينک وبين غيرک، فأحبَّ لغيرک ما تحب لنفسک، وإكره له ما تَكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن لا تُظلم، وأحسِن كما تحب أن يُحسن إليک، واستقبح من نفسک ما تستقبح من غيرک، وإرض من الناس ما ترضاه لهم من نفسک، ولا تقل ما لا تعلم وإن قل ما تعلم، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لک ـ

وإعلم أن الإعجاب ضدُّ الصواب، وآفة الألباب، فاسع فی كدحک، ولا تكن خازنا لغيرک، وإذا أنت هُديت لقصدک فكن أخشع ما تكون لربک ـ

وإعلم أن الذی بيده خزائن السماوات والأرض قد أذن لک فی الدعاء، وتكفل لک بالإجابة.. ولم يجعل بينک وبينه من تحجبه عنک، ولم يلجئک إلی من يشفع لک إليه.. ثم جعل فی يديک مفاتيح خزائنه، بما أذن لک من مسألته، فمتى شئت إستفتحت بالدعاء أبواب نعمته، واستمطرت شأبيب رحمته، فلا يَقنُطک إبطاءُ إجابته، فإن العطية على قدر النية، وربما أخِّرت عنک الإجابة ليكون ذلک أعظم لأجر السائل، وأجزَل لعطاء الآمل، وربما سألت الشیءَ فلا تؤتاه، وأوتيت خيرا منه عاجلاً أو آجلاً، أو صُرِف عنک لما هو خير لک، فلرُب أمرٍ قد طلبته فيه هلاک دينک لو أوتيته، فلتكن مسألتک فيما يبقى لک جماله، ويفنى عنک وَبالُه، فالمال لا يبقى لک ولا تبقى له ـ

.. لا تتخذن عدو صديقک صديقا فتعادی صديقک، وامحض أخاک النصيحة حسنة كانت أو قبيحة، وتجرَّع الغيظ فإنی لم أرَ جُرعة أحلى منها عاقبة ولا ألذَّ مغبةً، ولِن لمن غالظک فإنه

يوشک أن يلين لک، وخذ على عدوِّک بالفضلِ فإنه أحلى الظفرين، وإن أردت قطعية أخيک فاستبق له من نفسک بقيةً يرجع إليها إن بدا له ذلک يوما مَّا، ومن ظن بک خيرا فصدِّق ظنه، ولا تضيّعن حق أخيک إتكالاً على ما بينک وبينه فإنه ليس لک بـأخ مـن أضـعت حقـه، ولا يکن أهلک أشقى الخلق بک، ولا ترغبنَّ فيمن زهد عنک، ولا يكونن أخوک على مقاطعتـک أقوى منک على صلته، ولا يكونن على الإساءة أقوى منک على الإحسان، ولا يکبرن عليـک ظلم من ظلمک، فإنه يسعى فى مضرته ونفعک، وليس جزاء من سرَّک أن تسوءه ـ

والصديق من صدق غيبُه، والهوى شريک العَمى، ورب بعيد أقرب من قريب، وقريـبٍ أبعـد من بعيد، والغريب من لم يکن له حبيب، من تعدى الحق ضاق مذهبُـه، ومـن اقتصـر علـى قدره کان أبقى له، وأوثق سببٍ أخذت به سببٌ بينک وبين اللّه، ومن لم يبالک فهو عدوک.. آخِّر الشر فإنک إذا شئت تعجلته، وقطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل.. سل عـن الرفيـق قبـل الطريق، وعن الجار قبل الدار ـ

... ولا تملّک المرأة من أمرها ما جاز نفسَها، فإن المرأة ريحانـة وليسـت بقهرمانـة، ولا تعـدُ بکرامتها نفسَها، ولا تُطمعها فى أن تشفع بغيرها، .. وأكرم عشيرتک فإنهم جناحک الـذى بـه تطير، وأصلک الذى إليه تصير، ويدک التى بها تصول ـ

أستودعک اللّه دينک ودنياک، وأسأله خير القضا لک فى العاجلة والآجلـة، والـدنيا والآخـرة والسلام».[1]

المَلکية الصالحة نعمة ربانية

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِىٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكـا نُقَاتِـلْ فِـى سَبِيلِ اللّه قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِـلَ فِـى سَـبِيلِ اللّه وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِـيلاً مِـنْهُمْ وَاللّـه عَلِـيمٌ

---

[1]. الوصية ٣١.

بِالظَّالِمِينَ». [1]

الملأُ جماعة مجتمعة على رأى، تملأ العيون رواءً ومنظرا، والنفـوس بهائـا وجـلالاً ومَعبـرا، ولأن التعاون والإمداد هما قضية الوحدة فى رأيهم فقد يأتى المـلأ بمعنـى المعاونـة وطـول المدة، سواء أكان ملأ الحق، أم ملأ الباطل ك «أملى لهم ان كيدى متين» وهـو إطالـة المـدة ابتلاء بطول العصيان، وأعلى الملاءِ هم الملأُ الأعلى فى كل خير للملإ «لا يَسَّمَّعون إلى الملإ الأعلى ويُقذفون من كل جانب». [2]

وهذه الآية نظيرة عريقة تستجر حصالاتها كتجربات لهذه الأمة الأخيـرة، يـؤمر بهـا رسـولها وكأنه ينظر الى واقع الحادثة وحاضرها: «الم تر الى الملإ من بنى إسرائيل..».

ولأن القصد هنا ـ كأصل ـ هو اصل الحادثة، دون اى فصل له او وصل، لا يؤتى هنـا بـذكر لإسم الملاء، اكتفاءً بسمته بوصمته، لكى تُتحذر فلا تهدر هذه الأمة فى فرض القتال.

ذلک! ف «اسمعوا ما أتلوا عليكم من كتاب اللّه المنزل على نبيه المرسل لتتعظوا فإنـه واللّـه عظةٌ لكم فانتفعوا بمواعظ اللّه وانزجروا عن معاصى اللّه، فقد وعظكم بغيركم فقال لنبيه: «ألم تر...» ايها الناس إن لكم فى هذه الآيات عبرةً لتعلموا ان اللّه جعل الخلافة والأمـر مـن بعـد الأنبياء فى أعقابكم، وأنه فضل طالوت وقدمه على الجماعة باصطفائه إياه وزاده بسـطة فـى العلم والجسم فهل يجدون اللّه اصطفى بنى أمية على بنى هاشم وزاد معاوية علىَّ بسطة فـى العلم والجسم»؟. [3]

هنا ـ وبعد أن أجملت القصة عن إسم النبى المسئول هنا وسمة الملإ السـائل ـ لـيس علينـا ولا لنا أن نفتش عن هذا وذلك، وحيث القصد هنا أصل القصـة دون اصـحابها، مهمـا كـان الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله الخاطَب هنا يعرف السائل والمسئول.

وحين القصة يشهد أن ذلك الملأ انما لجأوا إلى التماس مَلِک يقاتلون بقيادته فى سبيل اللّـه

---

[1]. ٢: ٢٤٦.

[2]. ٣٧: ٨.

[3]. نور الثقلين ١: ٢٤٤ في كتاب الاحتجاج للطبرسي من كلام امير المؤمنين عليه‌السلام: اسمعوا...

بما الجأهم إحراجهم فإخراجهم من ديارهم وأبناءهم، وأن الُمحرِج الخرِج هو «طالوت» وقد فعل بهم وافتعل ما ألجأهم إلى أن يستيقظوا من نومتهم، ومن وهدتهم إلى وحدتهم، استتبابا لأمرهم الإمر، فقد إجتمع أهل الرأى فيهم إلى نبى لهم من بعد موسى ـ أيا كان ذلک النبى ـ وقد كانت لهم وفرة غزيرة من النبيين والمرسلين قد تقتضى عدم ذكرهم بأسمائهم إلاّ العظماء منهم كداود وسليمان وأضرابهما، ولأن التسمية لا تزيد إيحاءً لأصل القصة والقصد منها.

وعلى الجملة اجتمعوا إلى نبى لهم متسائلين «إبعث لنا ملِكا نقاتل فى سبيل اللّه».

وتراهم كيف يسألونه أن يبعث لهم ملِكا، دون أن يقودهم هو بنفسه للقتال فى سبيل اللّه؟ والقيادات الروحية الرسالية هى بنفسها قيادات زمنية دون فاصل فى شرعة اللّه بين القيادتين!.

فهل «كانت النبوة فى بنى إسرائيل فى بيت والمُلک والسلطان فى بيت آخر لم يجمع اللّه لهم النبوة والملک فى بيت واحد»؟[1] وقد جُمعا فى داود وسليمان، بل وموسى عليهم‌السلام وأضرابهم ممن قادوا القتال فى سبيل اللّه، مهما نجد ملكا كذى القرنين ليس نبيا!.

أم إنهم إستعظموا موقفه الرسالى ومكانته أن يقودهم بنفسه القتال وهو رأس الزاوية فى القيادتين، فطلبوا منه أن يبعث لهم ملِكا ينوب عنه فى قيادة القتال، دون سائر الأبعاد فى القيادة الزمنية فضلاً عن الروحية؟.

وقد قاد القتال فى سبيل اللّه مَن هم اكبر منه كداود وسليمان من الأولين، والرسول الأعظم صلى‌الله‌عليه‌وآله وصنوه على عليه‌السلام من الآخرين.

أم إنه كان ـ كما هو الضابطة ـ جامع القيادتين إلاّ القتال التى تقتضى بسطة فى الجسم كبسطة العلم، فلم يكن بتلك القوة الجسيمة التى تناسب قيادة الجيش؟.

أم وكان مبسوط الجسم ايضا الى بسط العلم ولكن الظرف آنذاک كانت قضيتُه أن يبعث النبى ملكا من عنده بإذن اللّه، دون ان يقود هو الحرب بنفسه وكما اشار الإمام على عليه‌السلام الخليفة عمر فى حرب المسلمين مع الفرس ألا يخرج بنفسه قضيةَ الحفاظ على قاعدة

---

[1]. نور الثقلين ١: ٢٤٥ ـ القمي وروى انه ارميا النبي فسلط الله عليهم جالوت وهو من القبط فأذلهم وقتل رجالهم وأخرجهم من ديارهم واموالهم واستعبد نساءهم ففزعوا الى نبيهم وقالوا: سل الله ان يبعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله وكانت النبوة...

القيادة الزمنية، فان غَلَب جيشُ الإسلام قيل هذه هى فعلة القيادة الجانبية فضلاً عن الأصيلة، وان غُلبوا قيل لأن القائد لم يكن هو الأصيل، فمصلحة الحفاظ على سيادة القيادة كانت تقتضى آنذاک ألا يخرج الخليفة بنفسه إلى هذه الحرب الضارية الداهية الخطرة.

وقد يعنى «ملكا» هنا قائدا للجيش «وكان الملک فى ذلک هو الذى يسير بالجنود والنبى يقيم له أمره وينبئه الخبر من ربه».[1]

ف «الملک» لا تعنى ـ ككل ـ رأس الزاوية فى أية سلطة مهما كان هو الملک الأصل المعبر عنه بملک الملوک، فقد يملک المَلِک كلتا القيادتين: الروحية والزمنية، وأخرى إحداهما دون الأخرى، وثالثة يملک قسما من روحية او زمنية، وقائد الحرب هو مَلِک لقسم الحرب من القيادة الزمنية على ضوء الروحية، وقد يؤيده او يدل عليه «ملكا نقاتل» دون «ملكا» بصورة طليقة تملّكه كل القيادة.

وعلى أية حال فليست الآية تدل على ان الفصل بين القيادتين شرعة ربانية، بل الأصل هو الجمع بينهما، أو أن تكون القيادة الزمنية على ضوء القيادة الروحية وكما تطلّب الملأ من بنى اسرائيل نبيهم أن يبعث هو ملكا يقاتلون تحت رايته فى سبيل اللّه، دون ان ينتخبوه بشورى بينهم، ثم ونبيهم هذا لم يبعث قائد الحرب من عند نفسه وإنما سأل فأجابه ف «قال إن اللّه بعث لكم طالوت ملكا..» واذا لا يحق لنبى أن يبعث هو بنفسه وخيرته قائدَ الحرب، فكيف يحق للشورى ـ وهى ادنى من النبى ـ ان تنتخب خليفة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله الحامل للقيادتين بصورة طليقة، اللهم إلا شورى صالحة زمن الغيبة من النخبة الصالحة، لانتخاب شورى القيادة الروحية والزمنية.

ولا بد لهذه الشورى ـ كما بينا فى آية الشورى ـ ان تجمع الرعيل الأعلى من الروحيين والساسة المسلمين فى كل جنبات القيادتين، حتى تحلّق هذه الشورى على كافة الحاجيات القيادية للمسلمين.

---

[1]. بحار الأنوار ١٣: ٤٤٩ عن ابي عبدالله عليه‌السلام في الآية قال: وكان الملك... فلما قالوا ذلك لنبيهم قال لهم: إنه ليس عندكم وفاء ولا صدق ولا رغبة في الجهاد، فقالوا: إن كتب الله الجهاد فإذا أخرجنا من ديارنا وابناءنا فلا بد لنا من الجهاد ونطيع ربنا في جهاد عدونا...

إذا فلا مَلِک یحق له المُلک على ملاءٍ إلاّ انتصابا من نبی اللّه، ولا یحـق لـه ای انتصـاب إلا بوحی من اللّه، ومن ثم انتخابٌ له کما للقائد الروحی زمن غیاب الوحی والعصمة ممن لهـم خُبرة بالقیَم القیادیة فی شرعة اللّه، فان «أمرهم شورى بینهم» تجعل الإمرة ـ وهی أهم الأمـور ـ مما لا تصح إلا بالشورى الصالحة کما فصِّلت على ضوء آیة الشورى.

وهنا لما یتقاضى الملأ نبیا لهم، لا یجاوبهم من فورهم فی سؤالهم إلاّ بعـد ان یسـتوثق مـن صدق عزیمتهم تصمیما قاطعا على النهوض بالتبعة الثقیلة، منددا بناقضی العهد منهم:

«قال هل عسیتم إن کتب علیکم القتال ألاّ تقاتلوا...»[1]

فالآن أنتم فی سعة من ترک القتال ما لم یبعث لکم مَلک فیُفرض علیکم القتال تحت إمرتـه، وهذا یلمح بان فرض القتال او رجاحتها مربوط بحاضر شروطها ومن أهمهـا قائـد الحـرب، حیث یبدل «ان بعث اللّه لکم ملکا» ب «ان فرض علیکم القتال» ممـا یؤکـد ان القتـال لـزام القیادة الصالحة.

وهذه کلمة لابقة لائقة بنبی، تأکدا لعزم وحزم من ملإه حتى تحل فریضة اللّه محلهـا اللائـق، دونما إجابة سؤال فارغ عن تصمیم.

هنا ـ وعند هذه التوبیخة الصارمة، والإستیثاقة، ترتفع درجة فورتهم وحماستهم من فـورتهم، استئصالاً لهامة أسباب التجافی عن فرض اللّه:

«قالوا وما لنا ألاّ نقاتل فی سبیل اللّه وقد أخرجنا من دیارنا وأموالنا..»؟!

فقد تکون القتال مجردة عن مصلحة حاضرة ملموسـة، فعنـده التثاقـل عنهـا، ولکننـا «وقـد أخرجنا من دیارنا وأبنائنا» ننتظر ـ بکل عُجالة وانتظـار ـ أمـر القتـال تحـت قیـادة صـالحة للإنتصار، فان أعداءنا هم أعداء اللّه، وأعداء اللّه هم أعداءنا، فلنشمِّر عن کـل ذیـل لقتـالهم فی سبیل اللّه، وسبیل صالحنا المرضی للّه.

ذلک! ولکن هذه الحماسة الثائرة الفائرة فی ساعة الرخاء ـ رغم ظاهرها الجاد ـ لم تدم:

«فلما کتب علیهم القتال تولّوا إلا قلیلاً منهم واللّه علیمٌ بالظّالمین».[1]

---

[1]. ۲: ۲۴۶.

وهنا تبرز السمة الوصمة الاسرائيلية الدنية فى نقض العهد مهما كـان ميثاقـه لصـالحهم فـى انفسهم وابناءهم! تفلُّتا عن الطاعة والمطاوَعة، ونكوصا عن التكليف، سـمة علـى القيـادة ان يتحذرها، لكيلا تقع فى فخها تحسُّبا لواثق الوعد، الصارم لفظيا، العارم عمليا.

فهذه البشرية الشريرة الناقضة للعهود بهذه العجالة، حيث لم تخلص من الأوشاب، ولم تطهـر من عقابيل، هذه! يجب ان تتحذر فى القيادات الصالحة «واللّه عليم بالظـالمين». ان نبـيهم ـ حيث تطلّب سُؤالهم من اللّه ـ بعد أن اخذ موثقهم من اللّه ـ قال لهم:

«وقال لهم نبيُّهم إنَّ اللّه قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنّى يكون له الملک علينا ونحن أحقُّ بالملک منه ولم يؤت سعةً من المال قال إنَّ اللّـه اصـطفاه علـيكم وزاده بسـطةً فـى العلـم والجسم واللّه يؤتى ملكه من يشاء واللّه واسعٌ عليم».[2]

وهنا يبرز اول لجاج فى حجاج حول الملک طالوت، وقد بعثه اللّه بما ابتعثه منه ذلک النبـى وهم أولاء الذين سألوه ان يبعث لهم ملكا.

حجاجٌ لهم بقولة فارغة «أنى يكون له المُلک علينا» تكذيبا للرسول أم تجهيلاً للّه فـى ذلـک الإبتعاث، مفضلين أنفسهم ككلٍّ عليه: من فقراء وأغنياء، وعقلاء وأغبياء! ومن ثـم محتجـين بانه «لم يؤت سعة من المال» وفيهم من أوتى سعة من المـال، فكيـف يملـک فاقـد المـال أصحاب الأموال؟.

وعلّهم قدموا انفسهم اولاً: «ونحن احق» لأنهم من بنى اسرائيل وطالوت من القبط؟ او «كانت النبوة فى ولد لاوى والمُلک فى ولد يوسف وكان طالوت من ولد بن يـامين اخـى يوسـف لأمه، لم يكن من بيت النبوة ولا من بين المملكة»؟[3] أم ايّا كان ف «نحن أحق بالملک منه».

ومن ثم «لم يؤت سعة من المال» اوسع منا حتى يبرر التغاضى عن الأحقيـة الوراثيـة، وكـل ذلک غبش فى خاطئة التصورات، حصرا للأحقية فى ميزان اللّه فيما هم فيـه يحصـرون مـن

---

[1]. ٢: ٢٤٦.

[2]. ٢: ٢٤٧.

[3]. نور الثقلين ١: ٢٤٥ من حديث القمي المفصل حول القصة.

وراثة او مال، ولا صِلة لأحدهما بحق القيادة الحربية، وهنا الجواب الحاسم، الذى يحمل أسس الإصطفاء للملک فى حقل القتال:

«قال إنَّ اللّه اصطفاه عليكم وزاده بسطةً فى العلم والجسم».

فالبسطة فى العلم يفسح له مجال القتال الناجحة فى كل أبعادها وشؤونها، فكم من وسيع المال وهو يجهل شؤون القتال، لا تفيد قيادته إلا زيادة فى السقوط، ولو صرف كثير المال فى سلاح الحرب، ولكنه ماذا يفيد السِلاح ما لم يكن للقائد صَلاح لشؤون الحرب.

ثم البسطة فى الجسم يفسح له مجال التقدم فى الهجوم، وأن يكون فى مقدم الجيش، مما يستجيش كامل القوات الحربية للمحاربين، ويستأصل كل حزم وعزم عن المعاندين، فكم من بسيط العلم والمال قد يخسر القتال لِهُزاله فلا يقدم الجيش، أم إذا تقدم فهو بنفسه قد يسبب الإنهزام.

فالبسطة فى العلم فى حقل القتال هو رأس الزاوية حيطة وخبرة بشؤون الحرب وتكتيكاتها الناجحة، والبسطة فى الجسم زاوية ثانية هى تطبيق للأولى.

مَلک داود ولأنه قتل جالوت

«فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللّه وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّه الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّه النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّه ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ».[1]

هزيمة عظيمة قليلة النظير لهؤلاء الكفار كما كانت لقريش فى بدر من البشير النذير، والعَدد، والعُدد نفس العُدد، فقد «قتل داود جالوت»[2] ولم يكن يخلد بخلَد أحد أن هذا الشاب

---

[1]. ٢: ٢٥١.

[2]. البحار ١٣: ٤٥١ عن تفسير العياشي عن محمد الحلبي عن ابي عبداللّه عليه‌السلام قال: كان داود واخوة له اربعة ومعهم ابوهم شيخ كبير وتخلف داود عليه‌السلام في غنم لأبيه ففصل طالوت بالجنود فدعا ابو داود داود وهو أصغرهم فقال: يا بنى اذهب إلى اخوتك بهذا الذي قد صنعناه لهم يتقوون به على عدوهم وكان رجلاً قصيرا ازرق قليل الشعر طاهر القلب فخرج وقد تقارب القوم بعضهم من بعض.

وفيه عن ابي بصير قال سمعته يقول: فمرّ داود على الحجر فقال الحجر يا داود خذني فأقتل بي جالوت فإني إنما خلقت لقتله فأخذه فوضعه في مخلاته التي تكون فيه حجارته التي كان يرمي بها عن غنمه بمقذافه، فلما دخل العسكر سمعهم يتعظمون أمر جالوت فقال لهم داود: ما تعظمون من امرأه فواللّه لئن عاينته فتحدثوا بخبره حتى أدخل على طالوت فقال: يا فتى! وما عندك من القوة؟ وما

القصير الصغير يقتل جالوت الكبير الكبير، وكما قتل الامام على عليه‌السلام عمـروا فـى الأحـزاب، فاعتبروا يا اولى الألباب.

وهنا حكمة حكيمة ثانية فى تغلب داود على جالوت هى أن قدَّر اللّه أن يتسلم هـو المُلـك بعد طالوت فيكون عهدا ذهبيا لبنى اسرائيل فى تـاريخهم الطويـل الطويـل، جـزاءَ انتفاضـة العقيدة فى هذه المرة اليتيمة فى نفوسهم بعد ضلال طويل وانتكاس وبيل.

ولقد جمعت فيه القيادتان، الزمنية والدينية، بعد ما كانتا مفترقتين عن بعض، وورثـه سـليمان فيهما وبصورة أقوى: «وآتاه اللّه الملك والحكمة وعلمه مما يشاء» يشاءه هو ويشاء اللّه كمـا يصلح ويكفى للقيادتين.

وهكذا يدفع ناس بعضهم ببعض بحكم التشريع والتكوين، ان يدفع النسناس بالنـاس بفضـل إله الناس على العالمين، دفعا عن فساد قاحل فى أرض الحياة الإنسانية، ولسوف يـدفع اللّـه بالمهدى عليه‌السلام وأصحابه كل فساد فى الأرض فتصبح كما الجنة كما وعد اللّه.

ومن دفع اللّه الناس بعضهم ببعض الدفع عن المسىء بالمحسن حفاظا عن عاجـل العـذاب، فالمؤمن مدفوع به عن سواه بدفاع وبذاتية الإيمان وكلاهما مرتكنان على الإيمان.

وقد يروى عن رسول الهدى صلى‌الله‌عليه‌وآله قوله: «ان اللّه ليدفع بالمسلم الصالح عن مأة اهل بيـت من جيرانه البلاء»[1] وقوله صلى‌الله‌عليه‌وآله: «لولا عباد ركَّع وصبيان رُضَّع وبهائم رُتَّـع لصـب علـيكم

جربت على نفسك؟ قال: كان الأسد يعدو على الشاة من غنمي فأدركه فأخذ برأسه فأفك لحيته عنها فأخذها من فيه، قال فقال: ادع لي بدرع سابغة، قال: فأتي بدرع فقذفها في عنقه فتملأ منها حتى راع طالوت ومن حضره من بنى اسرائيل فقال طالوت: واللّٰه لعسى اللّٰه أن يقتله به، فلما أن أصبحوا ورجعوا إلى طالوت والتقى الناس قال داود عليه‌السلام أروني جالوت فلما رآه أخذ الحجر فجعله في مقذافه فصك بين عينيه فدمغه ونكس عن دابته وقال الناس: قتل داود جالوت، وملكه الناس حتى لم يكن يُسمع لطالوت ذكر واجتمعت بنو اسرائيل على داود وأنزل اللّٰه عليه الزبور وعلّمه صنعة الحديد فلينه له وامر الجبال والطير يسجن معه قال: ولم يعط أحدٌ مثل صوته، فأقام داود في بني اسرائيل مستخفيا وأعطي قوة في عبادته.

وفي الدر المنثور ١: ٣٢٠ ـ أخرج ابن جرير وابن عدي عن ابن عمر قال قال رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله: .. ثم اقرأ ابن عمر الآية وفيه اخرج ابن جرير عن جابر بن عبداللّٰه قال قال رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله: ان اللّٰه ليصلح بصلاح الرجل المسلم ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ولا يزالون في حفظ اللّٰه ما دام فيهم، وفيه اخرج ابن جرير عن ابي مسلم سمعت عليا عليه‌السلام يقول: لولا بقية من المسلمين فيكم لهلكتم.

[1]. في نور الثقلين ١: ٢٥٣ في أصول الكافي متصلاً عن أبي عبداللّٰه عليه‌السلام قال: إن اللّٰه ليدفع بمن يصلي من شيعتنا عمن لا يصلي من شيعتنا ولو اجتمعوا على ترك الصلاة لهلكوا، وان اللّٰه ليدفع بمن يزكي من شيعتنا عمن لا يزكي ولو اجتمعوا على ترك الزكوة لهلكوا، وان اللّٰه ليدفع بمن يحج من شيعتنا عمن لا يحج ولو اجتمعوا على ترك الحج لهلكوا وهو قول اللّٰه عز وجل «ولولا دفع اللّٰه الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن اللّٰه ذو فضل على العالمين» فواللّٰه ما، نزلت إلا فيكم ولا عنى بها غيركم.

أقول «كم» هنا هم كل الصالحين على طول خط الرسالات. المتمثل في تأويل الامام عليه‌السلام بالشيعة الصالحة فإنهم أفضل مصاديقهم.

وفي الدر المنثور ١: ٣٢٠ ـ أخرج ابن جرير وابن عدي عن ابن عمر قال قال رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله:... ثم قرأ ابن عمر الآية وفيه

العذاب صبا»[1] ذلكم المسلم، فبأحرى الأبدال وهم فطاحل المؤمنين الأفضال، وعلى حد المروى عن إمام الأبدال.[2]

محاجة ملكية ابراهيمية مع نمرود

آيات ثلاث تحمل هامة العقيدة، لا سيما سر الموت والحياة، والتعريف باللّه الذى يملكهما دون سواه، تعريفا فى حجاج قامع، وبيان للواقع، فلها صلة بأية الكرسى المقررة لصفات ربانية هى الأصل فى الإماتة والإحياء، كسائر الأفعال الربانية الخاصة باللّه لا سواه.

فالآية الأولى تعرض حوارا بين ابراهيم والذى حاجه فى ربه، طيا عن ذكر اسمه ادراج الرياح، تصغيرا لكيانه، ولأن اسمه لا يزيد فى شكلية الحوار وحصيلتها والعبرة بها، فلندرس

أخرج ابن جرير عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: ان الله ليصلح بصلاح الرجل المسلم ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ولا يزالون في حفظ الله ما دام فيهم، وفيه أخرج ابن جرير عن أبي مسلم سمعت عليا عليه‌السلام يقول: لولا بقية من المسلمين فيكم لهلكتم.

[1]. المصدر، أخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن عن أنس قال قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله لن تخلو الأرض من أربعين رجلاً مثل خليل الرحمن فبهم تسقون وبهم تنصرون، ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر.
وفيه أخرج الطبراني في الكبير عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: الأبدال في أمتي ثلاثون بهم تقوم الأرض وبهم تمطرون وبهم تنصرون، وفيه أخرج الخلال عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله لا يزال أربعون رجلاً يحفظ الله بهم الأرض كلما مات رجل أبدل الله مكانه آخر فهم في الأرض كلها.

[2]. المصدر، أخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن عن أنس قال قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله لن تخلو الأرض من اربعين رجلاً مثل خليل الرحمن فبهم تسقون وبهم تنصرون ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر.
وفيه أخرج الطبراني في الكبير عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: الأبدال في أمتي ثلاثون بهم تقوم الأرض وبهم تُمطرون وبهم تنصرون، وفيه اخرج الخلال عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله لا يزال اربعون رجلاً يحفظ الله بهم الأرض كلما مات رجل أبدل الله مكانه آخر فهم في الأرض كلها.
وفيه أخرج الطبراني عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: لا يزال اربعون رجلاً من امتي قلوبهم على قلب إبراهيم عليه‌السلام يدفع الله بهم عن أهل الأرض يقال لهم الأبدال انهم لن يدركوها بصلاة ولا بصوم ولا بصدقة، قالوا يا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله فبم ادركوها؟ قال: بالسنحاء والنصيحة للمسلمين، وفيه أخرج ابو نعيم في الحلية وابن عساكر عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: ان لله عز وجل في الخلق ثلاثمأة قلوبهم على قلب آدم عليه‌السلام ولله في الخلق اربعون قلوبهم على قلب موسى عليه‌السلام ولله في الخلق سبعة قلوبهم على قلب ابراهيم، ولله في الخلق خمسة قلوبهم على قلب جبرئيل عليه‌السلام ولله في الخلق ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل عليه‌السلام ولله في الخلق واحد قلبه على قلب إسرافيل عليه‌السلام فإذا مات الواحد أبدل الله مكانه من الثلاثة واذا مات من الثلاثة ابدل الله مكانه من الخمسة وإذا مات من الخمسة ابدل الله مكانه من السبعة واذا مات من السبعة ابدل الله مكانه من الاربعين واذا مات من الاربعين ابدل الله مكانه من الثلاثمأة واذا مات من الثلاثمأة ابدل الله مكانه من العامة، فبهم يحيي ويميت ويمطر وينبت ويدفع البلاء، قيل لعبد الله بن مسعود كيف بهم يحيي ويميت؟ قال: لأنهم يسألون الله إكثار الأمم فيكثرون ويدعون على الجبابرة فيقصمون ويستسقون فيسقون ويسألون فينبت لهم الأرض ويدعون فيدفع بهم أنواع البلاء.
وفيه اخرج ابو داود والحاكم وصححه عن ابي هريرة عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: ان الله يبعث لهذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها، وفيه عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله ان الله يقيض في رأس كل مائة سنة من يعلم الناس السنن وينفي عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله الكذب.
وفيه اخرج احمد والحكيم الترمذى وابن عساكر عن علي عليه‌السلام سمعت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله يقول: الأبدال بالشام وهم اربعون رجلاً كلما مات رجل ابدل الله مكانه رجلاً يسقي بهم الغيث وينتصر بهم على الأعداء ويصرف عن اهل الشام بهم العذاب.

ذلک الحجاج اللجاج من الذى حاج بکل نبراتها، تذرعا الى قوة الحجاج الإبراهيمية لحد «فبهت الذى کفر»!.

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّه الْمُلْکَ...»[1]

«ألم تر» يا رسول الهدى! ام وياکل من رأى تلک الحجاج فى تاريخ الرسالات! استنکارا بتشنيع وتقظيع على الذى حاج، وتعجيبا عجيبا لمن يرى او يسمع ذلک الحجاج، وحمق اللجاج من ناحية، وعمق الحجاج من أخرى.

«الذى حاج ابراهيم فى ربه»: رب ابراهيم کما هو الحق المعترف هو به، ورب الذى حاجه کما هو الواقع المنکور لديه، فانه رب العالمين، مصدقين له او ناکرين، إذا فضمير الغائب راجع إليهما على البدل، وما أجمله جمعا کما هو داب القرآن الفنى الخاص فى تأدية المعانى الواسعة، ولماذا «حاج ابراهيم فى ربه»؟: «أن آتاه اللّه المُلک»! وتراه هو مُلک ابراهيم الذى آتاه اللّه روحيا وکما آتى بعض ولده وآله زمنيا، ام روحيا وزمنيا وکما يقول: «فقد آتينا آل ابراهيم الکتاب والحکمة وآتيناهم ملکا عظيما»[2] تأويلاً لآل ابراهيم بابراهيم وآله و«ملکا عظيما» يجمع کلتا القيادتين: الروحية والزمنية، مهما انفرد البعض منهم بإحداهما، حيث جُمعتا لآخرين کداود وسليمان ويوسف ومحمد صلى‌الله‌عليه‌وآله وأخيرا القائم المهدى من آله عليهم‌السلام.

ولقد سبقت آيةَ الملک هذه آيةُ الملک الروحى الرسالى المحمدى: «أم لهم نصيب من الملک فإذا لا يؤتون الناس نقيرا. ام يحسدون الناس على ما آتاهم اللّه من فضله فقد آتينا...».

مما يمحور الملک الروحى، فليس الملک الزمنى إلا على هاشمه وتحت إشرافه، وليس الملک المتخلف عن القيادة الروحية إلا سلطة مغتَصبة إبليسية.

ومما يرجح هنا ملک ابراهيم ادبيا هو اقربيته مرجعا من الذى حاجه.

ذلک! ولکن ل «ان آتاه اللّه الملک» لا تمت بصلة کسبب لمحاجته ابراهيم، إذ کان ناکرا

---

[1]. ٢: ٢٥٨.

[2]. ٤: ٥٤.

اللّه، فضلاً عن ملک آتاه اللّه ابراهیم کقیادة روحیة، ولم تکن زمنیة ملموسة مصدقة!.
وقد یوجه ذلک الملک هنا بما نجاه اللّه من نار نمرود: «قلنا یا نار کونی بردا وسلاما علی ابراهیم. وارادوا به کیدا فجعلناهم الأخسرین. ونجیناه ولوطا الی الأرض التی بارکنا فیها للعالمین... وجعلناهم ائمة یهدون بامرنا...»[1] وکما یروی ان الحجاج کان بعد القاءه فی النار.[2]
فتلک النجاة، الخارقة لکل العادات، الحارقة لنمرود وزمرته، إنها طرف طریف من ذلک الملک الروحی، الذی لا یوجد فی ای ملک زمنی منفصل عن الوحی، ولا سیما منعزل عن حق الملک کنمرود.
فقد تمیز نمرود غیضا، فتحیز فرصة أخری بحجاجة اللجاج، تعمیة لتلک الخارقة الکبری، وتدجیلاً علیه مرة أخری فحاجه فی ربه، وفی النهایة «فبهت الذی کفر» مرة أخری بعد الأولی، فلا السلطة الزمنیة النمرودیة قدرت علی إحراقه، ولا حجاجه اللجاج، سیطرت علی دمغه وإحراجه، فنجاه اللّه سلیما فی کلتا المرحلتین، ثم هم اولاء الانکاد الاوغاد «فجعلناهم الاخسرین»!.
وقد تعنی «ان آتاه اللّه الملک» «الذی حاج ابراهیم فی ربه» وقد یقربه ادبیا انه هنا محور الکلام، ف «أن اتاه» تعلل حجاجه بما آتاه اللّه، مهما کان أبعد مرجعا.
ثم القیادة الروحیة لا تسمی مُلکا مهما کانت هی حق المُلک وحقیقته، حیث المُلک ظاهر فی واقع السلطة الملموسة، والسلطة الروحیة علی واقعها لیست ملموسة، بل وهی دوما تعیش تحت ضغوط السلطات الظالمة الزمنیة.
ولکن کیف «آتاه اللّه الملک» ولا یؤتی مُلک اللّه إلا من یحق له ویستحقه؟.
إن ایتاء الملک هنا تکوینی ولیس تشریعیا وبینهما عموم من وجه: تکوینی لا تشریعی کما هنا، بمعنی انه لا یمنعه اللّه عن الملک مهما منعه تشریعا حیث الدار دار الإختیار.
ثم تشریعی لا یوافقه التکوین کالقیادات الروحیة فی المعصومین، ائمة ونبیین، الذین صدّ

---

[1]. ۲۱: ۷۳.

[2]. عن المجمع واختلف في وقت هذه المحاجة قيل: بعد القائه في النار وجعلها عليه بردا وسلاما عن الصادق عليه‌السلام.

بینهم وبین سلطاتهم الزمنیهٔ، الشیطنات المدروسهٔ من اصحاب السلطات الزمنیهٔ.

ثم الجمع بینهما کالذین ذکرناهم من ذی قبل، فداود علیه‌السلام ومن أشبهه جُمع له القیادتان.

ثم تکوینی یوافق التشریع ولکنه لیست قیادهٔ رسالیهٔ، کمثل طالوت الذی آتاه اللّه الملک دون نبوهٔ، فان قضیهٔ توحید الافعال أن للّه تعالی دخلاً فی کل خیر او شر دون اجبار، ومنها المُلک: «قل اللهم مالک الملک تؤتی الملک من تشاء وتنزع الملک ممن تشاء وتعز وتذل من تشاء بیدک الخیر إنک علی کل شیء قدیر».[1]

فإتیان الملک لمن یحق له نبیا وسواه اعتلاءٌ، واتیانه لمن لا یستحقه ابتلاء، وکل من الاعتلاء والابتلاء بملکٍ وسواه انما هو من اللّه لا سواه، دون استقلال لأحد فی مُلکٍ وسواه.

ثم هنا «أن آتاه اللّه الملک» تعلیل بما یناحر ذلک الحجاج اللجاج، فبدیلاً عن أن یشکر ربه ان آتاه اللّه الملک، أخذته زهوهٔ الملک وعزته فأخذ یجادل فی اللّه: «واذا تولی سعی فی الارض لیفسد فیها ویهلک الحرث والنسل واللّه لا یحب الفساد. وإذا قیل له اتق اللّه اخذته العزهٔ بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد».[2]

والجمع بین المحتملین اجمل واجمع، حیث القرآن حمال ذو وجوه فاحملوا الی احسن الوجوه، وهو هنا وسواه مما أشبه، الجمع بین المعانی التی یحتملها ادب اللفظ وحدب المعنی!.

«إذ قال إبراهیم ربِّی الّذی یحیی ویمیت».

أتری ـ وذلک بازغهٔ الحجاج من ابراهیم ـ فاین البدایهٔ من الذی حاجه؟ إنها ـ لسخافتها کاسمه ـ أدرج درج الریاح، وقد یلوح من «قال ابراهیم...» ان نمرود ادعی الربوبیهٔ لنفسه ثم قال له: ومن ربک أنت لأری أینا أقوی وأحری بالربوبیهٔ، فعرَّف ابراهیم ربه بأهم اختصاصات الربوبیهٔ: «ربی الذی یحیی ویمیت»: إحیاءً لکل المیتات التی تحق الحیاهٔ، وإماتهٔ للأحیاء التی تحق الممات، نباتیهٔ وحیوانیهٔ وانسانیهٔ وملائکیهٔ أماهیه.

---

[1] . ٣: ٢٦.

[2] . ٢: ٢٠٦.

فالإحياء والإماتة هما الظاهرتان المكرورتان أمامنا على طول الخط، المعروضتان للإحساس والعقل دونما وقفة، وهما فى نفس الوقت من الأسرار المحيرة للعقول فى كل الحقول، لا يتمكن العاقل ومَن دونه أن يسندهما إلاّ الى الخالق المتعالى عن عجز المخلوقين.

اننا لا نعرف شيئا عن حقيقة الحياة والموت على الاطلاق حتى الآن، اللهم الا مظاهر لهما، فنُلزم ـ إذا ـ ان ننهى مصدرهما الى قوة ليست من جنس القوى المحكومة بالموت والحياة وهو اللّه الحى الذى لا يموت.

ولماذا هنا «يحيى» قبل «ويميت» وفى كثير سواها «يميت ويحيى»؟ لأن هذه فى مقام إثبات الحياة بعد الموت، ونمرود ناكر اصل المحيى والمميت فضلاً عن اليوم الآخر، إذا فلا يناسبه إلا «يحيى ويميت» الذى هو ملموس لكل أحدٍ.

ثم ومن هؤلاء الذى أحياهم اللّه هو نمرود نفسه، وتراه يرى نفسه أحياها بنفسه؟ وكذلك سائر الأحياء، فلا مجال له ان يدعى لنفسه الإحياء، ولكنه اخذ يلوى قصة الإحياء والإماتة بتوسعة من النماردة وسواهم ـ:

«قال أنا أحيى وأميت».

ويكأنه هو المحيى والمميت ككل، اذ لم يعطف قوله بقول إبراهيم اشراكا لنفسه باللّه فى الإحياء والإماتة، بل «انا..» دون «وانا..».

فحتى وان عطف نفسه باللّه فى ذلک لم يكن إحياءه وإماتته فعلة ربانية، فان كل احد له سلطة مَّا على آحاد بإمكانه ذلک الإحياء والإماتة، ان يقتل غير المحكوم عليه بالقتل، ثم يبقى المحكوم عليه به كما فعله نمرود، وقد يروى انه قال له ابراهيم: أحى من قتلته إن كنت صادقا.[1]

ذلک! فضلاً عن ان يكون له ـ فقط ـ كل إحياء وإماتة بكل صورهما، فمن هو المحيى له نفسه ـ إذا ـ إلا اللّه، ثم ومن هو المحيى والمميت حقا ـ ككل ـ إلا اللّه، وما مثاله إلا تقديما لما يقدر عليه كثير أمثاله ودونه بكثير.

---

[1]. عن المجمع وقد روي عن الصادق عليه‌السلام...

وهنا لم يكن من الصالح الرسالى فى ذلك الظرف الهرج والمرج من السلطة النمرودية، الحاجبة للعقول والحلوم، ان يسترسل فى جدل حول المعنى من الحياة والموت، والقصد من الإحياء والاماتة، مع غبى قوى يمارى ويداور فى تلك الحقيقة الهائلة.

ولكيلا يأخذ نقضه الناقص الجاهل القاحل مأخذَه من أوهام هاوية من شعبه، ممن تبهره سلطته الزمنية فيحسب باطله حقا، يتنقل من هذه الحجة المحتاجة الى تفهم، إلى حجة أخرى لا تحتاج إلى تفهم، وإنما يكفيها الحس مهما كان حيوانيا ف:

حقيقة ملموسة كونية هى بمرئَى ومعلَم ذوى الأبصار، دون ان تتخلف ولامرة يتيمة، يكفى لإدراتها حيونة الإبصار مهما كانت من انسان او حيوان، فلا مجال ـ اذا ـ للحيونة النمرودية ان تحول بينها وبين دلالتها على اللّه، ولا مجال فى أية مماراة. فقال: «فان اللّه يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر».

يوسف عليه السلام يتطلب لنفسه وزاره الاقتصاد
اصطلاحا لحاله
وبامكانه اصلاح رسالى خلاله

«وَقَالَ الْمَلِکُ ائْتُونِی بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِی فَلَمَّا کَلَّمَهُ قَالَ إِنَّکَ الْیَوْمَ لَدَیْنَا مَکِینٌ أَمِینٌ».[1]

وهكذا يتجلى الإنسان فى أكمله وأنقصه فى قصص القرآن التى لا تقص لمجرد قَصٍّ التأريخ وأداء الفن القصصى، بل «لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب» فانما تُساق لتعالج قصة العقيدة والداعية عبرةً وعظةً، فى واقعة تتناسق فيها جميع المؤثرات والمؤشرات والواقعيات فى نفوس بنى الإنسان.

هنا يصدر الأمر الملكى مرة ثانية «ائتونى به» ولكنه فى هذه المرة يستخلصه لنفسه حيث يرى إخلاصه فى عمله ودرايته وأمانته: «أستخلصه لنفسى» فلو استجابة فى الأولى لم يستخلصه إذ لم يعرفه بذلك الإخلاص والأمانة والرزانة، واستخلاص الملك هو الصدارة الثانية بعده

[1]. ١٢: ٥٤.

كرئاسة الوزراء امّا ذا من القمة الثانية.

إنه فى هذه المرة خلاف الأولى لا يطلبه ليرى تأويل الرؤىٍ، أو ليسمعه كلمة الرضا لصاحب السموّ الملكى، وليعفو عنه ويطلق سراحه، وإنما ليستخلصه لنفسه معتذرا إليه عما كان عليه ومفوضا إليه ما سيكون.

.. هنا الملك يطلب إلى من لا يتهافت على خروجه من السجن، ولا يتفاوت عنده السجن وخارج السجن، إلاّ أن يخرج قبل خروجه عن تهمة الخيانة، وإلاّ أن يخرج قبل خروجه عن تهمة الخيانة، وإلاّ فالسجن أحب اليه من عفوه دون براءَة، كما كان أحب إليه مما يدعونه إليه.

يطلب الإنسراح عن السجن ممن اخذ يفتى برؤياه لصالح المملكة، ويحكم كقائد اوّل لإصلاح الحالة الاقتصادية عند توترها وتبعثرها وتعثّرها، وهكذا يكون رجالات الحق والصدق والدعات الى اللّه، لا يخضعون للأمر الواقع المفروض عليهم أيا كان، فلا يذلون عن عزهم، ولا يترذلون أمام السلطات الباطلة المفروضة عليهم، ولا يحيدون عن موقفهم الرسالى، ولا يفرق لديهم السجن وخارجه، ولكى يبرزوا الحق كما يليق به ويحق، دون مسّ من كرامته وكراماتهم، ودون نكص على عقبيهم انتقاصا لحق الدعوة والداعية.

فيا ليت رجالاً ـ ولا رجال ـ يمرغون كل كرامة على أقدام الطغات ـ بمطلق سراحهم ـ متسابقين متهافتين على نظرة رضى وكلمة ثناء، ليتهم يعتبرون بأحسن القصص، وليعلموا أن العزة والإباء يدرُّ عليهم أضعافا من إدرار التمرغ والتزلُّف والإنحناء أمام ذوى السلطة والكبرياء «وكذلك مكّنَا ليوسف فى الأرض... ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون».[1]

.. فلما كلمه قال إنک اليوم لدينا مكين مكين، خلاف ما قبل اليوم لمّا طلب إليه للمرة الأولى «ائتونى به»! لستَ أنت اليوم الفتى العبرانى المُشرى بثمن بخس دراهم معدودة، لعبة العزيز وامراته، وإنما أنت «لدينا اليوم مكين» ذو مكانة عالية مرموقة، ولا أنت المهدَّد بالسجن أو عذاب اليم، وإنما انت «لدينا اليوم امين»، وتراه فى ملتقاه مع الملک أخذ يتملق له بقولة او

---

[1]. ١٢: ٥٧.

فعلة كما يفعله رجال الحاشية؟ كلا ولا فى شطر كلمة، فـالنص «فلمـا كلمـه» فالملـك هـو البادىء بالكلام اللهم إلا بسلام والسلام، وفى ذلك الكلام الملكى الهام: «إنـك اليـوم لـدينا مكين أمين» نرى كل مراتب العزة والإكـرام، دون ألفـاظ مرسـومة خاويـة فـى المواجهـات العادية، وإنما كلام مكين أمين، حيث الملك ليس ليهاب أحدا او يماريه حـى يجاريـه فـى كلمة خاوية المُرام.

هنا مثلث التأكيد للمكانة والأمانة، المستفاد من حـرف التأكيـد وتقـدم الظـرفين، يؤكـد لـه المكانة والأمانة الخاصة المتميزة، والسلطة الصالحة لإدارة أمور المملكة وهى بحاجة جذرية ماسة إلى تلك المكانة والأمانة، ولا سيما فى تلك الظروف الحرجـة المهرجـة، وفـى الحـق يلمح من كلامه هذا حكم صدارته العليا بعده.

«قال اجعلنى على خزائن الأرض إنّى حفيظٌ عليم».[1]

«إنى حفيظ» لشتات الأمور ومتفرقاتها لأجمع شملها، ولمجموعاتهـا عـن تمزقهـا وشـتاتها، حفيظ للمعادلة الإقتصادية فى السبعين الرخوة والشداد، حفـيظ فـى كلمـا تحتاجـه خـزائن الأرض من صالح الإنماء والمصرف، فالحفيظ على الحرمات والنواميس فـى تلـك الظـروف المحرجة، هو بأحرى حفيظ على المصالح الإقتصادية!.

«إنى حفيظ عليم» فمن حفيظ غير عليم، يحاول فى الحفظ ولكنـه لا يعلـم، فقـد يكـون مـا يفسده على جهله أكثر مما يصلحه كصُدفة، ومن عليم غير حفيظ، يعلم ويخالف علمـه إلـى جهالة، أم لا يحافظ على المصلحة الجماعية، إذ لا يلاحظ إلاّ شخصه وشخصـيته وصـالحه، ولكنى «حفيظ عليم» كركنين أساسيين لمن يجعل على خزائن الأرض.

وتراه لماذا يتطلب إلى الملك ذلك المنصب دون أن يصبر حتى ينصبه هو كما يراه؟ علّه مـا كان ليعلم أية مصلحة فى الملك هى أصلح ليجعله عليها؟ فهو ـ بعد ما يتأكد أنه لديه مكين أمين، وبطبيعة الحال يحتاجه لأمرٍ مّا لمصلحة البلد ـ فهو يدله على ما هو الأصلح فـى تلـك الظروف الصعبة الملتوية، كمواصلة صالحة لما يريده منه المَلِك، حيث الأزمة القادمة وسِـنى

[1]. ١٢: ٥٥.

الرخاء التى تسبقها، هى بأمسِّ الحاجة إلى الحفظ والصيانة على علم واسع ودراية، لذلك يختار ذلك المنصب المناسب الضرورى لحفظ البلد عن التفكك، الذى لا بديل عنه كما هو عليه‌السلام لذلك المنصب، فلا يطلب إلى المَلِك وزارة البلاط الملكى، ولا أية وزارة إلاّ وزارة الإقتصاد والتنمية والإصلاح الزراعية، التى كانت تحلّق حينذاك على كافة الوزارات، وفى الحق هى رئاسة الوزارات كلها حسب الظروف الراهنة!.

فبالرغم من أنَّ تصدى أمر الإقتصاد فى ذلك الظرف الحرج تَورُّطٌ فى مختلف الصعوبات، يختاره الصديق لنفسه، وهناك أمور أريح، ولصالحه الشخصى أصلح، لأنه حسب واجبه الرسالى كان حصينا فى اختيار اللحظة المرهقة ذات التبعة الضخمة، فيكون مسئولاً عن إطعام شعب بكامله والشعوب المجاورة، ليؤدى واجبه الرسالى عدلاً ناصعا ناصحا للجماهير، وعلّه على ضوئه يجلب أنظار المحاويج إلى شرعة اللّه.

فليس من السهل تكلُّف ذلك العبءِ الثقيل، ولأقل تقدير فى أربعة عشر سنة التى قد تكلّف فى مصطرع المراجعات والمنازعات رأس الرئيس وحياته ومصرعه، المنصب الذى يحيد عن تقبله سائر الحاشية الملكية، حيث ترجِّح الأريحية وحياة الترف والرعونة.

أفبعد ذلك كله يخلج ببال، أن كيف يزكى المصدِّيق نفسه واللّه تعالى يقول «فلا تزكوا أنفسكم» يزكى قائلاً: «إنى حفيظ عليم»؟ أم كيف يطلب إلى فرعون المشرك الظالم أن يجعله على خزائن الأرض؟ ومعونة الظالمين حتى فى عدلهم هى من المحرمات القطعية؟!.

إن أمر الصديق هنا أبعد أعماقا وأوسع آفاقا من هذه الضوابط الناظرة إلى الناس العاديين، فإنه يرتكن على ركن الرسالة والدعوة إلى اللّه، ولا بد للرسول ان يزكى نفسه بما زكّاه اللّه تعالى لتحل رسالته محلها من القلوب، وإنما التزكية المحرمة هى للنفوس غير المزكّاة، أو التى تأخذها بتزكيتها رعونات وطنطنات، دون النفوس المطمئنة باللّه التى زكاها اللّه بما رحمها «إن النفس لامارة بالسوء إلاّ ما رحم ربى» أوَ ليست النفس المرحومة باللّه مزكاة!.

ولان زكاة النفس من نعمة الرب فلا بد لصاحبها أن يحدث بها «وأما بنعمة ربك فحدث» لا سيما فى مقامات الضرورة لإظهار الحق والدعوة إليه وتطبيقه، دون التظاهر بالحق وأنت

مبطل أو معجب: «ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل اللّه يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلاً»[1] «فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى».[2] وقد زكى اللّه نفس الصديق وهو أعلم به وهو يريد مكانته وتمكُّنه فى الأرض: «وكذلک مكّنا ليوسف فى الأرض...».[3]

ومن ثم ليس طلبه إلى المَلِک أن يجعله على خزائن الارض إلاّ ليعدل حسب الشرعة الالهية فيمن لا يقرون بحق اللّه وشرعته، وإزالة الظلم ثم تقليله من المفروض على عواتق الدعاة إلى اللّه! وليجد ظرفا صالحا للدعوة الرسالية وذلک من أهم الظروف الواسعة والمجالات الفاسحة.

ثم الضرورات تبيح المحظورات، فحتى لو كانت قيادة خزائن الأرض والرئاسة عليها فى الملكية الفرعونية محظورة للصديق، لكانت أقل المحظورين حيث الضرورة الرسالية تفرضها.

وقد قبل الإمام الرضا عليه‌السلام ولاية عهد المأمون لنفس الضرورة وأحرى، فلما يُسأل: يا بن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله إن الناس يقولون: إنک قبلت ولاية العهد مع إظهارک الزهد فى الدنيا؟ يقول عليه‌السلام: قد علم اللّه كراهتى لذلک فلما خُيِّرت بين قبول ذلک وبين القتل اخترت القبول، ويحهم أما علموا أن يوسف عليه‌السلام كان نبيا ورسولاً فلما دفعته الضرورة إلى تولى خزائن الأرض قال: «إجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم» ودفعتنى الضرروة إلى قبول ذلک على إكراه وإجبار بعد الإشراف على الهلاک، على أنى ما دخلت فى هذا الأمر إلاّ دخول خارج منه فإلى اللّه المشتكى وهو المستعان[4] واين ضرورة من ضرورة، والحكمة

---

[1]. ٤: ٤٩.

[2]. ٥٢: ٣٢.

[3]. نور الثقلين في تفسير العياشي وقال سليمان قال سفيان قلت لابي عبدالله عليه‌السلام ما يجوز ان يزكي الرجل نفسه؟ قال: نعم اذا اضطر إليه اما سمعت قول يوسف «اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم» وقول العبد الصالح: «وانا لكم ناصح امين».

[4]. نور الثقلين ٣: ٤٣٢ ج ٩٩ في عيون الأخبار باسناده عن الريان بن الصلت الهروي قال: دخلت على علي بن موسى الرضا عليه‌السلام فقلت له يا بن رسول الله ان الناس يقولون... وفيه حجاج اخرى له مما شاةً ومجارات عن عيون الاخبار باسناده عن الحسن بن موسى قال: روى اصحابنا عن الرضا عليه‌السلام انه قال له رجل: اصلحك الله كيف صرت الى ما صرت اليه من المأمون ـ وكأنه انكر ذلك عليه ـ فقال له ابو الحسن الرضا عليه‌السلام يا هذا ايهما افضل النبي او الوصي؟ فقال: لا بل النبي، قال: فايهما افضل مسلم او مشرك؟ قال لا بل مسلم، قال: فان العزيز عزيز مصر كان مشركا وكان يوسف عليه‌السلام نبيا وان المأمون مسلم، وانا وصي،

فيهما والحكم واحدة على اختلاف الدرجة.

والامام ابو عبداللّه الصادق عليه‌السلام يقول لأقوام يظهرون الزهد ويدعون الناس ان يكونوا معهم على مثل الذى هم عليه من التقشف: أين أنتم عن سليمان بن داود عليه‌السلام ثم يوسف النبى عليه‌السلام حيث قال لملك مصر «اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفظ عليم» فكان من أمره الذى كان أن اختار مملكة المَلِكَ وما حولها إلى اليمن، وكانوا يمتارون الطعام من عنده لمجاعة أصابتهم وكان يقول الحق ويعمل له فلم نجد أحداً عاب ذلك عليه![1]

وفى الحق إنما الحكم للّه ومن يمثِّل حكم اللّه من رسله وأوليائه، والحاكمون على الشعوب دونهم كلهم طغات، ومن المفروض على من له أهلية الحكم تكريس الطاقات فى كافة الحَلَقات لإزالة هذه السلطات وتأسيس الحكم الحق قدَر المستطاع، أم ـ ولأقل تقدير ـ التقليل من ظلمهم فى سلطاتهم، فإزالة السلطة الظالمة المغتصِبة وتقليلها هما مفروضان دوما على عواتق المؤمنين باللّه وبرسالاته.

فمن يندِّد بمثل يوسف الصديق والإمام الرضا عليهماالسلام كفقيه ينقد ائمة الفقه ورسله، إنه فى الحق ليس له فقه بطبيعة الفقه ورسالته الجماهيرية، وفقه الإسلام الناصع هو فقه الحركات والبركات، محلقا على كل فقه وفقيه، ومطبِّقا شِرعة اللّه فى سياسته الجماهيرية والسلطة الشرعية والزمنية، دون فكاك له عن السياسة، وهؤلاء الذين يفصلون الدين عن السياسة فى الحق لم يعرفوا الدين ولا السياسة، وبهذه الجهالة فسحوا كافة المجالات القيادية الزمنية لرجالات السياسة غير الديِّنين، ورجال الدين هم فى الوقت نفسه وعاظ السلاطين، والفقهاء الذين يحصرون الشرعة الإلهية فى مدارس وأوراق وحلقات الدروس وفى المساجد وحفلات الوعظ والتعزية، التى هى تحت هذه السلطات السياسية الجهنمية.

إن الفقه الإسلامى لم يُنشأ ليُنشىء أمة فى فراغ، ويعيش ويعيِّش فى فراغ، لا تتمثل فيه عناصر المواقف الخاصة بأجوائها، والبيآت والملابسات التى ينشأ فيها، منعزلاً عن السياسات

ويوسف سأل العزيز ان يوليه حين قال: «اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم» وأنا اجبرت على ذلك، وقال عليه‌السلام في قوله: «اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم» قال: حافظ لما في يدي عليم بكل لسان.

[1]. المصدر الكافي القمي باسناده عن مسعدة بن صدقة عن ابي عبداللّه عليه‌السلام حديث طويل يقول فيه لا قوام...

والملابسات والأحكام الزمنية، مدروسا فى فراغ مثالى لا يمثل فى المجتمع حتى نفسه.

لقد جاء الإسلام بشرعة كاملة الجهات ليحكم بها العرض الجغرافى فى الطول التاريخى، أفبالامكان تطبيق هذه الشريعة بلا قيادات زمنية تتجمع فيها كافة الصلاحيات للحكم على الشعوب؟!.

وكذلک كل شرعة الهية فى كافة الرسالات، فلم يكن ليوسف الصديق ـ بعد تمشيه فى هذه الطريق الملتوية الشاقة الطويلة ـ لم يكن له أن يبقى مكتوف اليدين عن أية عملية إصلاحية، والجو الملكى يستقبله ويستدعيه: «وقال الملک ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال انک اليوم لدينا مكين امين» وحين يصل أمره إلى ذلک المكانة والتمكين، عليه كواجب رسالى أن يرشد الملک إلى الأصلح للشعب من المناصب المطروحة لديه ويقول: «اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم»![1]

ولئن سُئلنا كيف بالإمكان تطبيق النظام الإلهى فى التراكيب العضوية الجاهلية واللاّدينية، فلا تحرک الشرعة الإلهية فى ذلک التركيب العضوى العارم إلاّ ضدها، واللا تتحرک فى فراغ، فلنصبر لإصلاح التركيب العضوى حتى يصلح الحكم على أساسه ولا يكون ذلک إلا فى زمن المهدى القائم من آل محمد صلىاللهعليهوآله!.

فالجواب أن الناس على دين ملوكهم، فالسلطة هى التى تصنع أعضاءها وتراكيبها الصالحة مهما طال الزمن، ومهما ظلت بعض الأعضاء فاسدة، فما يدرک كله لا يُترک كله! وإذا كان الإصلاح الرسالى قائما على أساس التركيب العضوى الصالح، وذلک الصلاح ليس إلا على ضوء الرسالات الإلهية، فهو الدور المصرح المستحيل، بل والرسالات التى تحمل أعباء الاصلاحات لا تحلّ إلاّ فى مجتمع فاسد هو بحاجة إلى إصلاح، وحملة الرسالات هم الذين يصنعون التركيب العضوى الذى هو من أسس الحكم، ثم يحكمون بحكم أوسع، كما صنعه الرسول صلىاللهعليهوآله بادى بدء فى العهد المكى، ثم فى العهد المدنى أنشأ دولة الإسلام بذلک التركيب الذى أنشأه من ذى قبل ووسَّعه فى المدينة.

---

[1]. نور الثقلين في تفسير العياشي وقال سليمان قال سفيان قلت لأبي عبدالله عليهالسلام ما يجوز ان يزكي الرجل نفسه؟ قال: نعم اذا اضطر اليه اما سمعت قول يوسف «اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم» وقول العبد الصالح: «وانا لكم ناصح امين».

والصديق يرى الجو يومذاك صالحا لإصلاحٍ مّا حيث الحاجة إليه فى الإصلاح الإقتصادى ذريعة تفرض عليه كونه على خزائن الأرض، ليمتلك بها قلوب أهل الأرض، فيحكم بشرعة اللّه فى الأرض.

«وكذلك مكّنّا ليوسف فى الأرض يتبوَّء منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين * ولأجر الآخرة خيرٌ للذّين آمنوا وكانوا يتّقون».[1]

«وكذلك» الذى فعله يوسف فى رحلته الشاقة الطويلة، منذ البئر حتى البلاط الملكى مستخلَصا للملك، «وكذلك» الذى فعلنا بيوسف من تعليم الأحاديث وأنباء الغيب الرسالية، وإرائته برهاننا وصرف السوء عنه والفحشاء.

«وكذلك» الذى فعله اخوته والعزيز وامراته ونسوة فى المدينة، والذى ظن أنه ناج والمَلِك. وحتى «كذلك» المكانة التى حصّلنا له فى الجو الفرعونى، بهذه المعدات المثلثة المقدرة المقررة من قبلنا.

«كذلك مكنا ليوسف فى الارض..» مكانة مكينة، وإمكانية متينة، حيث يُجعل على خزائن الأرض فيصبح عزيزا لحد يتوارى فى ظله العزيز، فلا نسمعه حتى نهاية القصص إلاّ له، دون الذى اشتراه من مصر حيث يخاطبه إخوته: «يا ايها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا..»[2] ـ «يا ايها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة..»[3]

أترى العزيز الأول مات او قتل او عزل فاحتل الصديق مكانته؟ لا فحسب بل وتوارى المَلِك ايضا إلاّ مرة،: «ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلاّ أن يشاء اللّه..».

أجل إن مكانة يوسف وإمكانيته فى الأرض جعلته هو العزيز فى كل المملكة لحد توارى كل عزيز من ملك فضلاً عن العزيز!.

أترى تلك المكانة المرموقة ليوسف كانت من اللّه؟ فلماذا تطلّبه الصديق من المَلِك! أم

---

[1]. ١٢: ٥٦ ـ ٥٧.

[2]. ١٢: ٧٨.

[3]. ١٢: ٨٨.

كانت من الملک؟ فکيف ينسبها اللّه إلى نفسه! ولا دلالة هنا على أنه جعله على خزائن الأرض.

«کذلک مکنا» تدل أن الملک إستجابة إلى مطلوبه، وأنه کان من تمکين ربه، فالعبد يدبر وقد دبر الصديق بما قدم وما سئل، واللّه يقدِّر کما قدر تمکينه فی الأرض بما دبَّر، مما يبرهن بوضوح أن سؤاله ذلک من الملک کان بمرضات اللّه تدبيرا، فکان من مرادات اللّه تقديرا، وتوافق الأمر ان فی تمکينه فی الأرض! حيث حوّل قلبَ الملک ووجهه إلى تلک الواجهة فکان ما سأله وأراده اللّه.

نری فی طول الخط تتحول أسباب ذُله إلى عزه برحمة خفية إلهية تجلت أخر أمره،! فقد حسده إخوته فجعلوه فی غيابت الجب ليغيب عن ذلک الإکرام والحب، فاخذته السيارة ليشروه للعزيز، فأکرم اللّه مثواه فی بيت العزيز، وکادت به النسوة وامراة العزيز لإدخاله فی صغار الفجور أو «ليسجنن وليکونن من الصاغرين» فأصبح عزيزا فی السجن، يؤوِّل الروءً، وقد جعله اللّه ذريعة لتخلُّصه عن التهمة وخلاصه عن السجن، لحدّيثنى الملک تطلبُّه إليه ويستخلصه لنفسه، ويجعله على خزائن الأرض، فيتواری فی ظل عزته العزيز الذی اذله، وکل عزيز.

لقد مکن اللّه ليوسف أوّل مرة حين دخل بيت العزيز حيث قال لإمرأته «أکرمی مثواه عسی أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وکذلک مکنا ليوسف فی الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث واللّه غالب على أمره ولکن أکثر الناس لا يعلمون»[1] «ولما بلغ أشده آتيناه حکما وعلما وکذلک نجزی المحسنين»[2] وکأنه آنذاک ـ فقط ـ تمکين الخلاص عن غيابت الجب إلى أرض البلاط، والتمکين العلمی والرسالی ولمّا يَحِن حين تمکينٍ لسلطته الزمنية تطبيقا عزيزا لرسالته.

ولکنما الآن يمکِّنه بعد ذلک التمکين، فی الأرض، أرض المملکة وحواليها، لحد يتبوء منها

---

[1]. ١٢: ٣١.

[2]. ١٢: ٢٢.

حيث يشاء، دون مشية فوقية تحده فيما يشاء، إذ أصبح مطلق الإختيار فى كل أرض المملكة، كأن له السلطة العليا، ولم يكن الملك لو كان له كون ـ إذ ذاک ـ أو كيان، إلاّ صورة فاضية وسلطة خاوية ليست له إرادة دون إرادته ولا مشيئة فوق مشيئته!.

لقد تعاضدت أعضاد الدولة والملة بأسباب قاطعة وتظاهرت وتواترت لخفضه فلم يزدادوه إلاّ عزا، ولم يكن إلا ما أراده اللّه ﴿واللّه غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ وهنالک حصحص حق الآية: ﴿إن يمسسک اللّه بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردک بخير فلا رادَّ لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم﴾.[1]

أتراه لماذا «مكنا ليوسف» دون «مكناه» كما فى آخرين فى آيات أخرى؟:

إن التمكين «له» أوسع مكانة وإمكانية من تمكينه، فقد مكّن ـ بوجه عام ـ كل من فى الأرض فيها: ﴿ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش..﴾[2] وهذا من تمكين إمكانية إستعمار الأرض واستثمارها دون منع عنها وتمنُّع منها، ومن ثم مكانة فوقها تخص الماكن فيما يتوجب عليه دون إحراج أو إخراج: ﴿الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وللّه عاقبة الأمور﴾[3] وهذا التمكين على قدر الماكن من تطبيق واجبه الشخصى، وآخر جماعى لا يُحوجه إلى أكثر من تطبيقٍ مّا قل او كثر، دون حاجة إلى سلطة زمنية، وإلا لما وجبت هذه الأربع على الأمة، حال «ولتكن منكم أمة...»!.

ثم التمكين «له» نراه فى يوسف كما هنا، وفى ذى القرنين: ﴿إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا﴾[4] حال أن فيه نفسه بالنسبة لصناعة السد، غير المحتاجة الى سلطة واسعة زمنية يقول:: ﴿ما مكنى فيه خير فأعينونى بقوة﴾[5] دون «ما مكنى له».

---

[1]. ١٠: ١٠٧.

[2]. ٧: ١٠.

[3]. ٢٢: ٤١.

[4]. ١٨: ٨٤.

[5]. ١٨: ٩٥.

وفى السلطة العالمية للذين آمنوا «وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم..»[1] دون «نمكينهم فى دينهم»، كما وفى وعد الإمامة ووراثة الأرض للمستضعفين المؤمنين: «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون».[2]

وذلك التمكين لهم هو السلطة الصالحة لأنبياء إسرائيلين، كموسى وداود وسليمان ومن تبعهم بإحسان، ويوسف هذا يقدمهم فيه: «وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض»وهو يسبق هؤلاء كلهم فى ذلك التمكين المكين الأمين.

«وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوء منها حيث يشاء..» وليس فقط تبوُّء الدار المكان، بل وتبوء الإيمان ورفع أعلامه، فإن تبوُّء الدار حاصل لمن يشتريها أيّا كان، فذلك ـ إذا ـ تبوُّء وتمكن رسالة الإيمان على ضوء النبوة السلطة الزمنية، بإمكانية واسعة ومكانة شاسعة دونما تحدد أو تهدد.[3]

«نصيب برحمتنا من نشاء» لو أنه يشاء ويعمل له فيصلح لإصابة الرحمة، وهو من المحسنين «ولا نضيع أجر المحسنين» لا فى الدنيا ولا فى الآخرة «ولأجر الآخرة خيرٌ» لأنها هى دار الأجر والجزاء، وهنا دار التكليف والبلاء «للذين آمنوا» لا فحسب الإيمان كعقيدة مخبوئة فى الجنان بل «وكانوا يتقون» على طول الخط فى معارك الحياة، يتقون المحاظير فردية وجماعية، وليرفرفوا أعلام التقى، ويخفضوا منارات الطُغى، ومن «رحمتنا» هنا هى جماعٌ من المكانتين الروحية والزمنية كما حصل ليوسف وأضرابه، وليس كل المحسنين ليُصابوها، وليس حرمان المحرومين عنها ضياعا لأجرهم، فلهم أجرهم فى الآخرة عيانا وبيانا، وأجرهم فى الدنيا وبدون سلطة زمنية هو النصرة الإلهية فى غَلَبَ البرهان، والتصبُّر على كل حرمان

---

[1]. ٢٤: ٥٥.

[2]. ٢٨: ٦.

[3]. في الإصحاح ٤١ من تكوين التورات تباعا لما سلف ما يلخص كالتالي: «ان فرعون استحسن كلام يوسف وتعبيره واكرمه واعطاه امارة المملكة في جميع شؤنها وخلع عليه بخاتمه والبسه ثياب بوص ووضع طوق ذهب في عنقه واركبه في مركبه الخاصة ونودي امامه ان اركعوا واخذ يوسف يدير الامور في سني الخصب ثم في سني الجدب احسن ادارة.

فى سبيل الإيمان: «إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد»! ف «اطلبوا الخير دهركم كله وتعرضوا لنفحات رحمة اللّه فإن للّه عز وجل نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده واسألوا اللّه أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم».[1]

وقد تلمح «نصيب» بأن الجمع بينهما فى الدنيا ليس إلا كصدفة قاصدة «من نشاء» حسب ما تقتضيه المصلحة الجماعية، ولسوف تصبح الرحمتان هامتان وعامتان ومنقطعتا النظير فى زمن القائم المهدى من آل محمد صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين!

من هنا تدور عجلة زمن سلطة الزمنية طوال السبع الأولى سنوات الرخاء، دون أن تذكر القصص ما هو دور الصديق فيها، ولا كيف أدار جهاز الدولة المخولة إليه، اللهم إلا ما أفاده من قبل: «إنى حفيظ عليم» ثم ولا يذكر العزيز ولا الملِک إلاّ مرة مشيرة: «فى دين الملک» فضلاً عن رجال المُلک والحاشية، مما يلمح أن الأمر بكامله وكله صار إلى يوسف، بارزا مبارزا على مسرح الحوادث ومصرع الكوارث، كأنه هو الآمر الناهى لا سواه، حيث يضطلع بالأعباء كلها فى الأزمات الخانقة الخافقة، فقد تصدق ـ على ضوء هذه التلميحة ـ الرواية القائلة بعد مقابلة طائلة ان «قال له الملِک إن ذلک لشرفى وفخرى ألاّ أسير إلاّ بسيرتک، ولا أحكم إلاّ بحكمک، ولولاک ما قويت عليه ولا اهتديت له وقد جعلت سلطانى عزيزا ما يرام وأنا أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريک له وأنک رسوله فأقم على ما وليتک فإنک لدينا مكين أمين».[2]

---

[1]. الدر المنثور ٤: ٢٥ ـ اخرج الحكيم الترمذي وابن ابي الدنيا في الفرج والبيهقي في الاسماء والصفات عن انس عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله انه قال:...

[2]. لقد مضى ما يشبهه من التورات والرواية في نور الثقلين ٣: ٤٢٥ عن المجمع عن الطبرسي في كتاب النبوة بالاسناد عن احمد بن محمد بن عيسى عن الحسن بن علي بن الياس قال سمعت الرضا عليه‌السلام يقول: واقبل يوسف على جمع الطعام في السبع السنين المخصبة مكبسة في الخزائن فلما مضت تلك السنون واقبلت السنون المجدبة اقبل يوسف على بيع الطعام فباعهم في السنة الاولى بالدراهم والدنانير حتى لم يبق بمصر وما حولها دينار ولا درهم الا صار في ملك يوسف.
وباعهم في السنة الثانية بالحلي والجواهر حتى لم يبق بمصر وما حولها حلي ولا جواهر الا صار في ملكه، وباعهم في السنة الثالثة بالدواب والمواشي حتى لم يبق بمصر وما حولها دابة ولا ماشية الا صار في ملكه، وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والاماء حتى لم يبق بمصر وما حولها عبد ولا امة إلا صار في ملكه وباعهم في السنة الخامسة بالدور والفناء حتى لم يبق في مصر وما حولها دار ولا فناء إلا صار في ملكه، وباعهم في السنة والسادسة بالمزارع والانهار حتى لم يبق بمصر وما حولها نهر ولا مزرعة إلاّ صار في ملكه وباعهم في السنة السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر وما حولها عبد ولا حر إلا صار عبدا ليوسف ـ فملك احرارهم وعبيدهم واموالهم وقال الناس ما رأينا ولا سمعنا بملك اعطاه الله من الملك ما اعطى هذا الملك حكما وعلما وتدبيرا، ثم قال يوسف للملك: ما ترى فيما خولني ربي من ملك مصر واهلها؟ اشر علينا برأيك فاني لم اصلحهم لافسدهم ولم انجهم من البلاء ليكون وبالاً عليهم ولكن الله نجاهم على يدي، قال الملك: الرأي رأيك.

يا عُظماه كيف يصبح العبد السجين مالكا لمولاه فيعبِّده للّه؟ اجل و«ان الحر حرّ على جميع أحواله، ان نابته نائبة صبر لها وإن تداكّت عليه المصائب لم تكسره، وإن أسِر وقُهِرَ واستبدل بالعسر يسرا كما كان يوسف الصديق الأمين عليه‌السلام لم يضر حريته ان استعبد وقهرَ واسر، ولم يضره ظلمة الجب وحشته وما ناله ـ أن منَّ اللّه عليه فجعل الجبار العاتى له عبدا بعد أن كان له مالكا فارسله ورحم به أمة، وكذلك الصبر يعقب خيرا، فاصبروا ووطنوا أنفسكم على الصبر وتوجروا».[1]

داود وسليمان الملک

رب هب لى ملكا لا ينبغى لاحد

عرض حافل لمُلک سليمان وسلطته الروحية الرسالية مع الجن والانس والطير فهم يوزعون، فى حلقات من حياته المنقطعة النظير مع الطير والنمل وملكة سبإ، تبرز سلطته الملَكية بجنب سلطانه الرسالى، تبيينا لعدله فى سلطانه الجامع غير الجامح، قصصا حافلة بحركات ومشاعر ومشاهد، نبراسا ينير الدرب على الزعماء فى كل حقل كيف يجب عليهم رعاية الرعايا والتجنب عن الخطايا:

«وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيمانَ عِلْما وَقَالاَ الْحَمْدُ للّه الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ».[2]

«لقد» تأكيدان اثنان لوَهبة العلم الربانية، و«آتينا» فى جمعية الصفات تاكيدة ثالثة تلمح لمختلف صنوف العلوم الربانية، الممكن ايتاءها للصالحين الخصوص، ثم «علما» منكَّرا تأشير إلى فخامة ذلک العلم، كما و«آتينا» تشير إلى انه ليس مما يحصل بتحصيل متعوِّد، بل هو إشراق ربانى الى قلوب الطاهرين على قدر الفاعليات والقابليات «علما» ومعرفة باللّه يتبع العقيدة الصالحة والعمل الصالح «علما» يعلم صاحبه مصدَره، متجها إلى اللّه، منفقا له

قال يوسف: اني اشهد الله واشهدك ايها الملك اني قد اعتقت اهل مصر كلهم ورددت عليهم اموالهم وعبيدهم، ورددت عليك الملك وخاتمك وسريرك وتاجك على ان لا تسير الا بسيرتي ولا تحكم الا بحكمي، قال له الملك: ان ذلك...

[1]. نور الثقلين ٣: ٤٣٤ ح ١٠٨ في اصول الكافي باسناده عن ابي بصير قال سمعت ابا عبدالله عليه‌السلام يقول...

[2]. ٢٧: ١٥.

فى مرضات اللّه، مقرِّبا له إلى اللّه، دونما صدٍّ للقلب عن اللّه، زائغا عن مصدره ومورده، لا يثمر إلاّ شقاوة، لأنه منقطع الصلة صادرا وواردا، وبعيدا عن النور مادة.

وهنا نعرف موقف الواو فى «وقالا...» كانها عطف على محذوف معروف من «علما» هذا، وهو العقيدة الصالحة والعمل الصالح: «آتينا علما» ـ فاعتقداه وعملا به «وقالا الحمد للّه..» فذلک الحمد باللسان يتبع الحمد بالجنان والأركان، شكرا على عطية المَلِک المنان، و«فضلنا» ليس فقط فى مجرد العلم، إذ لا فضل فى مجرده عن أثماره، بل هو الذى قال اللّه عنه «انما يخشى اللّه من عباده العلماء» ـ: باللّه و«ان اكرمكم عند اللّه اتقاكم» علم التقوى والتقوى فى العلم جناحان يطير بهما العبد الصالح إلى قمم المعرفة والكمال.

ثم وليس «فضلنا» هنا ـ فقط ـ بما علمنا مجردا عما يرام منه مادة وفاعلية، بل «فضلنا» بما يفضِّل عبادا على عباد وقمتهُ التقوى، و«على كثير من عباده المؤمنين» تعقيبة رقيبة على ذلک التفضيل فى علم وسواه، انه فى العبودية والايمان، دون العلم الفاضى عنهما، وانما هو الفائض منهما، الصادر عنهما، والوارد موارد الحق المُرام فيهما.

ولقد أشير إلى العلم المؤتى لداود فى «وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب»[1] ولسليمان «ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكما وعلما»[2] فيهما المؤتَيان حكما وعلما، يشملان قمما معرفية فُضِّلا بها على كثير من عبادة المؤمنين.

اجل وهم من القلة القليلة بين «عبادة المؤمنين»: «اولئک المقربون. فى جنات النعيم. ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين»[3] فتلک الثلة وهذه القلة القليلة «من عباده المؤمنين».

ومن فضل داود المشار إليه ب «فضلنا»: «ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أو بى معه والطير وألنَّا له الحديد»[4] «ولسليمان الريح عدوها شهر ورواحها شهر».[1]

---

[1]. ٣٨: ٢٠.

[2]. ٢١: ٧٩.

[3]. ٥٦: ١٤.

[4]. ١٠.

فقد كان داود يرتل مقاطع من الزبور فيتجاوب به ذرات الكائنات مِن حوله، مما يدل على العبودية العريقة القمة، وسليمان المسخر له الريح والجن والإنس بامر اللّه قضيةَ طاعة اللّه كما قال اللّه: عبدى أطعنى حتى اجعلك مَثَلى انا اقول للشىء كن فيكون، اجعلك تقول للشىء كن فيكون!.

لذلك لمّا «سأل رجل رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله عن افضل الأعمال فقال: العلم باللّه والفقه فى دينه وكررها عليه، فقال: إنها تشمل سائر الطير دونما استثناء، مهما برزت الهدهد فى ذلك المسرح.

وهل إن «منطق الطير» هنا تختص علمه بمنطقها بين سائر الحيوان؟ فكيف علّم منطق النملة! ألأنها كانت من طيرها فتشملها «الطير»؟ ولا يقال لذوات الأجنحة منها طير!.

أم لأن النلمة اختصت بهذا النص بين الحيوان غير الطير، فلم يعلم منطق سائر الحيوان إلاّ النملة؟ .. ليس لنا إلاّ متابعة النص، فقد علّم منطق الطير والنملة ثم لا ندرى هل علّم منطقا آخر ام لا؟ اللهم إلاّ أن تلمح «وأوتينا من كل شىءٍ إنَّ هذا لهو الفضل المبين»[1] و«من كل شىء» شىء من العلم بمنطق سائر الحَيوان بل وسائر الكائنات[2] وشىءٌ من المِلك والمُلك.

اجل «من كلِّ شىء» لا تعنى البعض الذى يعرفه الكلّ علما فطريا أو تعلما، وانما «اوتينا» كعطاء خاص ربانى كما «آتينا داود وسليمان علما» فذلك المؤتى له من كل شىء، شىءٌ من العلم الخاص والقدرة الخاصة أمّا هيه من المخبؤِ تحت ستار الغيب، لا يعلمها إلاّ من علمه اللّه، و«إن هذا لهو الفضل المبين» حيث يبين اختصاص الفضل على سائر العالمين، إذ لا يناله أحد إلاّ بما يؤتيه اللّه لا سواه.

إلاّ أن هنا فرقا بين «علمنا منطق الطير» و«أوتينا من كل شىءٍ» حيث الأول تلمح انه علّم منطق الطير ككل، والثانية لمكان «مِن» التبعيض تختص علمه وقدرته بالبعض، فقد علّم ـ إذا

---

[1]. ٣٤: ١٢.

[2]. المجمع روى الواحدي بالاسناد عن جعفر بن محمد عن ابيه عليهماالسلام قال: اعطي سليمان بن داود ملك مشارق الأرض ومغاربها فملك سبعمأة سنة وستة أشهر، ملك أهل الدنيا كلهم من الجن والانس والشياطين والدواب والطير والسباع وأعطي علم كل شيءٍ ومنطق كل شيءٍ وفي زمانه صنعت الصنائع العجيبة التي سمع بها الناس وذلك قوله «علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين».

ـ بعض المنطق من سائر الحيوان وسواها، كما أوتى البعض غير العلم كما العلم، وليس منطق الطير كلٌّ ما يُسمع منها، فقد يكون صوتا دون معنى كما قد يكون منا، وقد لا يكون صوتا نسمعه كما فى النمل واضرابها، فما يناله الإنسان من الصوت انما هو عدد محدود من الإرتعاش الصوتى وهو كما يقال ما بين ستة عشر ألفا إلى اثنين وثلاثين ألفا فى الثانية، والخارج منها فى الجانبين خارج عن حدود سمعه، وقد تنطق الطير أو سائر الحيوان دون صوت، وإنما باشارات تلغرافية أو الرادار كما نراها من النمل وسائر الحيوان، فلا يختص المنطق بما له صوت، بل يعمه مسموعا لنا وسواه، أم رمزا لا يُسمع، والنطق هو إبراز ما فى الباطن بآلة ظاهرة لسانا وسواه، ام رمزا لا يُسمع، والنطق هو إبراز ما فى الباطن بآلة ظاهرة لسانا وسوا، و«علمنا منطق الطير» تعم مثلث النطق. اجل وللطير منطق كما لكل حيوان حيث الكل امم كما نحن: «وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون».[1]

ذلک! لضرورة التفاهم بينها لإدارة الشئون الحيوية لها، وليس للإنسان التعرُّف إلى منطقها مهما حاول وزاول، لأنه من الأسرار الربانية يعلّمها من يشاء!.

وحين يعلَّم سليمان منطق الطير ويوتى من كل شيء فباحرى الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله والأئمة من آله الطاهرين عليهم‌السلام اجمعين، أحرى بهم ان يعلّموا منطق الطير ويؤتَوا من كل شيء[2] فانهم

---

[1]. ٦: ٣٨.

[2]. نور الثقلين ٤: ٧٧ في الخرائج والجرائح قال بدر مولى الرضا عليه‌السلام ان اسحاق بن عمار دخل على موسى عليه‌السلام فجلس عنده واستأذن عليه رجل من خراسان فكلمه بكلام لم اسمع بمثله كأنه كلام الطير، قال اسحق: فأجابه موسى عليه‌السلام بمثله ولغته إلى أن قضى وطره من مسائله فخرج من عنده فقلت: ما سمعت بمثل هذا الكلام! فقال عليه‌السلام: هذا كلام قوم من أهل الصين وليس كل كلام أهل الصين مثله ثم قال: اتعجب من كلامي بلغته؟ فقلت: هو موضع العجب! قال عليه‌السلام: اخبرك بما هو اعجب منه ان الامام يعلم منطق الطير ونطق كل ذي روح خلقها الله تعالى وما يخفى على الإمام شيء.

أقول «لا يخفى على الامام شيء» قد يعني لغة كل شيء لا كل شيء من كل شيء فانه خاص بالله الذي لا يعزب عن علمه شيء.

وفيه عن المناقب لابن شهر آشوب محمد بن مسلم عن ابي جعفر عليه‌السلام قال سمعته يقول: «علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء» أقول: وهذا يؤيد تبعيض العلم وكل شيء من كل شيء.

وفيه عن بصائر الدرجات بسند عن الثمالي قال كنت مع علي بن الحسين عليهما‌السلام فانتشرت العصافير وصوتت فقال: يا أبا حمزة أتدري ما تقول؟ قلت: لا قال: تقدس ربها وتسأله قوت يومها ثم قال: يا با حمزة «علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء».

وعنه عن زرارة عن ابي عبدالله عليه‌السلام قال قال امير المؤمنين عليه‌السلام لابن عباس: إن الله علمنا منطق الطير كما علم سليمان بن داود، ومنطق كل دابة في بر وبحر. وفي تفسير البرهان ٣: ٢٠١ محمد بن الحسن الصفار في بصائر الدرجات بسند متصل عن بن جعفر عن ابيه قال قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: استوصوا بالصنانيات خيرا يعني الخطاف فانه آنس طير الناس بالناس ثم قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: اتدرون ما تقول الصنانية إذ هي ترنمت تقول بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين حتى تقرء ام الكتاب فإذا كان في آخر ترنمها قالت ولا الضالين.

أقول: والروايات في أنهم علموا منطق الطير وأوتوا من كل شيء علّها متواترة.

ائمة سليمان ومَن فوقَه من النبيين، وما هم بعالمين كل شيء خلافا لما يروى[1] وترى «علمنا وأوتينا» ـ وهو شخص ـ أهى من سنة الرعونة والكبرياء فى الملوك؟ وسليمان من افضل الصالحين! قد يعنى نفسه واباه داود، ام ومن معه من النبيين وسائر المعصومين عليهم‌السلام، وكما «آتينا داود وسليمان علما».

وقد تلمح «علمنا وأوتينا» برجاحة الإعلان بما أنعم اللّه أو اختص بكرامته، كما «واما بنعمة ربک فحدث» شرط ألاّ تمازجه رعونة وكبرياء فان اللّه منها براءٌ، بل هو هنا اعلان رسالى تدليلاً بذلک العلم على رسالته الى الناس، فليس فقط تحديثنا بنعمة ربه راجحا غير واجب.

فقد أذاع سليمان هذه العطية الربانية للناس تحدثا بنعمة اللّه دون مباهاة ولا تنفُّجٍ على الناس، وكما يدل عليه بتعقيبه «ان هذا لهو الفضل المبين».

وليس منطق الطير وسائر الحيوان ـ ككلٍّ ـ بالساذج الحيوانى دون العقول الإنسانية، وكما النملة والهدهد تبرزان هذه الحقيقة، ان لها معارف كما للإنسان ام وقد تكون أصغى وأوفى، وأنها تسبِّح بحمد ربها كما نسبِّح «كل قد علم صلاته وتسبيحه»[2] «ولكن لا تفقهون تسبيحهم».[3][4]

وقد يعني ان علمهم عليهم‌السلام أوسع من علمه كما عن نفس المصدر عن الفيض بن المختار قال سمعت ابا عبدالله عليه‌السلام ان سليمان بن داود قال: «علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء» وقد والله علمنا منطق الطير وعلم كل شيء اقول: ولكن الكل نسبي لا يعني ككل ما يعلمه الله، وانما البعض الأكثر شمولاً مما علم وأوتى سليمان.

[1]. المصدر عن البصائر الدرجات احمد بن محمد بن خالد عن بعض رجاله عن ابي عبدالله عليه‌السلام وتلا رجل عنده هذه الآية «وعلمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء» فقال ابو عبدالله عليه‌السلام ليس فيها «من» انما هي «اوتينا كل شيء» اقول: انه مضروب عرض الحائط لمخالفته القرآن وكما في روايات العرض.

[2]. ٢٤: ٤١.

[3]. ١٧: ٤٤.

[4]. نور الثقلين ٤: ٧٨ ـ المناقب عن تفسير الثعلبي قال الصادق عليه‌السلام قال الحسين بن علي عليهما‌السلام: إذا صاح النسر قال: يا ابن آدم اعش ما شئت آخره الموت، وإذا صاح الغراب قال: ان في البعد عن الناس انسا ـ وإذا صاح القنبر قال: اللهم العن مبغضي آل محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله وإذا صاح الخطاف قرء الحمد لله رب العالمين ويمد الضالين كما يمدها القاريء. وفيه في مناقب ابي جعفر الباقر عليه‌السلام وسمع عصافير تصحن قال: تدري يا ابا حمزة ما يقلن؟ قلت: لا ـ قال: يسبحن ربي عز وجل ويسألن قوت يومهن.
وعن بصائر الدرجات بسند عن فضيل بن يسار عن ابي عبدالله عليه‌السلام قال: كنت عنده إذ نظرت إلى زوج حمام فهدر الذكر على الانثى فقال لي: أتدري ما يقول؟ قلت: لا ـ قال يقول: يا سكني وعرسى ما خلق الله أحب إليّ منك إلاّ ان يكون مولاي جعفر بن محمد.
وفيه بسند عن سليمان من ولد جعفر بن ابي طالب قال: كنت مع ابي الحسن الرضا عليه‌السلام في حائط له إذ جاء عصفور فوقع بين يديه واخذ يصيح ويكثر الصياح ويضطرب فقال لي: يا فلان تدري ما يقول هذا العصفور؟ قال قلت: الله ورسوله وابن رسوله اعلم قال: انها تقول ان حية تريد ان تأكل فراخي في البيت فخذ معك العصا وادخل البيت واقتل الحية، قال: فأخذت النبعة ـ وهي العصا

وإنما الميِّزة البارزة للإنسان بين سائر الحيوان هو التقويم الأحسن فيه قلبا وقالبا، وانه لا يقف لحدٍّ، فله التكامل الى قمم عليا من الكمال وأعلى من الملائكة المقربين، وللحيوان ـ ككل ـ مقام محدود، وحتى بالنسبة للحيوان الذى يتكامل وقليلٌ ما هو، وان الكمالات الإنسانية روحية وسواها تتبنى المساعى على قدرها، والحيَوان اوتيت المعرفة باللّه غريزيا فى كل وظائفها «كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه»!.

«وحشر لسليمان جنوده من الجنِّ والإنس والطَّير فهم يوزعون».[1]

الحشر هو اخراج جماعةٍ عن مستقرهم بازعاج ودفعٍ جماعة، وهكذا يحشر الجنود المتفرقون فى مختلف مستقراتهم لهدف الغزو، أو عرضهم أمام قائدهم أمّاذا؟ والإيزاع هو المنع، وهنا الحبس عن تفرقهم وحشرهم ان «يحبس اولهم على آخرهم».[2] فقد اصبح جنوده من الأقسام الثلاثة محشورة مع بعض، دون سماح لهم بالتفرق والرجوع إلى مستقراتهم لفترة مقصودة فيما أهمه.

و«من» هنا تبعِّض الجن والإنس والطير، فلم يكن الكلُّ بأسرهم جنودَه، فمن يبقى بعدهم اجمع حتى يحاربهم؟ أيحارب الحَيَوان الوحش أو الملائكة أمّن هم؟ ولم يتجاوز ملكه ما يعرف ألآن بفلسطين ولبنان وسوريا والعراق إلى ضفة الفرات! والشيطان ـ وهو من الجن وزعيم مردة الشياطين ـ لم يكن من جنوده، ومنهم محاربون له معارضون: «واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا»،[3] ثم الشياطين العمال لم يكونوا كلهم من جنوده، بل «والشياطين كل بناء وغواص»[4] «ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلک وكنّا لهم حافظين»[5] ومنهم من لم يطلع عليهم كمملكة سبإ حتى

ـ ودخلت إلى البيت وإذا حية تجول في البيت فقتلتها.

[1]. ٢٧: ١٧.

[2]. نور الثقلين ٤: ٨٢ القمي في رواية ابي الجارود عن ابي جعفر عليه‌السلام في الآية...

[3]. ٢: ١٠٢.

[4]. ٣٨: ٣٧.

[5]. ٢١: ٨٢.

أخبره الهدهد!.

ولاية النبى(ص) على المؤمنين

«النَّبِىُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللّه مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفا كَانَ ذَلِكَ فِى الْكِتَابِ مَسْطُورا».[1]

آية وحيدة منقطعة النظير، تختص ولاية عامة للنبى على المؤمنين، وامومة ازواجه لهم، واولوية اولى الارحام بعضهم ببعض من المؤمنين والمهاجرين، تضم فى هذا المثلث أحكاما عدة جماعية سياسية واقتصادية أمّاهيه؟

ولاية النبى على المؤمنين؟

«النبى أولى بالمؤمنين من انفسهم» ضابطة مطلقة عامة ثابتة بين محور النبوة وشعاع الايمان، فهو «اولى» قضية النبوة، وهم مولّى عليهم قضية الايمان، وهو صلى‌الله‌عليه‌وآله لا ينفصل عن ولايته ولا تنفصل عنه حيث النبوة لزامها، ولكن الايمان قد ينفصل عمن يتنحى عن ولايته صلى‌الله‌عليه‌وآله وكما يروى عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله: «والذى نفسى بيده لا يؤمن احدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس اجمعين»!.

وليست هى مجرد ولاية الحب مهما كان اصلاً من قضيتها، بل هى مطلق الولاية فى مطلق الامور على مطلق الأنفس المؤمنة، عقيدة وحبا وقولاً وعملاً أماذا من متطلبات الولاية الأولوية المطلقة!.

إن هذه النبوة القمة تقتضى اولوية قمة، كما الايمان بدرجاته يقتضى تحمل تلك الاولوية حسب الامكانيات.

اترى ان هذه الولاية المحمدية قد تُعمى مصالح الامة جماعات وفرادى لمصلحة ذاتية شخصية؟ كلاّ! ف ـ «النبى اولى» وليس «محمد اولى» فهذه الاولوية ليست إلا لتخدم مصالح

---

[1]. ٣٣: ٦.

الرسالة والمرسل إليهم جماعات وفرادى، دون مصلحة لشخص محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله فانما مصالح رسولية ورسالية ومصالح للمؤمنين، وكلها لصالح الايمان فصالح المؤمنين، جماعات وفرادى، تصد عنهم اخطاءً عامدة وجاهلة وتصلح الامة كما يرضاها اللّه حيث الولاية اسلاميا هى أن يلى كل قوى من المسلمين ضعيفهم، عقيديا او علميا او خلقيا او عمليا، اماذا من مختلف الوهبات والكسبيات جبرانا لنقصه، فقد يكون المسلم وليّا من جهة ومولًى عليه من اخرى، كالأعلم بالنسبة للاتقى، فانه وليه علميا، ولكنه مولى عليه عمليا، وهلم جرأ فى سائر الاولياء والمولى عليهم حسب مختلف الولايات.

والسمة العامة فيها كلها صالح المولى عليه حيث لا يقدر على تحصيله كما يجب او يُحب، وهذه الموالات هى فى صيغة اخرى تعاونٌ على البر والتقوى، وضد الشر والطغوى، تعليما او امرا ونهيا او حملاً على فعل المعروف وترك المنكر.

فليس للولى أيا كان أن يتامَّر على المولى عليه لصالحه الشخصى بسند انه قوى، اللّهم إلاّ لصالح المولى عليه افرادا وجماعات، والى السلطة الزمنية على ضوء الاسلام حيث الزعيم خادم الرعية، دون ان يبتغى من الزعامة مالاً او منالاً إلاّ اصلاح الرعية، وتوجيههم الى الأصلح فالاصلح فى مختلف الحقول الاسلامية المحلّقة على كافة المصالح.

الولايات العشر فى الاسلام:

هنالک ولايات خاصة واخرى عامة على المؤمنين كلها تنحو منحى مصالحهم معنوية ومادية جماعية وفردية، ک: «١ ـ الولاية على الايتام، ٢ ـ والسفهاء، ٣ ـ والمجانين، ٤ ـ والزوجات، ٥ ـ والاولاد، ٦ ـ والمتخلفين،[1] ٧ ـ وعلى كل الأمة من الفقهاء، ٨ ـ وائمة الدين، ٩ ـ والرسول، ١٠ ـ وولاية اللّه!.

كل هذه ولايات على من لا يحيط علما او طاقة على مصالحه، فالولاية المعصومة من بينها مطلقة وكما تدل عليه آية الولاية: «انما وليكم اللّه ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة

[1]. دليله قوله تعالى «المؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يامرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر».

ويؤتون الزكوة وهم راكعون»[١] وآية الطاعة: «اطيعوا اللّه واطيعوا الرسول واولى الامر منكم».[٢] والولايات الاخرى محدودة بحدود المصالح، وللمولى عليهم الإعتراض والإستيضاح إن اشتبه عليهم أمرها او تاكّدوا من خلاف المصلحة فيها.

ثم تشترك هذه العشر فى الولاية الشرعية على اختلاف درجاتها وضيقها وسعتها، وتختصّ ولاية المعصومين الشرعية بانها مطلقة محكمة دونما استثناء لانها تمثل ولاية النبى الممثلة لولاية اللّه واما الولاية التشريعية والتكوينية فهما من اختصاصات الربوبية، فهو ـ فقط ـ المشرع لا سواه «شرع لكم من الدين وصى به نوحا والذى اوحينا اليک...» وهو المكون خلقا وتدبيرا لا سواه «الا له الخلق والامر..».

ولاية النبى صلى‌الله‌عليه‌وآله **هى الاولوية بانفس المؤمنين، فتحتل الدرجة الثانية من العشر بعد الولاية الإلهية، فهو أولى بكل مؤمن من نفسه وأهله وماله وعرضه، وكلها لصالح النبوة والمولى عليهم على ضوء النبوة العادلة، ولاية عامة تشمل رسم مناهج الحياة الفردية والجماعية فى كافة حقولها، فلا ولاية مع ولايته، حيث لا تساوى ولا تسامى، اذ تحلّق بعد ولاية اللّه على الولايات كلها، على سائر الاولياء والمولى عليهم كلهم.**

قد تتحقق الولاية دون اولوية بانفس المولّى عليهم منهم كما فى سائر الولايات الخاصة والعامة، إلاّ المحمديين من العترة المعصومين عليهم‌السلام**[٣] ولكنما الآية تثبت ولاية الاولوية له** صلى‌الله‌عليه‌وآله **بأنفس المؤمنين مما يقدّمه** صلى‌الله‌عليه‌وآله **عليهم فى النواميس المهمة كلها: نفسا وعقلاً ودينا وعرضا ومالاً لصالح النبوة والمولّى عليهم، فصالح النبوة هو صالحهم جميعا.**

فكما يحب على كل مؤمن الحفاظ على هذه النواميس حبا لها وايمانا، كذلک عليهم ـ وبأحرى ـ الحفاظ عليها من النبى صلى‌الله‌عليه‌وآله **تقديما لجانبه على جوانبهم، وكما اللّه جعله**

---

[١]. ٥: ٥٥.

[٢]. ٤: ٥٩.

[٣]. الدر المنثور ٥: ١٨٢ اخرج ابن ابي شيبة واحمد والنسائي عن بريدة قال غزوت مع علي اليمن فرأيت منه جفوة فلما قدمت على رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ذكرت عليا فنقصته فرأيت وجه رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله تغير وقال يا بريدة الست اولى بالمؤمنين من انفسهم قلت بلى يا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه» اقول وأنها كلمة متواترة عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله.

اوَلى بهم وعلى حد قوله صلى‌الله‌عليه‌وآله: «ما من مؤمن إلاّ وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة»[1] ومن هذه الولاية قوله صلى‌الله‌عليه‌وآله: «أنا اولى بكل مؤمن من نفسه فايما رجل مات وترک دينا فإليَّ ومن ترک مالاً فلورثته»[2] فليس له من اموال المؤمنين شيءٌ إلاّ ما تلزمه المصلحة الجماهيرية الاسلامية كالضرائب المستقيمة وغير المستقيمة وهى كلها لصالح المسلمين.

ثم اذ يأمر الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله بشيءٍ فلا تخلُّف عنه نَظرة الإذن من غيره وليا وسواه كما كان فى غزوة تبوک[3] ومن خلفيات هذه الولايةً الاولويةِ المطلقة أن لورای النبى صلى‌الله‌عليه‌وآله صالحا فى تطليق زوجتک طلقها دون استئمارک، ام صالحا فى حَملک على عمل دون أجر او باجر، ام دفع مال بمقابل او دون مقابل، اماذا مما لک فيه الولاية نفسا واهلاً ومالاً وحالاً، فهو أولى بک منک، فضلاً عما ليس لک فيه ولاية، فهو فيه اولى منک فى بعدين اثنين ولكنه لم يعهد عنه امثال هذه التصرفات خلافا لمرضات المؤمنين وان كانت له بسناد ولايته المطلقة المخوَّلة.

ثم الولاية الجماهيرية هى له احرى من الشخصية، حيث النبوة تنحو منحى الجماهير قبل الأشخاص، وهى لصالح مجموعة الامة قبل افرادها، وصالح الجماعة فى ولاية وسواها أهم من صالح الأفراد.

ومن اهم الاهداف فى ضابطة الولاية هنا هى الإمرة[4] ألاّ يَخلَد بخَلَد المؤمنين فرادى

---

[1]. المصدر اخرج البخاري وابن جرير وابن ابي حاتم وابن مردويه عن ابي هريرة عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله قال:... اقرءوا ان شئتم «النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم..».

[2]. المصدر اخرج احمد وابو داود وابن مردويه عن جابر عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله:... ومثله ذيل الحديث السابق ولكن فيه: من ترك مالاً فلعصبة...

[3]. في المجمع وروي ان النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله لما اراد غزوة تبوك وامر الناس بالخروج قال قوم: نستأذن آبائنا وامهاتنا فنزلت هذه الآية.

[4]. نور الثقلين ٤: ٢٣٨ عن علل الشرايع باسناده الى عبد الرحمن لقصير عن ابي جعفر عليه‌السلام قال: سألته عن قول اللّه عز وجل «النبي اولى...» فيمن نزلت هذه الآية قال: نزلت في الإمرة ان هذه الآية جرت في الحسين بن علي عليه‌السلام وفي ولد الحسين فنحن اولى بالامر وبرسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله من المؤمنين والمهاجرين، قلت: لولد جعفر فيها نصيب؟ فقال: لا ـ فعددت اليه بطون عبد المطلب كل ذلك يقول: لا ـ ونسيت ولد الحسن فدخلت عليه بعد ذلك فقلت: هل لولد الحسن عليه‌السلام فيها نصيب؟ فقال: لا يا ابا عبد الرحمن ما لمحمدي فيها نصيب غيرنا.
ورواه مثله عنه في الكافي وروايات اهل البيت في ذلك بعديد اسماء اولى الامر متواترة.
ومن ذلك ما رواه القمي باسناد متصل عن سليم بن قيس قال سمعت عبداللّه بن جعفر الطيار يقول: كنا عند معاوية انا والحسن والحسين وعبداللّه بن عباس وعمر بن سلمة واسامة بن زيد فجرى بيني وبين معاوية كلام فقلت لمعاوية سمعت رسول اللّه

وجماعات التقديم او التقدم بين يدى الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله **فى اى امرٍ من امورهم حتى وان شاورهم مصلحيا كما أمره اللّه، فالأمر أمره والرأى رأيه، لان الإمرة الشاملة على المؤمنين هى إمرته.**

فلو رآى المؤمنون باجمعهم صلوحا فى أمر من حرب او صلح أماذا؟ ورآى الرسول خلافهم ف ـ «النبى اولى بالمؤمنين من انفسهم» فلا لهم او عليهم إلاّ ما يراه دونهم.

ولقد جرت هذه الإمرة النبوية فى الائمة الاثنى عشر بدليل الكتاب والسنة وعلى حد قول باقر العلوم عليه‌السلام **«ما لمحمدى نصيب غيرنا» فهم لا سواهم «اولى الامر منكم» الذين افترض اللّه طاعتهم بإمرتهم بعده وبعد رسوله: «اطيعوا اللّه واطيعوا الرسول واولى الامر منكم..».**

ولقد احتل حديث خلافة الإمرة النبوية فى على عليه‌السلام **يوم الغدير، قمة التواتر بين المسلمين من الصحابة والتابعين وتابعيهم[1] وكذلك حديث التهنئة من الشيخين فى قولهما لعلى** عليه‌السلام: **«بخ بخ لک يا على اصبحت مولاى ومولى كل مؤمن ومؤمنة[2] تلو ما قال النبى** صلى‌الله‌عليه‌وآله: **الست اولى بكم من انفسكم قالوا بلى قال «فمن كنت مولاه فهذا على مولاه» مما يبرهن**

صلى‌الله‌عليه‌وآله يقول: انا اولى بالمؤمنين من انفسهم ثم اخي علي بن ابي طالب اولى بالمؤمنين من انفسهم فاذا استشهد فالحسن بن علي اولى بالمؤمنين من انفسهم ثم ابني الحسين من بعده اوى بالمؤمنين من انفسهم وستدركه يا حسين ثم تكملة اثنتى عشر اماما تسعة من ولد الحسين قال عبداللّه بن جعفر واستشهدت الحسن والحسين وعبداللّه بن عباس وعمر بن ام سلمة واسامة بن زيد فشهدوا لي عند معاوية قال سليم وقد سمعت ذلك من سلمان وابي ذر والمقداد وذكروا لي انهم سمعوا ذلك من رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله.

[1]. اخرج العلامة الأميني في الغدير نزول آية التبليغ عن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله يوم الغدير في علي بن ابي طالب عليه‌السلام عن ثلاثين مصدرا من اخواننا وان رواة الغدير من الصحابة ١٢٠ صحابيا ومن التابعين (٨٤) وان طبقات الرواة في حديث الغدير من ائمة الحديث وحفاظه والاساتذة (٢٦٠) نسمة والمؤلفون فيه (٢٦) راجع علي والحاكمون ص ٣٤.

[2]. قد روى حديث التهنئة فيمن رواه الحافظ ابو بكر عبداللّه بن محمد بن ابي شيبة عن البراء بن عازب واحمد بن حنبل في مسنده ٤: ٢٨١ عنه والحافظ ابو العباس الشيباني عنه والحافظ ابو يعلى الموصلي عنه والحافظ ابو جعفر محمد بن جرير الطبري في تفسيره ٣: ٤٢٨ عن ابن عباس وابن عازب والحافظ احمد بن عقدة الكوفي في كتاب الولاية بالاسناد عن سعد بن ابي وقاص والحافظ ابو عبداللّه المرزباني البغدادي عن ابي سعيد الخدري والحافظ علي بن عمر الدارقطني البغدادي والحافظ ابو عبداللّه بن بطة الحنبلي عن البراء بن عازب والقاضي ابو بكر الباقلاني البغدادي في التمهيد في اصول الدين ص ١٧١ والحافظ ابو سعيد الخركوشي النيسابوري في شرف المصطفى عنه والحافظ احمد بن مردويه الاصبهاني في تفسيره عن ابي سعيد الخدري وابو اسحاق الثعلبي في تفسيره والحافظ ابن السمان الرازي عن ابن عازب والحافظ ابو بكر البيهقي عنه والحافظ ابو بكر الخطيب البغدادي بسندين صحيحين عن ابي هريرة ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ والفقيه ابو الحسن بن المغازلي في المناقب وابو محمد احمد العاصمي في زين الفتى والحافظ ابو سعد السمعاني في فضائل الصحابة عن ابن عازب وحجة الاسلام ابو حامد الغزالي في سر العالمين ص ٩ وابو الفتح الاشعري الشهرستاني في الملل والنحل واخطب الخطباء الخوارزمي الحنفي في مناقبه ص ٩٤ وابو الفرج بن الجوزي الحنبلي عن ابن عازب وفخر الدين الرازي الشافعي في تفسيره الكبير ٣: ٦٣٦ وابو السعادات مجد الدين بن الاثير الشيباني في النهاية ٤: ٢٤٦ وابو السعادات مجد الدين بن الاثير الشيباني في النهاية ٤: ٢٤٦ وابو الفتح محمد بن علي النظري في الخصائص العلوية عن ابي هريرة وعز الدين ابو الحسن بن الاثير الشيباني عن ابن عازب وثلاثون آخرون امّا زاد ذكرنا أسمائهم في علي والحاكمون ص ٨١ ـ ٨٢.

جليا أن مكانته من المؤمنين هى نفس مكانة الرسول إلا فى الوحى والنبوة.

فإمرة الاولوية والولاية المطلقة تختص بمحمد صلى‌الله‌عليه‌وآله والمحمديين من عترته المعصومين، ثم لا إمرة إلاّ شورى بين المؤمنين، سواء أكانت إمرة الفتوى او الزعامة السياسية، فانها مهما كانت عليمة تقية عادلة فليست معصومة عن أخطاء، ولانها لا بد منها فى استمرارية الإمرة الاسلامية، فلا بد من كونها فى نطاق الشورى بين الرعيل الأعلى حتى تقل اخطاءها وكما يروى الامام على عن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله «اجمعوا العابد من امتى فاجعلوا امركم شورى».[1]

والشورى فى امور المؤمنين هى من سبل الايمان فتركها قطعٌ لسبيل الايمان حسب درجات الامر الذى يتطلب الشورى.

فولاية الفقهاء محدودة لمكان اخطاءهم قاصرة او مقصرة، فان ثبت للمولى عليهم وهم غير الفقهاء أنهم اخطأوا فى شىء حرم اتباعهم فيه إلاّ ان يقنعوهم، وان لم يثبت فاتباعهم مفروض.

ثم لا ولاية لفقيه على فقيه مهما اختلفت درجاتهم، ففى الاحكام الشرعية كل فقيه ولى نفسه ومن ليس بفقيه كما وفى المسائل السياسية الزمنية فليس ولى امر الامة زمن الغيبة إلاّ الشورى من الرعيل الاعلى، بل وفى الاحكام الشرعية المرجع هو الشورى دون الأشخاص.

«وازواجه امهاتهم» .. تنزيل لازواجه منزلة امهاتهم، ولولا اية حجابهن عنهم «وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب...» بل وزيادة على سائر المؤمنات كما هنا وفى خضوع القول «ولا تخضعن بالقول فيطمع الذين فى قلبه مرض»ولولا امكانية تسريحهن «واسرحكن سراحا جميلاً» حيث تنفصل عنهن الامومة بانفصال الزوجية، لولاهما لكان التنزيل يعم من امومتهن كونهن محارم لهم فلا حجاب، فانما الأمومة هنا فى وجوب حرمتهن كما الامهات، وحرمة نكاحهن كما والنص يخصصها بالذكر «ما كان لكم ان تؤذوا رسول اللّه ولا ان تنكحوا ازواجه من بعده ابدا»فالامومة النسَبية لها وجوب حرمتها وحرمة زواجها ومحرميتها وميراثها، وللرضاعية كل ذلك إلاّ ميراثها، وللرسالية ليست إلاّ الاوليانِ وهما الاولان فيما

---

[1]. راجع آية الشورى في سورتها ج ٢٤ ـ ٢٥ من: الفرقان.

يسبق الى الاذهان من اختصاصات الامومات، فاما المحرمية فتنفيها آية الحجاب: «واذا سألتموهن متاعا فسألوهن من وراء الحجاب» ثم الميراث تنفيه الآية فى ذيلها: «واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض فى كتاب اللّه» ولولاهما ايضا فى نفيهما لم يشملهما التنزيل، حيث التنزيل لا يوازى الحقيقة، ولان المقام مقام فائق الاحترام فلا يناسبه الميراث والتكشف. فلان التنزيل خص فى مورد الحجاب ولم يذكر له موردٌ إلاّ حرمة نكاحهن فقد انفصم عراه وانحل فتله الشامل لكافة اختصاصات الامومة واختص بالمنصوص منها وحرمتهن كما الامهات، فهذه امومة شعورية وشعارية وراء حرمة زواجهن!.

وهل إن ذلك التنزيل مستمرٌ مهما تخلفن عن ساحة الرسالة، بل وعارضنها واسبحن محادات لها؟ لان هذه الأمومة ذات علاقتين، علاقة بالرسول اذ يتأذى ان تُؤذى ازواجه ويُنكحن، وعلاقة بهن اذ هن من حرمات الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله **فانطلاقهن عن ساحة الرسالة بفاحشة مبينة تتهدم تلك الساحة المباركة فلا يتاذى إذا من ان ينكحن بعده ولا ألاّ يحترمن كامهات، اذا ففى انطلاقهن هذا سماحٌ لطلاقهن.**

وقد يروى عن القائم المهدى عجل اللّه تعالى فرجه الشريف: «ان اللّه تقدس اسمه عظم شأن نساء النبى صلى‌الله‌عليه‌وآله **فخصهن بشرف الأمهات فقال رسول اللّه** صلى‌الله‌عليه‌وآله **يا ابا الحسن إن هذا الشرف باق لهن ما مّن اللّه على الطاعة فايتهن عصت اللّه بعدى بالخروج عليك فأطلق لها فى الأزواج واسقطها من تشرف الامهات ومن شرف امومة المؤمنين»!.[1]**

وكان حقا له أن يُسقط حقه بطلاقهن عن هذا الشرف فيما يضيع حقه فى اولويته على المؤمنين بالخروج على امير المؤمنين ومثيله فى اولويته تلك فى سُدّته العليا وإمرته المنصوصة عليهم.

ترى إذا كانت ازواجه امهاتهم أليس ـ إذا ـ هو اباهم فى اصل الحرمة الوالدية فلماذا «النبى

---

[1]. نور الثقلين ٤: ٣٣٨ ح ١٧ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى سعد بن عبداللّه القمي عن الحجة القائم عليه‌السلام حديث طويل وفيه: قلت: فاخبرني يا مولاي عن معنى الطلاق الذي فرض رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله حكمه الى امير المؤمنين عليه‌السلام قال عليه‌السلام: ان اللّه تقدس اسمه...

اولی...» ولیس «ابوهم»؟.[1]

ان أولویته المطلقة اولی من الأبویة، فانه اولی من ابویهم ومن کل ولی لدیهم! فهو الأب الاوّل للمؤمنین وولده الامة درجات اعلاها علیٌ عليه‌السلام، **فهو الاب الثانی للامة وکما سائر الائمة** عليهم‌السلام **ومن ثم سائر الآباء، وقد صح عنه** صلى‌الله‌عليه‌وآله **«انا وعلی ابوا هذه الامة»![2]**

«وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِی کِتَابِ اللّه مِنْ الْمُؤْمِنِینَ وَالْمُهَاجِرِینَ إِلاَ أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِیَائِکُمْ مَعْرُوفا کَانَ ذَلِکَ فِی الْکِتَابِ مَسْطُورا».[3]

هنا تلمیحة ان قد مضی ردح من الزمن یتوارث فیه المسلمون بالایمان والهجرة، ذلک ولمّا تستقر الدولة الإسلامیة، فقد أخی الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله **بین المهاجرین والانصار، وکان هذا الإخاء صلة عریقة فریدة فی تأریخ التکافل العقائدی لحدّ قام مقام قرابة الدم، وارتفع فیه المدّ الشعوری الی ذروة عالیة، وقد اخذ مأخذ الجدِّ، قائم مقام قرابة الدم اوزاد، ولقد کان ذلک الإخاء العمیق ضروریا بادی ذی بدء حفاظا علی هذه النشأة الولیدة الایمانیة، وتماسکة بقوة صارمة فی تلک الظروف الإستثنائیة، وحتی تقوم الدولة علی سوقها فتزول الضرورة الوقتیة من ذلک الإخاء القائم مقام الدم، فیبقی وراء التوارث کأشد ما کان علی طول الخط.**

فلما استتب امر الدولة واستقرت فی مختلف حقولها الجماعیة والسیاسیة والاقتصادیة والعقائدیة عاد النظام الحقوقی الاسلامی فی التوارث بین اولی الارحام إلی حالته التی «کان ذلک فی الکتاب مسطورا».

---

[1]. في الدر المنثور ٥: ١٨٣ اخرج عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة انهم قرأوا الآية باضافة «وهو اب لهم» اقول: وهو معروض عرض الحائط لكونه خلاف المتواتر الموجود من القرآن وان «النبي أولى بالمؤمنين» تعني فوق الابوة فلا حاجة الى ذكرها وليس مثله الا مثل القائل «محمّد رسول اللّه وهو مؤمن»!.

[2]. نور الثقلين ٤: ٢٣٨ ح ١٨ في كتاب علل الشرايع باسناده الى علي بن الحسن بن فضال عن ابيه قال: سألت ابا الحسن عليه‌السلام فقلت له: لم كني النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله بابي القاسم؟ فقال: لانه كان له ابن يقال له قاسم فكني به قال قلت: يا ابن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فهل تراني اهلاً للزيادة؟ فقال: نعم اما علمت ان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: انا وعلي ابوا هذه الامة؟ قلت: بلى قال: اما علمت ان عليا عليه‌السلامقاسم الجنة والنار؟ قلت: بلى ـ قال: فقيل له ابو القاسم لا ابو القسم الجنة والنار فقلت: وما معنى ذلك؟ فقال: ان شفقة النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله على امته كشفقته صلى‌الله‌عليه‌وآله لانه وصيه وخليفته والامام بعده فلذلك قال صلى‌الله‌عليه‌وآله انا وعلي ابوا هذه الامة وصعد النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله المنبر فقال: من ترك دينا او ضياعا فعليّ واليّ ومن ترك مالاً فلورثته فصار بذلك اولى من ابائهم وامهاتهم وصار اولى بهم منهم بانفسهم وكذلك امير المؤمنين عليه‌السلام بعده جرى ذلك له مثل ما جرى لرسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله.

[3]. ٣٣: ٦.

اولوية النبى صلى‌الله‌عليه‌وآله بالمؤمنين من انفسهم وفى المحمديين من أولى أمره، دائبة ثابتة بشاكلتها المعصومة فى فترة الرسالة والإمامة، ومن ثم فى الشورى من الرعيل الاعلى فى العابد من الامة بشاكلة غير معصومة.

وامومة ازواجه باقية ما لم يتخلفن عما عليهم، فبانطلاقهن عنه سماح الطلاق لصاحب الإمرة بعده وكما فى طلاقه صلى‌الله‌عليه‌وآله نفسه.

والاخوة المورثة باقية ردحا حتى تستتب امر الدولة ويقر قرارها.

ثم لهذه الآية واجهتان: خاصة قد تعنى الاولوية فى إمرة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله بعده، فاولوا ارحامه بعضهم اولى ببعض فى كتاب اللّه من سائر المؤمنين من الأنصار والمهاجرين.

فهنالك اولويتان اثنتان، أولاهما اولوية ذوى ارحامه صلى‌الله‌عليه‌وآله من سائر المهاجرين والانصار، والاخرى الاولوية بين ارحامه انفسهم، فعلىٌّ اولى من آل عباس، والحسنان اولى من سائر ولد الامام، وولد الحسين عليه‌السلام اولى من ولد الحسن، وزين العابدين اولى من سائر ولد الحسين، ومن ثم سائر الائمة عليهم‌السلام حتى القائم المهدى (عجل اللّه تعالى فرجه) اولوية بالانتصاب، وكما الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله منتصب فى اولويته بالمؤمنين من انفسهم، كل ذلك بوحى من اللّه «كان ذلک فى الكتاب مسطورا» وعله امّ الكتاب او اللوح المحفوظ امّاذا من كتاب اللّه.[1]

---

[1]. لقد مضى شطر من الاحاديث في الآية «اولوا الارحام» واليكم شطرا آخر، ففي تفسير البرهان ٣: ٢٩١ ح ٢ عن الكافي عن ابي عبداللّه عليه‌السلام قال: لا تعود الامامة في اخوين بعد الحسن والحسين عليهما‌السلام ابدا انما جرت من علي بن الحسين عليه‌السلام كما قال اللّه «واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب اللّه» فلا تكون بعد علي بن الحسين الا في الاعقاب واعقاب الأعقاب.
وفيه ح ١٣ ـ ابن بابويه باسناده عن عبد الاعلى بن اعين قال: سمعت ابا عبداللّه عليه‌السلام يقول: ان اللّه خص عليا بوصية رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله وما يصيبه له فاقر الحسن والحسين عليهما‌السلام له بذلك ثم وصية للحسن وتسليم الحسين للحسن عليه‌السلام ذلك حتى افضى الامر للحسين عليه‌السلام لا ينازعه فيه احد له من السابقة مثل ما له واستحقها علي بن الحسين يقول اللّه عز وجل «واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب اللّه» فلا تكونن بعد علي بن الحسين عليه‌السلام الا في الاعقاب واعقاب.
وفيه ح ١٤ عنه باسناده عن ثابت الثمالي عن علي بن الحسين عليه‌السلام عن ابيه عن علي بن أبي طالب عليه‌السلام قال: فينا نزلت هذه الآية «واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب اللّه» وفينا نزلت هذه الآية «وجعلها كلمة باقية في عقبة» والامامة في عقب الحسين عليه‌السلام الى يوم القيامة...
وفيه ح ١٥ عنه باسناده عن اسماعيل بن عبداللّه قال قال الحسين بن علي عليه‌السلام: لما أنزل اللّه تبارك وتعالى لى هذه الآية «واولوا الارحام..» سألت رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله عن تأويلها فقال: واللّه ما يعني بها غيركم وانتم اولوا الارحام فاذا مت فابوك علي اولى بي وبمكاني فاذا مضى ابوك فاخوك الحسن عليه‌السلام فاذا مضى الحسن فانت اولى به فقلت يا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ومَن بعدي؟ قال: ابنك علي اولى بك من بعدك فاذا مضى فابنه محمد اولى به فاذا مضى محمد فابنه جعفر اولى به من بعده وبمكانه فاذا مضى جعفر فابنه موسى اولى به من بعده فاذا مضى موسى فابنه علي اولى به من بعده فاذا مضى علي فابنه محمد اولى من بعده فاذا مضى محمد فابنه على اولى به من بعده فاذا مضى علي فابنه الحسن اولى به من بعده فاذا مضى الحسن وقعت الغيبة في التاسع من ولدك فهذه الائمة التسعة من صلبك اعطاهم اللّه علمي وفهمي طينتهم من طينتي ما لقوم يوذوني فيهم لا انالهم اللّه شفاعتي
اقول: وتاويل آية اولى الارحام بذلك بالغ حدّ التواتر وفيما نقلناه الكفاية كنموذج.

ومن ثم تنتقل الاولوية بالرحم عن عنوانها المشير بعد الإمرة المعصومة، الى الاولوية بالشورى، وأولوية الشورى فى إمرة السياسة والفتوى، ف ـ «اولوا الارحام» عنوان مشير فى الإمرة المعصومة المنتصبة حيث الرحم ـ فقط ـ ليس ليختص بنفسه الإمرة إلاّ للأصلحية المنضمَّة إليه وهى الأصيلة، ثم هو فى الميراث عنوان للحكم بالاولوية فيه حيث الرحم وقربه هو موضوع الحكم لكونه الرحم، وهو فى إمرة الشورى عوان بين الاشارة والموضوعية، اشارة الى الاقربين إلى أهل بيت الرسالة علما وتقوى ارحاما وغير ارحام، وهى بنفسها الموضوعية حيث الاقربية إليهم فى روحية الرحم هى موضوع الاصلحية فى الإمرة.

ف ـ «اولوا الارحام» تعنى اولى ارحام النبى صلى‌الله‌عليه‌وآله نسبيا وروحيا، ثم اولى ارحامه روحيا، ومن ثم اولى ارحام المؤمنين نسبيا، تجمع هذه الثلاث وتعنيها، قضية المناسبة فى ادب اللفظ وحدب المعنى!.

ترى اذ تعنى الآية فيما تعنيه الاولوية بالإمرة بين اولى ارحام الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله فلماذا «اولى ببعض» لا «من بعض»؟ ـ لانها تعنى اولويات عدة هذه منها فلذوى ارحام الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله اولوية الإمرة من غيرهم، ومن بينهم انفسهم، وكذلك الاولوية فى الميراث بين اولى الارحام ككلٍّ من المؤمنين والمهاجرين نسخا للتوارث بالاخوة، ومن بينهم انفسهم الاقرب فالاقرب.

ف ـ «اولى ببعض من..» هنا تعنى اولوية فى الامر عكس ما كان «النبى اولى بالمؤمنين من انفسهم» انهم اولى بالنبى فى امرته بعده من غيرهم، وبعضهم اولى ببعض فى ميراث الإمرة من غيرهم، فعلى اولى بالنبى صلى‌الله‌عليه‌وآله من غيره كما الحسنان اولى بعلى من غيرهما وهلّم جرا الى قائمهم، اولوية ذات بعدين، ممن سوى اولى الارحام، وممن سواهم بينهم، الأقرب فالاقرب فيما يحملون من معنى الرسالة وحقيقتها.

وفي الملحقات الاحقاق ٣: ٤١٨ ذكر نزولها في علي وائمة اهل البيت جماعة من ائمة الحديث منهم الترمذي في مناقب مرتضوي ٦٢ نقل اتفاق المفسرين على نزولها في علي لانه الذي كان مؤمنا ومهاجرا وابن عمه ومنهم ابن مردويه في المناقب كما في كشف الغمة ٩٥.

فللاولوية واجهتان: خاصة تخص اولى ارحام النبى صلى‌الله‌عليه‌وآله بينهم انفسهم ومَن سواهم، وعامة تعم اولى الارحام كلهم فى اولوية الميراث تعنى تفاضلاً بينهم وبين من سواهم من المؤمنين والمهاجرين نسخا للتوارث بالأخوة، وتفاضلاً بينهم انفسهم بالقريب والأقرب، فانهم طبقات لا ترث كل تالية مع وجود السابقة، ضابطة عامة صارمة فى كل توارث. اللهم إلا فى الزوجين اذ يشاركان كل طبقات الميراث.

يومر محمد بخروجه عن الزمل
الى القيام الرسالى
مرجعية دينية وسياسية

«يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمْ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً»[1]

يؤمر نبى اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ـ بعد أمره بقراءة الوحى: «اقرأ بسم ربک» وبعد حمله الرسالة الكبرى ـ يؤمر هنا بالقيام ليلاً وبالسبح الطويل نهارا، ويؤمر فى المدثر بقيام الإنذار وتكبير الرب، وعلّ القيام الثانى هو السبح الطويل نهارا، والقيام لتهيؤ الثانى: «إن ناشئة الليل هى أشد وطأً وأقوم قليلاً. إن لک فى النهار سبحا طويلاً» فلعيش الرسول الاقدس حياته قياما دون فتور، وسبحا فى بحر المجتمع المتلاطم، لينجّى الغرقى فانه سفينة النجاة.

يوحى النص «المزمل» بأنه كان متزملاً حين الأمر، ولماذا؟ وفى رمضاء الحجاز! لا بد وأنه من وطأة وفجأة، أوطأة الوحى الثقيل الذى بزغ له قبل قليل؟ كما قيل[2] أم الحملة العنيفة السافرة فى وجهه من صناديد قريش؟[3] كما توحى له آيات من السورة: «واصبر على ما

---

[1]. ٧٣: ١ ـ ٢.

[2]. ادركته رجفة الوحي حتى جثى وهوى الى الارض وانطلق الى اهله يرجف يقول «زملوني. دثروني» ففعلوا وظل يرتجف مما به من الروع واذا جبرائيل يناديه «يا ايها المزمل. يا ايها المدثر».

[3]. الدر المنثور ٦: ٢٧٦ ـ اخرج البزار والطبراني في الاوسط وابو نعيم في الدلائل عن جابر قال اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا: سموا هذا الرجل اسما تصدر الناس عنه فقالوا: كاهن ـ قالوا ليس بكاهن، قالوا: مجنون ـ قالوا: ليس بمجنون ـ قالوا: ساحر ـ

يقولون.. ذرنى والمكذبين» فتزمل من رعشة الوطئة، فأمر بالقيامين فى المزمل والمدثر، قياما لتنفيذ الرسالة ومجابهة عراقيلها، دون أن يتزمل ويتدثر.

«قم» إنه لا يناسبک التزمل والتدثر، فليکن دثارک القيام وزميلک الإقدام ليلک ونهارک، «قم الليل إلا قليلا» قدر الضرورة الذى يساعدک فى قيامک، فليکن مبدؤک القيام حتى فى أوقات المنام رغم أن الناس نيام.

أنت تتلفف بثوب لتنام دفعا لهمّ الإيذاء، وغم الاستهزاء، وتخفيفا من وقعة الوحى؟ لا! بل عليک القيام، والإستعانة بالصبر والصلاة ومکافحة الکروب العظام، والنوائب الجسام.

«قم الليل إلا قليلاً» قم للأمر العظيم والقول الثقيل الذى سيلقى عليک، والعبىء المهيأ لک، قم فقد مضى وقت النوم، قم فأنت لست لتعيش لنفسک، ولقد عرف الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله هذا الأمر مسبقا من ملامح الوحى وقدّره، فقال لخديجة رضی‌الله‌عنه ـ وهى تدعوه أن يطمئن وينام ـ: «مضى عهد النوم يا خديجة»!.

أجل ـ انه مضى وما عاد منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهاد الشاق والسبح الطويل فى بحر المجتمع المتلاطم.

«قُمْ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ»[1]

يخيَّر نبى اللّه فى قيام الليل ونومه بين مقادير أربعة: ١ ـ قيام الليل إلا قليلاً: ثلثيه فما فوق، فأكثر القليل منه ثلثة ثم أقل وأقل[2] ٢ ـ نصفه، وهو ليس قليلا من الليل، وإنما نصفه عدلاً بين قيامه ونومه إذا احتاج اليه، ٣ ـ أقل من النصف، أن ينقص من نصف القيام قليلاً ٤ ـ أكثر من النصف أن يزيد على نصف القيام، فأكثر الواجب فى قيامه من ثلثى الليل وما فوقها، وأقله أقل من النصف قليلاً، وبينهما متوسطات ومنها نصفه.

قالوا: ليس بساحر ـ قالوا: يفرق بين الحبيب وحبيبه فتفرق المشركون على ذلك فبلغ ذلك النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله فتزمل في ثيابه وتدثر فيها فأتاه جبرائيل فقال: يا ايها المزمل يا ايها المدثر.
تفسير الفرقان ـ ج ٢٩ ـ م ١٤

[1]. ٧٣: ٢ ـ ٤.

[2]. فما يروى ان القليل المستثنى من الليل هو نصفه خطأٌ او جهل من الروات لا المروي عنه كما رواه في المجمع عن الصادق عليه‌السلام قال: القليل النصف.

نرى التركيز هنا وهناک على قيام الليل ـ أيا كان ـ دون تصريح بنومه الا ايحاء الضمائر: «قم الليل إلا قليلاً» ابتداء بقيام ثلثى الليل، ثم «نصفه» أو قم نصفه «أو انقص منه قليلاً»: انقص من نصف القيام قليلاً «أو زد عليه»: زد على نصف القيام، فنصيب النقص ليس إلا قليلا، ونصيب الزيادة إلا قدر المستطاع.

فطالما الليل سكن ونوم للناس لاستراحة البدن، ولكنه قيام لرسول اللّه إلى الناس ليشد وطأه ويقيم قيله، تأزيرا لقوة القلب والروح، وتقويما لنطق اللسان.

فعلى رسول اللّه قيام الليل قدر المستطاع، كله أحيانا وأكثره أخرى ونصفه أحيانا وينقص منه قليلاً أخرى، ولكنما الزيادة على النصف قدر المستطاع هو المرغوب الأصل «أو زد عليه».

فأكثر الواجب إذا قيامه ثلثى الليل «قم الليل إلا قليلاً» كما ويؤيده «إن ربک يعلهم أنک تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه» فليكن الواجب مخيرا بين ثلثيه ونصفه وثلثيه فأقله ثلث الليل «أو انقص منه قليلاً» فنقص القليل من النصف ثلث النصف، فيبقى ثلث الليل.[1]

«أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً»[2] ولماذا ثلثا الليل، ولماذا الزيادة على النصف والنصف أيضا، الصلاة الليل ولا تشغل إلا سويعات؟ كلا ـ وإنما الزيادة لترتيل القرآن، تخلقا بأخلاق اللّه فى تنزيله: «وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً»[3] وفى ترتيله: «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلک لنثبّت به فؤادک ورتلناه ترتيلاً».[4]

وترتيل القرآن هو ارساله بسهولة واستقامة، سهل التعبير، مستقيم المعنى وكما يروى عن النبى صلىاللهعليهوآله «إذا قرأت القرآن فرتله ترتيلا وبيّنه تبيينا، لا تنثره نثر الدقل ولا تهذّه هذّ

---

[1]. نفرض ان الليل ١٢ ساعة فنصفه ٦ ساعات فاذا نقص منها ساعتان يبقى اربع ساعات وهي نصف الليل المفروض.

[2]. ٧٣: ٤.

[3]. ١٧: ١٠٦.

[4]. ٢٥: ٣٢.

الشعر، قفوا عند عجائبه وحرّكوا به القلوب، ولا يكونن همّ أحدكم آخر السورة».[1]

أقول: وهذا من مقربات الفهم ومجذبات الإتباع، فقد فرق اللّه القرآن طوال البعثة دون أن ينزله جملة واحدة، ليثبت به فؤاد الرسول وليقرأه على الناس على مكث، ورتله عليه بتسهيل التعبير والمعنى ليرتله هو أيضا ترتيلاً، وهو يعم اللفظ والمعنى تعبيرا وأداءً وسبكا وكيفية،[2] كل ذلك لسهولة الإلقاء والتلقى متحللاً عن كافة الصعوبات هنا وهناک، وهذا هو معنى الإعجاز فى فصاحة التعبير وبلاغة المعنى، فليس التشابه فى بعض الآيات من قصور الدلالة، وإنما من قصور المستدل ونبوغ المعنى، وعلى حد تعبير الامام الرضا عليه‌السلام «المتشابه ما اشتبه علمه على جاهله».

﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْکَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[3] فما هذا القول الثقيل الذى سيلقى عليه، ولكى يتلقاه عليه أن يقوم لياليه مصليا مرتلا للقرآن؟.

هل هو القرآن ولو بعضا منه؟ وقد نزل عليه بعضه وأمر بترتيله! أم هو البعض الباقى: أكثره؟ فما هو الفرق بين قليله وكثيره، وكله ثقيل بأى معنى قيل! أم هو القرآن المحكم النازل عليه ليلة القدر، بين هذه السورة وبينها أقل من شهرين؟ علّه هو، إضافة إلى باقى القرآن المفصل، ففى القرآن المحكم النازل عليه دفعة واحدة، الملقى عليه ليلة القدر، ان فيه ثقلاً ليس فى مفصله النازل عليه نجوما طوال البعثة، ثم يتلوه ثقل الباقى من مفصله وهو أكثره، وفى وحدة القول هنا «قولاً» وانه يلقى «سنلقى» شاهدٌ لفظى على أنه القرآن المحكم، إضافة إلى القرينة المعنوية المسبقة.

ان القرآن قول ثقيل لعظم قدره، ورجاحة فضله، وخلوده، دون أن يمسه نسخ أو تحريف، وقد يثقل الأمة المتمسكة بحبله، المنفذة لأحكامه، ولذلک سماه الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله أكبر الثقلين

---

[1]. الر المنثور ٦: ٢٧٧ اخرجه الديلمي عن ابن عباس مرفوعا عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله واخرجه العسكري في المواعظ عن علي عليه‌السلام عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله.

[2]. وعن الامام الصادق عليه‌السلام ان الترتيل هو ان تتمكث فيه وتحسن به صوتك، وفي الدر المنثور ٦: ٢٧٧ عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: يقال لصاحب القرآن يوم القيامة اقرا وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فان منزلتك عند آخر آية تقرؤها وفيه سئل صلى‌الله‌عليه‌وآله اي الناس احسن قراءة؟ قال: الذي اذا سمعته يقرا رايت انه يخشى اللّه.

[3]. ٧٣: ٥.

وأعظمها وأطولهما وأتمهما فيما تواتر عنه، وسمى عترته الثقل الأصغر.

ولقد كان القرآن ثقيلا لدى اللّه فى أم الكتاب «وانه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم»[1] فعُلوّه هناک وحكمته: ثقله، ثم نزل ليلة القدر دفعة، ثم طوال البعثة نجوما، نزل ثقيلا على الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله حيث يقول: «فما من مرة يوحى إلىّ إلا ظننت أن نفسى تقبض»[2] «فانه كان يتغير حاله عند نزوله ويعرق، وإذا كان راكبا تبرک راحلته ولا تستطيع المشى»[3] وهذا ثقله فى القرآن المفصل، ثم القرآن المحكم المجمل النازل ليلة القدر يزداده ثقلين ١ ـ نزوله دفعة دون تفاصيل، ٢ ـ القاءه عليه دون وساطة ملک الوحى، إذ لم يكن بينه وبين اللّه أحد، إذ فالقول الثقيل الذى سيلقى عليه هو القرآن المحكم، إضافة إلى باقى المفصل النازل عليه مفصلا: ثقلا على ثقل.

هذا ثقله فى وحيه وقبله، ثم هو ثقيل فى ميزان الحق ـ فان موازينه ثقيلة لا تخف أبدا ـ ثقيل فى تطبيقه، ثقيل على الاخفّاء الناكرين له، فلا بد من ثقله فى قلبه المنير لحدّ يفرغ قلبه عما سواه من مقال كما فرغ عمن سوى اللّه، ولقد أثر فى قلبه هكذا ولحدّ كان يثقل على قالبه، فصاحب هذا القلب بحاجة فى تلقى هذا الفيض الثقيل إلى مِراس فى تزكية قلبه بقيام لياليه بترتيله وذكر اللّه.

هذا هو القول الثقيل، فإن القرآن ليس فى معناه ثقيلاً ولا فى تفهمه وتذكره: «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر» فقوله ـ إذا ـ ثقيل من حيث المقول، وكيفية إلقائه، وعرقلات تنفيذه.

إنه لا بد للرسول إلى الناس كافة ـ وكثير منهم من النسناس ـ أن يحمل هذا القول الثقيل، لأن التعامل مع الحقائق الكونية الكبرى ثقيل، والإستقامة على هذه الرسالة الشاملة الأخيرة وراءَ الهواتف والجواذب والمعوقات والعراقيل، إنها لثقيل ثقيل، فلا بد له فى ميادين الكفاح

---

[1]. ٤٣: ٤.

[2]. الدر المنثور ٦: ٢٧٨ عن عائشة عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله.

[3]. نور الثقلين ٥: ٤٤٧ عن عبداللّه بن عمر.

من حمل هذا القول الثقيل، فليتزود من قيام الليل لتلقى هذا الثقيل، ولكى يسبح فى نهاره الطويل الطويل سبحا طويلاً.

«إنا سنلقى عليک قولاً ثقيلاً» ثقيل المصدر والصدور، ثقيل المحتد والدوام، ثقيل المنزل والنزول، ثقيل التنفيذ مستحيل الأفول، على سلاسة تعبيره، ونفاذ أمره وعبيره.

«إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً».[1]

فرض عليک ـ کرسول إلى الناس کافة ـ قيام الليل لدوافع ومنافع عدة: ١ ـ «إنا سنلقى عليک قولاً ثقيلاً» فلا بد له من التهيؤ، ٢ ـ «إن لک فى النهار سبحا طويلاً» لا يبقى لک معه مجال القيام بالصلاة وترتيل القرآن، ٣ ـ «إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلاً»: فناشئة الليل هى العبادة التى تنشأ بعد العشاء، نشوءَ النور فى الظلام، فالعبادة التى هى وليدة الليل وناشئته، تفضل على عبادة النهار من حيث الوطء والقيل، ولقد کان قيام الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله بعد العشاء بسويعات منامه القليل، وهو اذ أمر بقيام الليل کان أمرا بقيامه: عن النوم، وبالعبادة، تهجدا فى أثنائه، وترتيلاً للقرآن فى آنائه.

«هى أشد وطأ»: مواطاة: يواطىء فيها السمعُ القلبَ، واللسانُ العمل، لقلة الشواغل العارضة، واللوافت الصارفة، ولأن البال فيه أجمع، والقلب أفرغ، فالقراءة فيه أقوم، والصلاة اسلم.

هى أشد مواطأة هکذا، ولأنها أشد وطأة: أوعث مقاما وأصعب مراما، فان مغالبة هتاف النوم وجاذبية الفراش، بعد کدّ النهار وسبحه الطويل، لها وطأتها وشدتها التى لا يطيقها إلا المخلَصون، فناشئة الليل ووطأته أشد.

«وأقوم قيلاً» لأن قيله ثقيل إلا على الخاشعين، وأنه يصدر من لباب القلب وخالق القلب أعلم بمداخله و أوتاره، وما يتسرب اليه ويوقع عليه، وأى الأوقات يکون فيها أکثر تفتحا واستعدادا، فللصلاة فيها خشوعها، وللمناجاة شفافيتها ولترتيل القرآن نورانيتها: إذا فوطأتها أشد، وقيلها أقوم، فإعدادها لسبح النهار ـ الطويل ـ أتم.

«إِنَّ لَکَ فِى اَلنَّهَارِ سَبْحا طَوِيلاً»[1] ولا يناسب السبح إلا فى غمرات المياه المضطربة الواسعة

---

[1]. ٧٣: ٦.

الفسيحة، فان لک اضطرابا فی غمرات المجتمع، وتقلبا فی هجماته، ومتصرفا ومتسعا، ومذهبا منفسحا، تقتضی فیه أوطارک، وتبلغ مآربک، وتنجی الغرقی من ورطات الغمرات العمیقة، وتحارب أمواجه الضاربة فی الأعماق المضطربة، فهذا السبح الطویل فی نهارک، بحاجة إلی تسبیح طویل فی لیلک، تسبیح یعدک للسبح، ولکی تنجو من ورطاته، وتنجی الناس جمیعا من غمراته، فانک سفینة النجاة!.

«وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً»[2]: فقیامه صلی‌الله‌علیه‌وآله یشمل ناشئة اللیل، بصلاته وترتیل القرآن، وذکر اسم الرب، والتبتل الیه تبتیلاً، ولیأخذها زادا فی سبحه الطویل.

«واذکر اسم ربک»: ولأنک تحمل فی رسالتک بلاغ الربوبیة والتربیة الإلهیة، فعلیک أن تذکر اسم ربک بقلبک، فهو مصدر الذکر ومورده أولاً وبقالبک: بلسانک وجوارحک وفی کافة تصرفاتک، ذکر القلب الحاضر مع اللسان الذاکر، واکمله الصلاة فأنها کلها ذکر اللّه وتحمیده وتمجیده وتعظیمه بالأقوال والأفعال والإشارات.

«وتبتل الیه تبتیلا» .. هکذا ذکرٍ شامل کامل یبتِّلک إلی ربک، فالانقطاع إلی اللّه علی قدر الواقع من ذکر اللّه، والتبتل إلی الرب هو الانقطاع الکلی عما سواه والاتجاه التام الیه، والإنفلات من کل شاغل وخاطر، لکنما المرجو من تبتلک أن یحمل معه التبتیل «وتبتل الیه تبتیلاً» لا «تبتلا» تبتلا لک یحمل تبتیلاً لمن أرسلت الیهم، فکما کان قیامک باللیل تهیؤا لتلقی القول الثقیل، ولتسبح نهارک الطویل، کذلک لیکن تبتلک للتبتیل.

فلیس الإتیان بالتبتیل هنا لمجرد رعایة الوزن والتجمیل «طویلا. تبتیلا» فالقرآن کتاب معنی قبل أن یحمل الوزن فی التعبیر، وقد یناسب وزن المعنی وزن التعبیر کما هنا «وتبتل الیه تبتیلا» تبتلا ینحو فی طیاته منحی التبتیل لتنقطع إلی اللّه، لک کمحمد، وللمرسل الیهم کرسول، فکما علی الرسول أن یتبنی شخصه لیصلح الرسالة ضمن صناعة نفسه کعبد شکور، فعلیه ـ کرسول ـ أن یتبنّی المجتمع الذی أرسل الیهم.

---

[1]. ٧٣: ٧.

[2]. ٧٣: ٨.

ثم هناک نکتة أخرى هى أدق وأرقى: أن المنقطع إلى اللّه مشغول عما سواه والمنقطع إلى ما سوى اللّه مشغول عن اللّه، فالجمع بين التبتل ـ وهو الاشتغال التام باللّه ـ وبين التبتيل، وهو الاشتغال بغير اللّه ليقطعهم عما سوى اللّه: ان هذا الجمع لصعب مستصعب، لكنما الرسول يؤمر فى تبتله بالتبتيل، ففى حين انه مشتغل باللّه عما سواه، إنه يشتغل بما سواه لتوجيههم إلى اللّه، وهذا هو مقام الجمع فى الوحدة والوحدة فى الجمع، يسبح نهاره طويلا فى الدعوة إلى اللّه، ويلاقى الصعوبات والحرمانات فى اللّه، وهو متبتل إلى اللّه ومبتِّل سواه عما سوى اللّه، فذكره ذكر واحد، وعمله واحد، طالما يختلف فى صور الصلاة وترتيل القرآن وذكر اللّه، وفى الجهاد والدعوة إلى اللّه، فإنه ينحو فى هذا السبح الطويل منحى اللّه، فتبتُّله تبتيل، وتبتيله تبتُّل!.

ولطيفة ثالثة: هى أن التبتل هو تقبل للبتْل، والتبتيل هو فعله، فقد يعنى بالأول قبوله العصمة الإلهية فى انقطاعه إلى اللّه، وبالثانى محاولته لانقطاعه من سوى الله سواه إلى اللّه، والنتيجة ان انقطاعه الخاص إلى اللّه ليس من فعله هو فحسب، وليس تسييرا إلهيا فحسب، وإنما هو أمر بين أمرين، جذبة إلهية متممة لمحاولة الانجذاب والانقطاع إلى اللّه، وكما العصمة فى كل مراحلها ليت إلهية خالصة ولا بشرية خالصة، إنما هى سعى حسب المستطاع من المعصوم فى البداية، ثم جذبة الهية، ثم سعى ثان يوافق ويساير تلک العصمة الخاصة الإلهية.

فحاصل المعنى من الآية أنه صلى‌الله‌عليه‌وآله أمر بتبتل التبتيل: ينقطع إلى اللّه على ضوءِ توفيق اللّه، وسعيه هو كما يناسب تبتل العصمة، وفى نفس الوقت يبتِّل غيره الى اللّه، ثم لا يشغله الاشتغال بغير اللّه فى رسالته، عن اللّه، معان ثلاثة هامة تعنى من كلمات ثلاث «وتبتل إليه تبتيلاً».

وليكن كذلک «واذكر اسم ربک»: انه ذكره تعالى فى نفسه وأعماله وعلاقاته الشخصية مع اللّه «واذكر ربک فى نفسک» وذكره فى نفس الوقت لمن أرسل اليهم «وقل لهم فى أنفسهم

قولاً بليغا[1] دون تفاوت بين الذكرين، فانهما ذكر واحد للّه، كما ان تبتله واحد للّه.

«رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً».[2]

لئن سئلت: لماذا التبتل اليه وحده لا سواه؟ فالجواب أنه «ربک» لا فقط بل و«رب المشرق والمغرب»: العالم كله بما أنه لا يخلو من شارق وغارب أيا كان، فالكون كله بين مشرق ومغرب، لا يخلو عنها أى كائن، ولأنه رب الكائنات أجمع. ف «لا إله إلا هو» ولربوبيته المطلقة وألوهيته الوحيدة «فاتخذه وكيلاً» فالتوكل عليه هو التوكل على القوة الوحيدة فى الكون كله، وهو وحده الثمرة المباشرة للاعتراف بوحدانيته، والرسول المنادى بالقيام وبالسبح الطويل نهار الدعوة، إنه فى حاجة ماسة لعبئة الثقيل فى طريقه الشاق الطويل، إلى تبتل إلى ربه وتوكل عليه، ولكى يكافح كافة العراقيل فى سبيله.

بديهى أن الانسان وكل كائن أيا كان، لا يستطيع أن يحيى حياة سعيدة ويُحيى غيره بها، بطاقاته الشخصية، فلا بد له من وكلاء وأعون، وبما أن من سوى اللّه كيانهم الفقر إلى اللّه، لا يملكون إلا ما ملّكهم اللّه، فلا غنى فى توكيلهم مهما كانوا أقوياء، فهم بين قاصر ومقصر، فكيف يتوكل عليهم وإنما اللّه وحده هو الذى يحق أن يُتخذ وكيلا، ولا يَتخذ هو وكيلا، وبينما نحن موكِّلون وموكَّلون، لم يكن اللّه إلا وكيلا، فيما اتخذناه وكيلا وما لم نتخذه وكيلا: فالوكالة هى الاعتماد ـ فيما تقصر عنه القدرة والعلم والحياة ـ على من له هذه القدرات أكثر من الموكل، أو ما يقصر عنه الوقت لكثرة الأشغال، والخلق كلهم قاصرون فى هذه وتلك: مهما كان البعض أقوى من البعض، ولذلک يتوكل الضعيف على القوى، ولكنه لا غنى فى هذه الوكالة القاصرة، وإنما الوكالة الإلهية هى الكافية الكافلة لما نبغيه، بعد ما كلّت مساعينا عن الوصول إلى المأمول، ما لم يكن خلاف الحق والمصلحة: «ومن يتوكل على اللّه فهو حسبه إن اللّه بالغ أمره قد جعل اللّه لكل شىء قدرا».[3]

---

[1]. ٤: ٦٣.

[2]. ٧٣: ٨.

[3]. ٦٥: ٣.

إن أسس الوكالة الناجحة غير الفاشلة، لا توجد إلا فى اللّه لا سواه: من سعة العلم: «وسع ربنا كل شىء علما على اللّه توكلنا»[١] والعزة والحكمة: «ومن يتوكل على اللّه فان اللّه عزيز حكيم»[٢] والحكم فى التكوين والتشريع: «إن الحكم إلا للّه عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون»[٣] وانه المرجع للأمر كله: «وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه»[٤] ولحياته السرمدية: «وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده»[٥] وبصورة جامعة لأنه اللّه لا إله إلا هو كما فى عشرات الآيات، وهو خالق كل شىء وبذلک هو الوكيل على كل شىء دون توكل، وعلى ما نبغيه مما له نسعى وإياه نطلب بالتوكل: «خالق كل شىء فاعبده وهو على كل شىء وكيل»[٦] فلولا وكالته تعالى على كل شىء لخرجت إلى اللاشىء، ولولا التوكل عليه لكلت المساعى دون الوصول إلى ما نبغيه من شىء.

إنه ليست هناک وكالة إلهية لأحد على أحد ولا للرسول: «إنما أنت نذير واللّه على كل شىء وكيل»[٧] اللهم إلا وكالات فاشلة جزئية لا غنى فيها عن الوكالة الإلهية، ولا تعنى وكالةُ اللّه بطلان المساعى والأسباب، وإنما نقصانها، ولذلک تتم الأسباب والمساعى بالتوكل على اللّه خالق الأسباب والساعين «وكفى باللّه وكيلا».[٨]

فالمسموح فيه هو السعى وتوكيل الغير بغية الوصول إلى المأمول، والمحظور هو التوكل على غير اللّه، على نفسه أم سواه، فاللّه يُوكّلَّ ويتوكَّلُّ عليه، ومَن سواه يوكل ولا يتوكل

---

[١]. ٧: ٨٩.م

[٢]. ٨: ٤٩.

[٣]. ١٢: ٦٧.

[٤]. ١١: ١٢٣.

[٥]. ٢٥: ٥٨.

[٦]. ٦: ١٠٢.

[٧]. ١١: ١٢.

[٨]. ٤: ٨١.

عليه، وعلينا وكلاء وموكلين جميعا أن نتوكل على اللّه فى إطارات ثلاث: نتوكل عليه فيما نعمل رجاء النجاح، ونتوكل عليه فيما نأمل من وكلائنا، ويتوكل وكلائنا على اللّه فيما توكلوا فيه من موكليهم، فإليه يرجع الأمر كله. وكفى باللّه وكيلا.

﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرا جَمِيلاً * وَذَرْنِى وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾.[1]

إن الصبر على تقولات الكافرين، وهجرهم هجرا جميلا، وعلى تكذيبهم لهذه الرسالة السامية، كل ذلك دليل أن المزمل نزلت بعد المدثر، نزلت بعد ظهور الدعوة ومجابهتها العراقيل ونعرات الفرية والتكذيب، كما وان السبح الطويل نهاره، دليل على أن المزمل نازلة بعد تطبيقه القيام السافر العام فى المأمور به فى المدثر، وبذلك تؤيد الرواية الثانية أنه صلى‌الله‌عليه‌وآله تزمل ذعرا ساخطا على تقولات قريش فى ندوتهم الكافرة: انه ساحر أو مجنون نتربص به ريب المنون.

فهنا يؤمر الرسول بالصبر والهجر الجميل والتمهيل القليل، بدل الجزع أو المقابلة بالمثل أو التنكيل، وانه صبرٌ لصالح الدعوة، لا صبر المسايرة والاستسلام، صبر يحمل كل جميل فى الدعوة، للداعى والمدعوين.

فالأمر بالصبر هنا يعنى عدم الجزع الدافع الى الفرار عنهم: ﴿فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت﴾[2] .. إذ ذهب مغاضبا﴾[3] خروجا عن الدعوة وفرارا عن المرسل اليهم، وكذلك عدم التزمل والوقوف عن الدعوة، أو النقص فيها والتهمل عنها: ﴿واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم اللّه﴾[4] وعدم التحزن عليهم: ﴿واصبر وما صبرك إلا باللّه ولا تحزن

---

[1]. ٧٣: ١٠ - ١١.

[2]. ٦٨: ٤٨.

[3]. ٢١: ٨٧.

[4]. ١٠: ١٠٩.

عليهم»[1] وعدم الاستعجال لهم بالدعاء عليهم: «فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم»[2] وأن يكون استقامة فى الدعوة واتكالاً فيها على نصر من اللّه: «واصبر لحكم ربک فانک بأعيننا»[3] لا صبر المسايرة والطاعة لهم والانفلات عن الدعوة: «فاصبر لحكم ربک ولا تطع منهم آثما أو كفورا».[4]

وأخيرا الصبر عليهم نظرة النقمة الإلهية على الصامدين منهم فى الكفر: «فاصبر صبرا جميلا. انهم يرونه بعيدا. ونراه قريبا».[5]

فالصبر منه جميل، كهذه، ومنه قبيح: كالصبر على هدر الأموال والنفوس وانتهاک الدين والناموس وجاه الظالمين، والصبر على نقص الدعوة وانتفاضها عن المدعوين والصبر على الظلم والضيم، والصبر على ما للانسان أن يدافع عنه: وإنما عليه الصبر الجميل والهجر الجميل والكلام الجميل والسكوت الجميل والنصيحة الجميلة التى تضم كل جميل فى الدعوة، وليس الهجر الجميل إلا هجرا عن الهجر والتنكيل حتى يحكم اللّه، والهجر فى تقولاتهم اللاذعة، عن المقابلة بالمثل، ولا خروجا عنهم وعن دعوتهم.

إن الرسول الأقدس صلی‌الله‌علیه‌وآله لم يكن ليحارب المكذبين بداية الدعوة، لقلة العَدد والعُدَّة، ولما تكمل الدعوة! ولذلک أمر بتأجيل الجهاد إلى زمن الهجرة، حين تكمل العدة والعدة: «واتبع ما يوحى اليک حتى يحكم اللّه»[6] وقد حكم اللّه بالجهاد منذ الهجرة، وحكم على الكافرين بالنار منذ الموت وليوم القيامة، ولقد كانت أخلاقه صلی‌الله‌علیه‌وآله جميلة مع الناس كافة على طول الخط، لحد يعفو عن الكفار عند فتح مكة المكرمة وهم فى قبضته علهم يؤمنون،

---

[1]. ١٦: ١٢٧.

[2]. ٤٢: ٣٥.

[3]. ٥٢: ٤٨.

[4]. ٧٦: ٢٤.

[5]. ٧٠: ٦.

[6]. ١٠: ١٠٩.

أو يندمون على ما فعلوا وافتعلوا.

«وذرنى والمكذبين أولى النعمة» الذين يزدادون تكذيبا لأنهم مترفون: والنَّعمة هى التنعم مـرة، وهى هنا الحياة الدنيا، والنِّعمة هى الحالة الحسنة الشاملة للحياتين: «كـم تركـوا مـن جنـات وعيون. وزروع ومقام كريم. ونَعمة كانوا فيها فاكهين. كذلك وأورثناها قوما آخـرين»[1] ذلـك لأنهم «بدلوا نَعمة اللّه كفرا وأحلوا قومهم دار البوار» وهذا هو تبديل النِّعمة نَعمة عليهم ونقمـة «جهنم يصلونها وبئس القرار» ذرنى وإياهم، فأنا حسبهم.

«مهلهم قليلا» بينك وبين الهجرة الحاسمة جذورهم بالجهاد، وبينهم وبين قتلهم أو موتهم إلى عذاب النار وبئس القرار.

فلقد كان صبره جميلا على طول الخط، وامهاله القليل جملا، وكله بأخلاقه وتصرفاته جمـيلا أينما كان، فحق له قول اللّه «وإنک لعلى خلق عظيم».

فحمل الرسالة الإلهية وتنفيذها ببلاغها بحاجة إلى صبر جميل: صمودا واستقامة للوصول إلى المغزى فى سبيلها الشاق الطويل، فالصبر للرسول ـ هكذا ـ زاد وعتاد، وجُنة وسلاح، وملجأ وملاذ، بجانب ما عنده من وسائل الدعوة وتدابيرها، صبرا مع الـنفس وشـهواتها وانحرافاتهـا وضعفها وشرودها وعجلتها وقنوطها، وصبرا مع أعداء الدعوة وكيدهم، وصبرا مع المـؤمنين، على قلتهم، وقلة صبرهم، وكثرة استعجالهم، وصبرا مـع عامـة النفـوس التـى لا تخلـو مـن تسرعات فى حق أو باطل.

«ومهلهم قليلا» ولو مهلتهم عمر الدنيا فهو قليل، فكيف بأعمارهم التى ليسـت إلا قلـيلاً فـى قليل، وكيف بإمهالهم إلى زمن الهجرة و هو أقل من القليل، فلتصبر هناوهناک صبراً جمـيلا، ولتمهلهم قليلا:

«إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيما * وَطَعَاما ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابا أَلِيما».[2]

فلدينا من أنكال ما ليس لديک مهما كان نكالک عليهم شديداً.

---

[1]. ٤٤: ٢٨.

[2]. ٧٣: ١٢.

إن أنكال النار وقيودها وأغلالها هى التى قدموها لأنفسهم يوم الدنيا إذ كانوا انكالاً فى سبيل اللّه، وكانت عليهم اغلال الشهوات فاثّاقلوا إلى الأرض ورضوا بالحياة الدنيا من الآخرة، فأكملت شهواتهم يوم الدنيا، ثم ظهرت أنكالاً يوم الدين جزاءً وفاقاً.

«طعاماً ذا غصة»: الذى يمزق الحلوق و يحرق الحناجر، كما كانت حياتهم غصة و كان الحق شجى فى حلوقهم، كما كانوا شجى فى حلوق المؤمنين وقذى فى اعينهم، وبصيغة شاملة كانت حياتهم عذاباً أليماً على الدعوة والداعين والمدعوين، فانتقلت إلى عذاب أليم عليهم يوم الدين:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيبا مَهِيلاً﴾.[1]

رجفة الأرض والجبال - هذه: هى الرجفة الأولى المدمرة لها، ثم تتلوها الرجفة الثانية الرادفة لها، المحيية لأمواتها:﴿يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة﴾ ومواصلة الرجفتين تجعل الأولى كأنها الثانية، ولأنها بداية القيامة، فتعتبر الأولى - وهى رجفة الإماتة - كأنها يوم انكال، والطعام ذو غصة والعذاب الأليم، وهى كلها بعد الرجفة الثانياً: الإحياء!.

وعلى أثر هذه الرجفة المدمرة تصبح الجبال كأنها «كانت» منذ كانت «كثيباً مهيلا»: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزواللّه الواحد القهار﴾ والكثيب المهيل هى الرمل المتراكم المنقلب أسفله أعلاه، فكما تخرج أثقالها فى زلزالها، كذلک الجبال تقلب فى ترمّلها وتدمّرها، فتظهر قواعدها الأعماق رملا متراكما محترقاً.

فإذ تتفتت الأرض و تنهار، و تكثب الجبال و تحتار، فكيف إذاً تكون أحوال الناس المهازيل الضعاف فى قبضة العزيز القهار؟

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذا وَبِيلاً﴾.[2]

«رسولاً شاهدا عليكم»: تلقيا لما تقولون وتعملون وتفكرون يوم الدنيا وإلقاءً لهذه الشهادة

---

[1]. ٧٣: ١٣.

[2]. ٧٣: ١٥ - ١٦.

يوم الدين، فكما أن لكل أمة شهيد هو رسول لهم: كذلک ـ وبأحرى ـ رسولنا شاهد عليكم بأكمل معانى الشهادة، وشاهد كذلک على كافة الشهداء والمشهود عليهم يوم الدين: «ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بک شهيدا على هؤلاء»[1] فهو يتحمل شهادتهم يوم الدنيا ويؤديها كما تحمّل، يوم الدين.

«كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً» فرسالة محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله أشبه برسالة موسى ممن سواه، وكما تحكم بهذه المماثلة السامية آية تورانية تحمل بشارة مهمة للرسول الأقدس محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله وها هى باللغة العبرانية:

«نابىء آقيم لاهِم مِقِربْ إحيحِم كِمُوشِه ونَاتَتِّى دِبارى بِفِيو ويِدَبر إلو هيم إت كال أشِر أصَّونو».[2]

«نبيٌ أقيم لهم من أقرباء أخيهم كموسى وأضع كلامى فى فمه لكى يلغهم جميع ما آمره به».[3]

وهذه المماثلة هى فى استقلال الشريعة، وان كتابه من وحى اللّه لفظا ومعنى وفيما أصيب محمد من كفار قومه كما أصيب موسى من آل فرعون، فأخذه اللّه أخذا وبيلا: ثقيلا هو وابل العذاب كالمطر الجارف، وهنا الآية تتهدد العصاة الطغاة على الرسالة المحمدية بالأخذ الوبيل، يهزٌّ قلوبهم هزّا ساحقا، ويخلعها بعد رجفة الأرض وكثب الجبال المهيل، علهم يتذكرون ويحذرون من أخذة الدنيا والآخرة، فليأخذوا حذرهم بين الأخذتين فى هذه الحياة القصيرة، فليتقوا هنا بأس اللّه قبل أن يأتيهم:

«فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْما يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبا * السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً».[4]

ولنفرض أنكم اتقيتم عذاب اللّه يوم الدنيا، أم لم يأتكم فيها «فما كان اللّه ليعذبهم وأنت

---

[1]. ١٦: ٨٩.

[2]. سفر التثنية ١٨: ١٧.

[3]. التفصيل الى كتابنا «رسول الاسلام في الكتب السماوية» ص ٣٣.

[4]. ٧٣: ١٧ ـ ١٨.

فيهم» «فكيف تتقون إن كفرتم» ومتم على الكفر «يوما» يوم الرجفة الطامة التامة، من وقعته وشدته: «يجعل الولدان شيبا» فانه الهول الذى تنشق منه السماء وتخر الجبال هدّا، فكيف بالولدان الضعاف، فتراهم كأنهم شيب من بياض نواصيهم وانحداب ظهورهم، وانكماش جلودهم، لا لخطيئة اقترفوها فانهم قاصرون، وإنما هذه طبيعة هذا اليوم التى ترتسم فى الطبيعة الصامتة أيضا، ففى الانسانية الحيةَ اولى! وإذ يصبح الولدان شيبا وهم قاصرون فكيف بالكفار المذكبين وهم مقصرون، فهناك وقعة تتقى هى عذاب اللّه، تتقى بالإيمان باللّه، ووقعة لا تتقى، وليست هى عذابا، وإنما توحى بشدة بالغة لا تبقى ولا تذر، وهى رجفة الإماتة والتدمير، فالولدان الذين هم أطفال، لو جاز أن يشيبوا لرائع خطب، أو طارق كرب، لشابوا فى هذا اليوم لعظيم أهواله وفظاعة أحواله، وإنها وقعة هى كعذاب: «السماء منفطر به» تنفطر به السماء وتنشق وتكشط وترجع رجعا، فكيف لا يفطر هذا الإنسان الهزيل الذليل؟ «كان وعده مفعولاً» لا هوادة فيه ولا رجعة منه!:

«إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً».[1]

وإنها تذكرة بالغة لمن أراد أن يتذكر، فمن شاء الإدّكار اتخذ إلى ربه سبيلاً قدره، ومن شاء أن يسلك سبيلا إلى ربه فزادهُ أن يتذكر، إن السبل إلى اللّه كثيرة وكذلك إلى الشيطان: «وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله»[2] وأنجح السبل الى اللّه هو صراطه المستقيم، ثم ما دونه من السبل من حق اليقين وعين اليقين وعلم اليقين والظن، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى.

يؤمر محمد بخروجه عن تدثره
الى قيامه الرسالى
«سورة المدثر ـ مكية ـ وآياتها ست وخمسون»

---

[1]. ٧٣: ١٩.

[2]. ٦: ١٥٣.

«بِسْمِ اللّه الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ».[1]

إن المدثر من فواتح الوحى، فهى بعد الآيات الخمس الأولى من العلق، وعلها بعد الحمد أيضا، وإذ تحتمل السورة ـ كالكثير من أمثالها ـ عدم نزولها دفعة واحدة، لذلك فآيات التوعيد والتنديد بالوحيد، الذى كان بآيات اللّه عنيدا، والتى تتحدث عن سائر الكافرين، بعد الآيات السبع الأولى من السورة، إنها لا تتنافى وكون هذه السبع هى النازلة بداية الوحى المفصل، بعد الخمس من علق والسبع المثانى من الحمد أيضا.

«يا أيها المدثر»: لقد تدثر الرسول الأقدس صلى‌الله‌عليه‌وآله **إثر ما أوحيت اليه الخمس والسبع، تدثر من وقعة الوحى المفاجىءِ الثقيل، وعلى حدِّ المروى عنه** صلى‌الله‌عليه‌وآله **قال: «جاورت بحراء فلما قضيت جوارى فنوديت فنظرت عن يمينى فلم أر شيئا ونظرت عن شمالى فلم أر شيئا ونظرت خلفى فلم أر شيئا فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض، فجثثت منه رعبا فرجعت فقلت: دثرونى فدثرونى فنزلت «يا أيها المدثر»[2] هذا وكما كان متدثرا عن قيام البلاغ منذ كان حتى زمن الرسالة، فكان عليه ـ إذا ـ دثارا فوق دثار، فأمر بالتحلل عنهما إلى الإنذار.**

إن الدثار ما يلبس فوق الشعار وأصل المدثر والمتدثر تدثرا بثيابه لينام أو ليستدفىء، وما تدّثره فى الرمضاء، إلا لما أخذته من رعشة الوحى وهيبته، كأن زالت حرارته بغزارة الوحى ورعشته، فتدثر وكان حقه أن يتدثر، وبما أن مكوثه هكذا بداية الوحى ولو قليلاً، يخيل أنه مسموح له الدثار نوما أو تدفؤا، يؤمر آنذاك بالقيام عنه إلى الانذار، فلا عليه ولا له وهو رسول أن يكون نائما دثورا مستترا مستدفئا، وإن كان من وقعة الوحى، فليتعود القيام والإقدام طالما العراقيل تحول بينه وبين القيام، وليعش القيام حياته: روحيا وجسدانيا وعقليا وعمليا، وبكل ما يملكه وما ملّكه ربُّه من طاقات وإمكانيات، فالعمر قصير، والسير عسير،

---

[1]. ٧٤: ١ ـ ٤.

[2]. الدر المنثور ٦: ٢٨٠ عن جابر بن عبداللّه الانصاري، وفيه ان المدثر اول ما نزل من القرآن اي: بعد الخمس من العلق ويلمح له قوله صلى‌الله‌عليه‌وآله هنا «الذي جاءني بحراء» اذا فهذا مجيئه الثاني ـ وعلى الاول كان يحمل سورة الحمد اضافة الى الخمس كما تدل على البسملة بالبيان المسبق في سورة العلق.

ودافع القعود كثير، فلا يسمح له إذا ــ الدثار ــ أى دثار، دثار الجسم والروح، دثار الانذار والتبشير، فليتجرد عن الدُّثْر كلها، إلى الانذارات كلها.

وقد تتحمل السورة كلها أنها أنزلت بعد ما شاعت دعوة الرسول وواجهته السفاسف والأقاويل السوء: أنه مجنون أو كاهن أو شاعر، وكل ذلک من طواغيت قريش: أبو جهل وأبو لهب وأبو سفيان والنضر بن الحرث وأمية بن خلف والعاص بن وائل الوليد بن مغيرة الذى تسميه آيات الآتية وحيدا، وانتهى دور التكذيب اليه بما نقلته الآيات، فلما سمع رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ذلک اشتد عليه ورجع إلى بيته محزونا فتدثر بثوبه فأنزل اللّه السورة.

فهذه دثر ثلاثة تتحملها الآيات: دثاره قبل البعثة، ودثاره بداية الوحى من رعشته، ودثاره إثر هذه الهجمات، والرسول يؤمر فى هذه الدثر الثلاثة أن يقوم بالانذار مهما كان الدثار، قياما يستصغر فيه كل دوافع القعود وعراقيل الإنذار:

«قم» فلقد مضى وقت القعود والدثار، وحان زمن القيام والإنذار «قم» للّه قانتا بين الجموع المحتشدة الغافلة عن ذكر اللّه وطاعته ﴿وقوموا للّه قانتين﴾[1] وأقم الدين ﴿وان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾[2] واقم الوزن أيا كان ﴿وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾[3] ﴿واقم الصلاة﴾[4] فانها عمود الدين، قم وأقم واستقم ﴿فادع واستقم كما أمرت﴾.[5]

«فانذر» وليكن الانذار بداية القيام، فانه «قوما لدّا»، فان التبشير هو بعد الإنذار، بعد ما تلين القلوب للايمان وتتقى: ﴿فانما يسرناه بلسانک لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدّا﴾[6] ﴿لتنذر قوما

[1]. ٢: ٢٢٨.

[2]. ٤٢: ١٣.

[3]. ٥٥: ٩.

[4]. ١١: ١١٤.

[5]. ٤٢: ١٥.

[6]. ١٩: ٩٧.

ما أتاهم من نذير من قبلک»[1] فمن تأثر بالانذار فهو المنذر المبشر «إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب»[2] «انما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمان بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم».[3]

فلئن أثر الانذار كان بعده ومعه التبشير، وإلا فلماذا التبشير؟ والانذار هو اظهر ما فى الرسالات الإلهية، تنبيها للخطر القريب الذى يرصد الغافلين الشاردين السادرين فى الضلال، علهم يخافون العذاب الأليم، ومن ثم البشارة باللطف والعطف العميم.

«وربک فكبر» إن الفاء هنا توحى بشرطية مقدرة: «ان كان هو ربک فكبره» فلزام الايمان بربوبيته تكبيره كما يلائمها، وليس تكبيره فقط قول: اللّه أكبر فكثير هؤلاء الذين يقولونه ولا يكبرون الرب فى عقول مصغريه المشركين به ولا فى أعمالهم أنفسهم، فتكبير الرب غير التكبير لفظيا للرب، وإن كان يشمله قول «اللّه أكبر» كما يروى عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله.[4]

«وربک فكبر» ربک وحده؛ فهووحده الكبير المتعال الذى يستحق التكبير دون سواه، يوحى بهذا الإنحصار تقديم المفعول «ربک» على فعله «كبر» فكل شىء بجنب اللّه صغير، واللّه وحده هو الكبير، وكل صغير يكبر عرضيا بالتكبير، واللّه هو ذاته كبير، وإنما الأمر بالتكبير يعنى تعظيمه عند الجاهلين به أو المعاندين والناكرين له، تكبيرا فى عقولهم، بيانا للواقع، لا تكبيرا لواقعه، وليستعد الرسول خوضه فى هذه المعركة تصغيرا لكل كيد وكل حول وقوة وكل معاكسة وكل عقبة وعرقلة، تكريسا لكافة الطاقات العقلية والمنطقية وسواها، وليعلم الجاهلون باللّه والمتجاهلون، ان اللّه هو الكبير المتعال ـ ف «لم يكن ولى من الذل وكبره تكبيرا»:[5] تكبيرا يليق بساحته، ويصغر كل من سواه بجنبه، تكبيرا فى عقولهم وضمائرهم

---

[1]. ٢٨: ٤٦.

[2]. ٣٥: ١٨.

[3]. ٣٦: ١١.

[4]. الدر المنثور ٦: ٢٨١ ـ اخرج ابن مردويه عن ابي هريرة قلنا يا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله كيف نقول اذا دخلنا في الصلاة، فانزل اللّه «وربك فكبر» فامرنا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ان نفتتح الصلاة بالتكبير ـ اقول هذا هو النزول الثاني للاية، فانها نزلت اولا بداية الوحي قبل الصلاة وقبل ابي هريرة، وليس هذا الا من تطبيق الآية على ادنى مراحل التكبير.

[5]. ١٧: ١١١.

وفطَرهم وفكَرهم وواقع كيانهم فى تفكيرهم وتصرفاتهم، ولكى يرى ويلمس أنه الكبير المتعال فى خلقه فيعيشوا ذللا بجنبه وفى طاعته: «عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال»[1] المتعالى عن أن يكبر عن صغر، أو يتكبر عليه أحد ينازعه فى ملكه، أو يستقل عنه أحد فى كيانه ـ ف «هو العلى الكبير»[2] لا عن صغر مسبق ـ ف «إن اللّه كان عليا كبيرا»:[3] كينونة أزلية، لا يشاركه فيه أحد، وكما لا يعنى تكبير اللّه تعالى هنا أنه أكبر ممن سواه، فلا كبير سواه حتى يكون هو أكبر منه، وكذلک قول «اللّه أكبر» لا يعنيه، فان كونه أكبر من غيره تصغير له، وإشراک لغيره معه فى الكبر، وإنما يعنى ـ على حد تعبير باقر العلوم عليه‌السلام ـ «أنه أكبر من أن يوصف» وإن كان بوصف أنه أكبر ممن سواه!.

«وثيابک فطهر»: إن كانت هى ثيابک فطهرها: فالفطرة مجبولة على تطهيرها.

«ثياب ـ ک» و«ک» لا يختص البدن، وإنما يعمه والروح، والروح أحرى هنا، ولا سيما أن الخطاب موجَّه إلى الرسول صلى‌الله‌عليه‌و‌آله، والرسالة الإلهية هى روحانية المصدر والفعل والمفعول، طالما تشمل الناحية الجسدانية أيضا.

فلكل إنسان ثلاثة أثواب ١ ـ ثوب الجسد المتصل به، شعارا ودثارا، ٢ ـ ثوبه المنفصل عنه: زوجته التى اعتبرت لباسا كالعكس «هن لباس لكم وأنتم لباس لهن»٣ ـ وثوب الروح وهو لباس التقوى «يا أيها الناس إنا أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلک خير»[4] وهذه الطهارة الثلاثية للإنسان تجعله فى قمة الطهارة والنزاهة، فبإمكانه هجران الرجز كل رجز.

فمن طهارة الثياب تنظيفها عن الدنس والنجس، وترتيبها بحيث لا تتعرض للأدناس، كالثياب الطوال التى تجر الأرض فتتقذر هى، وتقذر أيضا خلق أصحابها إذ تخلق فيهم الخيلاء

---

[1]. ١٣: ٩.

[2]. ٢٢: ٦٢.

[3]. ٤: ٣٤.

[4]. ٧: ٢٦.

والكبرياء، وهذا من تفسير الظاهر للآية وكما فسرها أئمة أهل البيت عليهم السلام «فطهر ـ أى فقصر» وكما أن من تطهيرها أيضا لبسها بحيث لا تكون لباس الشهرة أو لهزء، تطهيرا لأصحابها عن التعرض للبهت والغيبة، وكذلك تطهيرها عن أن تكون من مصادر محرمة: سرقة أو خيانة أو بخسا أم أيا كان من وجوه الحرام.

هامة الامور الدينية والسياسية

شورى بينهم

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.[١]

بعد الإيمان باللّه فتوكل على اللّه واجتناب كبائر الإثم والفواحش والغفران إذا ما غضبوا، بعده هذه الخطوات الخمس إلى اللّه يأتى دور الإستجابة لربهم و.. ألأنهم لم يستجيبوا لربهم وحتى الآن؟ إذا فما هذا الإيمان بإيمان بما فيه جانبان إيجابيان وسلبيات ثلاث «آمنوا.. يتوكلون ـ يجتنبون.. واذا ما غضبوا..»؟!.

إن الإستجابة للرب هنا هى المَكينَة المتينة التى لا عوج لها، فكثير هؤلاء الذين يؤمنون وعلى ربهم يتوكلون، وكبائر الإثم والفواحش يجتنبون، وإذا ما غضبوا هم يغفرون، ولكنهم بعدُ لم يستجيبوا بكيانهم ككل لربهم، إلاّ أن يستجيبوا حقا تداوما لما استجابوا: ﴿الذين استجابوا للّه والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجرٌ عظيم﴾[٢] ﴿للذين استجابوا لربهم الحسنى..﴾[٣] استجابة لا تقف لحد العقيدة ومظاهر من الأعمال الإيمانية وإنما التى

---

[١]. ٤٢: ٣٨.

[٢]. ٣: ١٧٢.

[٣]. ١٣: ١٨.

تحيى: «يا أيها الذين آمنوا استجيبوا للّه وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم».[1]

هنا على محور الإستجابة لربهم يأتى دور إقام الصلاة أولاً كصِلة عريقة بين المستجيب وربه، ثم أمر جماعى لصالح المسلمين: «وأمرهم شورى بينهم» حفاظا على كيانهم، ومن ثم «ومما رزقناهم ينفقون» فى كلتا الصلتين الإلهية والبشريَة، تكريسا لكافة الإمكانيات.

«وأمرهم شورى بينهم».

آية لا ثانية لها فى القرآن كله إلاّ ما تأمر الرسول أن يشاورهم فى الأمر: «فبما رحمة مِّن اللّه لنت لهم ولو كنت فظّا غليظ القلب لانفضّوا من حولك فأعطف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكّل على اللّه إن اللّه يحب المتوكلين»[2] فهذه فى شورى الرسول معهم وتلك فى شوراهم فيما بينهم وأين شورى من شورى؟!.

ليست مشاورة الرسول إياهم فى الأمر إلا تشجيعا لهم وتدبيرا لحاجتهم إليه كمعلم يشاوَر، لا حاجة منه إليهم فإنه كرسولٍ وحيٌ كلُّه فكيف يشاور غيره فيتبعهم؟

ونص الآية «فإذا عزمت» يرجعُ الأمر إليه فى النهاية كما البداية[3] وكما قال صلى‌الله‌عليه‌و‌آله حين

---

[1]. ٨: ٢٤.

[2]. ٣: ١٥٩.

[3]. نور الثقلين ١: ٤٠٥ ح ٤١٤ في تفسير العياشي احمد بن محمد عن علي بن مهزيار قال: كتب الي ابو جعفر عليه‌السلام ان سل فلانا ان يشير علي ويتخير لنفسه فهو يعلم ما يجوز في بلده وكيف يعامل السلاطين فان المشورة مباركة قال اللّه لنبيه في محكم كتابه «.. وشاورهم في الامر..»فان كان ما يقول مما يجوز كنت أصوِّب رأيه وان كان غير ذلك رجوت ان اضعه على الطريق الواضح ان شاء اللّه «وشاورهم في الأمر» يعني الإستخارة.

وفي النسائي قسامة ٤٠ «ان النبي استشار الناس» وفي حم ٣ ـ ٢٤٣ «استشار رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌و‌آله في أسارى يوم بدر» أقول: ولا تعني استشارته إياهم إلا ما تعنيه استشارة اللّه إياه صلى‌الله‌عليه‌و‌آله كما في حم ٣٩٣/٥: «ان ربي تبارك وتعالى استشارني في أمتي».

وفي سنن الترمذي عن النبي صلى‌الله‌عليه‌و‌آله إذا كانت امراءكم خياركم واغنياءكم سمحاءكم واموركم شورى بينكم فظهر الأرض خير من بطنها.

وفي الوسائل ٨: ٢٢٤ عنه صلى‌الله‌عليه‌و‌آله استرشدوا العاقل ولا تعصوه فتندموا، وفيه عنه صلى‌الله‌عليه‌و‌آله لمّا سئل عن الحزم ما هو؟ قال صلى‌الله‌عليه‌و‌آله مشاورة ذو الرأي واتِّباعهم. وفيه ٨: ٤٠٩ عنه صلى‌الله‌عليه‌و‌آله لا مظاهرة أوثق من المشاورة ولا عقل كالتدبير.

وفي النهج الخطبة ٢١٤ عن الإمام علي عليه‌السلام فلا تكفوا عن مقالة بحق او مشورة بعدل.

وفي الوسائل ٨: ٤٢٩ في وصيته عليه‌السلام الى ابنه محمد بن الحنفية: اضمم آراء الرجال بعضها الى بعض ثم اختر اقربها من الصواب وابعدها من الارتياب قد خاطر بنفسه من استغنى برأيه ومن استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ.

وعنه عليه‌السلام واستشر العاقل من الرجال الورِع فإنه لا يأمر إلا بخير واياك والخلاف فان في مخالفة الورِع العاقل مفسده في الدين والدنيا.

وعن الامام زين العابدين في الحقوق الخمسين: واما حق المستشير فان حضرك له وجه رأي جهدت له في النصيحة واشرت عليه بما تعلم انك لو كنت مكانة عملت به وذلك ليكن منك في رحمة ولين فان اللين يؤنس الوحشة وان الغلطة يوحش موضع الانس وان لم يحضرك له رأي عرفت له من تثق برأيه وترضى به لنفسك دللته عليه وارشدته اليه فكنت تأله خيرا ولم تدخر نصحا ولا حول ولا قوة الا باللّه واما حق المشير عليك فلا تتهمه فيما وافقك عليه من رأيه اذا اشار عليك فانما هي الآراء وبصرف الناس فيها واختلافهم فكن في رأيه بالخيار اذ اتهمت رأيه فاما إتهمته فلا تجوز لك اذا كان عندك ممن يستحق المشاورة ولا تدع شكره على

نزلت هذه الآية: «أما إن اللّه ورسوله الغنيان عنها ولكن جعلها اللّه رحمة لأمتى من استشار منهم لم يعدم رشدا ومن تركها يعدم غيا».[1]

ان الرسول يحكم بين الناس بما اراه اللّه: «إنا أنزلنا إليک الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراک اللّه ولا تكن للخائنين خصيما»[2] ولا يعنى الحكم بينهم ـ فقط ـ أحكام العبادات والعلاقات الشخصية وإن كان يشملها، ولكن «بين الناس» تلمح او تصرح بالأحكام الجماعية، سياسية أمّاذا، إذا فاحكامه بين الناس كلها مما أراه اللّه، فهل هو بعدُ بحاجة إلى ما أراه الناس؟.

كل ما يقوله الرسول أو يفعله وحى يوحى «وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحى يوحى»[3] وإذا كانت صناعة فلك نوح بأعين الوحى وفيها نجاة الأبدان، أفليست إذا صناعة الأمة الإسلامية بقيادة حكيمة بأعين الوحى وفيها نجاة الأبدان والأرواح: «فاوحينا إليه أن إصنع الفلک بأعيننا ووحينا».[4]

وكيف يتبع الرسول رأى الشورى تاركا رأى الوحى و«إن أتبع إلاّ ما يوحى إلى..»[5]«قل إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون».[6]

ثم وكيف يكون للمؤمنين التقدم بين يدى اللّه ورسوله «يا ايها الذين آمنوا لا تُقدِّموا بين

ما بدا لك من إشخاص رأيه وحسن رأيه وحسن وجه مشورته فاذا وافقك حمدت اللّه وقبلت ذلك من اخيك بالشكر والارصاد بالمكافأة في مثلها ان فزع اليك ولا قوة الا باللّه، الوسائل ٨: ٤٢٦ وعنه صلى‌الله‌عليه‌وآله ما يستغني رجل من مشورة ومن أراد امرا فشاور فيه وقضى هدي لأرشد الامور وفي النهج باب الحكم الرقم ٣٢١ قال وقد اشار ابن عباس على الامام علي ما لم يوافق رأيه: لك ان تشير علي وأرى فإن عصيتك فاطعني.

[1]. كتاب الشورى بين النظرية والتطبيق ص ٣٠.

[2]. ٤: ١٠٥.

[3]. ٥٣: ٤.

[4]. ١٧: ٨٦.

[5]. ١٠: ١٥.

[6]. ٧: ٢٠٣.

يدى اللّه ورسوله.[1] «وربک يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان اللّه وتعالى عما يشركون».[2] «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى اللّه ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص اللّه ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينا».[3]

ثم وما هى المصلحة فى إرجاع أمر المسلمين إلى الشورى وبينهم الرسول والوحى متواتر يقضى كل حاجة، فلماذا يكلّف حامل الوحى أن يستوحى المؤمنين فى الأمر، هل فى أمر الرسالة؟ وهو وحى يوحى! أم أمر المرسل إليهم؟ ويكفيهم أمر الرسالة! أو أمر الأحكام ف «إن الحكم إلاّ للّه»[4] أم أمر القيادة السياسية وهو مما أراه اللّه!

فلا شورى يتخذ الرسول رأيها وإنما تشير الشورى لمن بعد الرسول والوحى منقطع كما يروى عن على عليه‌السلام: «قلت يا رسول اللّه الأمر ينزل بنا بعدک لم ينزل فيه قرآن ولم يُسمع منک فيه شىءٌ؟ قال: اجمعوا له العابد من أمتى واجعلوه بينكم شورى ولا تقضوه برأى واحد»[5] فهنا جمع للعابد من الأمة، أن يجعلوا أمرهم شورى بينهم، شورى جماهيرية تجمع العابد من أمة الاسلام لكى يتشاوروا فى المشكوک حكمه، ولا يعنى العابد القشرىّ المتقشِّف، وإنما الذى يعيش عبادة اللّه وطاعته، ويتبنَّى شرعة اللّه فى حياته علميا وعقائديا وأخلاقيا وعمليا أم ماذا.

فليس كل مسلم أهلاً للشورى فى الأحكام شرعية أو سياسية، وإنما الواجب على الجماعة المسلمة انتخاب النخبة العابدة ولكى يتشاوروا فيما يحتارون من أمر الأمة.

ثم «وأمرهم» يُبحث عنها فى أمرين: «هم» و«أمرهم» أما «هم»، فهم المؤمنون أجمع بسند

---

[1]. ٤٩: ١.

[2]. ٢٨: ٦٧.

[3]. ٢٣: ٣٦.

[4]. ٦: ٥٧.

[5]. الدر المنثور ٦: ١٠ اخرج الخطيب في رواة مالك عن علي رضى‌الله‌عنه قال:... اقول: هنا الرسول ناظر الى مجموعة المسلمين حيث ليس بينهم واحد من المعصومين، فليس يشمل واجب الشورى بين العابدين من امة الاسلام زمن الائمة المعصومين كما لا يشمل زمن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله.

الإيمان، وشورى بينهم هو أوضح سبل الإيمان، فلا يعنى إلاَّ أمر الإيمان.

وأما «امرهم» فهل تعنى شيئَهم فإنه من معانيه؟ ولا محصَّل له شيئا أيا كان!.

أم «أمرهم» وِجاه نهيهم؟ وليس إلاّ لأولى الأمر، ولا يختص أمـرهم بـالأمر فإنـه يعـم النهـى والأمر! وليس فيه شورى.

أم «امرهم» فى ولايهٔ الأمر؟ وهو تضييق لأمرهم دون دليل، مهما كان من أمرهم وأهمه!.

أم «أمرهم» هو فعلهم فى جانحهٔ وجارحهٔ، شخصيهٔ أم جماعيهٔ؟ وليس كل فعلهم بحاجهٔ إلى شورى بينهم! فمنه الواضح الذى لا غبار عليه، ومنه ما يتضح بتأمل دون حاجهٔ إلـى شـورى، ومنه ما لن يتضح على أيهٔ حال، ولا مجال فى هذه الثلاث للشورى.

ثم ومنه الغامض المختلَف فيه بينهم، من أمور شخصيهٔ أم جماعيهٔ، سياسـيهٔ وسـواها، فـلأن المؤمن غير المعصوم ـ أيا كان ـ ليس مطلقا فى العلم والعرفان فليستعِن بالشورى الصـالحهٔ، ومن أهم الأمور الإيمانيهٔ انتخاب النخبهٔ الصالحهٔ لقيادهٔ الأمهٔ فى كل مجالاتها، ومنها أحكـام القيادهٔ المختلف فيها، سواء السياسيهٔ منها والأحكاميهٔ، فإنهما من أصدق مصـاديق «أمـرهم» حيث يتطلبان «شورى بينهم» فلا أمرَ لهم هكذا إلاّ شورى بينهم، كما هو قضـيهٔ الحصـر فـى «وأمرهم شورى بينهم» فالأمر الذى يمضى دون شورى ليس إلاَّ إمرا وغيّا!.

و«الشورى» من شار العسل: إستخرجه مـن الوقْبـهٔ واجتنـاه، وأشـرنى علـى العسـل أعنِّـى، والمِشوَر: عود يكون مع مستشار العسل، فحُصالهٔ الشورى الإسلاميهٔ هى العُسالهٔ المسـتخرجهٔ من وقبهٔ آراء النخبهٔ الصالحهٔ.

وترى الشورى مصدر الشَّور، مثل الرُجعى؟ أو هو الأمر الذى يُتشاور فيه إسما لمادهٔ الشَّـور؟ أم هى فُعلى من الأشور صفهٔ للمراجعهٔ أو الحوار، ف «أمرهم ـ حوار ـ شـورى» يستشـيرون بعضُهم البعضَ ممن له رأى فى حوار متواصل شورى كأفضل وأحوط ما يكون، ولكى يتَّبـع من الأقوال أحسنها: «فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئک الـذين هـداهم اللّه وأولئک هم أولوا الألباب»[1] إذا فأمرهم لا يتخطى «شورى بينهم» أن يستبد أحدهم بِرهانه،

[1]. ٣٩: ١٨.

او يستقل ببرهانه، وإنما الشورى والشورى فقط هى سبيل المؤمنين فى معتركات الآراء الحيوية.

ترى وما هو أمرهم الشورى؟ هل هى الأمور الشخصية، أو الجماعية، أم هما؟ قد تعنيهما «أمرهم» حيث تعنى الجميع والمجموع، وهى لمكان «هم.. بينهم» نص فى المجموع ظاهر فى الجميع.

وما هو «أمرهم» حيث يتطلّب إيمانُهم أن يكون شورى بينهم؟ إنه ولاية أمر السياسة والديانة! حيث الأمر منه الإمارة، ومنه فعلهم، وطبعا لا كل فعلهم وإنما المشكوك صوابه ونجاحه، يزيحون شكه بشورى بينهم حيث يتبناها العلم والإيمان على ضوء القرآن والسنة، فليس كل أمرهم شورى، فمنه ضرورى الصواب لا يحتاج إلى شورى، وإنما أمرهم المشكوك صوابه بعد الإياس عن الحصول على صوابه من مَصادره، هذا الأمر شورى بينهم.

فالشورى إذا سبيل المؤمنين ومن أفضلها فيما لا سبيل إليه قاطعا ـ لتبين الحق، لا سيما فى الأمور الجماعية الإسلامية ـ إلاّ بالشورى الصالحة، سواءا أكان أمر الولاية الإسلامية من المرجعية الدينية والسياسية ومن سائر الأمور، ومن أهمها أمر الفتوى فى معترك آراء الفقهاء، فعليهم إزالة المفاصلات أو تقليلها بالشورى بين الرعيل الأعلى منهم، ولكى يُحصل على الوحدة بينهم، أو يؤخذ برأى الأكثر منهم، فاتّباعه هو اتباع الأحسن.

هذا النص على مكيته يتبنى حياتا جماعية متراصة فى دولة كريمة إسلامية تدير شؤونها الشوراآت الصالحة بين من لهم آراء صالحة، لكل حقلٍ أهلُه ولكلٍّ أهل حقله، أن يجعلوا أمرهم فى حوار بالتى هى أحسن لكى يستخرجوا رأيا صائبا ثاقبا ليس فيه خطأ أو يقل.

ولكى يتأدبوا بأدب الشورى ويتدربوا فيها يؤمر الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله على عصمته «وشاورهم فى الأمر» تدريبا لهم فيما عليهم كسبيل دائبة لا حِوَل عنها والرسول فيهم، فكيف إذا غاب عنهم وذووه المعصومون، فهم إذا بأمس الحاجة إلى الشورى.

والروايات القائلة أن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله شاورهم فى بعض الأمور فترك رأيه إلى آراء الاكثرية أمّاهيه، إنها مخالفة لعقلية الوحى الحافلة لكل المصالح الجماهيرية، الكافلة لحاجيات الأمة ومطاليبهم كما تخالف نصوصا من الكتاب والسنة.

و«امرهم شورى بينهم» تصبغ الحياة الإسلامية بهذه الصبغة المتكاملة المتكافلة لصالح المسلمين، كطابع مبتكَر ليس له مثيل، حيث المشاركون فى الشورى ليس فى كل أمر كل من يشهد الشهادتين، وإنما «العابد من أمتى» على حدّ تعبير الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله لكى يشير فيما يستشار بما عرفه من عقلية إسلامية أم ماذا.

فالشورى طابع ذاتى للجماعة المؤمنة، وسمة مميزة لهم، وسبيل إيمانى يسلكونها فى حياتهم «ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا».[1]

ليس يعنى «أمرهم شورى بينهم» ألاّ أمر لهم ولا شغل إلاّ شورى، وإنما الأمر الذى فيه يتحيرون، ويتخيرون لصوابه بعد قصور العقليات الفردية ولا سيما فى الأمور الجماعية، يتخيرونه «شورى بينهم» استخراجا لصالح الرأى من وقبة الآراء، كما يُستخرج العسل من وقبته فيصبح خالصا دون خليط، كذلك الأمر فى الشورى الصالحة.

والشورى فى أمور المسلمين درجات، شورى لصالح الجماعة المسلمة، وللدولة الإسلامية، وشورى لصالح الأفراد، وتلك ممتازة عن هذه وأهم منها أهمية الجماعة على الفرد، وفى القسمين لا شورى فى الضروريات المتفق عليها، وإنما فيما تختلف فيه الفُتيا لاختلاف الإستنباطات عن أدلتها، أحكاما شرعية أم سياسية، أصلية أم فى شاكلة تطبيقها، فليس الشكل الذى تتم به الشورى مصبوبا فى قوالب حديدية لا تتغير، وإنما يُترك للصورة الملائمة لكل زمان وبيئة، كما النّظُم الإسلامية كلها ليست أشكالاً جامدة.

فى الشوراآت الفردية إنما يستشار المؤتمن[2] الأخصَّائى فيما يستشار، وفى الجماعة انما يتشاور الجماعة المعنية العارفة بما يُتشاور فيه، ثم يؤخذ بالأكثر رأيا فإنه أحسن قولاً، ولا تعنى الأكثرية فى الكمية هنا إلاّ دعما للكثرة الكيفية.

فللشورى ضوابط عدة تجمعها «العابد من أمتى» كما فى حديث الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله حيث

---

[1]. ٤: ١١٥.

[2]. في د ـ ادب ١١٤ عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: المستشار مؤتمن وفي المجمع روي عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله: ما من رجل يشاور احدا إلاّ هدي الى الرشد ٥: ٥٨٤ نور الثقلين.

يتبنَّى طاعة اللّه وعبادته فى الشورى، أن تكون علـى خُبـرة وعقليـة وعلـم واطـلاع وأمانـة واضطلاع[1] ف «لا ظهير كالمشاورة»[2] إذا، كما أنها تكسر الظهر إذا لم تتوفر فيها شروطها.

وإذا كانت المشورة فى أمور شخصية بحاجة إلى هذه الضوابط، ففى الأمور الجماعيـة أحـق وأحرى.

فالشورى فى الفُتيا الأحكامية تقتضى الرعيل الأعلى من أهل الفتوى حتى يحاوروا فـى جـد واجتهاد وقوة وسداد للحصول على رأى واحد فأحسن، أو اكثرية فحسن، فاتباعها إذا إتبـاع للقول الأحسن، فلا يصلح إتباع رأى واحدا وإن كان أفضلهم.

كما الشورى فى الفُتيا السياسية تتطلب ذلك الرعيل من أهلها علـى ضـوء الكتـاب والسـنة، وهم نواب المجلس النيابى للشورى الإسلامية.

وبما أن الزمالة بين الدين والسياسة عريقة جوهرية أم هو هى وهى هو، فعلـى الرعيـل الأول أن يكونوا ساسة وإن لم يصبحوا بتلك المثابة، وإن كان الأخصائيون فى السياسـة الإسـلامية هم الأولوية من الأخصائيين فى الفُتيا الأحكاميـة، فـيحكم ـ إذا ـ الفقهـاء فقهيـا والساسـة سياسيا على رعاية الفقهاء الأحكاميين ف «العلماء حكام على الملوك والملوك حكـام علـى الناس» وكما نرى فى طالوت إذ بعثه اللّه ملكا على بنى اسرائيل لقيادة الحـرب علـى رعايـة نبى لهم.

ترى ومن ذا الذى يعرفهم فيعرِّفهم للجماعة المسلمة، من أولاء وهؤلاء حيث يجمعها «العابد من أمتى»؟ طبعا إنهم العارفون من المسلمين فى كل من الحقلـين «اجمعـوا لـه العابـد مـن

---

[1]. وفي الدر المنثور ٦: ١٠ قال رسول اللّه صلىاللهعليهوآله: من اراد امرا فشاور فيه وقضى هدي لأرشد الامور وقال سليمان بن داود عليهالسلام لابنه يا بني! عليك بخشية اللّه فانها اعانة كل شيء يا بني لا تقطع امرا حتى توامر مرشدا فانك اذا فعلت ذلك رشدت عليه يا بني عليك بالأول فان الاخير لا يعدله.
وفي سفينة البحار ٧١٨ عن الصادق عليهالسلام: لا تستشر السفلة في امرك واياك والخلاف فان خلاف الورِع العاقل مفسدة في الدين والدنيا وقيل لرسول اللّه صلىاللهعليهوآله ما الحزم؟ قال: مشاورة ذوا الرأي واتّباعهم وعن الصادق عليهالسلام ما يمنع احدكم اذا ورد عليه ما لا قبل له به ان يستشير رجلاً عاقلاً له دين وورع وقال: ان المشورة لا تكون إلا بحدودها فمن عُرف بحدودها وإلا كانت مضرتها على المستشير اكثر من منفعتها له فاولها أن يكون الذي يشاوره عاقلاً ثانيها ان يكون حرا متدينا ثالثها ان يكون صديقا مواخيا والرابعة ان تُطلعه على سرك فيكون علمه به كعلمك بنفسك ثم يستر ذلك ويكتمه فانه اذا كان عاقلاً انتفعت بمشورته واذا كان حرا متدينا جهد نفسه في النصيحة لك، وإذا أطلعته على سرك فكان علمه به كعلمك تمت المشورة وكملت النصيحة.

[2]. نهج البلاغة ح ٥٤ وفي ح ١١٣ لا ظهير اوثق من المشاورة.

أمتى» وكيف يجمعون؟ طبعا بالشورى بينهم «واجعلوه»: هذا الجمع «بينكم شورى» والمخاطبون ـ بطبيعة الحال ـ هم العارفون ميزانية العلم والتقوى فى الرعيلين على اختلاف مراتبهم.

إن معرفة التقوى السياسية والتقىِّ السياسى لا تتطلب أكثر من لمس للسياسة الإسلامية وإخلاص إيمانى ممن ينتخبونه، فنواب المسلمين فى مجلس الشورى الإسلامية هم نخبة سياسة إسلامية، يجعل المسلمون ككل أمرهم شورى بينهم، ثم هم يجعلون أمور المسلمين شورى بينهم.

ولكن معرفة التقوى العلمية بحاجة إلى ارتحال مراحل من علم الدين يميز بها الغث عن المسلمين، فالرعيل الأعلى من أهل الفتوى هم نخبة ينتجها أهلوها أم أهل العلم أجمع.

هذان من أهم الأمور الإسلامية التى يجب أن تحصل بالشورى الصالحة، حيث يتبنَّيان الخلافة الإسلامية فى حقلى الفتوى والسياسة فتديران أمور الدولة الإسلامية وتدبِّرانها

ثم المسؤوليات الجماعية الأخرى فى هذه الدولة المباركة أيضا تكون «شورى بينهم» لكل حقلٍ أهل، فوزير الصحة لا ينتخبه إلاّ الأطباء المسلمون العارفون بشؤون الصحة ومتطلبات الوزارة فيها، كما وزير التربية والمالية والدفاع أم من ذا؟ فلكلٍّ شورى خاصة تصلح لانتخاب نُخبتها للحصول على بُلغتها دون هرج مرج لا يدرى أىٌّ من أين.

ولماذا الشورى والشورى فقط تتبنَّى أمرهم، وفيهم الأعاظم من فقهاءهم وهم خلفاء الرسول والأئمة من عترته عليهم‌السلام، فبأيديهم إذا إزمة الأمور؟.

هناک فى حل الأمور أبعاد أربعة: ١ ـ الوحى الرسالى، وهو مختص بالرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله ٢ ـ العلم الرسالى وهو خاص بأئمة أهل البيت عليهم‌السلام ٣ ـ وحى الشورى فى الرعيل الأعلى من الخلفاء العامين للرسول والأئمة ٤ ـ الفتاوى الخاصة لكلٍّ من هؤلاء.

نحن نعيش زمن انقطاع الوحى وخلافة العصمة، فهل نأخذ بفتوى واحد من ذلک الرعيل: الأعلم الأورع الأتقى الأشجع الأبصر أم من ذا؟ والتعرُّف إلى شخصية هكذا غير يسير، وقد يكون من المستحيل، أولا تجتمع عليها الآراء، وبذلک تنفصم عرى الوحدة الإسلامية، وإذا عُرِفت وتوحدت الكلمة فى اتباعها، فلا يخلو هذا العبقرى من أخطاء، وعلينا أن نزيلها

بالشورى، حيث الطاقات المتداخلة المتشاورة أقرب إلى الصواب، وهى أحسن قولاً، كما وتُوحِّد القيادة الروحية السياسية فى أهل الشورى، حيث البُعد الثانى فيها هو الأخذ بالأكثر، فعلى المسلمين أجمع اتِّباعه، وإن كانت القلة من أهلها لا يتبعونها إلاّ فى الأحكام الجماعية السياسية أم ماذا؟.

فكل أمر ينزل بالمسلمين بعد زمن الوحى وزمن حملة الوحى، ما لم ينزل فيه قرآن فى نصه، ولم يُسمع من الرسول بخصوصه، فليَجمع المسلمون العابدَ من أمة الإسلام بشورى عامة، حتى يحّل العباد المنتخبون مشكلة هذا الأمر ب «شورى بينهم»: حيث تقرِّبهم إلى الحق زلفى، وتنوب مناب عقلية العصمة شيئا كثيرا.

ولان ضمير الجمع فى «شورى بينهم» راجع إلى «الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون. والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة..» فإنما الشورى الصالحة لأمرهم بين من يحمل هذه المواصفات الخمس، وهم النخبة الصالحة من شورى الأمة الصالحة، ثم وهؤلاء الاكارم ينتخبون فيما بينهم الرعيل الأعلى من فقهاء الأمة، الأحسن رأيا وقولاً حيث هم افضل فقها وعدلاً وفضلاً. ثم وهؤلاء ينتخبون فيما بينهم رئيس الشورى وقائد الأمة، شورى ثالثة هى سلالة الأخريين، ثم هناك الشورآت المتواصلة على رعاية القائد المنتخب لتقرير مسير الأمة ومصيرها أحكاميا وسياسيا دون أن يستبد القائد برهان القيادة لفقدان العصمة.

ولا موقع للأكثرية فى ميزان الحق، إلاّ الأكثرية بين الأقلية الصالحة فإن «اكثر الناس لا يعلمون»[1] و«لا يشكرون»[2] و«لا يؤمنون»[3] و«لا يعقلون»[4] و«يجهلون»[5] «وما يتبع أكثرهم إلا ظنا»[1]

---

[1]. ٧: ١٨٧.

[2]. ٢: ٢٤٣.

[3]. ١١: ١٧.

[4]. ٦: ٣٧.

[5]. ٦: ١١١.

«وما يؤمن أكثرهم باللّه إلا وهم مشركون»[2] «وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين»[3] «ولكن أكثرهم للحق كارهون»[4] «فأبى أكثر الناس إلا كفورا»[5] «وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل اللّه»[6] «وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإنْ وجدنا أكثرهم لفاسقين».[7]

إذا فالشورى الصالحة ليست إلاّ بين الأقلية الصالحة العالمة الشاكرة العاقلة المؤمنة المتبعة علما العادلة المحبة للحق الهادية المتعهدة، ويجمعها الفقيه الزاهد البصير الخبير.

«ومما رزقناهم ينفقون» إنفاقا فى هذه السبيل وكل سبل اللّه، إنفاقا لعقلياتهم وتجربياتهم، أفكارهم وعلومهم، أموالهم وكل ما يملكون من طاقات ذاتية أو منفصلة، ولكى يحلُّوا مشاكلهم التى لا حِوَل عنها ولا مرجعَ معصوما لها.

إن مكية آية الشورى ـ ولم تكن هناك دولة إسلامية ولم تخلد بخلد احد الا الرسول ـ وان المسلمين يعيشون الرسول، وحَصر أمرهم فى «شورى بينهم» ـــ تدلنا على مدى أهمية الشورى، حيث تعم الحيوية الإسلامية فى كل عصر ومصر، ومهما كان فى غنى عنها زمن قيادة العصمة، ولكن عليهم التدرب فيها فقد نرى الشورى فى شاكلتها ونتاجها فى أبعاد اربعة.

١ ـ يستشير المحتار ذا رأى صائب لكى يحصل على الرأى المختار دون خطإٍ كما يُستشار العصوم،[8] او قليل الخطا، كما يستشار غيره.

---

[1]. ١٠: ٣٦.

[2]. ١٢: ١٠٦.

[3]. ٧: ١٠٢.

[4]. ٤٣: ٨٧.

[5]. ١٧: ٨٩.

[6]. ٦: ١١٦.

[7]. ٧: ١٠٢.

[8]. تفسير البرهان ٤: ١٢٨ علي بن ابراهيم القمي قال قال في اقامة الإمام «واقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم» أي يقبلون ما امروا به ويشاورون الإمام فيما يحتاجون اليه في امر دينهم كما قال اللّه «ولو ردوه الى الرسول والى اولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم».

٢ ـ يشاور المعصوم غيره ليدله على خطاءِ ويرشده الى صوابه دائبة للمسلمين، وعقلية منفصلة لهم تساعد عقلياتهم الذاتية، ولكى تنبع فكرتهم فتنبغ بالتقاء الآراء واصطحكاكها، كما أمِرَ الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله: «وشاورهم فى الأمر» ولا رأىَ مطاعا فيها إلا رأيه وعزمه: «فاذا عزمت فتوكل على اللّه».

٣ ـ يتشاور من هم على سواء أو كادَ، ولكى تجتمع عقلياتهم على ركيزة واحدة، إزالة لأخطاء وخلافات، فتوحيدا للرأى أم تقريبا للآراء، وأخيرا إذا بقى اختلاف أخذا بأكثرية الآراء، حين تدل على أقربية الرأى إلى الحق، فلا مكانة للعِدَّة إلاّ إذا دلت على عُدَّة، ولا نفضل الأكثر عِدَّةً هنا إلاّ لدلالته على الأكثر عُدةً، فإذا تساوى الفريقان عِدَّة نفضِّل الأقوى رأيا وهو الذى فيه الأقوى رأيا، وحتى إذا اختلفا عِدةً قد نفضل الأقل لو كان فيه الأعلم الأعقل، وهكذا نُتابع القول الأحسن، وفى الأكثر هو مع الأكثر حيث المتشاورون أضراب.

٤ ـ يتشاور من ليسوا على سواء، ليفيد الأقوى من دونه كما ويستفيد ممن دونه.

والشورى فيما سوى الأولى بحاجة إلى تحضير قبلها، أن يفكِّر أهلوها قبلها فيم يتشاورون، ثم بالشورى يتفاوضون ويستنجدون.

وحُصالة البحث فى حقل الشورى أنها سبيل دائبة هى لزام الإيمان فيما لم يتبين رشده بوحى أم سواه، من أحكام شرعية أم سياسية، ومن انتخاب النخبة فى كل حقل، يُتبنَّى فى كل ذلك العقلية الإسلامية فى كاملها بكافة الجهات، ولكى يحصل بالشورآت الإسلامية ركامات من العقليات المجتنات من وقباتها، من عسيلات الآراء حيث تستخلص من مزيجات لا تصلح.

فلا شورى فى انتخاب الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله والأئمة بعد الرسول حيث الإنتصاب بوحى اللّه يغنى عن الإنتخاب، ولا فى الأحكام الضرورية شرعية وسياسية، حيث الشورى ضرورة عند الإضطرار، وإنما الشورى فى انتخاب النخبة التى تتشاور فيما تحتار فيه الأمة الإسلامية وهم «العابد من أمتى» ثم هم يتشاورون فيما يصلح الأمة ويخرجها عن الحيرة، حيث يوضِّح الحق

اقول: «بينهم» لو خص بشورى الإمام كان حق التعبير وامرهم ان يشاوروا.. ولكنها لشمولها كافة الشورآت الأربع فالجامع بينها هو «بينهم».

جماهيريا ويوحد كلمة المسلمين على القول الأحسن، دون تفرُّد واستبداد.

فالشورى تنوب مناب ما نخسره من غياب العصمة، فإنها إجتهاد متراصٍّ دائب يجعل من المسلمين مفكرين متفاوضين فى أفكارهم، دون أن يظلوا أجسادا بلا ارواح لا يفكرون ولا يتدبرون.

فكما العصمة فى القيادة صالحة ضرورية لتبنى أساس الإسلام، كذلك الشورى النائبة عن العصمة حيث تسد عن كل نائبة، هى أيضا صالحة لاستمرار الحيوية البنائة الإسلامية، غير الجامدة.

فحين ما نخسر قيادة العصمة زمن الغيبة، نربح بديلَها إستمرارية عصمة الشورى حين تعصمنا عن التمزق والإنزلاق، وتقليلاً من أخطاء القيادة غير المعصومة، ثم لا يضر الأمةَ الإسلاميةَ أخطاءها القليلة وِجاه عوائدها الكثيرة، ومن أهمها صراع العقليات الإسلامية وسباقها على ضوء الكتاب والسنة والسياسة حيث تصنع أمة صارمة متكاملة غير جامدة.

وكما نرى القرآن المبين ـ على بيانه النور المتين ـ يُحَرِّضنا على التدبر فى آياته، ولكى نستنبط من خفياته، سبرا لأغواره، ولكى نحصل بكل جد واجتهاد، على ما أسرّه، دون أن يوضِّح لنا كل شىء وضح النهار، كيلا تبطل عقولنا، أو تجمد أفكارنا، بل نكون دائبين فى التدبر والتفكير، ولكى يصنع أمة لها حَيَويتُّها البنَّائَة، فى استقلاليتها وقوامتها، قائمة على سوقها على ضوء القرآن والسنة المحمدية صلى‌الله‌عليه‌وآله.

فعصمة القرآن ثم السنة القاطعة تعصم المسلمين عن التفلُّت والإنحراف، إذا عاشوا القرآن فى شورى دائبة من النخبة العابدة، دونما استبداد واستقلال فاستغلال الكتلة المؤمنة، وإنما الشورى والشورى فقط تكفل تلك الحيوية المجيدة المستغنية عن كل شارد ووارد، حضورا لمختلف شعوب المسلمين فى مصالحهم الجماعية، أخذا لأزِمَّتهم بأيديهم، فلا يحكمهم إلاّ اللّه ومن يحكم بحكم اللّه، ف «إن الحكم إلاّ للّه»!.

فلنكرِّس طاقاتنا كلها للشوراآت المتواصلة عبر زمن غيبة القيادة المعصومة، ولكى نقوم على سوقنا ونحيى حياةً طيبة سلمية إسلامية، لا استسلامية تقليدية ذليلة.

وترى إذا كانت الشورى هى المرجع زمن الغيبة الكبرى فما هو موقف ولاية الفقيه؟.

أقول: إن ولى الأمر أيضا هو منتخب الشورى يرأسها على ضـوء الشـورى، وهـو يلـى أمـر المسلمين ولاية محددة بها دون استقلال له فيما يرتأيه، فقد يتفق رأى الشـورى أو أكثريتهـا المطلقة على واحدٍ من أهلها، فهو الذى يرأسها، أم يتفقون أو أكثرهم على أكثر مـن واحـد، إذا فحصيلة الشورى هى شورى الولاية والقيادة.

إنّ ولى الأمر ـ واحدا أو اكثر ـ هو الذى يحكم، لكنما الحكم ليس إلاّ بالشورى، حيث تَجبُر الأخطاء الطارئة لشخص او اشخاص يُولّون أمور المسلمين، دون استقلال لاحد ولا اسـتبداد برأى.

إتباع الأحسن هو سبيل المؤمنين حيث يبشرهم اللّه ويأمرهم «فبشر عبادى الـذين يسـتمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم اللّه وأولئك هم أولوا الألباب».[1]

أترى أن رأى الواحد غير المعصوم أحسن، مهما كان أعلم ممن سواه، أم الأكثرية من الرعيل الأعلى نتيجة الشورى؟ لا ريب أنها الأحسن فاتباعه قضيَّةُ اللب والهداية الإلهية.

أترى إذا تساووا أعضاء الشورى فى فريقين اثنين فأى الفريقين أولى بالإتّباع؟ هنـا الأولويـة للفريق الذى فيه القائد بميّزة القيادة، وأنه هو الذى ينظر إلى الأصلح بحال الأمة عند تضارب ألآرا فعلى المؤمنين ـ ككل ـ الشورى العامة لانتخـاب النخبـة الصـالحة لانتخـاب أعضـاء الشورى، وليكونوا الأمثل بين الأمة والأمثال فيما بينهم للحصول على الرأى الأحسن وليكـون فى العدد الأكثر عند التضارب دلالةٌ على الأحسن والأقرب إلى الحق.

ثم على هؤلاء انتخاب القائد الرئيسى للشورى، فان اتفقوا على رأى وإلاّ فالأكثر عـددا، وإلاّ فالفريق الذى فيه الأعلم الأتقى لأن فيه الرجاحة عند تساوى العدد، وهكـذا تسـير الشـورى مصيرها إلى انتخاب الأحسن فالأحسن لتقليل الأخطاء فالقيادة الأصلح لصالح الأمـة «وممـا رزقناهم ينفقون» إنفاقا لكافة الطاقات والإمكانيات الصالحة لهـذه القيـادة المباركـة علـى ء الكتاب والسنة.

وهل هناك مماثلة بين سيئة محدودة فى زمن محدود وأثر محدود من مسىء محدود، وبـين

---

[1]. ٢٩: ١٨.

سيئة لا محدودة من إله غير محدود؟ وأدنى المماثلة بين سيئة وسيئة مماثلة النهاية فى سيئة محدودة فى الكيف والأثر وإن لم يكن فى الكم والزمن.

جزاء سيئة سيئة مثلها عدلاً، وسيئة دونها أو عفو وإصلاح فضلاً ورحمة، فإذا يأمرنا اللّه تعالى بالعفو عن السيئة إصلاحا أم جزاءها المثل عدلاً فكيف يجازى هو ظلما أن يخلّد بسيئاتٍ أهلَها إلى غير نهاية، وما هذا إلا كذب مفترى «سبحان اللّه عما يصفون»!.

ثم المماثلة بين السيئة والجزاء والسيئة المجازى بها لا تقتضى إلاّ إعتداءً بالمثل، وليست هى إعتداء، وأما إذا كانت سيئة بنفسها دونما استثناء فلا، فمن ضربک تضربه كما ضرب مراعيا كمَّه وكيفه، وأما من زنى بحليلتک فليست جزاءه أن تزنى بحليلته، وإنما هى الحد المحدد له فى الشرع، والضابطة العامة هى أن السيئات المتعدية التى لا حدّ لها فى المحرمة كمثل اللواط والزنا والسباب والإضلال ام ماذا فلا، وقد توحى «فمن عفى» أن السيئة هنا تعنى ما تقبل العفو ممن أسىء إليه، فلا تشمل إذا مثل اللواط والزنا والإضلال، وإن شملت مثل القتل والسباب أم ماذا.

فاذا قال لک: أخزاک اللّه، تقول له مثل قوله: أخزاک اللّه، وإذا قال لک: أنت فاسق إهانة دون حجة، تقول له: أنت فاسق جزاءً بحجة...

وأما إذا قذفک بما يوجب الحد، فليس لک أن تقذفه حيث يوجب الحد، وانما جزاءه الى اللّه حيث سن حدا للقذف، وكما إذا زنى أو لاط أم أساء سيئة من أضرابهما مما يوجب الحد فجزاءه إلى اللّه فيما حدَّد.

فلا تعنى مماثلة سيئة سيئة أنک حرٌّ أن تجازى أية سيئة بمثلها، وإنما هى كضابطة، فقد يجوز لک أن تجازى بمثلها، وقد لا يجوز فاللّه هو الذى يجازى بما سنَّ من حد أم ماذا، ومن ثم فهى محددة بما يجوز العفو عنها.

«وَلَمَنْ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِکَ مَا عَلَيْهِم مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِکَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم * وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِکَ لَمِنْ عَزْمِ

الْأُمُورِ».[1]

ليس على المنتصر بعد ظلمه من سبيل، سواء أكان انتصاره فرضا أم راجحا أم ـ وعلى أقل تقدير ـ مسموحا، حيث الإنتقام أو الدفاع وجاه الظالم حق مشروع على أية حال.

قد يكون الإنتصار بعد الظلم من واجبات الإيمان «والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون» فهنالک الإنتصار والإنتصار فقط، دون إنتظار فإنه إحتضار واهتدار، فحين يُظلم القرآن وشِرعته ويُظلم شعبه ورعيته فالإنتصار هنا واجب ذو بعدين، والإنظلام والسكوت محرم ذو بعدين و«ذلک بأن اللّه لم يک مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»[2] ف «حق من أساءک أن تعفو عنه، وإن علمت أن العفو يضر انتصرت»[3] كما والقائم عليه‌السلام ينتصر للإسلام.[4]

معضلة الحكم

نرى فى هذا الدرس الحاضر ملامح لائحة لنموذجين من نماذج الناس، المرائى المنافق الشرير الذلق اللسان، يعجبک قوله بمظهره ويسؤک فعله بمخبره:

«وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُکَ قَوْلُهُ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّه عَلَى مَا فِى قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ».[5]

«يعجبک» يروقک ويسرک (قوله فى الحياة الدنيا) عرضاً لها واعراضاً فى قالته عنها كزاهد متحمس وتقى مخلص، أم (يعجبک فى الحياة الدنيا) عجاباً من ظاهر القول فى ظاهره الحياة الدنيا «قوله» وأما الحياة العليا التى أنت تعيشها وذووک، فلا يعجبک قوله فيها، (ويشهد اللّه على ما فى قلبه) أنه يوافق قوله «و» الحال أنه (هو ألد الخصام) واللدود هو الشديد اللدد:

---

[1]. ٤٢: ٤١ ـ ٤٣.

[2]. ٨: ٥٣.

[3]. نور الثقلين ٤: ٥٨٥ عن الخصال ١٢٥ في الحقوق المروية عن علي بن الحسين عليه‌السلام... ثم يستدل بالآية «ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل».

[4]. المصدر ١٢٧ في تفسير القمي بسند عن ابي جعفر الباقر عليه‌السلام في الآية.

[5]. ٢: ٢٠٤.

صفحة العنق، حيث لا يتلوى إلى حق، فضلاً عن الألد، والخصام هم المخاصمون المنازعون، حيث يتعلق كل واحد بخصم الآخر وجانبه ويجذب خصم الجوالق من جانب، فجمع المعنى والمعنى الجمع: وهو أشد عنقاً استقلالاً فيما يهوى، واستغلالاً له كما هوى فى خصام الدنيا وزينتها، مخاصماً لدوداً كل حق، مجاذباً كل باطل، لا يأتى منه أى خير، فحياة كلها تجمعها (ألد الخصام فى الحياة الدنيا) و(أبغض الرجال إلى اللّه الألد الخَصِم).[١]

ذلک المنافق النحس النجس لما يتكلم «فى الحياة الدنيا» «يعجبک قوله فى الحياة الدنيا» «وهو ألد الخصام فى الحياة الدنيا» ثالوث منحوس يشكل حياته بأسرها.

لسانه ذلق طلق «فى الحياة الدنيا» وكأنه زاهد معرض عنها، وقلبه حالق خَلِق حيث يبيع الدين بالدنيا، فحين يواجه النبى صلى‌الله‌عليه‌وآله مقبلاً إليه بقوله: «جئت أريد الإسلام ويعلم اللّه أنى لصادق فيعجب النبى فى ظاهر قوله، ثم يخرج من عنه فيمر بزرع لقوم من المسلمين وحمر فيحرق الزرع ويعقر الحمر.[٢]

وحين يغيب عنه يضلل من معه فى حقل الجهاد «يا ويح هؤلاء المقتولين الذين هلكوا هكذا! لا هم قعد وافى أهلهم ولا هم أدوا رسالة صاحبهم».[٣]

فالمخاطب هنا كل المسلمين ـ بدرجاتهم ـ على مدار الزمن الرسالى، لا خصوص الرسول أم ومعاصروه، و«الناس» هم كافة المنافقين بدركاتهم على مدار الزمن الرسالى، مهما واجه أحدٌ منهم أم جماعة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله والدين معه فى زمنه، فالآية تنزل فى رجل أو رجال ثم تكون عامة بعد كلمات وسع نطاق لفظه، فإنما العبرة بمطلق اللفظ أو عمومه، لا خصوص المورد، وإلاّ لمات القرآن كله، إذ مات الذين ورد بشأنهم.

ولقد ورد بشأنهم الشائن فى كتب السماء كتفصيل لهذه الآية أحاديث قدسية، منها: إن الرب

---

[١]. الدر المنثور ١: ٢٣٩ عن عائشة عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله قال:....

[٢]. هنا روايات عدة في الدر المنثور وفي نور الثقلين أن الآية نزلت بشأن الأخنس بن شريق الثقفي حليف لبني زهرة أقبل إلى النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله المدينة وقال: جئت أريد الإسلام... فأنزل الله الآية.

[٣]. ففي الدر المنثور ١: ٢٢٨ عن ابن عباس قال: لما أصيب السرية التي فيها عاصم ومرثد قال رجال من المنافقين:.... فأنزل الله «ومن الناس..».

تبارك وتعالى قال لعلماء بنى إسرائيل: يفقهون لغير الدين ويعلمون لغير العمل، ويبتغون الدنيا بعمل الآخرة، يلبسون مسوك الضأن ويخفون أنفس الذئاب، ويقفون القذى من شرابكم ويبتلعون أمثال الجبال من المحارم، ويثقلون الدين على الناس أمثال الجبال، ولا يعينونهم برفع الخناصر، يبيضون الثياب ويطيلون الصلاة وينتقصون بذلك مال اليتيم والأرملة، فبعزتى حلفت لأضربنكم بفتنة يضل فيها رأى ذى الرأى وحكمة الحكيم.[1]

ويا لمنافق ـ هو من ألد الخصام ـ من سيطنة مدروسة حتى ليكاد يضلل الصالحين بقولته اللينة المرنة، يصور نفسه إليك خلاصة من الخير وكلاسة من الإخلاص للّه والتجرد والحب والترفع عن دانية الدنيا، تعجبك ذلاقة لسانه ونبرة صوته ببيانه، ثم «ويشهد اللّه على ما فى قلبه»، زيادة فى الإغواء «وهو ألد الخصام» تزدحم نفسه بكل خصومة ولدد، وهو من كل خير بدَدٌ.

ذلك، ومن ثم لمّا يأتى دور الإمتحان، الذى به يكرم المرء أو يهان تراه.

بعث النبيين يهدف الحكم بين المختلفين والمتخلفين

«كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّه النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمْ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّه الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّه يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».[2]

الأمة هى من الأم: القصد، فهى جماعة ذات قصد واحد، وقد تُطلق على الفرد الذى له

---

[1]. الدر المنثور ١: ٢٣٨ ـ أخرج أحمد في الزهد عن وهب أن الرب تبارك وتعالى قال. وفيه اخرج سعيد بن منصور وابن جرير والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد المقبري أنه ذاكر محمد بن كعب القرظي: فقال: أن في بعض كتب اللّه أن للّه عباداً ألسنتهم أحلى من العسل وقلبهم أمر من الصبر لبسوا لباس مسوك الضأن من اللين يجترون الدنيا قال اللّه: أعلي يجترون وبي يفترون وعزتي لابعثن حيران فقال محمد بن كعب هذا في كتاب اللّه «ومن الناس...».

[2]. ٢: ٢١٣.

همامةً جماعةٍ ذات قصد واحد، أم إمامة جماعة، وله الهمة العالية التى تخلق أمة على منهجه ومنهم إبراهيم: «إن إبراهيم كان أمة قانتاً للّه حنيفاً ولم يك من المشركين»[1].

وترى «أمة واحدة» هنا ـ بالنسبة للناس ككلٍ ـ هى أمة الهداية، أنهم كلهم كانوا على هدىً قبل بعث النبيين؟ وهذه مستحيلة فى نفس الذات، فإن مختلف الأهواء والرغبات الإنسانية هى أسس عوامل الإختلاف الشاسعة بين الناس! وحين لم تجمع الناس و ـ لن يجتمعوا ـ على هدىً بدعوات الرسل، فكيف تجتمع ـ إذاً ـ دون دعوة رسالية!.

ثم إذا كان القصد من بعث النبيين القضاء على الخلافات الإنسانية، فما هى الحاجة إليهم وهم على هدى! رغم أن الرسالات جعلت الناس فى شطرى الهداية والضلالة: «وما اختلفت فيه إلا لذين أوتوه» وأنهم جاءوا لرفع خلافات دائبة بينهم: «وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه»! فما هى الهدى الواحدة بينهم؟!.

أم هى أمة الضلالة، أنهم كانوا ككلٍّ كفاراً؟ وتراهم كلّهم بماذا كفروا ولم يبعث بعدُ نبيون حيث: «فبعث اللّه النبيين..»! ثم وكيف يمكن الإجماع على ضلال الكفر لو كفروا بشرعة إلهية، وحملة الشِّرعة هم على هدى من ربهم، ولا يخلوا المرسل إليهم ـ لو كانت رسل ـ من إستجابةٍ مَّا للرسالات! وحتى قبل الدعوات الرسالية، ليس الناس كلهم كفاراً بمبدء الفطرة والعقلية الإنسانية!.

فلم يكونوا ـ إذاً ـ لا مهتدين ولا كفاراً، بل «كانوا ضُلاَّلاً لا مؤمنين ولا كافرين ولا مشركين»[2] حيث الدعوات الرسالية هى التى تخلق هذه الأمم الثلاث، والبشرية قبلها «أمة واحدة» متماثلين فى أصل الضلال عن الهدى الرسالية، وهذا هو الذى يستتبع بينهم خلافات حسب مختلف الأهواء والرغبات «فبعث اللّه النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه» على كونهم أمة واحدة، فى الضلالة عن هدى

---

[1]. ١٦: ٢٠.

[2]. نور الثقلين ١: ٢٠٨ في تفسير العياشي عن يعقوب بن شعيب قال سألت أبا عبد اللّه عليه‌السلام عن الآية فقال: كان الناس قبل نوح أمة واحدة فبدا الله فأرسل الرسل قبل نوح، قلت: أعلى هدىً كانوا أم على ضلالة؟ قال: كانوا على ضلالة قال: بل كانوا ضلالاً لا مؤمنين ولا كافرين ولا مشركين، و عن المجمع وروي عن الباقر عليه‌السلام أنه قال: كانوا قبل نوح أمة واحدة على فطرة اللّه لا مهتدين ولا ضُلالاً فبعث الله النبيين.

الوحى، مهما كانوا مهتدين برسل الفِطَر والعقول، فإنها لا تكفى هدىً لابقة لائقة بالإنسان بحيث تصبح الإنسانية أمة واحدة كاملة، إذاً فوحدة الأمة البشرية قبل بعث النبيين لا تعنى عدم الإختلاف بأسره، بل وحدة فى الضلالة عن هدى الوحى كما ولم يكونوا كافرين إذ لا وحى به يكفرون.

هذا! ولكن ما هو الجواب عن سؤال: متى كان الناس أمة واحدة فبعث اللّه النبيين؟ وقد بزغت الإنسانية برسالة الوحى، فآدم الرسول هو أوّل إنسان من هذه السلسلة، ثم من ولده وأحفاده كشيث وإدريس، وقد كان نبياً حسن النص «وأذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً»[1] وكما تلمح آيات أو تصريح بأنبياء قبل نوح: «أولئك الذين أنعم اللّه عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح»[2]، ثم وكيف يجوز فى حكمة اللّه ورحمته أن تظل البشرية ردحاً من الزمن أمة واحدة فى ضلال ثم يبدو اللّه أن يبعث النبيين، فيحتجون ـ إذاً ـ على اللّه كما قال اللّه: «ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم اللّه موسى تكليماً * رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على اللّه حجة بعد الرسل وكان اللّه عزيزاً حكيماً»[3] ـ «ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لو لا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخرى»[4].

ذلك! وإلى آيات أخرى تنص على تحليق الرسالات الإلهية على الأمم كلها دون إبقاء: «ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن أعبدوا اللّه»[5] «ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قُضى بينهم»[6] ـ

---

[1]. ١٦: ٥٦.

[2]. ١٩: ٥٨.

[3]. ٤: ١٦٥.

[4]. ٢٠: ١٣٤.

[5]. ١٦: ٣٦.

[6]. ١٠: ٤٧.

«لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه»[1] «وإن من أمة إلا خلا فيها نذير»[2].

فمتى كان الناس ــ إذاً ــ أمة واحدة ضلالاً فبعث اللّه النبيين..؟!

قد تعنى «أمة واحدة» للناس، وحدتهم فى الضلال: ــ لا على هدى كاملة ولا كافرين ــ أنهم كانوا فى الفترة الرسولية بين آدم وإدريس، أم وبين إدريس ونوح عليهماالسلام، فلم يكن فى تلك الفترة نبىٌ صاحب كتاب شرعة ولا نبوة، وإنما دعوة رسالية لا رسولية فى فترة بعيدة من الزمن جعلت الناس فى الأكثرية الساحقة ضُلالاً قاصرين بتقصيرهم فى التحرى عن الدعوة الرسالية الموجودة، مهما كان الوصول إليها والحصول عليها صعباً.

«فبعث اللّه النبيين» أصحاب كتاب الشرعة الذى فيه تفاصيل زائدة على وحى الرسالة الخاصة بإرشاد الفطرة والعقلية الإنسانية إلى هداهما الخالصة.

فقد كانت فى مثل هذه الرسالة كفاية للإنسان البدائى، دون حاجة ماسة ضرورية إلى تفاصيل أحكام النبوة المذكورة فى كتابات النبوات.

فالأنبياء هم أصحاب كتابات الوحى الحاملة للشرعة الأحكامية زيادة على الرسالة الفطرية والعقلية، وليس الرسل كلهم يحملونها، كما ويذكر النبيون مع الكتاب دون الرسل إلا النبيون منهم.

إذاً فلم تمض على البشرية زمن الفترة الرسالية «لئلا يكون الناس على اللّه حجة» بل هى إما فترة رسولية، أم فترة الأنبياء أو النبوات، كما الأخيرة كانت بين المسيح عليه‌السلام ومحمد صلى‌الله‌عليه‌وآله: «لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك...» ــ «لتنذر قوماً ما أنذر آباءهم فهم غافلون».

ولئن سأل سائل هل كان النبيون قبل نوح ــ وهم أصحاب كُتب ــ كانوا من أولى العزم؟ وهم خمسة! أم لا؟ فكيف كانت لهم شرائع مستقلة مهما كانت لواحد منهم كإدريس! قلنا: النبوة مهما استلزمت كتاب الوحى ولكنها كتاب أكمل من كتاب الرسالة وهما مشتركان فى عدم حمل شرعة سوى تدل العقل والفطرة، أم أن العزم بكامله ليس إلاً فى الخمسة.

---

[1]. ٢٢: ٦٧.

[2]. ٣٥: ٢٤.

وقد تعنى «كان» فيما عنت كوناً منسلخاً عن الزمان، ناظراً ـ فقط ـ إلى كيـان الإسـنان، أنـه «أمة واحدة» فى الضلال ـ وعلى طول خط الحياة بخطوطها وخيوطها ـ ما لـم يهتـد بـوحى النبوات الربانية، فلا تكفيه الفطرة والعقلية الإنسانية لإخراجه عن متاهة الضلالة وتيه الغوايـة، كيف ولم يخرج عنها تماماً على ضوء الدعوات الرسالية، ففريق لم يؤمنـوا، وفريـق تفرقـوا وأختلفوا فى نفس الشرعة التى هى عامل الوحدة.

ثم الإختلاف اثنان، اختلاف قبل النبوات هو طبيعة الحال القاصرة، فطرةٌ بعصمتها الإجماليـة، وعقلية خاطئة غير معصومة، واختلافٌ بعد النبوات بين حملـة الشـرائع بعـد النبيـين، وبـين المحمول إليهم من جراء خلافاتهم فى كل شرعة شرعة.

هذا، كما و«ما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا»[1] قد تنظر إلى الإخـتلاف الثـانى وهـو فـى الدين، بعد الإختلاف الأول الذى اقتضى بعث النبيين.

كما وآيتنا تصريح بهذين الإختلافين فالأول هو المستفاد من: «ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه» اختلافاً على وحدتهم فى أمة الضلالة، فالهدف الاقصى والاسمى من «بعث اللّه النبيـين» هو الحكم بين الناس المختلفين فى أهوائهم ورغباتهم، والثانى يستفاد من: «وما اختلف فيـه» ـ أى فى كتاب النبوة ـ «إلا الذين أوتوه» علماءَ وجهالاً، حيث تذرعوا بعامل الوحـدة لبـثِّ الإختلاف فيما هو الداعى إلى الوحدة، كما اختلفوا فى القرآن فى أبعاد أخراها الرجوع إليـه كأصل ورأس للزاوية.

فهناك قبل إنزال الكتاب، أم قبل النظر المهتدى إلى الكتاب، إختلاف أوَّل هو طبيعة الحـال، قضية مختلف الأهواءِ والرغبات من ناحية، وقصور الفِطَر والعقول من أخرى.

ثم هنا اختلاف ثان هو فى الكتاب، إختلافاً فى تصديقه، فمنهم من آمـن ومـنهم مـن كفـر، واختلافا آخر بعد تصديقه، تثاقلاً عليه دون انتقال إلى الشرعة التالية، كاليهود المتثاقلين على شرعتهم تكذيباً للمسيح، والمسيحيين المتثاقلين على شرعتهم تكذيباً للقرآن، أم اختلافاً فـى الكتاب فى حقله نفسه، إرجاعاً إليه كأصل، أم تركاً له إلى روايات وأقاويل لا أصل لها، ثـم

---

[1]. ١٠: ١٩.

اختلافاً فى الإرجاع، تحميلاً عليه آراء زينوها وراء الكتاب، أم رجوعاً إليه كما هو، تفسيراً بنفسه.

«وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه بغياً بينهم» فالذين أوتوه هنا ـ بطيعة الحال ـ هم علماء الكتاب، لا الموحى إليهم إذ لا اختلاف بينهم ولا بغى، ولا الناس الجهال حيث لا يؤتوا إلا تكليفاً به ببيان علماء الكتاب.

فقد حملهم البغى بينهم على الإختلاف فيه، بين تكذيب واختلاف وإرجاع إلى غيره، ثالوث يجمعه إهمال الكتاب عن أصالته فى حقل الشرعة الإلهية.

والإختلاف فى الكتاب: الشرعة ـ أصلاً وفرعاً ـ قد يكون بغياً وتقصيراً، وهو المندد به هنا وفى سواه، وأخرى قصوراً، ثم القصور قد يكون من مخلّفات التقصير من القاصرين أو الذين سبقوهم، أم هو قصور مطلق مطبق، ولا يُعذر إلا الآخرون، ولو روعى الكتاب كأصل فى كل فرع وأصل، ولا سيما بتشاور فى تفهمه، قلت الخلافات فى الكتاب.

وإنما تنشأ الإختلاف الكثيرة فى الكتاب من عدم الرجوع إلى الكتاب كما هو حقه، وعدم التأمل فيه حقه، ومن هنا تُقبل الفتن على أهل الكتاب ثم لا تزول إلا بالرجوع إلى الكتاب حقه وكما يروى عن النبى صلى‌الله‌عليه‌وآله: «فإذا أقبلت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه حبل اللّه المتين وسببه الأمين لا يعوج فيقام ولا يزيغ فيستعتب من جعله خلفه ساقه إلى النار ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة...».

والهدى الإلهية للذين آمنوا لما اختلفوا ـ الذين أوتوه بغياً بينهم ـ ليست إلا على ضوء الإيمان بالكتاب، والرجوع إليه كرأس الزاوية فى شرعة اللّه، والعمل به وتطبيقه، فهنا يأتيه الهدى الفرقان: «إن تتقوا اللّه يعل لكم فرقاناً...».

وقد أمر اللّه بالوحدة على ضوء كتاب الشرعة وندد بالمختلفين: «وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد»[1] «ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات»[2] «وما

---

[1]. ٢: ١٧٦.

[2]. ٣: ١٠٥.

أنزلنا عليک الكتاب إلا لتبين الذين اختلفوا فيه[١] ﴿إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه مختلفون﴾[٢].

ولقد أخذ حملة القرآن الذين حُمّلوه يختلفون فيه لحد أخذوا يبحثون عن تحريفه وصيانته، وعن حجية ظاهرة أم عدمها، وعن الإفتاء بنصه أو ظاهره إذا خالف شهرة أو إجماعاً أو روايات، وإلى أن ألغوه عن بكرته سناداً إلى أنه لا يفهم منه مراده، أم خوفةً من الإنزلاف فى تفسيره بالرأى، وما أشبه ذلک من عوامل إبعاده عن حوزاته، وإقلاعه عن روضاته، وهنا يتجلى شكاة الرسول ﴿وقال الرسول يا رب أن قومى أتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾.

وفى خضم الخلافات فى كتاب الشرعة، بادئة من حملتها ومنتهية إلى سائر المكلفين ﴿فهدى اللّه الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق﴾ كما وعد اللّه ﴿إن تتقوا اللّه يجعل لكم فرقاناً﴾ فالإيمان الصالح غير الدخيل ولا المصلحى التجارى، إنه أساس الفرقان عند اختلاف الناس فى كتاب الهدى، حملةً ومحمولاً إليهم ﴿واللّه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾: من يشاءه اللّه وهو من يشاء هدىً بعد هدى فى الفتن الدينية العارمة التى تجعل من العلماء جهالاً فضلاً عن الجهال إلاّ من هدى اللّه بهداه الصالحة المعبر عنها هنا ب«الذين آمنوا»، فلا يخلو أى مكلف فى أى عصر أو مصر عن هدىً ربانية فى مثلثها، فطرية وعقلية، وعلى ضوئهما هدىً شرعية، مهما كانت شِرعة أولى العزيم، أمّا دونها كما كانت بين آدم ونوح عليهماالسلام.

ففى زمن الفترة الرسولية لا تجد فترة رسالية، حيث الشريعة السابقة محكمة فيها مهما صعب الوصول إليها والحصول عليها، فإن «أفضل» الأعمال أحمزها».

وقد تعنى «كان الناس أمة واحدة» فيما عنت أنهم كانوا ضلالاً لردح من الزمن، وقد يكون بين آدم وإدريس عليهماالسلام فإن إدريس أول النبيين وما كان آدم إلا رسولاً، ومن ثم نوح ومن بعده من أولى العزم وسائر النبيين[٣]، حيث النبوة هى الرفعة فهم ـ إذاً ـ أولوا الرفعة والمنزلة

---

[١]. ١٦: ٦٤.

[٢]. ٢٧: ٧٦.

[٣]. نور الثقلين ١: ٢٠٨ في تفسير العياشي عن مسعدة عن أبي عبد اللّه عليه‌السلام في الآية فقال كان ذلك قبل نوح، قيل: فعلى هدىً كانوا؟ قال: لا كانوا ضلالاً وذلك بأنه لما انقرض آدم عليه‌السلام وصالح ذريته بقي شيث وصيه لا يقدر على إظهار دين اللّه الذي كان عليه آدم وصالح ذريته وذلك أن قابيل توعده بالقتل كما قتل أخاه هابيل فسار فيهم بالتقية والكتمان فأزدادوا كل يوم ضلالاً حتى لم

بين المرسلين، ومن ميزاتهم أن لهم كتاباً: «وأنزل معهم الكتاب بالحق...».

ولقد بزغت النبوة القوية بولاية العزم من نوح عليه‌السلام كما دلت عليه آيات، فهم حملة الشرائع المستقلة، فلم يكن أحد من النبيين سواهم ـ فضلاً عن المرسلين ـ أصحاب شرائع مستقلة، وقد شرحنا فى سورة نوح[1] وجهة الشرعة الإلهية قبل نوح عليه‌السلام.

وقد تشبه هذه الأمة الواحدة قبل نوح، الأمة الواحدة قبل محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله زمن الفترة بينه وبين المسيح(ع)، مهما اختلفت فترة عن فترة وضُلال عن ضُلال.

ولقد كانت النبوات المصحوبة بكتابات الوحى، ولا سيما لأولى العزم، هى محاور الدعوات الربانية، والنبيون هم أقل من المرسلين بكثير، فكل نبى لا بد وهو رسول وليس كل رسول نبياً.

ذلک، ولقد بحثنا فى طيات الفرقان حول الرسالات والنبوات وتحليقها على كل الأمم على ضوء آياتها فلا نعيد.

«... فهدى اللّه الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق» ومنهم الامة المهتدية الإسلامية حيث هداهم اللّه لما اختلفوا ـ هؤلاء الكتابيون ـ من الحق، إذ أوتوا القرآن المهمين على كل سبق، وكما يروى عن حامل لواء الحق: «نحن الأولون والآخرون، الأولون يوم القيامة وأول الناس دخولاً الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فهدانا اللّه لما اختلفوا فيه من الحق فهذا اليوم الذى اختلفوا فيه فهدانا اللّه فالناس لنا فيه تبع فغدٌ لليهود وبعد غدٍ للنصارى»[2] فالذين آمنوا ملحدين أو مشركين أم هوداً أو نصارى، آمنوا بشرعة الإسلام المتمثلة فى القرآن، فهم المهديون لما اختلفوا من الحق بإذنه، حيث القرآن هو ميزان الحق.

يبق على الأرض معهم إلا من هو سلف ولحق الوصي بجزيرة في البحر يعبد الله فبدا الله تبارك وتعالى أن يبعث الرسل ولو سئل هؤلاء الجهال لقالوا قد فرغ من الأمر فكذبوا إنما هو شيىء يحكم به الله في كل عام... قلت افضلال كانوا قبل النبيين أم على هدى؟ قال: لم يكونوا على هدى كانوا على الفطرة التي فطرهم عليها لا تبديل لخلق الله ولم يكونوا ليهتدوا حتى يهديهم الله أما تسمع يقول إبراهيم: «لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين» أي ناسياً للميثاق.

[1]. ج٢٩ الفرقان ١١٤:٥ حيث تحدثنا فهيا حول أولى الشرائع الإلهية المستقلة.

[2]. الدر المنثور ١: ٢٤٢ ـ أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي هريرة في الآية قال قال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله:...

وأما الذين كفروا من أهل الكتاب وسواهم فظلوا فيما ضلوا مرتكسين، لم يكن اللّه ليهديهم إذ لم يؤمنوا بالهدى تهديهم، مهما ساد الفرق بين العلماء المقصرين والأميين القاصرين، ولكنه فرق فى العذاب واللا عذاب، دون أن يُهدى القاصرون، ثم فرقة ثالثة هم عوان بين ذلك، إذ قلدوا علمائهم وهم يعلمون أنهم خائنون.

«واللّه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم»: يهدى من يشاء الهدى فيشاء اللّه هداه، وجهان موجهان حيث المفعول مقدر يتحملهما دون اختصاص.

فالهدى الربانية فى خضم الخلافات العارمة الضالة المضللة، إنها فرقان من اللّه ووعدها المؤمنون المقتون: «يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا اللّه يجعل لكم فرقاناً»[1].

فهنالك فرقان على ضوء الإيمان بالقرآن فإنه فرقان بين كل حق وباطل، وثم هنا فرقان على ضوء التقى بعد الإيمان، فإنها فرقان بين مختلف المذاهب الإسلامية، وفرقان بين كل المسالك الإيمانية.

فالتقى والإيمان الصالح هما جناحان يطير بهما المؤمن التقى إلى آفاق الفرقان، كلما ازدادا ازداد وكلما نقصا نقص «واللّه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم».

إن كتابات السماء ـ سوى القرآن ـ صرفت عن جهات أشراعها، وهيمنة القرآن عليها يبين الغث عن السمين والخائن عن الامين.

وكتاب الوحى فى كل أمة هو المحور الأصيل يقاس عليه كل ما سواه فيُعرف الأصيل عن الدخيل، فلم ينزل كتاب الوحى ليمحو فوارق الإستعدادات والمواهب والطرائق والوسائل، إنما جاء ليحتكم الناس إليه فيما هم فيه مختلفون.

فالإسلام يضع القرآن ليحكم بين الناس ـ كل الناس ـ فيما اختلفوا فيه قضية اختلاف الرغبات، ثم يحكم بين من أوتوا الكتاب فاختلفوا فيه أم اختلفوا عنه، ليحكم بينهم، فهو قاعدة البشرية جمعاء، فما قامت البشرية على القرآن فوحدة على الحق، وما أن خرجت عنها وقامت على قواعد أخرى فهذا هو الباطل على قدر انحرافه عن حق القرآن وانجرافه فى

---

[1] . ٨: ٢٩.

البطلان، ولو ارتضاه الناس جميعاً فى فترة من فترات التاريخ السوداء، فليس الناس هم أنفسهم الحكم فى الحق والباطل، إنما هو إله الناس فيما ينزل على رسله إلى الناس، وسائر حملة الدين الحنيف تبييناً للقرآن وما وافق القرآن من السنة، دونما أى تدخل للآراء الفاضية عن برهان الحق وحق البرهان.

ومن أعضل الداء بين جماعة ممن أوتوا الكتاب أن يختلفوا فيه من بعد ما جاءهم البينات بغياً بينهم، فهم فى الحق ليسوا بمؤمنين.

الطاعة المطلقة خاصة باللّه وبرسول اللّه

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّه وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾[1]

«أطيعوا اللّه» فيما يأمركم وينهاكم «ورسوله» فيما يحمل إليكم من طاعة اللّه «ولا تولوا عنه»: عن اللّه أصالة وعن رسوله رسالة، فإفراد الضمير قاصد إلى تلك الأصالة أن ليست طاعة الرسول مستقلة أو مشتغلَة عن طاعة اللّه، «وأنتم تسمعون» أنباء ما قد سلف من المتولين عن اللّه ورسوله، والمطيعين اللّه ورسوله، و«تسمعون» أوامر اللّه تترى فى كتابه وعلى لسان رسوله.

«ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا» كالمنافين «وهم لا يسمعون» عقيديا وعمليا، فإنما يسمعون سمع النفاق دون وفاق، وكالكفار المستهزئين بما يسمعون: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾[2] فهم ﴿لهم آذان لا يسمعون بها﴾[3] كافرين أو منافقين ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير﴾[4] أم ومؤمنين متخلفين قدر ما هم يشابهونهما

---

[1]. ٨: ٢١.

[2]. ٨: ٣١.

[3]. ٧: ١٧٩.

[4]. ٦٧: ١٠.

فى عدم سمعهم لما يسمعون.

فقد تعنى «وهم لا يسمعون» جمعا من المكيين الذين آمنوا أوّل مرة ثم أخرجوا مع المشركين إلى بدر إلتحاقا إلى الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله أم نَظِرة الإلتحاق بالفرقة الغالبة، فلما رأوا قلة المسلمين قال نفر منهم «غر هؤلاء دينهم..» وأما الذين خرجوا إلى بدر مع الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله فهم خُلّص ذو خلَطٍ مهما كانوا درجات.

وحين تكون طاعة الرسول كطاعة اللّه مفروضة طليقة والتولى عنه كالتولى عن اللّه مرفوض طليق فما هو الجواب عن «حيلولة عمر بينه صلى‌الله‌عليه‌وآله وبين كتابة وصيته صلى‌الله‌عليه‌وآله فى مرض وفاته»؟[1] والوصية حق لكل مسلم فضلاً عن النبى الذى يعنى فى وصيته تحويل هامة الأمور الرسالية إلى من يرضاه اللّه! و«لقد لُدَّ فى مرضه وهو غير راض».[2]

«إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللّه الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ».[3]

إن الشرَّ المعنى هنا ليس إلاّ فى حقل التكليف الإنسانى ومن أشبه، فالتعبير هنا ب «الدواب» دون «الناس» أو «الجنة والناس» تنديد بهؤلاء النسناس الذين هم فى الحق دوابٌ بل هم أضل: «ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون با أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون».[4]

ف «الدواب» هنا مطلقة تشمل خيرها وشرها، من حيوانها وإنسانها وغيرهما، والشر الطليق بينها «الصم البكم الذين لا يعقلون» شرا بين خير من الدواب أو شراً بقصور أم تقصير.

فطالما البهائم لها آذان ولكنها ليست لتسمع سمع الإنسان، وهى مهتدية بفطرتها كما فطر اللّه، ولكن هؤلاء الدواب الناس النسناس لهم آذان وألسنة وهم بسوء صنيعهم لايسمعون

---

1. مفتاح كنوز السنة نقلاً عن بخ ـ ك ٣ ب ٣٩ قاك ٥٨ ب ٦، ك ٦٤ ب ٨٣ ك ٧٥ ب ١٧ ك ٩٦ ب ٢٦ مس ـ ك ٢٥ ب ٢٢ قد ـ ج ٢ ق ٢ ص ٣٦ و٣٢٤ و٣٣٦ قا حم ـ أوّل ص ٢٣٢ و٢٩٣ و٣٢٤ و٣٣٦ قا ٣٥٥ ثالث ص ٣٤٦.

2. المصدر ـ ك ٧٦ ب ٢١ مس ـ ك ٣٩ ح ٨٥ و٨٦ عد ـ ج ٢ ق ٢ ص ٣١ حم ـ أول ص ٢٠٩ سادس ص ٥٣ و١١٨ و٤٣٨ هش ـ ص ١٠٠٧.

3. ١١: ٢٢.

4. ٧: ١٧٩.

إنسانيا ولا ينطقون، فقد قطعوا عن أنفسهم النحيسة الإنسانية النفسية، نحيسة بئيسة تعيسة جعلتهم «شر الدواب» بصورة طليقة! حيث سدوا منافذ الإدراک ظاهرا على آذانهم، واذاعتها على ألسنتهم، وباطنا على قلوبهم، وأهم الواردات المعرفية هى الواردة من الاسماع: «وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير».[1]

وشر الدواب هؤلاء الأنكاد لهم «الصورة صورة إنسان والقلب قلب حيوان.. وذلک ميّت الأحياء»[2] ـ أولئک «لم يستضيئوا بأضواء الحكمة، ولم يقدحوا بزناد العلوم الثاقبة، فهم فى ذلک كالأنعام السائمة، والصخور القاسية»[3] ـ «منهوما باللذة، سَلِس القيادة للشهوة، أو مغرما بالجمع والإدخار، ليس من رعاة الدين فى شىءٍ، أقرب شىءٍ شبها بالأنعام السائمة».[4]

إن اللّه تعالى لم يخلق دابة شريرة فى أصلها، فلم يخلق الشيطان شيطانا وإنما جنا كسائر الجان، ثم هو الذى شيطن نفسه بسوء صنيعه، كما لم يخلق الكافر كافرا، وكذلک سائر الدواب الشريرة، اللّهم إلاّ شرا قاصرا هو قضية كون الكائن مخلوقا إذ لا يمكن أن يُخلق ما هو خير مطلق كما اللّه.

ذلک، فالدواب الشريرة فى حقل «شر الدواب الصم..» هى المقصرة فى شرها فأين تقصير سائر الدواب وتقصير الصم البكم، فقضية خلق الإنسان فى أحسن تقويم والشرعة التى تقومه أكثر صاعدا فى المعارج، ألا يعمل شرا أم يعمل أقل من سائر الدواب، فأما إذا يعاكس الإنسان أمره إرتدادا إلى أسفل سافلين فهو «شر الدواب» بصورة طليقة وكما يقول اللّه عنه «فحملها الإنسان انه كان ظلوما جهولاً» مهما كان حمل الأمانة خيانة من سائر الكائنات كثيرة، فهو بجنب حمل الإنسان ضئيل قليل.

والتعبير عن الصم البكم بالدواب تعبير لهم بارتجاعهم إلى كيان الدواب الشريرة أضل سبيلاً،

---

[1]. ٦٧: ١٠.

[2]. نهج البلاغة الخطبة ١٥٥/٨٥.

[3]. ١٠٦ و٤٠.

[4]. ١٤٧ ح / ٥٩٥.

فلا يحق لهم إسم الإنسان أو الناس بل هم الدواب النسناس.

وَلَوْ عَلِمَ اللّه فِيهِمْ خَيْرا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ.[1]

هنا «لو» تحيل أن يعلم اللّه فيهم خيرا إذ لا خير فيهم حتى يُعلم، فهنا مساوات بين علم اللّه شيئا وواقعه، وبين عدمه وعدم واقعه لأنه بكل شىءٍ محيط.

فحين لا سمع لهم وهم صمٌّ بسوء فِعالهم وإختيارهم، فلا يحق إسماعهم الحق الذى هم عنه معرضون، إذا ـ والحال هذه ـ «ولو أسمعهم» اسمع قلوبهم وشرحها لما تسمعه آذانهم «لتولوا» عما أسمعو «وهم معرضون» عن الحق المُرام. ف «إذا أراد اللّه بقوم خيرا أسمعهم ولو أسمع من لم يَسمع لولّى كأن لم يسمع..».[2]

فليس «ولو أسمعهم» واردا مورد سمع القبول، وإلاّ لاستحال التولى والإعراض، إنما هو مورد سمع التمُّنع لهؤلاء الدواب الصُّم البكم الذين لا يعقلون.

وقد قيل إنهم سألوا الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله أن يحيى لهم قصى بن كلاب وغيره من موتاهم ليخبروهم بصحة نبوته، ولكنه تعالى علم منهم أنهم لا يقولون قولهم هذا إلا تعنتا وعنادا، فحتى لو أسمعهم كلام موتاهم تصديقا لهذه الرسالة «لتولوا وهم معرضون».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للّه وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللّه يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ.[3]

«. استجيبوا للّه وللرسول» «ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون»، «إذا دعاكم لما يحييكم» وكيف «لما» دون «إلى ما»؟ علّه كما الصراط المستقيم حيث يُهداه أو يهدى له أو يهدى إليه، مثلث متدرجة الزوايا فى حقل الهدى.

فهنا «لما يحييكم» لمحة إلى لزام الحياة لما يدعوكم بكل وصل: أصل دون أى فصل فاصل.

---

[1]. ١١: ٢٣.

[2]. نور الثقلين ٢: ١٤١ في أصول الكافي بسند متصل عن سلمة بن محزر قال: سمعت أبا جعفر عليه‌السلام يقول: إن من علم ما أوتينا تفسير القرآن وأحكامه وعلم تغيير الزمان وحدثانه، إذا أراد اللّه... ثم أمسك هنيئةً ثم قال: ولو وجدنا أوعية أو مستراحا لقلنا واللّه المستعان.

[3]. ١١: ٢٤.

والحياة الموعودة هنا بالدعوة ليست ــ بطبيعة الحـال ــ هـى الحيـاة الحاصـلة قبـل الـدعوة والإستجابة، كالحياة الحيوانية والإنسانية الفطرية والعقلية أماهيه من حياة معطاة قبل أى دعـاء واستجابة.

ثم وليست هى حياة طليق الإيمان أيضا حيث المخاطَبون هم المؤمنون، إذا فهى فوق أصـل الإيمان بدرجاته المتكاملة على ضوء الإستجابة فى مختلف حقول الدعوة الربانيـة، كالحيـاة الحاصلة بالجهاد فى سبيل اللّه وهى «إحدى الحسنيين»[1] قاتلاً ومقتولاً ف: «لا تحسـبن الـذين قتلوا فى سبيل اللّه أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون»[2] وهذه حياة متميـزة عـن سـائر الحيـاة لأهل البرزخ.

هذا، ولكن لا تختص الحياة الموعودة بحياة الشهداء، كما لا تخـتص الـدعوة لمـا يحيـيكم بالجهاد، بل هى الدعوة العامة القرآنية بكل حقولها.

ذلك والأحياء بهذه الحياة: «أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه»[3] ــ «أوَ من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الظلمات»[4] ــ «من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهـو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون»:[5] أطوار من الحياة بعـد حياة الإيمان: تثبيتا للإيمان ومزيدا له وتأييدا بروح منه وسـائر الحيـاة الطيبـة علمـا ومعرفـة وإيمانا، ف «الذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم»[6]

وبصيغة واحدة المجاهدة فى سبيل اللّه هى التى تحييكم: «يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم علـى تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون باللّه ورسوله وتجاهـدون فـى سـبيل اللّـه بـأموالكم

---

[1]. ٩: ٥٢.

[2]. ٣: ١٦٩.

[3]. ٥٨: ٢٢.

[4]. ٦: ١٢٢.

[5]. ١٦: ٩٧.

[6]. ٤٧: ١٧.

وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون».[1]

إذا ف «استجيبوا.. إذا دعاكم لما يحييكم» و«إذا» هذه مستمرة على مدار الدعوات الربانية بالقرآن والسنة، فانها تحييكم مهما اختلفت درجات إحياءها حسب درجات أحياءها وموادها، وقد شهد بحق هذه الحياة الرسولية والرسالية المحمدية من غير المسلمين كثير.[2]

ثم «واعلموا أن اللّه يحول بين المرء وقلبه» حيلولة صالحة لمن يستحقها بتلك الإستجابة الإيمانية، وطالحة جزاءً وفاقا للذين زاغوا فأزاع اللّه قلوبهم وعلى حد المروى عن الرسول

---

[1]. ٦١: ١١.

[2]. يقول الشاعر الفرنسي «لامارتين» ١٧٩٠ ـ ١٨٦٩ وهو من مشاهير الشعراء الفرنسيين وزعيم الحركة الرومنطيقية ـ يقول بحق هذا النبي العظيم:

«إن حياةً مثل حياة محمد وقوة كقوة تأمله وتفكره وجهاده ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه وشدة بأسه في لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان، وإيمانه بالظفر، وإعلاء كلمته، ورباطة جأشه لتثبيت أركان العقيدة الإسلامية، إن كل ذلك أدلة على أنه لم يكن يضمر خداعا أو يعيش على باطل ـ

فهو فيلسوف، خطيب، ورسول، ومشرع، وهادي الإنسان، إلى العقل، وناشر العقائد المعقولة الموافقة للذهن واللب، ومؤسس دين لا فرية فيه، ولا صور، ولا رقيات، ومنشىء عشرين دولة في الأرض، وفاتح دولة روحية في السماء وتمتلىء بها الأفئدة ـ فأي رجل أدرك من العظمة الإنسانية مثل ما أدرك، وأي إنسان بلغ من مراتب الكمال مثل ما بلغ» أخرجه المهندس زكريا هاشم زكريا في: المستشرقون والإسلام ص ٢٧٢ ـ أنظر كتاب أحمد السيد (محمد نبي الإنسانية دار الشروق ص ٧٦).

ويقول ويل ديورانت ـ المؤلف الأمريكي، صاحب قصة الحضارة ـ: وإذا حكمنا للعظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا إن محمدا كان من أعظم عظماء التاريخ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به دياجير الهمجية حرارة الجو وجدْب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الفرض نجاحا لم يدانيه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله، وقل أن نجد إنسانا غيره حقق كل ما كان يحلم به، واستطاع في جيل واحد ان ينشىء دولة عظيمة، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم. (قصة الحضارة ـ ترجمة محمد بدران ـ الجزء الثاني المجلد الرابع ص ٦).

وفي دائرة المعارف البريطانية تحت مادة «محمد»: محمد بن عبداللّه مؤسس الدين الإسلامي ـ ولد في مكة عام ٥٧٠ ميلادية ومات عام ٦٣٢، وقليلون هم الرجال الذين أحدثوا في البشرية الأثر العميق الدائم الذي أحدثه محمد، لقد أحدث أثرا دينيا عميقا لا يزال منذ دعا إليه حتى الآن هو الإيمان الحي، والشريعة المتبعة لأكبر من سُبع سكان العالم. على أن أثره التاريخي يبدو بالأكثر عندما نذكر أنه في أقل من عشرين سنة منذ بدأ دعوته قوّض دعائم إمبراطوريتين عقيدتين وهما الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الفارسية، مؤسسا على أنقاضها حضارة جديدة ـ

ولقد أرسى منذ جاء بدعوته ـ التي هي عقيدة وشريعة ـ قواعد بناء المجتمع الإجتماعية والسياسية، وقد أعقب موته أن سجل خلفاءه الأحاديث التي رويت عنه، وأدق التصرفات والأفعال التي قام بها، فاتخذ المؤمنون من هذه الأحاديث نبراسا ومثلاً أعلى يحتذونه في حياتهم اليومية جيلاً بعد جيل (أحمد السيد: محمد نبي الإنسانية ـ دار الشروق ص ٧٢).

وجاء في كتاب (مختصر تاريخ الإنسانية) لمؤلفه ه. ج. ويلز: كان يمكن لأي متنبيءٍ تاريخي يستعرض حياة بشر في مستهل القرن السابع الميلادي، أن يتوقع بحق أنه لن تمضي بضعة قرون حتى تقع كل أوروبا وآسيا تحت سيادة المغول والتتار، فلم يكن في أوروبا الغربية أي إشارة تدل على إمكان قيام النظام فضلاً عن الوحدة، والامبراطوريتان البيزنطية والفارسية كانتا في طريقهما نحو الإنحلال والدمار ـ

ولكن هذا المتنبي كان سيخطيء في تقديره، فقد اشتعلت دنيا الصحراء والبدو بمائة عام من المجد عندما بسط العرب سلطانهم ومدوا حكمهم ولغتهم من اسبانيا إلى حدود الصين، مقدمين للعالم ثقافة جديدة، ومنشئين دينا لا يزال حتى اليوم أحد القوى الحيوية في العالم ـ

وكان محمد بن عبداللّه هو الذي أشعل الجزيرة العربية ودفعها لتحقيق ذلك كله، والذي ظل حتى سن الأربعين لا يميز نفسه بشيءٍ غير عادي عن بقية معاصريه، (أخرجه أحمد السيد في: محمد نبي الإنسانية، المصدر نفسه ص ٧٣).

صلى‌الله‌عليه‌وآله: **«يحول بين المؤمن والكفر ويحول بين الكافر والمهدى»[1] فلو أن قلب المؤمن حاول التقلب إلى الردى حال بينه وبينها، ويعاكس أمر الكافر إلى الردى.**

ذلک، ومما يحييكم، الداخل فى دعوة اللّه والرسول، ولاية على بن أبى طالب عليه‌السلام **كما يروى.[2]**

وعلى أية حال: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونحن نعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[3] فاللّه أقرب إلى قلوبنا منا إليها:

يار نزديكتر از من به من استوين عجب‌تر كه من أز وى دورم

ذلک، ف «كلٌّ ميسَّر.. صاحب النار ميسَّر لعمل النار وصاحب الجنة ميسر لعمل الجنة»:[4] إذ ﴿كلاً نُمدَّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربک وما كان عطاء ربک محظورا﴾.[5]

أجل، كلٌّ ميسر وليس مسيَّرا، وليست الحيلولة الربانية بين المرء وقلبه مؤمنا أو كافرا، إلا بما يختاره صاحبه تيسرا لما يهواه، دون ما يختاره اللّه له أو عليه تسييرا خلاف هواه «وما ربک بظلام للعبيد».

فالحيلولة الربانية بين المرء وقلبه تحلق على كل مرءٍ بقلبه، ولأن القلوب هى أئمة العقول

---

[1]. الدر المنثور ٣: ١٧٦ ـ أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: سألت النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله عن هذه لآية «يحول بين المرء وقلبه» قال: ..، وفيه عن ابن عباس في الآية قال: يحول بين الؤمن وبين معصيته التي يستوجب بها الهلكة فلا بد لابن آدم أن يصيب دون ذلك ولا يدخل على قلبه الموبقات التي يستوجب بها دار الفاسقين ويحول بين الكافر وطاعته فلا يصيب من طاعته ما يستوجب ما يصيب أولياءه من الخير شيئا وكان ذلك في العلم السابق الذي ينتهي إليه أمر اللّه تعالى وتستقر عنده أعمال العباد.

[2]. وممن أورده وصححه الحافظ أبو بكر بن مردويه على ما في تفسير اللوامع وكشف الغمة ٩٥ روى باسناده مرفوعا إلى الإمام الباقر عليه‌السلام أن هذه الآية قد نزلت في ولاية علي بن أبي طالب، ومنهم الترمذي في مناقب مرتضوي (٥٦) نقلاً عن ابن مردويه في المناقب.

[3]. ٥٠: ١٦.

[4]. المصدر أخرج أبو الشيخ عن أبي غالب قال سألت ابن عباس عن هذه الآية قال: قد سبقت بها عند رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله إذ وصف لهم عن القضاء فقال لعمرو غيره ممن سأله من أصحابه: اعمل فكل ميسر.. قال: وما ذلك التيسر؟ قال صلى‌الله‌عليه‌وآله صاحب النار...
وفي نور الثقلين ٢: ١٤١ عن تفسير القمي عن أبي جعفر عليه‌السلام في الآية يقول: بين المؤمن ومعصيته أن تقوده إلى النار وبين الكافر وبين طاعته أن يستكمل بها الإيمان واعلموا أن الأعمال بخواتيها، وفيه عن كتاب التوحيد عن أبي عبداللّه عليه‌السلام في الآية قال: يحول بينه وبين أن يعلم أن الباطل حق، وفي رواية أخرى عنه عليه‌السلام: لا يستيقن القلب أن الحق باطل أبدا ولا يستيقن القلب أن الباطل حق أبدا.

[5]. ١٧: ٢٠.

والعقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء، فلا تفويض لعباد اللّه فى أفعالهم كما لا جبر، وللّه تعالى الدور الأصيل فى تحويل القلوب عدلاً وفضلاً،حيلولة بين إمام الأئمة والمأمومين فى مخمس الكيان الإنسانى فى هذا الحقل.

وليس «اللّه يحول» يعنى انه بذاته يحول بين المرء وقلبه، فإنما هى علمه ومشيئته الحائلة بينهما، فصلاً بين المرء وبين قلبه، فانه فصل بين قلبه كإمام الأئمة وبين المأمومين العقول والأفكار والحواس والأعضاء.

فحين يحنُّ المؤمن خلاف هواه إلى شرٍّ أو يحن إلى ترک خير ف «اللّه يحول بين المرء وقلبه» تقليبا له إلى خير أم ترک شر، ويعاكسه الكافر، قضيةَ الجزاء العدل.

فرغم أن القلوب أئمة العقول والعقول أئمة الأفكار والأفكاء أئمة الحواس والحواس أومة الأعضاء،[1] رغم ذلک للّه المشيئة الحكيمة بين القلوب وسائر الخمسة تدبيرا صالحا على ضوء ما يقدمه المرء من معدَّات وما يعنيه فى أصل التصميم الصميم خيرا أو شرا، وصالح الحيلولة الآلهية هو حيلولة العلم فإنه أقرب إلينا منا، وحيلولة القيومية، فإنه أقوم لنا منا، وحيلولة الإرادة إيجابيا أو سلبيا فى صالحنا وطالحنا كما هو قضية العدل أو الفضل، توحيدا لربوبية التأثير، وحين يحول اللّه بين المرء وقلبه، فبأحرى له أن يحول بين المرء وكل قواته ومراداته، بين بصره ومبصره، بين سمعه ومسموعه، بين ذوقه ومذوقه، بين حسه ومحسوسه، وبين كل كيانه وما يهواه، وحيلولته بين المرء وقلبه هى حيلولة بينه وبين كل كيانه، وهو القائل «ونحن أقرب إليه من حبل الوريد» منه إلى نفسه وحياته ككل، وهذه الحيلولة الشاملة هى من قضايا ملكه الطليق للكائنات كلها.

وليس يكفى للمرء أن يعقل صحيحا، فكثير هؤلاء الذين يعقلون ثم لا تطمئن قلوبهم بما

---

[1]. وبنقل آخر في مستدرك نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين عليه‌السلام قوله: «العقول أئِمة الأفكار والأفكار أئمة القلوب والقلوب أئمة الحواس والحواس أئمة الاعضاء» مستدرك ١٧٦ ولكن الآية تؤيد ما ننقله في المتن كرارا، حيث المحاور الأصيلة هي القلوب، وحصائل العقول والأفكار والصدور لما تدخل في القلوب تغربَل وتخلص.
وقد يوجه الوجهان توافقا بينهما في وجهين، ان للعقول قوسا صعوديا وآخر نزوليا، فالصعودي إنها أسس الأفكار ثم الأفكار أسس القلوب آمرة للحواس ثم الحواس آمرة للأعضاء.
والقوس النزولي ان القلوب تأمر العقول والعقول تأمر الأفكار والأفكار تأمر الحواس والحواس تأمر الأعضاء، فالآمرية الأخيرة إذا هي للحواس حيث تأمر الأعضاء، ثم بداية الصعود من العقول، ثم نزول الأمر من القلوب إلى العقول إلى الأفكار. تأمل.

عقلوه لأن قلوبهم مقلوبة مطموسة مركوسة فلا تستجيب.

ذلك، ويوجه آخر تعنى هذه الحيلولة أن اللّه لا يغيب عن أى قلب مهما تناكر وتجاهل، فقد يغيب عن القلب أى حاضر أو غائب ولا يغيب اللّه عنه قضية الفطرة المجبولة على معرفة اللّه، فلا عاذرة فى عدم استجابة اللّه «إذا دعاكم لما يحييكم».

فقد تعرفه القلوب، ويعرف هو القلوب وما فى القلوب، وهو يقلبها كيف يشاء، فهو المرجع والملجأ فى تقلب القلوب فالعقول فالأفكار فالحواس فالأعضاء «لا إله إلاّ هو فأنى تؤفكون».

وهذا المقطع القاطع من آية الإستجابة هذه يحلّق على جذور المعارف الربانية، قاطعا أعذار المتجاهلين المتكاسلين دعوة اللّه، قالعا غِرة النفاق، وغرور الإيمان الوفاق، أن المؤمن ـ أيا كان ـ ليس ليستقل فى إيمانه فتزول به نكبة الغُرور نكسة للغَرور، وهو عبارة أخرى عن «قل اللّه ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون».

ذلك، ومن حيلولته تعالى بين المرء وقلبه قربه إليه أقرب من نفسه إلى نفسه، ف «نحن أقرب إليه من حبل الوريد».[1]

ومنها ما ينسيه ما ذكره أو يذكره ما نسيه، فإن القلب بين أصبعى الرحمان، ومنها أن يزيل عنه عقله وتمييزه، حيلولة لإزالته، أم لتخفيفه، أم ولتثبته، فلا فاعلية للقلب ولا عطلة إلا بإرادته تعالى حسب القابليات والفاعليات، وهكذا يحول بين قلب الكافر وبينه تمجيدا لصميم قصده السيء الخطر، كما يحول بين قلب المؤمن وبين نفسه تأييدا له فى فعل الخير وترك الشر تكوينا، كما ويحول تشريعا بالأمر والنهى حيث الإيمان قيد الفتك.

وتلك الحيلولة المؤمنة تعنى إمحاء ما يناحر الإيمان أو يُضعفه وكما يروى عن الإمام الصادق عليه‌السلام قوله تفسيرا لآية المحو والإثبات: «يمحو الكفر ويثبت الإيمان، ويمحو النكرة ويثبت المعرفة، ويمحو الغفلة ويثبت الذكر، ويمحو البغض ويثبت المحبة، ويمحو الضعف ويثبت القوة، ويمحو الجهل ويثبت العلم، ويمحو الشك ويثبت اليقين، ويمحو الهوى ويثبت

---

[1] ٥٠: ١٦.

العقل على هذا النسق ودليله «كل يوم هو فى شأن» محوا وإثباتا».[1]

حيلولات ربانية تناسب ساحة قدسه تعالى قضية وحدانيته الوحيدة غير الوهيدة فيما يحصل من خلقه أم لا يحصل.

ولعمر إلهى الحق إنها صورة رهيبة يتمثلها القلب بين أصبعى الرحمان ـ رحمة وغضبا ـ يقلبه كيف يشاء حسب المساعى صالحة وطالحة لأصحاب القلوب.. صورة تستوجب اليقظة الدائمة لخلجات القلب وخفقاته ولفتاته، تحذرا من كل هاجسة فيه واجسة، تعلقا دائما باللّه، واستجابة له ولرسوله مخافة تقلبه فى سهوة أو غفلة أو دفعة، ففرارا إليه مما سواه.

ولقد كان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله على محتده القمة عن اللّه يكرِّر دعاءه: «اللّهم يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينک» فكيف بنا ونحن نحن المجاهيل الضعفاء الفالتون.

ف «اللّهم داحىَ المدحوات وداعم المسموكات، وجأئل القلوب على خطريها: شقيها وسعيدها[2] ثبت قلوبنا على دينک.

فقلوب المؤمنين المطمئنين باللّه تتقلب إلى الرشد والنور، وقلوب مَن سواهم تتقلب إلى النار «قاسية عن حظها، لاهية عن رشدها، سالكة فى غير مضمارها، كأن المعنى سواها، وكأن الرشد فى إحراز دنياها»[3] «فالصورة صورة إنسان، والقلب قلب حيوان.. وذلک ميت الأحياء» (٨٥) ـ

ف «أين القلوب التى وُهبت للّه، وعوقدت على طاعة اللّه» (١٤٢) ـ

«فلو شعلَت قلبک أيها المستمع بالوصول إلى ما يهجم عليک من تلک المناظر المونَقة، لزهِقت نفسک شوقا إليها، ولتحملتَ من مجلسى هذا إلى مجاورة أهل القبور استعجالاً بها، جعلنا اللّه وإياكم ممن يسعى بقلبه إلى منازل الأبرار برحمته» (١٦٣) ـ و«أخذ اللّه بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق وألهمنا وإياكم الصبر» (١٧١) ـ

---

[1]. مجلة العرفان العدد الثالث المجلد ٦١ ص ٣٩٥ عنه عليه‌السلام.

[2]. الخطبة ٧٠.

[3]. نهج البلاغة الخطبة ١٤٣/٢/٨١. وكذلك التي تتلوها بارقامها.

«وإن لسان المؤمن من وراء قلبه، وإن قلب المنافق من وراء لسانه، لأن المؤمن إذا أراد أن يتكلم بكلام تدبره فى نفسه، فإن كان خيرا أبداه، وإن كان شرا واراه، وإن المنافق يتكلم بما أتى على لسانه، لا يدرى ماذا له وماذا عليه، ولقد قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه» (١٧٤) ـ

«ولكن اللّه يختبر عباده بأنواع الشدائِد، ويتعبدهم بأنواع المَجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره، إخراجا للتكبر من قلوبهم، وإسكانا للتذلل فى نفوسهم، وليجعل ذلك أبوابا فُتُحا إلى فضله، وأسبابا ذُلُلاً لعفوه، فاللّه اللّه فى عاجل البغى، وآجل وَخامة الظلم، وسوء عاقبة الكِبر، فإنها مصيدة إبليس العظمى، ومكيدته الكبرى، التى تُساور قلوب الرجال مساورة السموم القاتلة، فما تكدى أبدا، ولا تشوى أحدا، لا عالما لِعلمه، ولا مُقِلاً فى طمره، ومن ذلك ما حرس اللّه عباده المؤمنين بالصلوات والزكوات، ومجاهدة الصيام فى الأيام المفروضات، تسكينا لأطرافهم، وتخشيعا لأبصارهم، وتذليلاً لنفوسهم، وتخفيضا لقلوبهم، وإذهابا للخيلاء عنهم» (١٩٠) ـ

ف «أحيِ قلبك بالموعظة، وأمته بالزهادة، وقوّه باليقين، ونوره بالحكمة، وذلّله بذكر الموت، قرره بالفناء، وبصِّره فجائع الدنيا، وحِذّره صولة الدهر وفُحشَ تقلُّب الليالى والأيام، وأعرض عليه أخبار الماضين، وذكره بما أصاب من كان قبلك من الأولين» (٢٧٠) ـ

فياللّه من ذلك القلب المتقلب الذى أحتل الإمامة الكبرى فى كيان الإنسان ككل، ف «لقد عُلّق بنياط هذا الإنسان بضعة هى أعجب ما فيه وذلك القلب ـ بضعة من روحه ـ وله مواد من الحكمة وأضداد من خلافها، فان سنح له الرجاء أذله الطمع، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص، وإن مَلكه اليأس قتله الأسف، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ، وإن أسعده الرضا نسى التحفظ، وإن ناله الخوف شغله الحَذَر، وان اتسع له الأمن استلبته الغِرَّة، وإن أفاد مالاً أطغاه الغنى، وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع، وإن عضَّته الفاقة شغله البلاء، وإن جهده الجوع قعد به الضعف، وإن أفرط به الشَبَع كظَّتة البِطنة، فكل تقصير به مضر، وكل إفراط له مفسد» (١٠٨ ح).

و«إن للقلوب شهوة وإقبالاً وإدبارا، فأتوها من قبل شهوتها وإقبالها، فإن القلب إذا أكره

عمى» (١٩٣ ح) ـ

«وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً»٨: ٢٥.[١]

انها فتنة شاملة حاملة الذين عدلوا إلى الذين ظلموا، أوَليس هذا ظلما بالذين لم يظلموا أن يسوَّوا بالذين ظلموا فى هذه الفتنة؟ أم كيف تُتقى وتقوى العدول هى خير وقاية، فإن كان هؤلاء غير متقين فهم من الذين ظلموا.

وإن كانوا متقين فكيف ـ إذا ـ يتقون؟ إنها فتنة وليست ـ فقط ـ عذابا حتى لا يمثل غير الذين ظلموا، فتنة شاملة وإختبار هى للذين ظلموا شرٌ ودمار، ولكنها لغير الظالمين فتنة عليهم أن يتقوها ويقوا أنفسهم منها حتى يتخلصوا عنها ناجحين، مهما هلكت فيها أبدانهم وَفنيت أموالهم.

فالفتن الربانية أنماط وأشكال يتعاكس الأمر فيها للذين اتقوا على الذين ظلموا، فقد تكون فتنة خير وسعة، وأخرى فتنة شر وضيق «ونبلوكم بالشر والخير فتنة»[٢] فالذين آمنوا واتقوا هم ناجحون والذين فسقوا وطغوا هم ساقطون: «ومنهم من يقول إئذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا».[٣]

فمن جملة الفتن التى «لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة» فتنة الخلافة بعد الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله[٤] وعن النبى صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: أخبرت أنهم أصحاب الجمل[١] وفتنتهم فى ليلة القدر هل

---

[١]. ١١: ٢٥.

[٢]. ٢١: ٣٥.

[٣]. ٩: ٤٩.

[٤]. نور الثقلين ٢: ١٤٢ عن العياشي عن عبدالرحمن بن سالم عن أبي جعفر عليه‌السلام في الآية قال: أصابت الناس فتنة بعد ما قبض اللّه نبيه حتى تركوا عليا وبايعوا غيره، وهي الفتنة التي فتنوا بها وقد أمرهم رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله باتباع علي عليه‌السلام والأوصياء من آل محمد عليهم‌السلام.
وفي ملحقات أحقاق الحق ٣: ٥٤٦ عن النيشابوري تفسيره ٩: ١٣٤ بهامش تفسير الطبري.
وفيه ١٤: ٣٩٩ عن الحسكاني في شواهد التنزيل ١: ٢٠٦ بسند متصل عن ابن عباس قال: لمّا نزلت هذه الآية قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: من ظلم عليا مقعدي هذا بعد وفاتي فكأنما جحد نبوتي ونبوة الأنبياء قبلي، وعن الزبير بن العوام أنه قرأ هذه الآية فقال: ما شعرت أن هذه الآية نزلت فينا إلا اليوم، يعني يوم الجمل في محاربته عليا، وفيه عن ابن عباس في الآية قال: حذر اللّه أصحاب محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله أن يقاتلوا عليا.

هى ماضية أم مستمرة[٢] وما أشبه من فتن صعبة ملتوية تجعل المتوسطين فى الإيمان حيارى، فضلاً عن البسيطين كفتنة الرماة يوم أحد، وهنالك مجالة حق التقوى حفاظا على صالح الهدى.

ولقد تعترضكم فتن تزلزل فيها أركان الإيمان، ما ليس لها بُقية إلاّ بكامل التقوى والإيمان: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين معه متى نصر اللّه ألا إن نصر اللّه قريب».[٣]

ف «يا أيها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة»[٤] ـ «فإن الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطرات المطر إلى كل نفس بما قسم لها من زيادة أو نقصان فإن رأى أحدكم لأخيه غفيرة ـ زيادة ـ فى مال أو نفس فلا تكونن له فتنة (خ ٢٣) ـ

و«كن فى الفتنة كابن اللبون ـ رضيع الناقة ـ لأظهرٌ فيُركب ولا ضرع فيُحلب» (ح) و«لا يقولن أحدكم: اللّهم إن أعوذ بک من الفتنة، لأنه ليس أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، ولكن من استفاد فليستفد من مضلات الفتن فإن اللّه سبحانه يقول: «واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة» (٩٣ ج).

«أما بعد أيها الناس، فأنا فقأت عين الفتنة ولم يكن ليجترىء عليها غيرى بعد أن ماج غيهبها، واشتد طَلَبها، فاسألونى قبل أن تفقدونى، فوالذى نفسى بيده لا تسألوننى عن شىءٍ فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئَة تهدى مائة وتُضل مائة إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومُناخ رِكابها ومحط رِحالها ومن يُقتل من أهلها قتلاً ومن يموت منهم موتا، ولو فقدتمونى

---

[١]. المصدر عن العياشي عن إسماعيل السرى عن النبي صلى‌الله‌عليه‌و‌آله:..، وفي تفسير الفخر الرازي ١٥: ١٤٩ عن السدي نزلت في أهل بدر اقتتلوا يوم الجمل وروي أن الزبير كان يساير النبي صلى‌الله‌عليه‌و‌آله يوما إذ أقبل علي رضى‌الله‌عنه فضحك إليه الزبير فقال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌و‌آله: كيف حبك لعلي؟ فقال يا رسول اللّه أحبه كحبي لولدي أو أشد، فقال: كيف أنت إذا سرت تقاتله.

[٢]. المصدر في أصول الكافي بإسناده إلى أبي عبداللّه عليه‌السلام عن علي بن الحسين عليهما‌السلام حديث طويل وفيه: ثم قال في كتابه «واتقوا فتنة..» في «إنا أنزلناه في ليلة القدر» يقول: إن محمدا صلى‌الله‌عليه‌و‌آله يموت يقول أهل الخلاف لأمر اللّه عزَّ وجلّ: مضت ليلة القدر مع رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌و‌آله فهذه فتنة أصابتهم خاصة.

[٣]. ٢: ٢١٤.

[٤]. الخطبة ٥.

ونزلت بكم كرائِه الأمور وحوازب الخطوب لأطرق كثير من السائلين، وفشل كثير من المسؤولين، وذلك إذا قلّصت حربُكم، وشمرَّت عن ساق، وكانت الدنيا عليكم ضيقا تستطيلون معه أيام البلاء عليكم، حتى يفتَح اللّه لبقيةِ الأبرار منكم ـ

إن الفتن إذا أقبلت شبَّهت، وإذا أدبرت نبَّهت، يُنكرنَ مقبلات، ويُعرفن مُدبرات، يَحُمن حومَ الرياح، يصبن بلدا ويخطئن بلدا ـ

ألا وان أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية، فإنها فتنة عمياء مُظلمة عمَّت خُطَّتها، وخُصَّت بليَّتها، وأصاب البلاء من أبصر فيها، وأخطأ البلاء من عمى عنها، وأيم اللّه لتجدُنَّ بني أمية لكم أرباب سُوءٍ بعدي كالناب الضروس، تَعذِم بغيها، وتخبِط بيدها، وتَزبِن برجلها، وتمنع دَرَّها، لا يزالون بكم حتى لا يَتركوا منكم إلا نافعا لهم، أو غير ضار بهم، ولا يزال بلاءهم عنكم حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلا كانتصار العبد من ربه، والصاحب من مستصحِبه، ترد عليكم فتنتهم شَوهاء مَخشيَّة، وقِطعا جاهليةً، ليس فيها منار هدى، ولا عَلَم يُرى، نحن أهل البيت منها بمنجاة، ولسنا فيها بدعاة، ثم يفرجها اللّه عنكم كتفريج الأديم بمن يسومهم خسفا، ويسوقهم عُنفا، ويسقيهم بكأس مصبَّرة، لا يعطيهم إلا السيف، ولا يُجلسهم إلا الخوف فعند ذلك تود قريشٌ بالدنيا وما فيها لو يرونني مقاما واحدا، ولو قدرَ جزْر جَزورٍ لأقبل منهم ما أطلُب اليومَ بعضَه فلا يعطونني». [1]

«فاتقوا سكرات النعمة، واحذروا بوائق النَقمة، وتثبتوا في قَتام العِشوة وإعوجاج الفتنة، عند طلوع جنينها، وظهور كمينها، وانتصاب قطبها، ومَدار رَحالها، تبدو في مدارج خفية، تؤول إلى فظاعة جلية، شِبابُها كشِباب الغلام، وآثارها كآثار السلام، تتوارثها الظلمة بالعهود، أولهم قائد لآخِرهم مقتد بأولهم، يتنافسون في دنيا دنية، ويتكالبون على جيفة مريحة، وعن قليل يتبرءُ التابع من المتبوع، والقائد من المقود، فيتزايلون بالبغضاء، ويتلاعنون عند اللقاء، ثم يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرَّجوف، والقاصمة الزَّحوف، فتزيغ قلوب بعد استقامة، وتضِل رجاءٌ بعد سلامة، وتختلف الأهواء عند هجومها، وتلتبس الآراء عند نجومها، من أشرف لها

---

[1]. الخطبة ٩٢.

قصمته، ومن سعى فيها حطمته، يتكادمون فيها تكادم الحُمُر فى العانة، قـد اضـطرب معقـود الحبْل، وعمى وصيةُ الأمر، تغيض فيها الحكمـة، وتنطـق فيهـا الظَلَمـة، وتـدق أهـلَ البـدو بِمسحَلها، وترضُّهم بكلكلها، يضيع فى غُبارها الوُحدان، ويهلك فى طريقها الركبان، ترد بمُـرِّ القضاء، وتحلُب عبيط الدماء، وتثلم مَنار الدين، وتنقض عقد اليقين، تهـرُب منهـا الأكيـاس، وتدبِّرها الأرجاس، مرعادٌ مِبراق، كاشفةٌ عن ساق، تُقطع فيها الأرحام، ويفارَق عليها الإسلام، بريُّها سقيم، وظاعنها مقيم». [1]

ذلک، ومن واجهة أخرى لأن خطاب التحدير التحظير عام يعم كافة المـؤمنين، إذا ف «فتنـة» عامة تشملهم أجمع بما ظلم ظالمهم، كفتنة التفرق والتمزق مـن المفـرقين بـين المسـلمين، والإتقاء فيها درجات، منها التقوى عن الدخول فى الفتنة مسايرة معها أم عملاً أو عمالة لهـا، ومنها الصد عنها نهيا عن نكيرها قدر المستطاع، ففتنة المنكر الجماعى تشمل غيـر الظـالمين الذين ظلوا عنها ساكتين لا يقومون بواجب الأمر والنهى، وتشمل ـ شيئا مّا ـ القـائمين بهمـا إذا لم يتمسكوا بكامل التقوى إمساكا على إيمانه، وكما تشمل القُصَّر العـاجرين عـن الأمـر والنهى، والتقوى العامة المفروضة على الكل فى هذه الفتن ألاّ يسقطوا فيهـا، ثـم المفروضـة على الخاصة أن يزيلوها أو يقلّلوها.

ففى فتنة السلطات غير الشرعية زمنية وروحية تتساقط الشـعوب بـين أيـديها قـدَر تخاذلهـا أمامها، تسايرا معها، أم تركـا للمعارضـة الممكنـة ضـدها، أم فسـحا لمجـال ظهورهـا فـى مظاهرها، والتقوى العامة المفروضة على كل المؤمنين فى هذه الفتن أن يتقـوا السـقوط فيهـا تجاوبا معها، حفاظا على بقية الإيمان وبغيته، ومعارضتها قدر المستطاع.

وهنا «لا تصيبن» نهى مؤكد بالثقيلة، لمحة إلى ثقل الفتنة الشـاملة، وقـد نفيـت عـن إصـابة الظالمين خاصة، لأنها فتنة عامة تعنى ـ بطبيعة حالهـا ـ المجموعـة، والواجـب فـى حقلهـا درجات من التقوى قدر المستطاع إزالة إياها أم ـ لأقل تقدير ـ عدم السقوط فيها.

ذلک، وبوجه عام واجب المؤمنين أمام الفتنة الظالمة عامة وخاصـة أن يصـدوا عنهـا بدايـة

---

[1]. الخطبة ١٥١.

واستمرارية، أم ـ لإقل تقدير ـ ألاً يسايروها ويتماشوا معها أو يسقطوا فيها.

فالجماعة التى تسمح لفريق منها بظلم فى أية صورة من صورها، أو تسكت متجاهلاً عنه، ولا تقف فى وجهه، إنها جماعة تستحق أن تؤخذ بجريرة الظالمين.

إذا ف «اتقوا» صدورَ فتنة، أم تزايدها، أم المزايدة فيها، أم السكوت عنها بعدما حصلت، أم التأثر بها، فواجب التقوى أمام هذه الفتن العامة درجات حسب الإمكانيات، لا ـ فقط ـ الإتقاء عن التأثر بها.

«فتنة لا تصيبن الذى ظلموا منكم خاصة» لأنها فتنة عامة، أم شارك فيها غير الظالمين إلى الظالمين، فأصبحوا معهم من الظالمين المستحقين لها.

الفرقانين حاصلا على البغية الصالحة، الخليصة غير الخليطة، ولصاحب الفرقان الأول قدر ما يتقن من وسيلة الوصول إلى الحق، ولصاحب الثانى وصول أقوى، ولفاقدهما خوآءٌ وبواء، فطالما الفرقان الأول وسيلة غير طليقة ولكنما الثانى معه وصيلة طليقة كما وعد اللّه.

«واعلم أنه من يتق اللّه يجعل له مخرجا من الفتن ونورا من الظلم، ويخلّده فيما اشتهت نفسه، ويُنزله منزل الكرامة عنده، فى دار اصطنعها لنفسه..»[1] ـ «.. ألا فصونوها وتصوَّنوا بها، وكونوا عن الدنيا نُزَّاها، وإلى الآخرة وُلاّها، ولا تضعوا من رفعته التقوى، ولا ترفعوا من رفعته الدنيا»[2] ـ

«أما بعد فإنى أوصيكم بتقوى اللّه الذى ابتدأ خلقكم، وإليه يكون معادكم، وبه نجاح طلبتكم، وإليه منتهى رغبتكم، ونحوَه قصدُ سبيلكم، وإليه مرامى مفزَعكم ـ

فإن تقوى اللّه دواء داءِ قلوبكم، وبصر عمى أفئدتكم، وشفاء مرض أجسادكم، وصلاح فساد صدوركم، وطَهور دنس أنفسكم، وجلاء عَشَا أبصاركم، وأَمنُ مَفزع جأشكم، وضياء سَواد ظلمتكم ـ.. فمن أخذ بالتقوى عَزَبت عنه الشدائِد بعد دنوِّها، واحلولت له الأمور بعد مرارتها، وانفرجت عنه الأمواج بعد تراكمها، وأسلهت له الصعاب بعد إنضبابها، وهطلت

---

[1]. الخطبة ١٨١.

[2]. الخطبة ١٨٩.

عليه الكرامة بعد قحوطها، وتحدَّبت عليه الرحمة بعد نفورها، وتفجرت عليه النَعَم بعد نضوبها، ووبلت عليه البركة بعد إرذيادها»[1] ـ

أجل فالتقوى هى الزاد، عُدة للطريق الملتوية الصعبة، حيث تحيى القلوب وتوقظها وتستجيش فيها أجهزة الحذر والحيطة والوقاية، كاشفة منحنيات الطريق ودروبه مدَّ البصر والبصيرة، دون غبْش للشبهة الحاجبة للرؤية.

وإنها فرقان فى كل خليط، كاشفة منعرجات الطريق، فطالما الهوى ينشر الغبش وتُعمى المسالك وتُخفى الدروب، فالتقوى هى متراس ونبراس تنير الدرب على السالكين، مزيلة كل غبش.

«فاتقوا اللّه فى من سمع فخشع، واقترف فاعترف، ورجِل فعمِل، وحاذر فبادر، وأيقن فأحسن، وعبر فاعتبر، وحذِّر فحذر، وزُجر فازدجر، وأجاب فأناب، وراجع فتاب، واقتدى فاحتدى، وأُرِى فرأى، فأسرع طالبا، ونجا هاربا، فأفاد ذخيرةً، وأطاب سريرةً، وعمَّر مَعادا، واستظهر زادا ليوم رحيله، ووجه سبيله، وحال حاجته، وموطن فاقته، وقدَّم أمامَه لدار مُقامه ـ

فاتقوا اللّه عبادَ اللّه جَهةَ ما خلقكم له، واحذروا منه كُنه ما حذركم من نُفسه، واستحِقوا منه ما أعد لكم بالتنَّجز لصدق ميعاده، والحذَر من هول معاده... ـ

فهل ينتظر أهل بَضاضة الشباب إلا حوانى الهَرَم، وأهل غضارة الصحة إلا نوازل السَقَم، وأهل مدة البقاء إلا آونة الفناء، مع قريب الزِّيال، وأزوف الإنتقال، وعلَز القلق، وألَم المَضَض، وغُصص الجَرَض، وَتلَفُّت الإستغاثة بنصره الحَفَدة والأقرباء، والأعزة والقرناء، فهل دفعت الأقارب، أو نفعت النواحب، وقد غودر فى محلة الأموات رهينا، وفى ضيق المضجع وحيدا، قد هتكت الهوام جلدته، وأبلت النواهك جِدَّته، وعفَّت العواصف آثارَه، ومحا الحَدَثانُ معالمَه، وصارت الأجساد شحِبة بعد بضتها، والعظام نَخِرة بعد قوتها، والأرواح مرتهنةً بثقل أعباءها، موقنة بغيب أنباءها، لا تُستزاد من صالح عملها، ولا تُستعتب من سيءِ

[1]. الخطبة ١٩٦.

زلَلِها ـ

أوَ لستم أبناءَ القوم والآباء وإخوانَهم والأقرباء؟ تحتذون أمثلتهم، وتركبون قِدَّتهم، وتطأون جادَّتهم، فالقلوب قاسية عن خطها، لاهيةٌ عن رشدها، سالكة فى غير مضمارها، كأن المعنىَّ سواها، وكأن الرشد فى إحراز دنياها».[1]

ذلک، وليس «فرقانا» يختص بفرقان خاص، فانه ككل ما يفرق بين الحق والباطل قرآنا ورسول القرآن وفاروق الأمة بعده وهو على عليه‌السلام.

فكما أن تقوى الله تستجلب فرقان الله بكل ما يعنيه، كذلک تستجلب فاروقا بعد النبى صلى‌الله‌عليه‌وآله يفرق بين الحق والباطل فى مضطرب الأحوال وتشتت الحال، ولذلک سماه الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله فيما تواتر عنه «فاروقا»[2] وهكذا «من فارق عليا عليه‌السلام فقد فارق الله».[3]

ومن غريب الوفق العددى بين «الفرقان» و«بنى آدم» أن كلاً مذكور سبع مرات فى القرآن، فنعرف مدى الوفق بين بنى آدم والفرقان شريطة تقوى الله، فكلما زادت التقوى زاد صاحبها فرقانا من الله وبرهانا مبينا.

وليس يختص «فرقان» لمن اتقى بحقل القرآن، بل هو فرقان فى كافة الحقول وهذه ميزة ثانية لفرقان الله بطليق مفعوله، عن مصطلح الفرقان المختص بمعرفة معانى القرآن والسنة.

الداعية الرسولية تهدَّد ولا تحدَّد

«وَإِذْ يَمْكُرُ بِکَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوکَ أَوْ يَقْتُلُوکَ أَوْ يُخْرِجُوکَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّه وَاللّه خَيْرُ الْمَاكِرِينَ».[4]

ذلک فى دار الندوة، مجلس الشورى لصناديد قريش حيث اجتمع فيه أربعون منهم أو

---

[1]. الخطبة ٨٢.

[2]. ملحقات إحقاق الحق ٤: ٢٦ ـ ٣١، ٣٤ ـ ٣٥، ٢٨٤، ٣٣١، ٣٤٥، ٣٦٩ ـ ٣٧٠، ٣٨٦ و٧: ٣٧٢ و١٥: ٢٨٣ ـ ٢٨٦، ٢٩٢ ـ ٢٩٤، ٣٠٥ ـ ٣٠٨، ٤٣١، ٣٤١ ـ ٣٤٥ و٢٠: ٢٥٩ ـ ٢٦١، ٢٦٣، ٢٩٨، ٣٣٣، ٤٥٩، ٤٦٦، ٤٧٢، ٥٠٩، ٥٤٦ ـ ٥٤٨.

[3]. المصدر ٤: ١٣٩ و٥: ٢٩١ و٦: ٣٩٥ ـ ٤٠٠ و١٦: ٦٠١ ـ ٦٠٥ و٢١: ٥٤٥ ـ ٥٤٩.

[4]. ٨: ٣٠.

يزيدون، تشاوراً فى أمر الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله **كيف يعالجون موقفه الدعائى، صداً عن دعاياته المستمرة المختلخلة المتجلجلة بين الناس بتزايد بالغ شكل خطراً حاسماً على قبيل الإشراك.**

وحصيلة الآراء الأولى هى ثالوث «لثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك» ثم توافقت على «يقتلوك» ثم النتيجة الحاسمة لذلك التصميم «يخرجوك».

حيث نبهه اللّه بما مكروه من قتلهم إياه فخرج إلى غار ثور وبات على عليه‌السلام **على فراشه، ثم هاجر** صلى‌الله‌عليه‌وآله **بعد ثلاثة أيام إلى المدينة.**

وتلك الهجرة الهاجرة هى منقطعة النظر بين كل بشير ونذير بما فيها من خوارق عادات، حيث خرج أمام المهاجمين، آخذاً بيده كفاً من تراب، رامياً إلى وجوههم بقوله: شاهت الوجوه، ـ كما فعله فى بدر الكبرى ـ، متوجهاً إلى غار ثور، وحفاظاً عليه، قطعاً لاحتمال كونه فيه رغم ظاهر الأثر من أقدامه المباركة تؤمر العنكبوت أن يسدل ستاراً ضخماً على باب الغار ما يخيِّل إلى الناظر أنه شغل سنين!.

وهكذا «إن لا تنصروه فقد نصره اللّه إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن اللّه معنا فأنزل اللّه سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها..»[١]

فى ذلك المسرح المنقطع النظير - إلا ما كان بحق المسيح عليه‌السلام **- نرى للرسول** صلى‌الله‌عليه‌وآله **صاحبين بين أصحابه، صاحب ينام على فراشه مضحياً بنفسه نفس الرسول** صلى‌الله‌عليه‌وآله **بما أختاره** صلى‌الله‌عليه‌وآله **لتلك التضحية وهو الإمام على بن أبى طالب** عليه‌السلام **وقد نزلت بشأنه آية الشراء: «ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات اللّه واللّه رؤوف بالعباد»**[٢] **بصورة مستقلة.**

وصاحب يصاحبه فى الغار حالة الفرار من مكر الكفار، ولا تنزل بشأنه إلا «إذ يقول لصاحبه لا تحزن أن اللّه معنا...»[٣]

---

[١]. ٩: ٤٠.

[٢]. ٢: ٢٠٧.

[٣]. ٩: ٤٠.

فلقد بات على عليه‌السلام على فراش الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله والخطر هاجم، وصاحبه أبو بكر إلى الغار والخطر ناجم، ثم نجد علياً عليه‌السلام، مُقدماً بكل بُدّ لتلك التضحية دونما تخوف، ولا نجد صاحبه فى الغار إلاّ متخوفاً ومعه الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وقد يأتى نبأ الموقفين حين نأتى على تفسير آية الغار.

هنا الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وعلى عليه‌السلام يتعانقان ولا يرضى علياً عليه‌السلام إلا أن تَسْلم نفس الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله بهذه التضحية، وقد يروى عنه نظم فى ذلك النظم:

«وقيت بنفسى خير من وطىء الحصاومن طاف بالبيت العتيق والحجر

محمد لما خاف أن يمكروا بهفوقّاه ربى ذو الجلال من المكر

وبت أراعيهم متى ينشروننيوقد وطّنت نفسى على القتل والأسر

وبات رسول اللّه فى الغار آمناًهناك وفى حفظ الإله وفى ستر

أقام ثلاثاً ثم زمَّت قائِصقلايص يفرين الحصا أينما تفرى[1] ولقد ذاق الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله والذين معه فى أخريات سنيَّه بمكة أشد ألوان الأذى بحجر أبى طالب سنين أربع، ولما صمموا على قتله بدار الندوة بدأت الهجرة المباركة مزودة بتسليات لخاطره القريح وقلبه الجريح منذ دخوله الغار «ان اللّه معنا» ومن ثم «وكأين من قرية هى أشد من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم».[2]

ثم له وللذين هاجروا معه: «والذين هاجروا فى اللّه من بعدما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون * الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون».[3]

ولكيلا يحزن على ذلك الهجران فى هجرته الهاجرة «يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فأعبدون»[4] «وأصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً».[1]

---

[1]. قال عبيد اللّه بن أبي رافع وقد قال علي عليه‌السلام يذكر مبيته على الفراش ومقام رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله في الغار ثلاثاً.. وفي الدر المنثور بتفاوت يسير عن الحاكم عن علي بن الحسين عنه عليهم‌السلام.

[2]. ٤٧: ١٣.

[3]. ١٧: ٤٢.

[4]. ٢٩: ٥٦.

لقد اجتمعت قريش فى دار الندوة مرتين بين اجتماعاتهم اللعينة، هما ألعنها، مرة للمعاهدة على حصره صلى‌الله‌عليه‌وآله **والذين معه فى شعب أبى طالب** [٢] **وأخرى إلى إثباته أو قتله أو إخراجه ثم اجتمعوا على قتله.**

ولقد باهى اللّه جبريل وميكائيل بتضحية على عليه‌السلام **ليلة المبيت فى الأخوة المحمدية العلوية** عليهما‌السلام[٣] **وقد يروى عنه** عليه‌السلام **قوله فى قصة المبيت: فأسرعت إلى ذلك مطيعاً له مسروراً،**

---

[١]. ٧٣: ١٠.

[٢]. بحار الأنوار ١٩: ١ ـ ٤ اجتمعت قريش في دار الندوة وكتبوا صحيفة بينهم ألا يواكلوا بني هاشم ولا يكلموهم ولا يبايعوهم ولا يزوجوهم ولا يتزوجوا إليهم ولا يحضروا معهم حتى يدفعوا إليهم محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله فيقتلونه وإنهم يد واحدة على محمد يقتلونه غيلة أو صراحاً، فلما بلغ ذلك أبا طالب جمع بني هاشم ودخلوا الشعب وكانوا أربعين رجلاً فحلف لهم أبو طالب بالكعبة والحرم والركن والمقام إن شاكت محمداً شوكة لاثبتن عليكم يا بني هاشم وحصن الشعب وكان يحرسه بالليل والنهار فإذا جاء الليل يقوم بالسيف عليه ورسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله مضطجع ثم يقيمه ويضجعه في موضع آخر فلا يزال الليل كله هكذا ويوكل ولده وولد أخيه به يحرسونه بالنهار فأصابهم الجهد وكان من دخل مكة من العرب لا يجسر أن يبيع من بني هاشم شيئاً ومن باع منهم شيئاً أنتهبوا ماله، وكان أبو جهل والعاص بن وائل السهمي والنضر بن الحارث بن كلدة وعقبة بن أبي معيط يخرجون إلى الطرقات التي تدخل مكة من رأوه معه مرة نهوه أن يبيع من بني هاشم شيئاً ويحذرون إن باع منهم أن ينهبوا ماله وكانت خديجة رضي اللّه عنها لها مال كثير فأنفقته على رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله في الشعب، ولم يدخل في حلف الصحيفة مطعم بن عدي بن نوفل ابن عبد المطلب بن عبد مناف وقال: هذا ظلم وختموا الصحيفة بأربعين خاتماً ختمها كل رجل من رؤساء قريش بخاتمه وعلقوها في الكعبة وتابعهم على ذلك أبو لهب وكان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله يخرج في كل موسم فيدور على قبائل العرب فيقول لهم: تمنعون لي جانبي حتى أتلو عليكم كتاب ربكم وثوابكم الجنة على اللّه وأبو لهب في أثره فيقول: لا تقبلوا منه فإنه ابن أخي وهو كذاب ساحر، فلم يزل هذا حالهم وبقوا في الشعب أربع سنين لا يأمنون إلا من موسم إلى موسم ولا يشترون ولا يبايعون إلا في الموسم وكان يقوم بمكة موسمان في كل سنة: موسم العمرة في رجب وموسم الحج في ذي الحجة فكان إذا اجتمعت المواسم تخرج بنو هاشم من الشعب فيشترون ويبيعون ثم لا يجسر أحد منهم أن يخرج إلى الموسم الثاني وأصابهم الجهد وجاعوا وبعث قريش إلا أبي طالب قصيدته اللامية فلما سمعوا هذه القصيدة أيسوا منه وكان أبو العاص بن الربيع ـ وهو ختن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ـ يأتي بالعير بالليل عليها البر والتمر إلى باب الشعب ثم يصبح بها فتدخل الشعب فيأكله بنو هاشم وقد قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: لقد صاحرنا أبو العاص فاحمدنا صهره، لقد كان يعمد إلى العير ونحن في الحصار فيرسلها في الشعب ليلاً ولما أتى على رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله في الشعب أربع سنين بعث اللّه على صحيفتهم القاطعة دابة الأرض فلحست جمع ما فيها من قطيعة وظلم وتركت «باسمك اللهم» ونزل جبريل على رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فأخبره بذلك فأخبر رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله أبا طالب فقام أبو طالب ولبس ثيابه ثم مشى حتى دخل المسجد على قريش وهم مجتمعون فيه فلما أبصروه قالوا: قد ضجر أبو طالب وجاء الآن ليسلم ابن أخيه فدنا منهم وسلم عليهم فقاموا إليه وعظموه وقالوا: قد علمنا يا أبا طالب إنك أردت مواصلتنا والرجوع إلى جماعتنا وأن تسلم أبن أخيك إلينا، قال: واللّه ما جئت لهذا ولكن ابن أخي أخبرني ولم يكذبني أن اللّه تعالى أخبره أنه بعث على صحيفتكم القاطعة دابة الأرض فلحست جميع ما فيها من قطيعة رحم وظلم وجور وترك اسم اللّه فابعثوا إلى صحيفتكم فإن كان حقاً فأتقوا اللّه وارجعوا عما أنتم عليه من الظلم والجور وقطيعة الرحم وإن كان باطلاً دفعته إليكم فإن شئتم قتلتموه وإن شئتم استحييتموه فبعثوا إلى الصحيفة وأنزلوها من الكعبة وعليها أربعون خاتماً فلما أتوا بها نظر كل رجل منهم إلى خاتمه ثم فكوها فإذا ليس فيها حرف واحد إلا «باسمك اللهم» فقال لهم أبو طالب: يا قوم اتقوا اللّه وكفوا عما أنتم عليه فتفرق القوم ولم يتكلم أحد ورجع أبو طالب إلى الشعب.

[٣]. وفيه ٤٦ ل قال أمير المؤمنين عليه‌السلام في جواب اليهودي الذي سأل عما فيه من علامات الأوصياء فقال فيما قال: وأما الثانية يا أخا اليهود فإن قريشاً لم تزل تخيل الآراء وتعمل الحيل في قتل النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله حتى كان آخر ما اجتمعت فيه ذلك يوم الدار: دار الندوة، وإبليس الملعون حاضر في صورة أعور ثقيف فلم تزل تضرب أمرها ظهراً لبطن حتى اجتمعت آراءها على أن ينتدب من كل فخذ من قريش رجل ثم يأخذ كل رجل منهم سيفه ثم يأتي النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله وهو نائم على فراشه فيضربونه جميعاً فأسيافهم ضربة رجل واحد فيقتلوه فإذا قتلوه منعت قريش رجالها ولم تسلمها فيمضي دمه دهراً، فهبط جبرئيل عليه‌السلام على النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله فأنبأه بذلك وأخبره بالليلة التي يجتمعون فيها والساعة التي يأتون فراشه فيها وأمره بالخروج في الوقت الذي خرج فيه إلى الغار فأخبرني رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله بالخبر وأمرني أن أضطجع في مضجعه وأقيه بنفسي فأسرعت إلى ذلك مسروراً لنفسي بأن أقتل دونه فمضى صلى‌الله‌عليه‌وآله لوجهه وأضطجعت في مضجعه وأقبلت رجالات قريش موقنة في أنفهسا أن تقتل النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله فلما

فالكتاب والسنة - كلمة واحدة - متجاوبات فى أفضلية الموقف المشرِّف لمبيت الإمام على عليه‌السلام على موقف أبى بكر فى الغار، حيث المدار ليس هو الصحبة فى المكان، إنما هو التضحية فى الحفاظ على الصاحب[1].

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.[2]

هنا «قد سمعنا» تعنى سمع الأذن دون القبول بسمع القلوب والعقول - رغم ما حققوه ب«قد» كأنهم واعون ما سمعوا - إنما هو سماع للهزء بما يسمعون كذريعة لقيلتهم الغيلة: «لو نشاء...» ولحصرهم آيات اللّه المتلوة عليهم بأساطير الأولين، وترفعهم - بزعمهم - عن الأساطير، يُحيلون على أنفسهم أن يقولوا مثل هذا زغم إمكانيتهم ذاتياً لقوله كما يتقولون[3]

أستوى بي وبهم البيت الذي أنا فيه ناهضت بسيفي فدفعت عن نفسي بما قد علمه اللّه والناس، ثم أقبل على أصحابه فقال: أليس كذلك؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين.

وفيه ٥٢ شيء عن زرارة ومحمد بن مسلم عن أحدهما عليهما‌السلام أن قريشاً أجتمعت خرج من كل بطن أناس ثم انطلقوا إلى دار الندوة ليشاوروا فيما يصنعون برسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فإذا هم بشيخ قائم على الباب وإذا ذعبوا إليه ليدخلوا قال: أدخلوني معكم قالوا: ومن أنت يا شيخ، قال أنا شيخ من مضر ولي رأي أشير عليكم فدخلوا وجلسوا وتشاوروا وهو جالس وأجمعوا أمرهم على أن يخرجوه فقال: ليس هذا لكم برأي. إن أخرجتموه أجلب عليكم الناس فقاتلوكم، قالوا: صدقت ما هذا برأي، ثم تشاورا فأجمعوا أمرهم على أن يوثقوه قال: هذا ليس بالرأي إن فعلتم هذا ومحمد رجل حلو اللسان أفسد عليكم أبناءكم وخدمكم وما ينفعكم أحدكم إذا فارقه أخوه وابنه أو إمرأته ثم تشاوروا فاجمعوا أمرهم على أن يقتلوه، يخرجون من كل بطن منهم بشاهر فيضربونه فأسيافهم جميعاً عند الكتفين ثم قرأ الآية «وإذا يمكر بك...».

وفيه في قصة المبيت قول الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله لعلي: إن الروح هبط علي بهذه الآية آنفاً يخبرني أن قريشاً أجتمعت علي المكر بي وقتلي وأنه أوحى إلي عن ربي عزَّ وجلَّ أن أهجر دار قومي وأن أنطلق إلى غار ثور تحت ليلتي وأنه أمرني أن آمرك بالمبيت على ضجاعي - أو قال: - مضجعي لتخفي بمبيتك عليه أثري فما أنت قائل وصانع؟ فقال علي عليه‌السلام: أو تسملن بمبيتي هناك يا نبي اللّه؟ قال: نعم فتبسم عليٌّ ضاحكاً وأهوى إلى الأرض ساجداً شكراً لما أنبأه به رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله من سلامته فكان علي عليه‌السلام أول من سجد شكراً للّه وأول من وضع جبهته على الأرض بعد سجدته من هذه الأمة بعد رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فلما رفع رأسه قال له: إمض لما أمرت فداك سمعي وبصري وسويداء قلبي ومرني بما شئت أكن فيه كمسرتك واقع منه بحيث مرادك وأن توفيقي إلا باللّه وقال: وإن ألقي عليك شبه مني أو قال: شبهي، قال: إن يمنعني نعم، قال: فأرقد على فراشي وأشتمل ببردي الحضرمي ثم إني أخبرك يا علي أن اللّه تعالى يمتحن أولياءه على قدر إيمانهم ومنازلهم من دينه فأشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل وقد أمحتنك يا ابن أم وأمتحنني فيك بمثل ما امتحن به خليله إبراهيم عليه‌السلام والذبيح اسماعيل عليه‌السلام فصبر صبراً فإن رحمة اللّه قريب من المحسنيين، ثم ضمه النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله إلى صدره وبكى إليه وجداً به وبكى عليٌّ عليه‌السلام جشعاً لفراق رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله واستتبع رسول صلى‌الله‌عليه‌وآله أبا بكر وهند بن أبي هالة...

[1]. المصدر ٥٥ ما جماعة عن أبي المفضل معنعناً عن مجاهد قال: فخرت عائشة بأبيها ومكانه مع رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله في الغار فقال عبد اللّه بن شداد بن الهاد: وأين أنت من علي بن أبي طالب عليه‌السلام حيث قام في مكانه وهو يرى أنه يُقتل؟ فسكتت ولم تحر جواباً.

[2]. ٨: ٣١.

[3]. في الدر المنثور٣: ١٨٠ عن السدي قال: كان النضر بن الحارث يختلف إلى الحيرة فيسمع سجع أهلها وكلامهم فلما قدم إلى مكة سمع كلام النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله والقرآن فقال: قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين، وفيه عن سعيد بن جبير قال: قتل النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله يوم بدر صبراً عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث وكان المقداد أسر النضر فلما أمر بقتله قال المقداد يا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: أسيري فقال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: كان يقول في كتاب اللّه ما أقول، قال: وفيه أنزلت هذه الآية.

وكأنهم يترفعون أن يعارضوا هذه الأساطير بأساطير أمثالها إذ لا يعتبرونها مما يعارض لضالتها، وبعدهم عن الأساطير!.

ف«لو» هنا صدٌ عن السؤال: قولوا مثل هذا، كما أن «نشاء لقلنا» هدم لصرح الربانية لهذه الآيات البينات، وما أنحسه مواجهة لآيات اللّه، وما أضله البسطاء الذين لا يعتقون!.

وهنا يبقى سؤال، هل إن إبطال هذه الآيات أحرى للعاقل فى محكمة العقل كما تدذَعون، أو التورط فيما تستائون - زعَم أنه من الأساطير - لذلک الإبطال حتى تتخلصوا من عبء هذه الدعوة المتلاحقة ويتخلص الآخرون؟ إذاً فهذه وتلک هى من الدعاوى الهاوية الخواء الغاوية البواء، وليست الدعوى بمجردها مهما كانت براقة، بالتى يواجه بها البرهان فهى هيه من أساطير الأولين، دون آيات اللّه البينات التى تملک على صدقها من كافة البراهين، وإنما السكوت عن ردهم فيما أدعوا لظاهر بطلان دعواهم دونما نكير، حيث الدعوى المجردة ولا سيما هذه الطائلة الغائلة ليست بالتى ترد على آيات اللّه البينات التى هى بأنفسها أدلة لربانيتها مصدراً وصادراً.

ذلک، وقد وصل العناد من هؤلاء الأنكاد والأوغاد لحد تطلبوا لأنفسهم من اللّه الهلاک إن كان هذا هو الحق:

«وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِکَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ».[1]

دعاء غريب يصور حالة راسبة من العناد ضد الحق المُرام، إيثاراً للهلاک على الإذعان بالحق، حيث فسدت جبلتهم بالكبرياء الجامحة، وأخذتهم العزة بالإثم فحسبهم جهنم وبئس المهاد.

هنا «إن كان هذا» لا تختص بمشار إليه خاص فقد تعنى كافة المتعنتين القائلين هذا، الغائلين، سواء أكان فى مسرح الآيات الربانية الإسلامية - ككل - أم سواها، أم فى مسارح خاصة فى حقل الإسلام كولاية الامر بعد الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله، أنهم - ككل - ودون أيَّة هوادة

---

[1]. ٨: ٣٢.

يرجحون عذاب اللّه على تصديق آية من اللّه لا يهوونها، وهذه هى الخطوة الأخيرة الشيطانية التى يخطوهم بها الشيطان.

ذلك، وجواباً عن أمثال هذه الشطحات الزور والغُرور من أحابيل الغرور:

«وَمَا كَانَ اللّه لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّه مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ».[1]

فكون الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله **فيهم ـ رغم أنهم ناكروه ـ إنه صيانة لهم عن عذاب اللّه مقترحاً وسواه، وصيانة أخرى على طول الخط - كان فيهم الرسول أم لم يكن فيهم ـ «وهم يستغفرون» ف«ليعذبهم» محطٌّ لسلب محدَّد ب«وأنت فيهم» ولكن «معذبهم» سلب طليق «وهم يستغفرون» سواءً أكنت «أنت فيهم» أم لم تكن.**

فتلك هى الرحمة المحمدية العالمية أن اللّه لا يعذب الكافرين به ما هو فيهم، ثم يتوب عن ذلك وهم يستغفرون» فقد «كان فى الأرض إمانات من عذاب اللّه سبحانه فرفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسكوا به، أما الأمان الذى رفع فهو رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله **وأما الأمان الباقى فالإستغفار...»[2] فقد كان مماته إلى حياته خيراً لنا[3] لهذين الأمانين.**

وترى العذاب المنفى «ما دمت فيهم» هو مطلق العذاب الشامل لقتلهم؟ وقد قتل جمع منهم فى غزوات!

إنه عذاب الإستئصال كما لم يعذبوا به ما كان صلى‌الله‌عليه‌وآله **عنهم وهم لا يستغفرون، بعذاب الإستئصال وما أشبه، الواقع على سالفة الأمم المتخلفة عن شرعة اللّه.**

---

[1]. ٨: ٣٣.

[2]. نور الثقلين ٢: ١٥٣ وحكى أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليهما‌السلام أنه قال: كان... قال اللّٰه جلّ من قائل «وما كان اللّٰه ليعذبهم...».

[3]. المصدر ١٥١ في روضته الكافي عن أبي عبد اللّٰه عليه‌السلام قال قال رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله: إن لكم في حياتي خيراً وفي مماتي خيراً، قال: فقيل يا رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله أما حياتك فقد علمنا فمالنا في وفاتك؟ فقال: أما في حياتي فإن اللّٰه عز وجل يقول: وما كان ليعذبهم وأنت فيهم، وأما في مماتي فتعرض علي اعمالكم فأستغفر لكم.
وفي الدر المنثور ٣: ١٨١ - أخرج الترمذي عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله: أنزل اللّٰه علي أمانين لأمتي «وما كان اللّٰه ليعذبهم وأنت فيهم وما كان اللّٰه معذبهم وهم يستغفرون»فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة.
وفيه ١٨٢ - أخرج أحمد والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي سعيد قال قال رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله: إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، قال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني، وفيه عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: من أكثر من الإستغفار جعل اللّٰه له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقة من حيث لا يحتسب.

وليس عذاب القتال ينافى كونه صلى‌الله‌عليه‌وآله رحمة للعالمين، فإن فسح المجال للمكذبين الفاتنين ينافى أصل الرحمة الأصلية المحمدية حيث يستأصل دعوته، وإنما هى الرحمة لا تشكل زحمة على الذين آمنوا.

أجل، إنها رحمة ربانية - إكراماً لمحمد صلى‌الله‌عليه‌وآله - تشملهم فتمهلهم فلا يأخذهم اللّه عجالة بعذاب الإستئصال الإستعجال، مهما يؤخذون بسائر العذاب قضية صدهم عن سبيل اللّه وعن المسجد الحرام، فصدهم بقتال وسواه عما يصدون، فليس ليصدهم عن ذلك العذاب وما يدعونه من كونهم ورثة إبراهيم وسدنة البيت الحرام، أم لأنهم أولياء اللّه، فإنهم أعداء اللّه وأعداء البيت الحرام ومغتصبوه، وليس البيت الحرام ميراثاً حتى لو كان ميراثاً من إبراهيم، بل هو البيت العتيق عن كل اختصاص بوجه خاص، اللهم إلا الأولياء المتقين.

ذلك فقد يعذبهم اللّه دون هذين الشرطين دون عذاب الإستئصال «وأنت فيهم» «وهم يصدون عن المسجد الحرام»:

«وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللّه وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ».[1]

فليس - فقط - لأنهم أميون «ألا يعذبهم اللّه» وهم لا يتقون، «وما لهم ألا يعذبهم اللّه» ولست أنت فيهم ولا هم يستغفرون اللّه و«هم» على كفرهم وتكذيبهم بآيات اللّه «يصدون عن المسجد الحرام» دونما حق يُحق لهم ذلك الصد.

ذلك! «و» الحال أنهم «ما كانوا أولياءه»: اللّه، ولا كانوا أولياء المسجد الحرام من قبل اللّه «إن أولياءه»: اللّه، والمسجد الحرام «إلا المتقون» فإنما لأولياء اللّه وأولياء المسجد الحرام من أولياء اللّه أن يصدوا من سواهم عن المسجد الحرام، ف«إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا».[2]

فالصادُّون عن المسجد الحرام، المشركون باللّه، هم أصول الفتنة ضد الموحدين وشرعة

---

[1]. ٨: ٣٤.

[2]. ٩: ٢٨.

التوحيد، فلا يُسمح لهم بذلک الصد، بل ويعذبهم اللّه بأيدى المؤمنين حرباً كما يعذبهم بما يشاء كيف يشاء حفاظاً على العاصمة التوحيدية عن ذلک الصد الظالم الغاشم.

ذلک «ولكن أكثرهم لا يعلمون» أنهم «ما كانوا أولياءه» و«لا يعلمون» أنهم معذبون و«إن أولياءه إلا المتقون».

أجل، «ألا إن أولياء اللّه هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا إذ نظر الناس إلى ظاهرها وأشتغلوا بآجلها إذا اشتغل الناس بعاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم، وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم، ورأوا إستكثار غيرهم منها إستقلالاً، ودركهم لها فوتاً، أعداءٌ ما سالم الناس، وسِلمُ ما عادى الناس، بهم عُلم الكتاب وبه علموا، وبهم قام الكتاب وبه قاموا، لا يرون مرجواً فوق ما يرجون، ولا مخوفاً ما يخافون»[1].

ذلک، وحين يصد أعداء اللّه أولياءه عن المسجد الحرام، فما هم فيه فاعلون؟.

«وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ».[2]

تلک اللعينة هى صلاتهم باللّه إشراكاً به، وبأهل اللّه صداً عن المسجد الحرام كفراً به، وهذه صلاتهم عن البيت «مكاءً وتصدية» تصفيراً وتصفيقاً[3] هما من اللهو واللغو المناسبين لمسارح الفسق والرقص، وفى أقدس مكان من أمكنة الوحى والعبادة، وذلک ثالوث منحوس، وفى مستحقات العذاب: تكذيب بآيات اللّه، وصدٌ عن المسجد الحرام، ومكاء وتصدية فيه «فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون».

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّه فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ».[4]

---

[1]. الحكمة: ٤٢٢.

[2]. ٨: ٣٥.

[3]. المصدر ١٨٣ - أخرج الطستي عن ابن عباس ان نافع بن الأزرق قال له أخبرني عن قوله عز وجل «إلا مكاءً وتصدية»، قال: المكاء صوت القنبرة والتصيدة صوت العصافير وهو التصفيق وذلك أن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله كان إذا قام إلى الصلاة وهو بمكة كان يصلي قائماً بين الحجر والركن اليماني فيجيء رجلان من بني سهم يقوم أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ويصيح أحدهما كنا يصيح المكاء والآخر يصفق بيديه تصدية العصافير ليفسد عليه صلاته.

[4]. ٨: ٣٦.

وهذه طبيعة الحال النحسة لقبيل الكفر أنهم يصرفون كل طاقاتهم، و«وينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله» صداً للمؤمنين بالله تضليلاً لهم، أم وصداً عن تطبيق أحكام الله كما يصدون عن المسجد الحرام، وصداً للمستضعفين المتحرين عن الحق، أو الحائرين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فكيانهم ككلٍّ هو الصد عن سبيل الله.

ذلك «فسينفقونها» فيما يهوون ويشتهون «ثم تكون عليهم حسرة» في الدارين، فلا فقط «حسرة» بل «ثم يغلبون» غلباً بعد الحسرة وقلة بعد الكثرة، هنا وفي الأخرى، ثم مصيرهم إلى النار «والذين كفروا إلى جهنم يحشرون».

«لِيمِيزَ اللّه الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعا فَيَجْعَلَهُ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ». [1]

«... إلى جهنم يحشرون» مع بعضهم البعض متميزين عن أهل الجنة «يميز اللّه الخبيث من الطيب» في ذلك الحشر كما تميزوا يوم الدنيا عن الطيبين، «ويجعلِ الخبيث بعضه على بعض» ظلمات بعضها فوق بعض - «فيركمه جميعاً» في ذلك الحشر الحاشد، ثم «فيجعله في جهنم...».

فترة رسولية لا رسالية

«يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنْ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللّه عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ». [2]

«يبين لكم» - «كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب» سلباً لخرافات وانحرافات و«يبين لكم» قصّاً عليكم «أكثر الذى هم فيه يختلفون» و«يبين لكم» ما تختص به هذه الشرعة الأخيرة، فقد بَيَّنت لكم «يبين لكم» أن هذا الرسول يبين كل شيء تحتاج إليه الأمة الرسالية إلى يوم الدين: «ولقد

---

[1]. ٨: ٣٧؟

[2]. ٥: ١٩.

جئناكم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون›[1] ـ ‹وهذا بصائر من ربكم وهدىً ورحمة لقوم يؤمنون›.[2]‹ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدىً ورحمة لقوم يؤمنون›.[3]

ذلك بصورة عامة ‹وما أنزلنا عليک الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدىً ورحمة لقوم يؤمنون›.[4]

فتبين القرآن – وعلى ضوءه السنة – يحلّق على السلبيات المفروضة فى الشرعة الأخيرة ‹لتبين الذى أختلفوا فيه› والإيجابيات المؤاتية لشرعة الخلود: ‹وهدى ورحمة› وهنا ‹يبين لكم› تعمهما.

‹يبين لكم على فترة من الرسل› التى بعَّدتكم بطبيعة حال الفترة الرسولية عن طبيعة الرسل والرسالات الإلهية: (أرسله على حين فترة من الرسل وإختلاف من الملل وانقطاع من السبل ودروس من الحكمة وطموس من أعلام الهدى والبيات).[5]

---

[1]. ٧: ٥٢.

[2]. ١٠: ٥٧.

[3]. ١٢: ١١١.

[4]. ١٦: ٦٤.

[5]. نور الثقلين١: ٦٠٢ في الكافي بسند عن عبد العظيم بن عبد الله قال سمعت أبا الحسن عليه‌السلام يخطب بهذه الخطبة: الحمد لله العالم بما هو كائن ـ إلى أن قال ـ: وأن محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله عبده ورسوله المصطفى ووليه المرتضى وبعثه بالهدى أرسله...
أقول: والروايات في سني تلك الفترة مختلفة بين/ ٥٠٠ سنة و٦٠٠ سنة، كما هي مختلفة في أن فيها رسلاً أم لا والمصدقة من الاخيرة، تصدقها آية الفترة أن هذه السنين كانت خلواً من الرسل، مهما كان فيها أوصياء غير معصومين وعلماء.
وإليكم بعضاً من هذه الأحاديث ففي نور الثقلين ١: ٦٠٢ عن تفسير القمي سأل نافع بن الأزرق أبا جعفر محمد بن علي عليهما‌السلام فقال: أخبرني كم بين عيسى ومحمد عليهما‌السلام من سنة! فقال: أخبرك بقولي أو بقولك؟ قال: أخبرني بالقولين جميعاً. قال: أما بقولي فخمسمائة وأما بقولك فستمائة، وفيه عنه عن بشير النبال عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال بينا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله جالساً إذ جاءته امرأة فرحب بها وأخذ بيدها وأقعدها ثم قال: ابنة نبي ضيعه قومة خالد بن سنان دعاهم فأبوا أن يؤمنوا، وفيه عن كمال الدين وتمام النعمة عن الصادقين مثله وفيه فصافحها وأدناها وبسط له رداءه ثم أجلسها إلى جنبه ثم قال: «هذه ابنة نبي ضيعه قومه خالد بن سنان العبسي وكان اسمها محياة بنت خالد بن سنان» أقول: أخذ بيدها فصافحها، مما يطرد الروايتين مع أنهما خلاف نص آية الفترة، وفيه عن كمال الدين عن أبي عبد الله عليه‌السلام عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله يقول في حديث: وأوصى عيسى إلى شمعون بن حمون الصفا وأوصى شمعون إلى يحيى بن زكريا وأوصى يحيى بن زكريا إلى منذر وأوصى منذر إلى سليمة وأوصى سليمة إلى بردة ثم قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: ودفعها إليَّ بردة وأنا أدفعها إليك يا علي.
أقول: ومما يحير العقول قول الصدوق بعد ذلك هذه الاحاديث في كمال الدين: يعني الفترة أنه لم يكن بينهما رسول ولا نبي ولا وحي ظاهر مشهور كمن كان قبله وعلى ذلك دل الكتاب المنزل أن الله عز وجل بعث محمداً صلى‌الله‌عليه‌وآله على حين فترة من الأنبياء والأوصياء ولكن قد كان بينه وبين عيسى عليهما‌السلام أنبياء وأئمة مستورون خائفون منهم خالد بن سنان العبسي نبي لا يدفعه دافع ولا ينكره منكر لتواطىء الأخبار عن الخاص والعام وشهرتهم عندهم وكان بين مبعثه ومبعث نبينا صلى‌الله‌عليه‌وآله خمسون سنة، أقول: لا معنى لخفاء الرسول والنبي حيث الإجهار من لزامات الرسالة، ثم الفترة تقتضي انقطاع الرسالة جاهرة وخافية.

فتعالوا الآن معى لنقضى فترة فى الحصول على المعنى من «فترة من الرسل» إذ لم تأت فى القرآن إلا هذه المرة اليتيمة.

فالفتور لغوياً هو سكون بعد حِدَّة ولين بعد شدة، وضعف بعد قوة، ففترة من الرسل تعنى إنقطاعاً فى سلسلة الوحى بإنقطاع الرسل لردح من الزمن، إلاّيوجد رسول فاتر فى رسالته، وفترة الرسالة هى سكونها بعد حراكها بانقطاع رسلها الداعية، فحين تنقطع الرسالة بدعاتها الرسل، لفتور القوة الدعائية، ولا سيما بين الألدّاء من الأقوم، فعند ذلك الطامة الكبرى وكما يروى عن الإمام على أمير المؤمنين عليه‌السلام من خطبة له: «أرسله على حين فترة من الرسل وطول هجعة من الامم وإعتزام من الفتن وإنتشار من الأمور وتلظٍ من الحروب، والدنيا كاسفة النور، ظاهرة الغرور، على حين إصفرار من ورقها، وإياس من ثمرها، وإغورار من ماءها، قد درست منار الهدى، وظهرت أعلام الردى، فهى متجهمة لاهلها، عابسة فى وجه طالبها، ثمرها الفتنة وطعامها الجيفة ودثارها السيف...».[1]

«بعثه والناس ضلال فى حيرة وخابطون فى فتنة قد استهوتهم الأهواء، واستنزلتهم الكبرياء، وأستخفتهم الجاهلية الجهلاء، حيارى فى زلزال من الأمر وبلاءٍ من الجهل فبالغ صلى‌الله‌عليه‌وآله فى النصيحة، ومضى على الطريقة ودعا إلى الحكمة والموعظة الحسنة.[2]

---

[1]. نهج البلاغة باب الخطب ١٥٦ ـ ١٥٧.

[2]. أقول: وهنا خطب أخرى كالتالية: «إلى أن بعث الله سبحانه محمد رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله لإنجاز عدته وتمام نبوته، مأخوذاً على النبيين ميثاقه، مشهوراً سماته، كريماً ميلاده، وأهل الأرض يومئذٍ ملل متفرقة، وأهواءً منتشرة، وطرائق متشتتة، بين مشبِّه لله بخلقه، أو ملحد في السمة، أو مشير إلى غيره، فهداهم به من الضلال، وأنقذهم بمكانة من الجهالة...»الخطبة ٣٢/١..
«أرسله بالدين المشهور، والعلم المأثور، والكتاب المسطور، والنور الساطع، والضياء اللامح، والأمر الصادع، إزاحة للشبهات، وإحتجاجاً بالبينات، وتحذيراً بالآيات، وتخويفاً بالمثلات، والناس في فتن انجذم فيها حبل الدين، وتزعزعت سواري اليقين، واختلف النجر، وتشتت الأمر، وضاق المخرج، وعمي المصدر، فالهدى خامل، والعمى شامل، عُصي الرحمن ونُصر الشيطان، وخُذل الإيمان فأنهارت دعائمه، وتنكرت معالمه، ودرست سُبُله، وعفت شركه، أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه، ووردوا مناهله، بهم سارت أعلامه وقام لواءُه، في فتن داستهم بأخفائها، ووطئتهم بأظلافها، وقامت على سنابكها فهم فيها تائهون حائرون جاهلون مفتونون، في خير دار وشر جيران، نومهم سهود، وكحلهم دموع، بأرض عالمها ملجم، وجاهلها مكرم» (٣: ٣٦)
«إن الله بعث محمداً صلى‌الله‌عليه‌وآله نذيراً للعالمين، وأميناً على التنزيل، وأنتم معشر العرب على شرِّ دين وفي شر دار، منيخون بين حجارة خُشن، وحيات صُمٍّ، تشربون الكدِر وتأكلون الجشب، وتسفكون دماءكم، وتقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبة، والآثام بكم معصوبة» (٣٦، ٧٣).
«أرسله لإنفاذ أمره وإنهاء عذره وتقديم نُذُره» (١٨١، ١، ١٣٦).
«وطال الأبد بهم ليستكملوا الخزي ويستوجبوا الغير، حتى إذا احلولق الأجل واستراح قوم إلى الفتن، وأشالوا عن لقاح حربهم، لم يمنوا على الله بالصبر، ولم يستعظموا بذل أنفسهم في الحق، حتى إذا وافق وارد القضاء إنقطاع مدة البلاء، حملوا بصائرهم على أسيافهم، ودانوا لربهم بأمر واعظهم» ١٤٨ ـ ٢٦٣.
«أرسله بحجة كافية، وموعظة شافية، ودعوة متلافية، أظهر به الشرائع المجهولة، وقمع به البدل المدخولة، وبين به الأحكام

ولئن سأل سائل هلا تكون «فترة من الرسل» خلواً عن حجة الرسالة نقضاً لبالغ الحجة فإعذاراً للمعتذرين وحجةً للناس على اللّه رب العالمين، فإنهم: «رسلاً مبشرين ومنذرين لئلاً يكون للناس على اللّه حجة بعد الرسل وكان اللّه عزيزاً حكيماً»[1] فلا بد من حجة رسولية أو رسالية بين المكلفين لئلا يكون للناس على اللّه حجة.

والجواب أن «فترة من الرسل» لا تعنى خلواً من حجج الرسالات فإن صيغتها «فترة من الرسالات» دون «الرسل» فلا تعنى «فترة من الرسل» إلا فترة من إبتعاث الرسل وحججهم باقية، مهما صعب الوصول إليها للتحريف، والتجديف فى كتابات الرسل، والمؤمنون الصالحون علماءَ وسواهم يهتدون بهدى اللّه إلى الوحى الأصيل كيفما كان التحريف.

فما مثل العائشين فى «فترة من الرسل» إلا كمثل العائشين بعد خاتم الرسل صلى‌الله‌عليه‌وآله إلى يوم الدين، والفارق ليس فى أصل الحجة المحلقة على كل الأدوار، إنما هو فى وضوح المحجة للوصول إلى الحجة فى الأخرين، وصعوبتها فى الأولين وسهولتها فى الآخرين.

فالناقد البصير زمن الفترة الرسولية بإمكانه التخلص عن كل دخيل دجيل وإن صعب، فأفضل الأعمال أحمزها، ثم المتخلف عن شرعة اللّه فى هذه الفترة ليس ليحاسب كما المختلف عنها فى زمن الرسل أو الرسالة الباهرة بحججها.

ذلك، فقد كان الطريق للوصول إلى حجة الوحى مفتوحاً زمن الفترة للذين يتطرقون إليه، ولا سيما وأن الراسخين فى العلم من أهل الكتاب يعلمون الأصيل من وحى الكتاب عن الدخيل: «لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك...»[2] فالعوام منهم المهتدون المؤمنون عليهم الإقتداء بهؤلاء الراسخين فى العلم منهم، ثم العوام الآخرون

المفصولة» (١٥٩، ٢٨٦).
«بعثه حين لامكم قائم، ولا منار ساطع، ولا منهج واضح» (١٩٤، ٣٨٥).
«ثم إن اللّه سبحانه بعث محمداً صلى‌الله‌عليه‌وآله بالحق حين دنى من الدنيا الإنقطاع، وأقبل من الآخرة الإطلاع، وأظلمت بهجتها بعد إشراق، وقامت بأهلها على ساق، وخشُن منها مهاد، وأزف منها قيادٌ، في إنقطاع من مدتها، وإقتراب من أشراطها، وتصرم من أهلها، وإنفصام من حلقتها، وإنتشار من سببها، وعفاءٍ من أعلامها، وتكشف من عورتها، وقِصر من طولها، جعله اللّه بلاغاً لرسالته، وكرامة لامته، وربيعاً لأهل زمانه، ورِفعة لأعوانه، وشرفاً لأنصاره» (١٩٦، ٣٩٠).

[1]. ٤: ١٦٥.

[2]. ٤: ١٦٢.

مصيرهم مصير هؤلاء الذين يحرفون الكتاب أم هم راضون، إذاً فالحجة الرسالية لم تفتر فى زمن الفترة الرسولية، وإحدى الحجتين كافية لقطع العذر، ولكن الرحمة تقتضى ألا يكتفى فى الحجة البالغة بما هى غارقة فى لجة التحريف، فليزل بعد هذه المحرفات كتاب يبقى وحياً أصيلاً دون أى دخيل، مناراً للعالمين إلى يوم الدين.

ذلك، وبصورة عامة إن سيرة الرسالة سائرة على مدار زمن التكليف دونما تجافٍ عنها وإن لحظة واحدة، فقد «أصطفى سبحان من ولد آدم أنبياء أخذ على الوحى ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم، لما بدّل أكثر خلقه عهد اللّه إليهم، فجهلوا حقه، وأتخذوا الأنداد معه، وأجتالتهم الشياطين عن معرفته، وأقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكّروهم منسىِّ نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويُروهم الآيات المقدَّرة، من سقف فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع، ومعايش تحييهم، وآجال تُفنيهم، وأوصاب تُهرمهم، وأحداث تتابع عليهم. ولم يُخل سبحانه خلقه من نبىّ مرسل، أو كتاب منزل، أو حجة لازمة، أو محجَّة قائمة، رسلٌ لا تقصَّر بهم قلة عددهم، ولا كثرة المكذبين لهم، من سابق سمَّى له من بعده، أو غابر عرفه من قبله، على ذلك نسلت القرون، ومضت الدهور، وسلفت الآباء وخلفت الأبناء».[1]

ذلك، «وليقيم الحجة به (آدم) على عباده، ولم يُخلهم بعد أن قبضه، مما يؤكد حجة ربوبيته، ويصل بينهم وبين معرفته، بل تعاهدهم بالحجج على ألسن الخيرة من أنبياءه، ومتحملى ودائع رسالاته قرناً فقرناً، حتى تمت بنبينا محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله حجتُه، وبلغ المقطع عُذْره ونُذُرُه».[2]

وهكذا «فاستودعتهم فى أفضل مستودع، وأقرَّهم فى خير مستقر، تناسختهم كرائم الأصلاب إلى مطهرات الارحام، كلّما مضى منهم سلف قام منهم بدين اللّه خَلَف، حتى أفضت كرامة اللّه سبحانه إلى محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله... أرسله على حين فترة من الرسل، وهفوة عن العمل،

---

[1]. نهج البلاغة الخطة ١: ٣١.

[2]. الخطبة ١٧٤/٣/٨٩.

وغباوة من الأمم...».[1]

فقد «بعث اللّه رسله بما صخهم به من وحيه، وجعلهم حجة له على خلقه، لئلا تجب الحجة لهم يترك الإعذار إليهم، فدعاهم بلسان الصدق إلى سبيل الحق ـ

ألا إن اللّه كشف الخلق كشفة، لا أنه جهل ما أخفوه من مصون أسرارهم، ومكنون ضمائرهم، ولكن ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، فيكون الثواب جزاءً والعقاب بواءً».[2]

«وبعث إلى الجن والإنس رسله، ليكشفوا لهم من غطاءها: - الدنيا - وليحذِّروهم من ضرَّائها، وليضربوا لهم أمثالها، وليبصروهم عيوبها، ويهجموا عليهم بمعتبر من تصرف مصاحها وأسقامها، وحلالها وحرامها، وما اعد اللّه للمطيعين منهم والعصاة، من جنة ونار، وكرامة وهوان»...[3]

«فيها حسرة على كل ذى غفلة أن يكون عُمرُه عليه حجة»[4] «فقد أنذر اللّه إليكم بحجج مسفرة ظاهرة، وكتب بارزة العذر واضحة».[5]

«اللهم بلى لا تخلو الارض من قائم للّه بحجة، إما ظاهراً مشهوراً، أو خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج اللّه وبيِّناته، وكم ذا وأين أولئك؟ أولئك الأقلون عداً، والأعظمون عند اللّه قدراً، يحفظ اللّه بهم حججه وبيِّناته حتى يودعوها نظرائهم، ويزرعوها فى قلوب أشباههم».[6]

أجل «... قد جاءكم... أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير» فمن مهامِّ الأهداف فى هذه الرسالة الأخيرة هو قطع الأعذار عن بكرتها عن «أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير» فقد قضت علينا الفترة الرسالية وحرفت كتب السماء عن جهات أشراعها، فلا هى معصومة

---

[1]. الخطبة ٩٢/ ١٨٥.

[2]. الخطبة ٢٥٥/١٤٢.

[3]. الخطبة ١٨١/ ٣٣٠.

[4]. الخطبة ١١٨/٦٢.

[5]. الخطبة ١٣٤.٧٩.

[6]. ١٤٧ ح/ ٥٩٥.

تصلح الرجوع إليها والإعتماد عليها، ولا «جاءنا» بعد الرسل والكتب السالفة «من بشير ولا نذير» معصوم يعتمد عليه مهما كان العلماء كثرة، ولكنهم كانوا منجرفين بالجوارف ومنخرفين بالخوارف إلا القليل من الضعفاء فى مسرح الدعوة.

فلقد ضعفت الدعوة والدعاية وابتعدت الحجة زمن الفترة لحد كادت أن تكون حجة الضالين بالغة - ولن تبلغ - فابتعث اللّه ذلک الرسول العظيم بهذه الرسالة العظيمة قطعاً لكل الاعذار والحجج منذ بزوغها إلى يوم الدين.

فلو لا هذه الرسالة واستمر زمن الفترة لكانت الحجة على اللّه - وعوذاً باللّه - واقعة، ولضل المكلفون عن بكرتهم إلا القليل القليل من الأوحدى ذوى البصائر والنُّهى.

«فقد جاءكم بشير ونذير» وذلک البشير النذير الأخير هو المهيمن بكتابه على كل بشير سالف ونذير بكتاباتهم، لولاه لانفصمت أعلام الهدى عن بكرتها وأنطمست.

«واللّه على كل شىء قدير» ومن أهم الأشياء التى تحتاج إلى قمة عالية من القدرة ابتعاث رسلو يقطع طافة الأعذار فى كافة الحقول لكافة الأمم عن بكرتها، اذ خلصهم بأسرهم عن أسرهم.

وهنا «أن تقولوا» لا تخاطب - فقط - أهل الكتاب، بل وبأحرى غيرهم من عامة المكلفين، فلو لا ذلک البشير النذير الأخير لقضى على بشارة الوحى ونذارته عن بكرتها، حيث الكتب السالفة محرَّفة فلا تصلح لدعوة صالحة، فليس لمتحرى الحق أن يتحراه عن سابقه، ولا حاضره، ثم المكلفون منذ الفترة إلى يوم الدين تبقى لهم هذه الحجة العاذرة ثابتة صادقة: «ما جاءنا من نذير».

ذلک وكما أن هذه الرسالة بين العرب تقطع أعذارهم: «ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَىْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ».

فهذه الرسالة السامية هى قاطعة الأعذار فى الطول التاريخى والعرض الجغرافى.

فى هذه الرسالة تتجاوب براهين الرسالة العامة والخاصة، فقد كتب اللّه على نفسه الرحمة، ولا سيما رحمة الهداية على ضوء الوحى، ومن الرحمة الربانية فى حقل الشرعة أن تكون وحيدة تجمع كافة المكلفين، فما هى هذه الشرعة الوحيدة الصالحة ببراهينها وواقعها لإسعادهم عن بكرتهم.

الخطوة الأولى لسائر الرسالات - لو لا القرآن - فاشلة، إذ لم تبق من حجج الرسل باقية واقية تصلح للإحتجاج بها، فإن آياتهم الرسولية انقرضت معهم، ثم وآياتهم الرسالية، هى كتبهم اصبحت ـ ومنذ أمد بعيد - محرفة عن جهات أشراعها، ولا نجد إلا القرآن العظيم الجامع فى نفسه الحجة الرسولية والرسالية، المهيمنة لما سبقه من رسل ورسالات.

و«يبين لكم» وما أشبه ككل تعم تبيين كلَّما يحق تبيينه من الحق من ظاهر أو باطن دونما استثناء، فالقيلة الغائلة الصوفية أن وراء الشريعة حقيقة لا تُنال إلا بطقوس خاصة أخرى غير قشور الشريعة، هذه إزراء باللّه تعالى كأنه قصَّر فى مادة الإرسال، وإزراء بالرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله كأنه قاصر فى ذلك البلاغ.

فإن كان مما يقولونه هو من الباطن حقاً لكان المشرع أحق بإعلانه كما يعلنون، وإن لم يكن هو الحق فماذا بعد الحق إلاَّ الضلال فأنَّى يؤفكون.

كلاَّ، إن الباطن، الحق كله مطوى فى الظواهر الدينية، كلما أقيمت كالمرسوم فى شرعة اللّه ظهرت تلك الحقائق قدرها واللّه من وراء القصد.

وفى رجعة أخرى إلى الآية انتباهات تالية:

فى إختصاص الخطاب هنا بأهل الكتاب لمحة باختصاصهم أكثر ممن سواهم بتلك النعمة الرسولية حيث «يبين لكم على فترة من الرسل» فإنهم هم المبتلون ببلية التحريف والإختلاف قاصرين ومقصرين، فهذه لهم بشرى سارَّة أن يجيئهم هذا الرسول الذى يبين لهم - كما للعالمين - كل شىء.

ثم «من الرسل» جمعاً محلّى باللام تستغرق فترة منهم كلَّهم إلاَّ الذى جاء أخيراً، فلتكن فترة متصلة بمجيئه، دون فترة أو فترات سابقة منفصلة عنه، كما وأن «فترة» منكرَّة تشير إلى وحدة

هذه الفترة.

ثم هنا «فترة من الرسل» تدل - فقط - على فترة رسولية، ولا ورسالية حيث الفترتان هما قاضيتان على حجة بالغة إلهية فى تلك الفترة...

فمما لا يريبه شكٌ ضرورة حجة بالغة إلهية رسولية أو رسالية فى كل أدوار التكليف، والجمع أبلغ لانضمام الداعية المعصومة إلى مادة الدعوة الرسالية المعصومة.

فحينما «أرسلنا رسلنا تترا كلما جاء أمة رسولها كذبوه.. (٤٤) ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون (٤٥).. وجعلنا ابن مريم وأمه آية.. (٥٠)» وذلك بعد طوفان نوح عليه‌السلام حينذاك - وهو الردح العظيم من الزمن الرسولى والرسالى - كانت الأمم تعيش الحجتين البالغتين.

ثم فى «فترة من الرسل» عاش المكلفون حجة رسالية محرَّفة كان بالإمكان الحصول على أصيل الوحى فيها من الدخيل.

ومن ثم فى زمن الرسول محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله وعترته المعصومين عليهم‌السلام عاشوا الحجتين كما السابقين قبل الفترة، وفى زمن الغيبة الكبرى يعيشون الحجة الرسالية البالغة غير المحرفة وهى القرآن العظيم.

وطالما أصل التكليف فى أية شرعة إبتلاء، فالذين عاشوا أكثر من شرعة واحدة كان لهم إبتلاءٌ ثان هو النقلة إلى شرعة أخرى، والعائشون الفترة الرسولية بين المسيح ومحمد عليهما‌السلام لهم ثان هو إبتلاء هم بشرعة محرفة، وهكذا نجد مختلف الإبتلاآت إضافة إلى أصل كل شرعة، مهما اختلفت ألوان هذه الإبتلاآت.

ولكنما الحجة البالغة الإلهية القاطعة للأعذار عاشت كافة المكلفين، مهما زادت بإضافة الحجة الرسولية، أم نقضت بتحرُّف الحجة الرسالية، ولكن أصل الحجة الممكن الوصول إليها محفوظ على مدارات الزمن الرسالى بأسرها دونما إستثناء، مهما كان فى الرسالة الأخيرة «إنفاذ أمره، وإنهاء عذره وتقديم نذره»[1] ف«أوصيكم بتقوى اللّه الذى أعذر بما أنذر، وأحتج

[1]. الخطبة ١٢٦/١/٨١.

بما نهج وحذركم عدواً نفذ فى الصدور خفياً»...[1]

وهنا «أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير» قطع لعذر القوة فى البشارة والنذارة لمكان الفترة الرسولية والتحريف الرسالى فى هذه الفترة، فبقاء هذه الفترة هو إبقاءٌ لقاصر الحجة البالغة مهما كان قاطعاً للأعذار ردحاً من الزمن، فأما أن تستمر هذه الفترة أكثر مما أستمرت أم وإلى يوم الدين فقد كان لذلک العذر من مكان، ولكن «فقد جاءكم بشير ونذير» رسولى إلى مادة مديدة من تلک البشارة والإنذار هى القرآن العظيم.

ذلک، وكما يقول اللّه تعالى عن فترة الاختلاف والإختلاق: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّه النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأنزلَ مَعَهُمْ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّه الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّه يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».[2]

فالمختلفون المختلقون والذين أتبعوهم تقليداً أعمى هم، المقصرون، والقاصرون هم القاصرون على أية حال مهما اختلف المجال، ثم «الذين آمنوا» مهديون بهدى اللّه لِما اختلف المقصرون فيه من الحق.

فرغم التحريفات المتنوعة فى كتابات الوحى السالفة، فهنا فى ميدان الإيمان دور دائر للهدى الربانية، حيث المؤمن ينظر بنور اللّه واللّه ضامن هداه.

إذاً فمهما كان الوصول إلى الهدى فى زمن الفترة الرسولية والتحريفات الرسالية، صعباً مستصعباً، فالحجة البالغة الرسالية فيها باقية مهما كانت صعبة الوصول وشددية الحصول، فالإبتلاآت الربانية ضروب فى مختلف الشرائع والمكلفين والأدوار الرسالية، ولكلٍّ قدرُ سعيه ووعيه.

إذاً فلا يعنى دور الفترة إنقطاع الحجة عن بكرتها حتى تكون للناس على اللّه حجة حيث الغرقى فيها كثيرة فى اللجة.

---

[1]. ١٤٥/٢/٨٨١.

[2]. ٢: ٢١٣.

فالضرورة القائمة على مدار زمن التكليف هى ضرورة وجود الحجة الرسالية سواء أكانت معها رسل أم لا، وضرورة تواتر الرسل قبل الرسالة الأخيرة، إنما هى للحفاظ على صالح الرسالة المعصومة غير المنحرفة، فقد عاشت البشرية أدواراً أربعة غير خالية عن حجة ربانية، ففى تواتر الرسل تلاحقهم حفاظ على سليم الدعوة الرسولية والرسالية، لمكان التبيين لكل التحريفات الكتابية بمنطق الوحى.

ثم فى زمن الفترة الرسولية عن بكرتها والفترة الرسالية الظاهرة بتحرُّف كتب السماء، كان اللّه مع هؤلاء الذين آمنوا «فهدى الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه واللّه يدى من يشاء إلى صراط مستقيم».

ومن ثم فى زمن الرسالة الإسلامية، المنقسمة إلى أدوار ثلاثة، تجد العصمة الرسالية المتمثلة فى القرآن خالدة على مدار الزمن الإسلامى إلى يوم الدين، مهما اختلفت صور القيادة الرسولية، عصمة زمن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وسائر المعصومين عليهم‌السلام، وتالية تلو العصمة زمن الغيبة الكبرى، حيث المدار الأصيل فى كل هذه الأدوار الثلاثة هو الثقل الأكبر: القرآن العظيم.

فأين فترة الحجة الربانية عن بكرتها فى أيِّ دور من أدوار زمن التكليف؟.

وترى حكمة الإبتلاء فى تبدل الشرائع كيف لا تستمر إلى يوم الدين؟

لأن للإبتلاء صوراً عدة، منها تبدل الشرائع وله حدٌ مّا هو التبدل إلى شريعة كاملة كافلة لكل الحاجات إلى يوم الدين وهى شرعة القرآن العظيم، ففيها ما فى الشرائع وزيادة، ثم فيها ابتلاآت أخرى من أهمها بلية الغيبة الكبرى، حيث لا تقل عن بليات الشرائع بالحجج الرسولية لحاضرى الرسل.

فقد ابتليت الأمم الرسالية - إضافة إلى مشترك الإبتلاء فى نفس الرسالة - بابتلاآت ثلاث متمايزة فى شكلياتها، متحدة فى أصولها، فقد ابتليت شطراً باختلاف الشرائع، وردحاً بفترة من الرسل، والأخير هو الإبتلاء بالغيبة الكبرى بطول أمدها، فقد انقضى دور الإبتلاء بعديد الشرائع وفترة الرسل فابتليت الأمة الاخيرة بالغيبة الكبرى، ولا تقل عما قبلها من نوعى الإبتلاء، اللّهم الا من ابتلاء الفترة الرسولية.

ذلک، مهما کان البعض لهم ابتلاء واحد کأصل الشرعة فیمن لم یعیشوا إلا شرعة واحدة رسولاً ورسالة، أم وثانیاً ما عاشوا أکثر من شرعة رسولاً ورسالة، أم وثالثاً فیمن عاشوا إلی ذلک زمن الفترة أو زمن الغیبة الکبری.

الخلافة الرسولیة انتصابیة

«إِنَّ هَؤُلاَءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِیهِ وَبَاطِلٌ مَا کَانُوا یَعْمَلُونَ».[1]

جملة معترضة إعترضت بین قالتی موسی لهم، تجمع فی تندیدها بنی إسرائیل إلی آل فرعون، فیا یا بنی إسرائیل «إن هؤلاء» الفرعونیین وسائر الوثنیین «متبرٌّ» منقطع «ما هم فیه» من عبادة آلهة دون اللّه «وباطل وما کانوا یعملون».

وما کل من یسمع إلی هذه القصة «إن هؤلاء» من بنی إسرائیل... فهم قوم بوار تبار حیث ترکوا عبادة اللّه الواحد القهار إلی عبادة خلقه الضعاف النحاف.

«قَالَ أَغَیْرَ اللّه أَبْغِیکُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَکُمْ عَلَی الْعَالَمِینَ * وَإِذْ أَنجَیْنَاکُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ یَسُومُونَکُمْ سُوءَ الْعَذَابِ یُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَکُمْ وَیَسْتَحْیُونَ نِسَاءَکُمْ وَفِی ذَلِکُمْ بَلاَءٌ مِنْ رَبِّکُمْ عَظِیمٌ».[2]

فیا سبحان اللّه قوم أنجاهم اللّه من عبودیة الطاغیة، وجاوز بهم البحر وأهلک عدوهم وأراهم الآیات العظام ثم سألوا رسول التوحید الشرک دون فصل! ولقد جاء من نظراءهم بصورة أخف من هذه الأمة حیث «خرجنا مع رسول اللّه صلی‌الله‌علیه‌وآله قبل حنین فمررنا بسدة فقلت یا رسول اللّه صلی‌الله‌علیه‌وآله إجعل لنا هذه ذات أنواط کما للکفار ذات أنواط، کان الکفار ینوطون سلاحهم بسدرة ویعکفون حولها - وکانت تُعبد من دون اللّه - فقال النبی صلی‌الله‌علیه‌وآله: اللّه أکبر هذا کما قالت بنو إسرائیل لموسی: إجعل لنا إلهاً کما لهم آلهة. إنکم ترکبون سنن الذین من قبلکم».[3]

---

[1]. ٧: ١٣٩.

[2]. ٧: ١٤١.

[3]. الدر المنثور ٣: ١١٤ عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا...
وفيه أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني من طريق كثير بن عبد الله بن عوف عن أبيه عن جده قال: غزونا مع رسول الله صلی‌الله‌علیه‌وآله عام الفتح ونحن ألف ونيف ففتح الله له مكة وحنيناً حتى إذا كنا بين حنين والطائف أرض شجرة دنوا عظيمة سدر كان

فيا أغبياء! «أغير اللّه أبغير إلهاً» لكم «وهو» الذى «فضلكم على العـالمين»بمكرمـات «و» أذكـر منها «إذا أنجيناكم من آل فرعون... وفى ذلكم» السوم من العذاب «بلاءٌ من ربكم عظيم» حيـث إبتلاكم به لردح من الزمن ثم تمت كلمة ربـک الحسـنى علـى بنـى إسـرائيل لينظـر كيـف يعملون.

هنا عرض لقصة المواعدة الموسوية وفى طه مثلها باختلاف يسير فى التعبير، وبينهمـا بعـض الميزات الخاصة بكلّ فصلنا التى ل«طه» فيها، وهنا قول فصل حول آيته ما يخصها.

« وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَـالَ مُوسَـى لأَخِيـهِ هَارُونَ اخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ».[1]

هنا عديد المواعدة مذكر دون «طه»: «وواعدناكم جانـب الطـور»[2] ولكنهـا فـى البقـرة: «وإذا واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون».[3]

ف«أربعين» هناک هى مجموع المواعـدتين المتصـلتين، و«ثلاثـين» هنـا هـى ظـاهرة أولـى للمواعدة دون حصر حيث «وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة[4] ف«ثلاثين» هـى فـى صيغة التعبير كانت إمتحاناً لبنى إسـرائيل دون أن يعلمـوا «وأتممناهـا بعشـر» إبـتلاء بهـذه المتممة هل هم بعدُ على إنحرافهم الشركى أم أصلحوا أنفسهم فلا يضلون، ولكنهم ضلوا إلاّ

يناط بها السلاح فسميت ذات أنواط وكانت تعبد من دون الله فلما رآها رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله صرف عنهم في يوم طائف إلى ظل هو أدنى منها فقال له رجل: يا رسول الله إجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: إنها السنن قلتم، والذي نفس محمد بيده كما قالت بنو إسرائيل: إجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة.

[1]. ٧: ١٤٢.

[2]. ٢٠: ٨٠.

[3]. ٢: ٥١.

[4]. نور الثقلين ٢: ٦١ عن أبي جعفر الباقر عليهما‌السلام أن موسى قال لقومه: إني أتأخر عنكم ثلاثين يوماً ليتسهل عليكم ثم زاد عليهم عشراً وليس في ذلك خلف لأنه إذا تأخر عنهم أربعين ليلة فقد تأخر ثلاثين قبلها، وفيه عن الفضل بن يسار عن أبي جعفر عليه‌السلام قال: قلت: لهذا الأمر وقت؟ فقال: كذب الوقاتون كذاب الوقاتون كذب الوقاتون إن موسى عليه‌السلام لما خرج وافداً إلى ربه واعدهم ثلاثين يوماً فلما زاده الله على الثلاثين عشراً قال قومه: قد أخلفنا فصنعوا ما صنعوا فإذا حدثناكم الحديث فجاء على ما حدثناكم به فقولوا: صدق الله، وإذا حدثناكم الحديث فجاء على خلاف ما حدثناكم به فقولوا: صدق الله تؤجروا مرتين.
وفي تفسير العياشي عن الفضيل بن يسار عن أبي جعفر عليه‌السلام قال: إن موسى عليه‌السلام لما خرج وافداً إلى ربه واعدهم ثلاثين يوماً فلما زادا له على الثلاثين عشراً قال قومه: أخلفنا موسى فصنعوا ما صنعوا.

قليلٌ بفتنتى مزيد العشر على الثلاثين. وعجل السامرى: «قال فإنا قد فتنا قومک من بعدک وأضلهم السامریُّ».[1]

وترى لا يستدل بظاهر العدد - إذاً - على ألاً يُعنى أزيد منه كما لا يُعنى الأنقض. إن الأنقض هو خلاف النص، والأزيد قد يكون خلاف النص كما إذا كان العدد فى مسرح الحصر فهو - إذاً - مصرح الحصر، كأن تُسأل ما عندک من الدراهم؟ فتقول: عندى عشرة، فإنها - إذاً - نص فى لاعدد ينفى الأزيد كما ينفى الأنقص، وأخرى ليس خلاف النص، بل هو لأكثر تقدير ظاهر يقبل التحويل كأن تقول دون سؤال: عندى عشرة، فليس ينافيها أكثر منها حيث الأقل هو تحت الأكثر، وهكذا يعنى قول اللّه: «وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر» فقد قال لهم موسى واعدنى ربى ثلاثين ليلة، قبل أن تلحقها المواعدة الثانية، ومهما كانت الأولى ظاهرة فى حصرها ولكن ليست بحيث يستدل بها على سلب مواعدة ثانية حتى إذا جاءت يقال: إن الأولى كاذبة، فقد تكون الأولى - كما هنا - لمصلحة تقتضيها، فلا يحتج بها على سلب الأخرى، مهما لا يحتج أيضاً على إيجابها، فلنسكت عما وراء العدد إيجاباً وسلباً، مهما يلمح بالسلب لما وراءه.

وهنا «ثلاثين ليلة» دورها دور السكوت عما وراءها، فإذا تأخر موسى السول كان ذلک دليلاً على وعد آخر يتلوها قبل أن يخبرهم موسى، ولا فرق - إذاً - بين «أتممناها بعشر» بعد «ثلاثين ليلة» دون فصل بطرح الوحى، وبين ذلک الإتمام المستفاد من واقع التأخير لقوم موسى، والوحى الثانى بحمله لموسى نفسه.

ذلک، وحتى إذا كان العدد نصاً فى الحصر ثم لحقته زيادة بنص آخر لا يكذّب هذا الآخر فإن للنسخ مجالاً واسعاً حين نتأكد من النص الثانى، فضلاً عما هنا حيث العدد ليس نصاً فى الحصر ولا ظاهراً بيناً، وإنما له لمحة الظهور.

وكضابطة فى الأعداد وسائر القيود هى بين حالات ثلاث:

١ - أن تدل قرائن على الحصر

---

[1]. ٢٠: ٨٥.

٢ – أم على سلبه
٣ – أم لا دلالة على الحصر إيجابياً ولا سلبياً، وهنا «واعدنا موسى ثلاثين ليلة»من القبيل الثالث، مهما كان ظاهراً ظهوراً ما فى الحصر، احتمالاً راجحاً لحصر المواعدة فى (ثلاثين) ولكنه ليس حجة على كذب موسى بما «وأتممناها بعشر» أم كذب اللّه وعوذاً باللّه، حيث الأدلة القاطعة على كمال الصدق وتمامه فى قول ا وقول رسول اللّه، المبرهن على رسالته بآيات من اللّه، هذه الأدلة تجعل ذلک الإحتمال اختمالاً وفى بوتقة النسيان، بل وحتى إذا ناقضت المواعدة الثانية الأولى فوجه النسخ موجه لا يدع مجالاً لفرية الكذب فى الساحة الربانية والرسالية.

ذلک، فالقول: إن إثبات الشىء لا ينافى ما عداه لا يصح إلاً عند فقد القرائن على سلب أو إيجاب، فليست ضابطة تحلق على كل إثبات إنه لا ينفى ما عداه، إنما هو الإثبات غير الحاصر حدَّه بعدَّه أو مدَّه.

ثم المواعدة الخفية عن قوم موسى هل كانت خفية على موسى نفسه كما هم ثم أوحيت إليه بعد كمال الثلاثين، أم كان يعرفها عند المواعدة الأولى، دون سماح له أن يخبرهم بها؟ الظاهر أنه ما كان يعلمها كقومه على سواء، وإلاّ لم تكن مواعدة ثانية، إنما هى مواعدة واحدة هى «أربعون ليلة».

إذاً ف«أتممناها بعشر» بمواعدة ثانية بعد الثلاثين أم ضمنه، دون أن تكون أوحيت إليه مع الأولى، اللهم إلا بتأويل أن اللّه واعده الأولى أن يخبر بها قومه، ثم بعدها الثانية دون فصل ألا يخبرهم بها ابتلاءً لهم بما أثقلوا ببراهين الحق الحقيق بالتصديق، وهم مكذبوه، فهى – إذاً – من بلية الشر جزاءً وفاقاً، وعدلاً أوتوا من تلكم البراهين.

هذا، ولأن المواعدة كانت تشملهم أجمع حسب الجمع فى طه: «واعدناكم» و«وما أعجلك من قومک يا موسى قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليک رب لترضى»فقد كانت المواعدة الأصلية هى ثلاثين ليلة ثم «وأتممناها بعشر» إتماماً للعدة المعنية بذلک العدد المبارک وعشر ذى الحجة.

وذلک وللأربعين عديداً ومعدوداً منزلتها فى مختلف الحقول تكويناً وتشريعاً ف«ما أخلص

عبد الإيمان باللّه أربعين يوماً إلا زهده اللّه فى الدنيا وبصرّه داءها ودواءها وأثبت الحكمة فى قلبه وأنطق بها لسانه..».

وهى هنا كما يروى ثلاثون ذى القعدة – حيث اتفقت هكذا حين المواعدة – وعشر من ذى الحجة، وما يروى سناداً إلى ثلاثين هذه أن ذا القعدة هى ثلاثون يوماً[1] هى خلاف الواقع المكرور، كما وأن «ثلاثين» فى الآية لا تقرر نفس العدد لذى القعدة على مدار الزمن!.

وإنما اختص ذكر «ليلة» دون «نهاراً» أو «أياماً» ل«إن ناشئة الليل هى أشد وطئاً وأقوم قيلاً»[2] فإن فيه اجتماعاً للحواس عن سائر التفرقات الحيوية المعيشية أكثر من النهار.

ويا للأربعين من موقف مشرف تكويناً وتشريعاً، فمن التكوين أن كل رحلة من رحلات الجنين أربعون يوماً، ثم وفى التشريع قد بابعث النبى صلى‌الله‌عليه‌وآله فى لأربعين من عمره، وهكذا – كما يروى – سائر النبيين عليهم‌السلام «وليس صاحب هذا الأمر من جاز أربعين» أى فى صورة من له أربعون، «ومن شرب الخمر لم تحتسب صلاته أربعين يوماً» و«من قرأ الحمد أربعين مرة فى الماء ثم يصب على المحموم يشفيه اللّه» و«إن العبد لفى فسحة من أمره ما بينه وبين أربعين سنة فإذا بلغ أربعين سنة أوحى اللّه عزّ وجل إلى ملكيه أنى قد عمرت عبدى عرماً فغلظاً وشدداً وتحفظاً وأكتبا عليه قليل عمله وكثيره وصغيره وكبيره» و«إذا بلغ العبد ثلاثاً وثلاثين سنة فقد بلغ أشده وإذا بلغ أربعين سنة فقد بلغ منتهاه فإذا طعن فى إحدى وأربعين فهو فى النقصان وينبغى لصاحب الخمسين أن يكون كمن كان فى النزع...» «وأبناء الأربعين زرع قد دنى حصاده» و«إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح إبليس وجهه وقال: بأبى وجهه لا يفلح» و«من حفظ من أمتى أربعين حديثاً وجهه مما يحتاجون إليه من أمر دينهم بعثه اللّه يوم القيامة فقيهاً عالماً»[3] وقد «بكى آدم أربعين صباحاً على الجنة» و«أنصبّ الماء

---

[1]. ثلاثون يوماً لقول اللّه عز وجل: «وواعدنا موسى ثلاثين ليلة» ومثله في الكافي عنه عليه‌السلام.
أقول: أمثال هذه التطرفات هي تذوقات غير مسنودة إلى دليل تفترى على المعصومين عليهم‌السلام!.

[2]. ٦: ٧٣.

[3]. أربعين حديثاً يعم القرآن والسنة، بل القرآن أحرى أن يكون حديثاً: «بأي حدث بعد اللّه وأيته يؤمنون» ثم ولا يعني «حفظ» فقط حفظاً عن ظهر القلب، بل هو كامل الحفظ تعلماً وتخلقاً وتطبيقاً في الأصول الثلاثة وفي الفروع. عشرة في الفروع العشرة، وثلاثين في الأصول الثلاثة، فطالما الحفاظ كثير ولكنما الرعاة قليل.
وقد يروى «من بلغ أربعين ولم يتعض فقد عصى» فقد تعنى مثلث العصى لهندسة كمال الإنسان وهي عصى الفطرة والعقلية

من نوح من السماء أربعين صباحاً» «وأحتبس الوحى عن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله **أربعين يوماً» «وأعتزل** صلى‌الله‌عليه‌وآله **عن خديجة أربعين صباحاً لحملها بفاطمة** عليهاالسلام**وولادتها إياها» «وتاه قوم موسى فى التيه أربعين سنة» «وأملى اللّه لفرعون ما بين الكلمتين أربعين سنة ثم أخذه اللّه نكال الآخرة والأولى» و«إذا مات المؤمن فحضر جنازته أربعون رجلاً من المؤمنين فقالوا: اللهم إنا لا نعلم منه إلا خيراً وأنت أعلم به منا، قال اللّه تبارک وتعالى: قد أجزت شهادتكم وغفرت له ما علمت مما لا تعلمون»[1].**

والشرعة، استقامة على هذه العصي ليقوم في دين الله سليماً صالحاً.
ذلك وقد ورد «على أمتي» بديلاً عن «من أمتي» كما في البحار ٢: ١٥٦ ح٨ في العيون ٢: ٣٧ ح٩٩ عن الرضا عليه‌السلام وابن زهرة في الاربعين ٣٩ بالطريق الاول من السند رقم ٤٠ ورواه الشهيد الأول ي مقدمة أربعين بالإسناد رقم ٦٤ وأخرجه كنز العمال ١٠: ٤٥٢ ح٢٩١٨٥ - أخرجه أبن الجوزي بلفظه عن علي عليه‌السلام الدار قطني في العلل عن ابن عباس بلفظ «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من أمر دينها بعثه الله فقيهاً عالماً»، وأخرجه ابن حبان في الضعفاء عنه وابن عدي وابن عساكر عن طرق عن أبي هريرة وابن الجوزي أيضاً عن أنس وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة مرفوعاً، وذكر في التخريج عدة من المحدثين المخرجين لهذا الحديث تركناه اختصاراً وكما يناسب موسوعتنا التفسيرية.
ومما يشهد على أن الحفظ لا يعني - فقط - حفظاً عن ظهر الغيب، بل هو الحفاظ لأربعين على العامة في أمر الدين فردياً وجماعياً، كنماذج من أصول الدين وفروعه، وما رواه في الخصال بسند عن جعفر بن محمد عن أبيه الحسين بن علي عليهم‌السلام قال: إن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌أوصى إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه‌السلام وكان فيما أصى به أن قال له يا علي!: من حفظ من أمتي أربعين حديثاً يطلب بذلك وجه الله عزَّ وجلَّ والدار الآخرة حشرة الله يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. فقال علي عليه‌السلام يا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌أخبرني ما هذه الاحاديث؟ فقال: أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، وتعبده ولا تعبد غيره، وتقيم الصلاة بوضوء سابغ في مواقيتها، ولا تؤخرها فإن في تأخيرها من غير علة غضب الله عزَّ وجلَّ، وتؤدي الزكاة، وتصوم شهر رمضان، وتحج البيت إذا كان لك مال وكنت مستطيعاً وأن لا تعق والديك، ولا تأكل مال اليتيم ظلماً، ولا تأكل الربا، ولا تشرب الخمر ولا شيئاً من الأشربة المسكرة، ولا تزني، ولا تلوط، ولا تمشي بالنميمة، ولا تحلف بالله كاذباً، ولا تسرق، ولا تشهد شهادة الزور لأحد قريباً كان أو بعيداً، ولا تقبل الحق ممن جاء به صغيراً أو كبيراً، وأن لا تركن إلى ظالم وإن كان حميماً قريباً، وأن لا تعمل بالهوى، ولا تقذف المحصنة، ولا ترائي فإن أيسر الرياء شرك بالله عزَّ وجل، وأن لا تقول لقصير يا قصير، ولا لطويل يا طويل، تريد بذلك عيبه، وأن لا تسخر من أحد من خلق الله، وأن تصبر على البلاء والمصيبة، وأن تشكر نعم الله التي أنعم بها عليك، وأن لا تأمن عقاب الله على ذنب تصيبه، وأن لا تقنط من رحمة الله، وأن دتوب إلى الله عزَّ وجلَّ من ذنوبك فإن التائب من ذنوبه كمن لا ذنب له، وأن لا تصر على الذنوب مع الإستغفار فتكون كالمستهزئين بالله وآياته ورسوله، وأن تعلم أن ما أصابك لم يكن يخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن لا تطلب سخط الخالق برضى المخلوق، وأن لا تؤثر الدنيا على الآخرة، لأن الدنيا فانية والآخرة باقية، وأن لا تبخل على إخوانك بما تقدر عليه، وأن تكون سريرتك كعلانيتك، وأن لا تكون علانيتك وسريرتك قبيحة، فإن فعلت ذلك كنت من المنافقين، وأن لا تكذب ولا تخالط الكذابين، وأن لا تغضب إذا سمعت حقاً، وأن تؤدب نفسك وأهلك وولدك وجيرانك على حسب الطاقة، وأن تعمل بما علمت، ولا تعاملن أحداً من خلق الله عزَّ وجلَّ إلا بالحق، وأن تكون سهلاً للقريب والبعيد، وأن لا تكون جباراً عنيداً، وأن تكثر من التسبيح والتهليل والدعاء وذكر الموت وما بعده من القيامة والجنة والنار، وأن تكثر من قراءة القرآن، وتعمل بما فيه، وأن تستغنم البر والكرامة بالمؤمنين والمؤمنات، وأن تنظر إلى كل ما لا ترضى فعله لنفسك فلا تفعله بأحد من المؤمنين، وأن لا تمل من فعل الخير، ولا تثقل على أحد، وأن لا تمن على أحدٍ إذا أنعمت عليه، وأن تكون الدنيا عندك سجناً حتى يجعل الله لك جنة -. فهذه أربعون حديثاً من استقام وحفظها عني من أمتي دخل الجنة برحمة الله، وكان من أفضل الناس وأحبهم إلى الله عزَّ وجلَّ بعد النبيين والصديقين، وحشرة الله يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً».
وفي الخصال عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله: «من حفظ من أمتي أربعين حديثاً من السنة كنت له شفيعاً يوم القيامة» أقول: وأفضل السنة هو القرآن، أصلاً لسائر السنة.
وفي صحيفة الرضا عليه‌السلام عن آباءه عليهم‌السلام قال: قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً ينتفعون بها بعثه الله تعالى يوم القيامة فقيهاً عالماً» العوالم ٢ - ٣: ٤٦٥ - ٤٦٨.

[1]. هذه كلها مروية عن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وعترته عليهم‌السلام كما في سفينة البحار ١: ٥٠٤ - ٥٠٥.

﴿وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِى إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللّه يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.[١]

أنا مريد أن أنصحكم رسالياً دلالة إلى الحق المُرام، ولكن «لا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم» ربانياً حملاً على الحق ف«إنک لا تهدى من أحببت ولكن اللّه يهدى من يشاء» ولا سيما «إن كان اللّه يريد أن يغويكم» بما غويتم ختماً على قلوبكم: «فلما زاغوا أزاغ اللّه قلوبكم» ف«الأمر إلى اللّه يهدى ويضل».[٢]

فقد يريد اللّه أن أنصح لكم دلالة إلى حق السبيل فى شرعة الرسالة، ثم ويريد أن ينفع نصحى للذين يتحرون عن الحق حتى إذا وجدوه استقبلوه وقبلوه، وهو يريد إغواء الذين يحيدون عن الحق ويعارضونه، وعلى أية حال لست أنا بربكم حتى أنفعكم بنصحى إلاّ دلالة أو أغويكم وإنما ﴿هو ربكم وإليه ترجعون﴾ هو ربكم لا سواه فى المسير والمصير وليس لى من الأمر شىء إلا أنّنى نذير وبشير، واللّه على كل شىءٍ قدير.

وهنا فى «إن كان اللّه يريد أن يغويكم» لمحة إلى أن استحقاق عذاب الإستئصال هو من خلفيات إغواء اللّه كما ﴿إذا أردنا أن نهلک قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القولم فدمرناها تدميراً﴾[٣] ـ فإن أمر المترفين بما يأمر من طاعة ثقيلة للّه، حِملاً وجاه عباد اللّه، أمراً لهؤلاء الذين يعلم أنهم يفسقون، إنما يعنى هذا الأمر - فيما يعنى - إغواءَهم بما غووا، وإزاغتهم بما زاغوا كما ﴿وقيَّضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول﴾[٤] و﴿إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً﴾.[٥]

إذاً فإغواء اللّه تعالى لا يعنى إلا تخييبه سبحانه لمستحقيه من رحمته، لكفرهم وذهابهم عن

---

١. ١١: ٣٤.

٢. نور الثقلين ٢: ٣٤٩ في تفسير العياشي عن أبن أبي نصر البزنطي عن أبي الحسن الرضا عليه‌السلام في الآية قال:...

٣. ١٧: ١٦.

٤. ٤١: ٢٥.

٥. ١٩: ٨٣.

أمره: ﴿فخلف من بعدهم خلْف أضاعوا الصلاة وأتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً﴾[1] أى خيبة من الرحمة، وإرتكاساً فى النقمة.

﴿أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلى إجرامى وأنا برىءٌ مما تجرمون﴾.[2]

أتراها آية معترضة لما افترى على محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله؟ والدور كله فى هذه الآيات لنوح عليه‌السلام! أم هى نكاية على قوم نوح مستعرضة لمحمد صلى‌الله‌عليه‌وآله؟.

نقول: إنها تعليقة على فرية المفترين منذ نوح إلى خاتم النبيين، هى تحليقة على هذه الفرية الجاهلة على الرسل أنهم مفترون على اللّه «إن أفتريته» على ربى رغم بينة الرسالة «فعلىَّ إجرامى» وليس عليكم، فأنتم معذورون فى إيمانكم بحجة لارسالة البينة أمام اللّه، ثم «على إجرامى» إن أفتريته، أمام اللّه، حيث يأخذنى بجرمى هنا وفى الأخرى، فهنا: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين﴾[3] حفاظاً على شرعته من الفرية، فحين لا يأخذنى هنا، كان ذلك برهاناً آخر لا مرد له على صدقى، حاضراً أمامكم حاذراً إياكم، إضافة إلى سائر البراهين – مهما غاب عنكم أن يأخذنى اللّه فى الأخرى -: ﴿أم يقولون افترى على اللّه كذباً فإن يشاء اللّه يختم على قلبك ويمحُ اللّه الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور﴾[4]﴿أم يقولون أفتراه قل إن إفتريته فلا تملكون لى من اللّه شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم﴾[5] – ﴿أم يقولون أفتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون﴾.[6]

---

[1]. ١٩: ٥٩.

[2]. ١١: ٣٥.

[3]. ٦٩: ٤٥.

[4]. ٤٢ - ٢٤.

[5]. ٤٦: ٨.

[6]. ٣٢: ٣.

سورة الأعراف مكية وآياتها ٢٠٦

بِسْمِ اللّه الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«المص * كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْکَ فَلاَ يَکُنْ فِی صَدْرِکَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِکْرَی لِلْمُؤْمِنِينَ * اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْکُمْ مِنْ رَبِّکُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَکَّرُونَ».[١]

ولاية مطلقة قرآنية خالدة

لقد سميت «الأعراف» بها، لأنها سيدة الموقف البارز لرجال الأعراف، حيث هم شؤونهم بارزة بالموقف الأعلى يوم القيامة على الأعراف، تعريفاً بفريقى الجنة والنار، وتقريراً لمصير كل بأمر اللّه، ولأنها برجالها لم تُذكر فى سائر الذكر الحكيم، كما هم القمة العليا بين الرساليين المعصومين، فهم منقطعوا النظير، ذكراً فى القرآن ومحتداً عند الرحيم الرحمن بمن يرأسهم من هذا الرسول صلى‌الله‌عليه‌و‌آله.

ذلک، إضافة إلى سائر الأعراف فى مختلف حقول المعرفة الأعراف المتميزة فى هذه السورة عما سواها، وكما هى طبيعة الحال فى كل سورة أنها تختص بميِّزات ومواقف خاصة ليست فيما سواها كما هى فيها.

ندرس على أعراف الأعراف موضوع العقيدة بمختلف حقولها، ومختلف العقليات المأمور بها، ومختلف القابليات والفاعليات والواقعيات فى مسارحها.

وهنا من مواضيع العقيدة - البارزة - عرضها عبر التأريخ اللإنسانى ككل، فى مجال الرحلة الإنسانية إبتداءً بالجنة الإبتدائية الدنيوية، وانتهاءً إليها الأخروية لمن عمل لها، عرضاً لموكب الإيمان الوضىء من لدن آدم إلى محمد صلى‌الله‌عليه‌و‌آله.

رحلة طويلة للغاية، تقطعها السورة مرحلياً فى مقاطع عدة، واقفة عند المواقف الرئيسية،

---

[١]. ٧: ١ - ٣.

البارزة المعالم منها، درساً عابراً لِمعتبر، تذكراً لمدّكر.

ومن مواقفها الرئيسية المعرفية تبيان واقع أحكام الفطرة بصيغة الحوار «ألست بربكم قالوا بلى...» عبارة أخرى من آية الفطرة فى الروم.

أعراف وأعراف ندرسها على ضوء الأعراف عقيدية وأحكامية، آفاقية وأنفسية، وذلک لمن ألقى السمع وهو شهيد.

وملامح السورة تؤيد نزولها كما هيه، أم ولأقل تقدير أنها مؤلفة كسائر التأليف القرآنى زمن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وقد كان يقرأها فى صلواته.[1]

المص

مقطع من الحروف المقطّعة القرآنية، التى هى برقيات رمزية خاصة بمهبط الوحى و«هى مفاتيح كنوز القرآن» لا نعرف منها معنى إلاً ما عرفه اللّه لنا أو أهلوها المعصوم عليهم‌السلام، إبتداءً برأس الزواية الرسولية، وإنتاءً إلى الزاوية الأخيرة الرسالية.

لقد قيلت فى «المص» أقوال - كما فى غيرها - وغيلت أغوال، لا تستند إلى ركن وثيق، وإذا عنت فيما تعنيه معانى بحساب حروف الأعداد[2] فليست فوضى جزاف أن يحسبها كل

---

[1]. الدر المنثور ٣: ٦٧ - أخرج سمويه في فوائده عن زيد بن ثابت قال: كان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله يقرأ في المغرب بطولي الطولين «المص»، وعنه أنه صلى‌الله‌عليه‌وآله قرأ في المغرب بالأعراف في الركعتين جميعاً، وأخرج البيهقي في سننه عن عائشة أن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله قرأ سورة الأعراف ي صلاة المغرب فرقها في ركعتين.

[2]. نور الثقلين ٢: ١ في معاني الأخبار بسند أتى رجل من بني أمية - وكان زنديقاً - جعفر بن محمد عليه‌السلام فقال له: قول اللّه: «المص» أي شيء أراد بهذا وأي شيء فيه من الحلال والحرام، وأي شيء مما ينتفع به الناس؟ قال: فاغتاظ من ذلك جعفر بن محمد عليه‌السلام فقال: أمسك ويحك! الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون كم معك؟ فقال الرجل: مأة وإحدى وستون، فقال له جعفر بن محمد عليهما‌السلام فإذا انقضت سنة إحدى وستين ومأة ينقضي ملك أصحابك، قال: «ننظر فلما انقضت إحدى وستون ومأة عام دخل المسودة الكوفة وذهب ملكهم» أقول: هذا طرف من الطرف «المص» بحساب خاص وليس فوضى جزاف.

وعن تفسير القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن علي بن رئاب عن محمد بن قيس عن أبي جعفر عليه‌السلام قال: إن حي بن أخطب وأبا ياسر بن أخطب ونفراً من اليهود من أهل نجران أتوا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فقالوا له: أليس تذكر أن فيما أنزل إليك «ألم»؟ قال: بلى، قالوا: أتاك بها جبرئيل من عند اللّه؟ قال: نعم، قالوا لقد بعث اللّه أنبياء قبلك ما نعلم نبياً منهم ما مدة ملكه وما أكل أمته غيرك!

قال: فأقبل حي بن أخطب على أصحابه فقال لهم: الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون فهذه إحدى وسبعون سنة فعجب ممن يدخل في دين مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة، قال: ثم أقبل على رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فقال له يا محمد هل مع هذا غيره؟ نعم، قال: هات، قال: «المص» قال: هذا أثقل وأطول، الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون فهذا مأة وإحدى وستون سنة، ثم قال لرسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله هل مع هذا غيره؟ قال: نعم، قال: هات قالت: «الر» قال: هذا أثقل وأطول، الالف واحد واللام ثلاثون والراء مأتان فهل مع هذا غيره؟ قال: نعم، قال: هات قال «المر» قال: هذا أثقل وأطول، الالف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والراي مأتان، قال: فهل مع هذا غيره؟ قال: نعم قال: قد التبس علينا أمرك فما ندري ما أعطيت ثم قاموا عنه ثم قال أبو ياسر لحي أخيه وما يدريك لعل محمداً قد جمع هذا كله وأكثر منه فقال أبو جعفر عليه‌السلام: «إن هذه الآيات أنزلت منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات وهي تجري في وجوه أخر على غير ما تأول به حي وأبو ياسر وأصحابه.

كما يحب ويهوى، إنما هى حسابات خاصة بين اللّه ورسول الوحى ورسالته.

وهنا «كتاب أنزل إليک» بعد «المص» مما تلمح أن المخاطب بها خصوص الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله، ثم «فلا يكن فى صدرک حرج منه» تلميحة أخرى أن «المص» تحمل - فيما تحمل - طمأنة لخاطره الشريف أنه ماض فى سبيله، مجتازاً عقباتها وعقوباتها، بفضل من اللّه ورحمته.

﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْکَ فَلاَ يَكُنْ فِى صَدْرِکَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.[1]

«المص» هو «كتاب أنزل إليک» وهذا القرآن «كتاب أنزل إليک» وقد يعنى ماضى النزول فى «هذا القرآن» نازل محكمه ليلة القدر، إلى نازل تفصيله فى مثلث الزمان، تلحيقاً لمستقبله بماضيه لتحقق وقوعه كماضيه، فنازل الثلاث من مراحل النزول يزيل عنه كل حرج، وفى «المص» طمأنة رمزية بهذه البشارة السارة، أم - فقط - نازل ماضيه حتى الآن حيث لا يكلف إنذاراً وذكرى إلاّ بما نزل بالفعل.

«فلا يكن فى صدرک حرج منه» وترى بالإمكان كائن الضيق من نازل القرآن فى صدره المنشرح بما شرحه اللّه قبل نزول القرآن ليأهل له، ومنذ بزوغ نزول القرآن؟: ﴿ألم نشرح لک صدرک﴾!، ولقد شرح اللّه صدره صلى‌الله‌عليه‌وآله قبل نزول القرآن لينزل عليه منشرحاً، وشرحه بهذا القرآن ما لم يكن يشرح بغيره، فكيف «فلا يكن فى صدرک حرج منه» تعنى واقع ذلک الحرج!.

هنا فى مثلث الحرج المحتمل نفسياً، وبلاغياً كأصل، وبلاغياً أمام ردود الفعل من المنذرين، لا موقع للحرج المنهى إلا الثالث فإن «أنزل إليک» من ربک يطمئنه أنه وحى الرحمن وليس من وحى الشيطان أم خليط منهما ودخَل من دجَل حتى يتحرج فى نفسه، فغير النازل من اللّه يحرج فى نفسه لمكان الخطأ، ف﴿لقد جاءک الحق من ربک فلا تكونن من الممترين﴾.[2]

«حرج منه لتنذر به» مهما كان «ذكرى للمؤمنين» دون أى حرج أو مرج.

ف«لتنذر به) هى ذات تعلقين ثانيهما «حرج منه» مهما كانت «وذكرى للمؤمنين» ذات تعلق

---

[1]. ٧: ٢.

[2]. ١٠: ٩٤.

واحد وهو «أنزل إليک.. ذکری للمؤمنين».

وقد تحتمل «ذکری للمؤمنين» ک«لتنذر» أنها ذات تعلق ثان، حيث الصعوبات فی سبيل «ذکری للمؤمنين» واقعة مهما کانت أقل من «لتنذر به».

إذاً ف «أنزل» ـ «لتنذر به وذکری للمؤمنين» ـ «فلا يکن فی صدرک حرج منه لتنذر به وذکری للمؤمنين».

وتری ما هو ور «ذکری للمؤمنين» وغيرهم أحوج منهم إلی ذکری ثم وهو ذکری للعالمين؟: «إن هو إلا ذکری للعالمين».[1]

«ذکری» هنا هی کما «هدیً للمتقين» تعنی حاصلها، فمن يتذکر بالذکری، أو يزداد ذکری علی ذکری، فهو من المؤمنين، مهما اختلف إيمان أول عن إيمان ثان، فالأول حال الإيمان حيث يفتش عنه، والثانی هالته بعد حالته حيث يزداد به ذکری: «وذکر فإن الذکری تنفع المؤمنين».[2]

فطالما الإنذار شامل يحلق علی کافة المکلفين، ولکن لا دور للذکری إلاَّ لمن ألقی السمع وهو شهيد ف«إن فی ذلک لذکری لمن کان له قلب أو ألقی السمع وهو شهيد»[3] فهو «هدیً وذکری لأولی الألباب».[4]

فالذين کانت فيهم أجهزة الإستقبال للذکری مفتوحة، کان القرآن لهم ذکری معروفة، ثم الذين أغلقوا علی أنفسهم هذه الأجهزة هو عليهم عمیً: «وننزل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلاّ خسارا».[5]

فقد اختص الحرج المنهی عنه رفعا أو دفعا بما هو من قضايا الدعوة بملابساته أمام

---

[1]. ٦: ٩٠.

[2]. ٥١: ٥٥.

[3]. ٥٠: ٣٧.

[4]. ٤٠: ٥٤.

[5]. ١٧: ٨٢.

الناكرين، ولا سيما القوم اللدُّ الذين كان يعيشهم منذ بزوغها.

وصحيح أنه «ما كان على النبى من حرج فيما فرض اللّه له»[1] إلاّ أن ملابسات هـذه الـدعوة ـ المليئة بالأشواک والأشلاء والعقبات ـ هى التى قد تُحرج الداعية فتُحوجه إلى إنشراح أكثـر وإنفتاح أوفر فى استقبال هذه الدعوة الملتوية.

ذلک، لأن هذا الكتاب بتلک الدعوة الصارمة الصامدة، صدعا بما فيه مـن الحـق، ومواجهـةً للمرسل إليهم بما لا يحبون، ومجابهةً لعقائـد وتقاليـد ورباطـات جاهليـة، ومعارضـةً لـنُظُم وأوضاع، لذلک كله وما أشبه من ملابسات الدعوة، ليست طبيعة حال الداعية فيها إلا حـرج واقع ليس ليزول إلاّ بتصبُّر زائد، وصمود حائد، وتوفيق خاص من اللّه، و«إن اللّه تعـالى لمـا أنزل القرآن إلى رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: إنى أخشى أن يكذبنى الناس ويلثفـوا ـ يكسـروا ـ رأسى ويتركوه كالخبزة فأزال اللّه الخوف عنه بهذه الآية».[2]

أو وحرج مستقبل فى مستقبلات الدعوة عليه أن يطارده بتصبر وصمود بما وعده اللّه النصـر: «إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد».[3]

لذلک «فلا يكن فى صدرک حرج منه» لأنه «كتاب أنزل إليک» من ربک، فالذى أنزله إليـک هو حاسب كل حساباته، فخذ يا صاحب الدعوة الأخيرة مسيرک إلى مصـيرک، ولا تتحـرج فى مواقفک، ولا تتخرَّج إلا موفقا محبورا، فسر وعين اللّه ترعاک.

وهنا «لا يكن» نهى عن أن يكون، وليس نهيا عما هو كائن، فقد تعنى كما تعنيه «فلا يَصدَّنَّک عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى»[4] فـى موسـى، وفـى أضـرابها لأضـرابه مـن الـدعاة الرساليين، وبأحرى فى هذا الرسول: ف «ما كان على النبى من حرج فيما فرض اللّه له».[5]

---

[1]. ٣٣: ٣٨.

[2]. نور الثقلين ٢: ٤ في مجمع البيان وقد روي في الخبر أن الله..

[3]. ٤٠: ٥١.

[4]. ٢٠: ١٦.

[5]. ٣٣: ٣٨.

و«لإن أشركت ليحبطن عملک..» وما أشبه، إعلانا جاهرا فی هذه الإذاعة القرآنيـة ألاّ خُمـود ولا رُكود ولا إرتجاع لهذه الداعية عن الدعوة، فليحسب الأعداء والمتاجرون كل حساباتهم، وليبأسوا عن القضاء عليه بمختلف المكائد والمصائد.

ثم ولو كان هنا واقع لذلک الحرج ـ لو خلی الرسول وطبعه ـ فهو كما كـان لموسـی أمـام الدعوة الفرعونية حيث «قال رب إشرح لی صدری.. قال قد أوتيت سؤلک يا موسی»[1] والنهی عن هذا الحرج يعنی الأمر بإزالته بما هو يسعی، وما يرجوه من اللّه، أم يعنيهما رفعـا ودفعـا، رفعا لما كان، ودفعا عما قد يكون من حرج فی هذه السبيل الطويلة الملتوية الصـعبة، فلقـد نازلوه بضربات هدّامه وواصلوا الدعايات المحتالة المتواصلة فی تكذيبة لحـدكان ينـوی أن يترک بعض ما أوحی اللّه فنزلت: «فلعلک تارک بعض ما يوحی إليک وضايقٌ به صـدرک أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملک»[2]«ولقد نعلم أنه يضيق صدرک بما يقولون. فسـبح بحمد ربک وكن من الساجدين»[3]«ولا تحزن عليهم ولا تكن فی ضيق مما يمكرون».[4]

وفی الحق إن ذلک الحرج هو حجر عثرة لكل داعية إلاّ من عصمه اللّه وهداه، وقد أُمر هـذا الرسول العظيم بالصبر: «فاصبرو مـا صـبرک إلاّ باللّـه ولا تكـن فـی ضـيق ممـا يمركـون»[5] والإستقامة «فاستقم كما أمرت ومن تاب معک».[6]

فهذا «كتاب أنزل إليک.. لتنذر به وذكری للمؤمنين» «فلا يكن فی صدرک حرج منه لتنذر بـه وذكری للمؤمنين» فاشدد شِمرک، وتغاضَّ عن إمرک فی أمرک، فلا يمنعـک عنـه أی مـانع، ولا يفت عضدک فی صراعه أی رادع، سِر فعين اللّه يرعاک.

---

[1]. ٢٠: ٣٦.

[2]. ١١: ١٢.

[3]. ١٥: ٩٨.

[4]. ٢٧: ٧٠.

[5]. ١٦: ١٢٧.

[6]. ١١: ١١٢.

ذلک کما و«آلمص کتاب أنزل إلیک فلا یکن فی صدرک حرج» مما یلمح أن «المص» تحمل ـ فیما تحمل ـ طَمأنةً لخاطر الرسول) صلی‌الله‌علیه‌وآله أن دعوته ماشیة ماضیة مهما کثرت العراقیل أمامها.

إذا ف «آلمص» وهذا القرآن «کتاب أنزل إلیک» من ربک الذی رباک بالقمة الرسالیة، فلم یکن لیدعک وحدک تتواتر علیک الرزایا التی ترضُّک، فاللّه ربک هو الذی ینصرک ویرضیک ویوهن منا وئیک.

«کتاب أنزل إلیک.. لتنذر به وذکری ـ فلا یکن فی صدرک حرج منه لتنذر به وذکری» فإنما هو الإنذار بالقرآن دون سواه، حقا لرسول القرآن، إنذارا بثابت الوحی الربانی.

فلا تجوز الدعوة الربانیة إلا بعلم الوحی دون سائر العلم، وذلک طلیق للرسل وسائر المعصومین، وهو قدر المستطاع لمن سواهم.

ذلک، فلیس لرسول صلی‌الله‌علیه‌وآله وحده هو صاحب المسؤولیة فی هذا المیدان، وإنما هو المسؤول الأول ما کان حیا، ثم الذین یحملون رسالته إلی یوم الدین، طولَ الزمان وعرضَ المکان، فإن الإسلام لیس حدثا تأریخیا حصل مرة ثم مضی، بل هو ـ قضیةَ خلوده علی مدار الزمن ـ مواجهةٌ دائبة لمکلفین أیّا کانوا وأیان إلی یوم الدین، وعلی حَمَلة هذه الرسالة ـ معصومین وسواهم ـ مواصلة الدعوة الصابرة الصامدة أمام کافة الجاهلیات، غابرة متأخرة، وحاضرة متحضرة، حرکة متواصلة وسبحا طویلاً لاستنقاذ البشریة من مستنقعات الجاهلیة الجهلاء: «فاستقم کما أمرت ومن تاب معک»«محمد رسول اللّه والذین معه أشداء علی الکفار رحماء بینهم..»[1]

ولقد استدار الزمان کهیئته یوم جاء ذلک الدین المتین، وانتکست البشریة إلی جاهلیة هی أعرق وأحمق من الجاهلیة الأولی، حیث شملت کل جوانب الحیاة دون إبقاء، فإنها جاهلیة علمیة علمانیة متحضرة تخیِّل إلی المجاهیل أنها تقدُّمیة بیضاء، رغم أنها رجعیة سوداء، ضاربة أطنابها فی کل أرجاء الأرض بکل جنبات الحیاة، فلا بد من کفاح صارم قدر

---

[1]. ۴۸: ۲۹.

المستطاع، وبقدر ما اتسعت هذه الجاهلية فى وجه الشرعة القرآنية بين أغارب وأقارب.

ولقد تكفى الدعوة القرآنية صدا لكل الهجمات الجاهلية بكل معداتها المتحضرة فانه كتاب الخلود: «أو لم يكفهم أنا انزلنا إليک الكتاب يتلى عليهم..»؟.

ذلک، وهنا حرج آخر داخل فى النهى هو الحرج عما أنزل إليه إذا كان باطلاً أم خليطا من الحق والباطل، ولأنه «كتاب أنزل إليک» من ربک، تأكيدا جاهرا أمام العالمين لكى يعلموا على علمه صلى‌الله‌عليه‌وآله أنه كتاب لا يحرِّج الداعية فى الدعوة.

فعصمة الداعية إلى عصمة مادة الدعوة هما يعصمانه عن أى خطإٍ قصورا أو تقصيرا، ثم عصمة الداعية عن أى تقصير، على عدم عصمته عن قصور غير مقصر، تعصمه عن كثير من الأخطاء.

فأما إذا كانت مادة الدعوة غير معصومة، أم هى معصومة والداعية مقصر أو قاصر بتقصير، فهنالک الطامة الكبرى، ولذلک نرى تأكيد الأمر بالشورى من الرعيل الأعلى الربانّى الأمة: «وأمرهم شورى بينهم» حتى يُجبِروا عدم العصمة للدعات غير المعصومين، وهنا «للمصيب أجران وللمخطىء أجر واحد» إذا كان خطأ قضية عدم العصمة فقط، دون الخطإِ القاصر عن تقصير.

ففى مثلت الحرج لا يُعنى منه حرج صدر من الوحى! بل هو حرج فى الدعوة تأثيرا، ولها مادة، فإن مادة الدعوة معصومة، والداعية فى دعوته على عين اللّه ورعايته.

ثم المسؤولية فى حقل الدعوة القرآنية نذارة وذكرى، ليست ـ فحسب ـ على عواتق الدعاة، والمدعوون عليهم مسؤولية الإقبال والتقبل لتكون كلمة اللّه هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ـ إذا ف: «اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ».[١]

هناک «كتاب أنزل إليک» أنت كداعية، بعد ما يصنعک الكتاب كأفضل صنع فى محط الدعوة، وهنا «ما أنزل إليكم من ربكم» كمدعوين، ونازل الكتاب بنفسه فى أىٍّ من منازله، هو بنفسه حجة لربانيته مصدرا وصدورا، للداعية والمدعوين به، حجة بالغة بنفسه دون

---

[١]. ٧: ٣.

حاجة إلى إثباتات أخرى وتأييدات، فانه رأس زوايا الحجج الربانية علـى مـدار الرسـالات بأسرها.

فقضية إتباع اللّه ـ الأولى ـ هى إتباع ما أنزل إليكم من ربكم، توحيدا عمليـا بعـد العقيـدى منه.

وهنا «من دونه» قد تعنى مع من دون الكتاب مِن دونِ اللّه، لمكان «أولياء» فاتبعوا الرب فيمـا أنزله ولا تتبعوا من دون الرب ربا، ولا من دون ما أنزله نازلاً، من أولياء غير اللّه وغير كتـاب اللّه.

إذا فاتباع مَن دونه بكتابه مِن أولياء عمليا يصطدم وعقيدة التوحيـد، فإنهـا ليسـت ـ فقـط ـ تصورا قاحلاً عن مظاهر، إنما هى حقيقة تحلّق على كل جنبات الحياة ظاهرة وباطنة.

فولاية الطاغوت وعبادته بكتاباته لا تعنى ـ فقط ـ تأليهها، بل واتباع أحكامها مهما خيل إليه أنه موحد للّه لا يشرك به شيئا «قليلاً ما تذكرون» حق الإتباع فى حقلـه حيـث يخيـل إلـى مجاهيل أن العقيدة الصالحة هى فيه مهما تخلفت طقوس وأعمال عما يرسمه المعبود الحق.

ذلك «ففى إتباع ما جاءكم من اللّه الفوز العظيم وفى تركه الخطأ المبين».[1]

وهنا «اتبعوا» يحلق على كافة الإتباعات بأسرها للشـرعة القرآنيـة، علميـة وعقيديـة وعمليـة ودعائية، قفْوا على آثارها دون إبقاء ولا إستثناء.

فالولاية التوحيدية للّه هى ولاية إتباعه فى شرعته ككل أصـولاً وفروعـا، دون تشـطير البلـد شطرين وأخذ العصا من جانبين، إكتفاءً فى ولاية اللّه بمتخيَّل العقيدة، ثـم الأعمـال التابعـة لسائر الأولياء «قليلاً ما تذكرون»!.

«قليلاً» تذكركم و«قليلاً» الذى تذكرونه من الحق، اعتبارا بعنايتى الموصول والموصـوف فـى «ما» ومن قلة التذكر إتباع سائر الحجج اللجج، غامرة فى التيه، بعيدة عن هـدى القـرآن بمـا فيه، فكل مستند غير «ما أنزل إليكم من ربكم» خارجة عما أنزل اللّه، داخلة فى «من دونه من أولياء» من إجماعات وشهرات وقياسات وإستحسانات وإستصلاحات، أمّا هو آت مـن غيـر

---

[1]. نور الثقلين ٢: ٤ في تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبدالله عليه‌السلام قال قال أمير المؤمنين في خطبتـه: قال الله: «اتبعوا..» ففي اتباع...

«ما أنزل اللّه»، كما وكل إله من دون اللّه طاغوت.

فهؤلاء الذين يفتون بغير ما أنزل اللّه أم ضده هم أولياء من دون اللّه، فاتباعهم خروج عن توحيد اللّه إلى الإشراک باللّه أو الإلحاد فی اللّه.

ولئن قيل: إذا فاتباع السنة فيما لا توافق القرآن ولا تخالفه، هو أيضا خروج عن التوحيد الحق؟ ولا يستغنی عن السنة فيما لا نص له من الكتاب!.

قيل: السنة القطعية هی أيضا مما أنزل اللّه مهما كان علی هامش الوحی القرآنی، فمما أنزل اللّه هو فرض طاعة رسول اللّه: «أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأولی الأمر منكم..»ولا تعنی طاعة الرسول بعد طاعة اللّه إلاّ طاعته فی سنته الجامعة غير المفرَّقة، فللّه الولاية الطليقة فی كل حقولها، ولكتابه والرسول ولاية شرعية طليقة لأنهما من اللّه، ثم لا ولاية طليقة بعد اللّه وكتابه ورسوله والرساليين المعصومين بعده.

إذا ف «ما أنزل إليكم من ربكم» تعم إلی نازل القرآن نازل السنة القطعية، وإلا لكان صالح التعبير «اتبعوا الكتاب» فالنازل من ربكم هو واجب الإتباع من أصل الكتاب وفرع السنة، دون شتات الروايات المخالفة للقرآن، أم غير ثابتة الصدور.

ذلک، فهذا السلب «ولا تتبعوا من دونه أولياء» بعد ذلک الإثبات «إتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم» يحصران الإتباع المسموح فی شرعة اللّه بما أنزل اللّه، المحصور فی الكتاب والسنة القطعية، تمثيلاً لكلمة اللّه «لا إله إلاّ اللّه».

ثم «لا تتبعوا من دونه»: اللّه وكتاب اللّه، «أولياء» تنفی أية ولاية ربانية عن سائر الأرباب وسائر الكتابات، فكما أنه ولی المؤمنين، كذلک ـ وبأمره ـ كتابه وليهم الوحيد بين الكتابات.

فهاهی قضية دين اللّه ـ الأساسية ـ إنه إما إتباع خالص لما أنزل اللّه إسلاما ـ فقط ـ للّه، إفرادا له بالحاكمية الطليقة، وإما إتباع الأولياء من دون اللّه إلحادا فيه، أو إشراكا به، أم جعلاً للبلد شطرين: عوانا بين التوحيد والإشراک، وهذا الثالوث خارج عن إتباع ما أنزل اللّه، داخل فی إتباع مَن دونه مِن أولياء.

ولأن المحاولة ضخمة فخمة، فقد يمضی السياق يهزُّ الضمائر، ويوقظ السرائر، ويرجُّ جِبِلاَّت الأجيال الشاردة عن دين اللّه، السادرة فی الجاهلية رجّا عنيفا، عرضا لمصارع الغابرين من

المكذبين:

وهنا فى خطبة لعلى عليه‌السلام معتَبر لمعتبِر، تحذيرا عن ترک الإتباع لما أنزل اللّه:

«أما بعد فإن اللّه لم يقصم جبارى دهرٍ قط إلاَّ بعد تمهيل ورَخاءٍ، ولم يَجبُر عظَم أحدٍ من الأمم إلاَّ بعد أزْلٍ وبلاءٍ، وفى دونِ ما استقبلتم من عتْبٍ، وما استدبرتم من خطب معتَبر، وما كل ذى قلب بلبيب، ولا كل ذى سمع بسميع، ولا كلُّ ذى ناظر ببصير ـ

فيا عجبا ومالى لا أعجب مِن خطاءِ هذه الفرق على إختلاف حججها فى دينها، لا يقتصمون أثر نبى، ولا يقتدون بعمل وصى، ولا يؤمنون بغيب، ولا يعفُّون عن عيب، يعملون فى الشبهات، ويسيرون فى الشهوات، المعروف فيهم ما عرفوا، والمنكر عندهم ما أنكروا، مفزعهم فى المعضلات إلى أنفسهم، وتعويلهم فى المبهمات على آراءهم، كأن كل إمرىءٍ منهم إمام نفسه، قد أخذ منها فيما يَرى بعُرىً ثقات، وأسباب محكمات».[1]

وقد قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: أنا أوّل وافد على العزيز الجبار يوم القيامة، وكتابه وأهل بيتى ثم أمتى، ثم أسألهم ما فعلتم بكتاب اللّه وبأهل بيتى».[2]

والأمة الإسلامية برمتها شيعة وسنة تاركة للثقلين، فإن حديث العترة دون سناد إلى الكتاب لا ثقل له، وذلک سند أنه غير صادر عنهم.

و«القرآن غنى لا غنى دونه ولا فقر بعده» و«القرآن أفضل شىءٍ دون اللّه، فمن وقر القرآن فقد وقر اللّه، ومن لم يوقر القرآن فقد إستخف بحرمة اللّه،[3] و«حرمة القرآن على اللّه كحرمة الوالد على ولده».[4]

وفى كتاب للنبى صلى‌الله‌عليه‌وآله ألى بعض عماله على اليمن:

---

[1]. الخطبة ٨٧.

[2]. جامع أحاديث الشيعة ١٥: ٦ عن الكافي عن الباقر عليه‌السلام قال قال رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله:

[3]. المصدر ٧ عن المجمع ١: ١٥ ـ أنس بن مالك عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله.

[4]. المصدر ٧ جامع الأخبار عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله ورواه الشيخ أبو الفتوح في تفسيره عن أبي الدرداء عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله مثله.

«فإن هذا القرآن حبل اللّه المتين، فيه إقامة العدل وينابيع العلم وربيع القلوب»[1] أجل إنه حبل بين اللّه وخلقه، متين لا ينفصم ولا يفصم، عصمة لمستعصمهم، ومسكه لمستمسكهم، وهو ينابيع العلم، الينابيع المعرفية المتفجرة، من عيونه الجارية، ريا لكل غليل، وشفاءً لكل عليل، وهو ربيع القلوب الواعية الراعية، حيث تنفع بتدبر آياته، وتأمل بيناته.

ف «تعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص، فإن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذى لا يستفيق من جهله، بل الحجة عليه أعظم، والحسرة له ألزم، وهو عند اللّه ألوم».[2]

و«عدد درج الجنة عدد أى القرآن فإذا دخل صاحب القرآن الجنة قيل له: إقرء وارق، لكل آية درجة فلا تكون فوق حافظ القرآن درجة».[3]

و«من قرأ القرآن فكأنما أدرجت النبوة بين جنبيه إلاّ أنه لا يوحى إليه».[4]

و«تعلموا القرآن واقرؤه وإعلموا أنه كائن لكم ذكرا وذخرا، وكائن عليكم وزرا، فاتبعوا القرآن ولا يتبعنكم، فإنه من تبع القرآن تهجم به على رياض الجنة، ومن تبعه القرآن زُجَّ فى قفاه حتى يقذفه فى جهنم».[5]

وعنه صلى‌الله‌عليه‌وآله **قال: «من قرأ ثلث القرآن أوتى ثلث النبوة، ومن قرأ نصف القرآن أوتى نصف النبوة، ومن قرأ القرآن كله أوتى النبوة كلها ثم يقال له يوم القيامة: إقرأ وارقَ، بكل آية درجة حتى بختم ما معه من القرآن، ثم يقال له: إقبض فيقبض فيقال له: هل تدرى ما فى**

---

[1]. المجازات النبوية للسيد الشريف الرضى ١٤١.
وفيه عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله يقول اللّه عزَّ وجلّ: يا حملة القرآن تحببوا إلى اللّه تعالى بتوقير كتابه يزدكم حبا ويحببكم إلى خلقه.

[2]. المصدر ٨ عن نهج البلاغة (٣٣٠) في خطبة له عليه‌السلام.

[3]. المصدر ١٦ ـ البحار ٩٢: ٢٢ كتاب الإمامة والتبصرة بسند متصل عن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله:...

[4]. المصدر ١٧ ـ مجمع البيان ١: ١٦ عن علي عليه‌السلام انه قال:...

[5]. المصدر ١٠ ـ ابن أبي الجمهور في در اللئالي عن أبي موسى قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله:...

يديک؟ وإذا في يده اليمنى الخلد وفى الأخرى النعيم.[1]

ولا تعنى هذه القراءة قراءة فاضية عن المعرفة والتطبيق، بل هى الفائضة بمعرفة وتطبيق، «لكل درجات مما عملوا وما ربک بظلام للعبيد».

و«إن هذا القرآن مأدُبة اللّه فتعلموا مأدُبته ما استطعتم، وإن اَصفر البيوت لجوف أصفر من كتاب اللّه تعالى».[2]

فالمأدُبة ـ ضما ـ هى الطعام[3] وهى فتحا مفعلَة من الأدب[4] فقد أنزل اللّه القرآن طعاما للأرواح، وأدبا لها ربانيا، لا طعام لها أطعم، ولا أدب لها أءدب من هذا القرآن، والتاء في الوجهين هى للمبالغة، حيث تعنى بالغ الطعام والأدب فى القرآن للأرواح.

لذلک «وإن أصفر البيوت لجوف أصفر من كتاب اللّه تعالى» و«أصفر» هى تفضيل الصفر وهو الخالى.

إذا فأخلى البيوت وأجوفها من الأثاث هو الجوف الأصفر من كتاب اللّه من الأساس، مهما امتلأ مما سواه من علوم بجنب القرآن خاطئة الحلوم.

والهرطقة الغافلة، القائلة: إن القرآن لا يفهم إلاّ بالرواية، معروضة عرض الحائط لمخالفتها بيان القرآن التبيان، إضافة إلى كرور الآيات أنه «بيان للناس».

فليس باب تفهم القرآن مقفلة على الناس، وإنما هى مغْفلة مغفَّلة فمقفلة لمن لا يتدبرون القرآن: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾[5] بأغفالها وإغفالها، تحريجا على الذين يحاولون تفهم القرآن، فتخريجا له عن حوزته.

---

[1]. تفسير الكشف والبيان للثعلبي رواه عن أبي أمامة عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله:...

[2]. أمالي الصدوق المرتضى ١: ٣٥٤ عن نافع عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبدالله بن مسعود عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله: إن هذا القرآن...

[3]. فالمأدبة في كلام العرب هي الطعام يصنعه الرجل ويدعو الناس إليه، فشبه النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله ما يكسبه الإنسان من خير القرآن ونفعه وعائدته عليه إذا قرأه ودرس ما فيه، بما يناله المدعو من طعام الداعي وانتفاعه به، يقال: أدَب الرجل يأدِب فهو آدب، إذا دعى الناس إلى طعامه، ويقال للمأدبة المدْعاة.

[4]. المأدَبة من الأدب فقد أنزل الله القرآن تأديبا للمكلفين بآداب الله، وتاء المأدبة على الوجهين للمبالغة.

[5]. ٤٧: ٢٤.

وما بيان المعصومين عليهم‌السلام إلاّ سنادا إلى لفظية الدلالات المسؤول عها قصورا أو تقصيرا.
إذا فنكران أن القرآن فى الأصل بيان وتبيان نكران لمعجزة الفصاحة والبلاغة القرآنية، بل ونكران لهما عاديا من الناس العاديين!.

ولا يعنى الحظر عن تفسير القرآن بالرأى فى «من فسر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار» حظره عن كل مناهج التفسير، تعطيلاً له عن صالح التدبر والتفكر فيه، إنما هو تفسير خاص «بالرأى» أن تعتقد فى رأى أنه صالح، تقليدا أو اجتهادا، ثم تستند إلى القرآن لتثبيت رأيک، الذى يخالف نصه أو ظاهره، أم لا يوافق نصا منه أو ظاهرا، فانهما تفسير له بالرأى.

وأما تفسيره بنفسه وبالروايات والنظرات التى توافقه، وبالفطرة السليمة والعقلية الصالحة، والحس السليم، فكل ذلک محبور فى حقل التفسير دون أى محظور.

وما تفسير «من فسر القرآن برأية» بتعطيل القرآن عن التفكير فيه، إلا تفسيرا لهذا الحديث نفسه بالرأى، فليتبوء مقعد مفسره هكذا من النار.

وهل يقبل أى تفسير للقرآن إلاّ بالعقلية السليمة، أم هل يقبل الحديث إلا بالعقل الذى يقبله تفسيرا للقرآن؟! وليس العقل بالفطرة السليمة إلاّ ذريعة للحصول على مرادات اللّه من كلامه، دون تحميل عليه وتوجيه، إلاّ توجيه نفسه بصورة صالحة صادقة للكشف عن معانى القرآن بذريعة اللغة الصالحة والأدب الأديب الأريب، وتفكير صالح فى هذه السبيل.

وكما اللغة لا تحمَّل على القرآن، كذلک العقل، وإنما هما كاشفان عما يراد من آيات اللّه البينات.

وكما أن خالص التوحيد هو طليق السلب: «لا إله» ومن ثم صالح الإثبات هو: «إلاّ اللّه» براحلة العقل والفطرة، كذلک خالص التفسير ليس إلاّ سلب كافة التقديرات والمحتملات المسبقة، ومن ثم الإثبات براحلة الفطرة والعقلية السليمتين واللغة والأدب السليمين، وصالح التدبر فى القرآن.

هؤلاء الخارفون الهارفون يقصدون من وراء ذلک التفسير لحديث الرأى نفى روح القرآن عن أمته، واختصاص تفسير القرآن بآرائهم، كما عملته الكنائس فى القرون الوسطى فحظروا تفسير الإنجيل على الأمة المسيحية حتى يفسح لهم مجالات التحريف والتجديف فى تفسيره

بآرائهم وشهواتهم.

وهنا المانعون عن تفسير القرآن فريقان اثنان، فريق يمنع عنه نفيا له من أمته عن بكرته تحت نقاب تقديسة، وآخرون هم مانعون لكى يفسح لهم مجال ـ دون منازع ـ لتفسيره بآرائهم فقهيا أو فلسفيا أو علميا وما أشبه.

وهكذا أصبحت الأمة الإسلامية بعيدة عن روح القرآن، ناحية منحى تفاسير مختلفة بآراء خاطئة.

ذلک، وهذا القرآن مصون عن كل تحريف وتجديف بعصمة ربانية مضمونة طول الزمان وعرض المكان، فآياته ال/٦٦٦٠/ وكلماته ال/٦٦٦٠٠، هما نفس العدد طول التاريخ الإسلامى دون زيادة أو نقصان وان فى حرف أو نقطة أو إعراب أو مكان كلٍّ، وهذه الكلمات لها سير تصاعدى سنوى منذ البعثة حتى ارتحال الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وذلک السير منظم منضد نجده فى تصاعد/٥٠٠ كلمة سنويا، فمثله مثل الشمس فى اشراقته التصاعدية، فقد أشرقت آياته البينات بهذه الصورة على قلوب المكلفين.

قانون ابدى نذارة طليقة قرآنية

«تَبَارَکَ الَّذِی نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرا».[1]

انها «سورة الفرقان» حيث هى بازغة بتنزيل الفرقان، وكل سور القرآن فرقان مهما اختلفت أسماؤها، فإنها يجمعها أنها كلها فرقان ومن الفرقان «فبأى آلاء ربكما تكذبان».[2]

والفرقان ـ على ما يروى ـ كأنها نزلت سورتها كصورتها الآن وقد نتلمح من قراءه الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله لها كما هى، ألاّ تكفى سورة بعد الفاتحة إلاّ بتمامها، وإن كان نسيان آية منها

---

[1]. ٢٥: ١.

[2]. اخذت خيرة بالقرآن لهذه التسمية المباركة فطلعت «تبارك الذي نزل الفرقان» واخذت خِيرَة اخرى للمقام في مكة المكرمة في هجرتي الى الله من بأس الطاغوت الإيراني «شاه» عليه لعنة الله، فطلعت ثانية «تبارك الذي نزل الفرقان» ويا له وفقا لهذا التوفيق ما اوفقه، والحمد لله اولاً واخيرا، وارجو منه ان يوفقني لإكمال الفرقان كافضل ما يحبه ويرضاه ـ آمين.

للرسول خلاف النص: «سنقرئک فلا تنسى» فذلک النسيان ـ إذا ـ نذره فى بوتقة النسيان.[١]

ولا تنافى مکية «الفرقان» بتمامها آية تحريم الزنا فيها، فإنها من اوّليات المحرمات فى الشريع الإسلامى کما الخمر وأضرابهما.

وهل الفرقان هو القرآن المفصل کله کما تلمح له «نزل» المؤشرة للتدريج؟ ولم ينزل بعدُ القرآن المدنى وقسم من المکى! وتقول الروايات أنه الحکم الواجب العمل به دون المتشابه!.[٢]

«نزل» الماضى تشمل المنزّل من المفصل فى المستقبل کما مضى، حقيقة فيمانزل، وتحقيقا فيما سوف ينزّل، حيث المستقبل المتحقق الوقوع يعبر عنه بالماضى، وهکذا الأمر فى سائر التعبير عن تنزله فى سائر القرآن.[٣]

ثم القرآن کله فرقان محکما ومتشابها، وعلّ اختصاصه فى الحديث بالمحکم اختصاص بغير الراسخين فى العلم، الذين لا يفهمون متشابهه فى نفسه، وبإرجاعه إلى محکمه، وأما الراسخون فالقرآن کله لهم فرقان، على درجاتهم فى تفهم الفرقان.

ولأن الفرقان فُعلان من الفَرق، إسم مصدر مبالغ فى الفرق، فهو القرآن البالغ فى فرقه بين الحق والباطل.

ولذلک يعبر عنه ککل بالفرقان: «هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان»[٤] «وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدىً للناس وأنزل الفرقان».[٥]

---

[١]. الدر المنثور ٥: ٦٤ ـ اخرج ابن الانباري في المصاحف عن حميد بن عبدالرحمن بن عوف ان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله صلى الصبح فقرأ سورة الفرقان فاسقط آية فلما سلم قال هل في القوم ابي فقال أبيها أنا يا رسول اللّه، فقال: الم اسقط آية؟ قال: بلى، قال: فلم لم تفتحها علي؟ حسبتها آية نسخت، قال: لا ولكني أسقطتها، أقول ما لهذا الرسول يحتاج فيما ينساه ـ ولا سمح اللّه ـ الى أبي، وكأنه احفظ منه، رغم انه صلى‌الله‌عليه‌وآله كان احفظ الحفاظ على الإطلاق بما أقرأه اللّه.

[٢]. تفسير البرهان ٣: ١٥٥ محمد بن يعقوب عن علي بن ابراهيم عن ابيه ابن سنان عمن ذكره قال سألت ابا عبداللّه عليه‌السلام عن القرآن والفرقان هما شيئان او شيء واحد؟ فقال: القرآن جملة الكتاب والفرقان المحكم الواجب العمل به.

[٣]. المصدر ابن بابويه باسناده عن يزيد بن سلام انه سئل رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فقال لم سمي الفرقان فرقانا؟ قال: لانه متفرق الآيات والسور نزلت في غير الالواح وغيره من الصحف والتورية والانجيل والزبور انزلت كلها جملة في الالواح والورق، أقول: وهذا وجه آخر في كون الفرقان هو القرآن كله.

[٤]. ٢: ١٨٥.

[٥]. ٣: ٤.

كما وهو البالغ فى فرقان التنزيل نجوما طائلة: «وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً»[1]

إذا فالقرآن فرقان كله فى البعدين، وأولهما اَولاهما حيث يفرق فرقا واضحا لا ريب فيه بين كل حق وباطل، طولَ الزمان وعرضَ المكان، ومن فرقه فارق التعبير فصاحة وبلاغة وحتى فى موسيقاه عن سائر التعبير، وأنه الفرقان المعجزة الوافية بنفسه دون سائر الوحى، والفارق بين حق المروى من السنة وباطله، فرقان فى منهجه ومبلجه فلا يشبه اى منهج إلهيا وسواه، حيث يمثل عهدا جديدا منقطع النظير عن كل بشير ونذير، جديدا فى المشاعر، ينتهى به عهد الطفولة، ويبدأ به عهد الرشد بأشده، وينتهى به عهد الخوارق المتعوَّدة، ويبدأ به عهد المعجزة العقلية والعلمية أماهيه، وينتهى به عهود الرسالات الموقوتة.

ولأنه هكذا فرقان ف «ليكون للعالمين نذيرا» فرقان الرسول ورسول الفرقان، فرقانان متجاوبان فى كل زمان ومكان..

«نزل الفرقان على عبده» دون رسوله، لأنه بعبوديته القمة يستأهل ذلک التنزيل، ثم ويُرسَل للعالمين نذيرا بذلک التنزيل، وما أحلاها صيغة العبودية وصبغتها، بسابقتها للرسالة وسابغتها، فلا تصوغ الرسالة إلاّ بعد صبغها كاملة متكاملة، كافلة متكافلة، فمن ثم هى آهلة سائغة للرسالة بالفرقان «ليكون للعالمين نذيرا»، هذا، وكما هو عبده فى إسرائه «سبحان الذى أسرى بعبده» وفى دعائه «وأنه لما قام عبدالله يدعوه» مثلث من قمة التكريم. فى أهم أدواره الرسالية دعاءً وهى مخ العبادة، وعروجا لمقام التدلى، وتنزيلاً للفرقان!.

«ليكون للعالمين نذيرا» دون قومه ـ فقط ـ أم والعرب فحسب، أم عالمى زمنه، أم لردح من الزمن، وإنما «للعالَمين» من الجنة والناس ـ أمّن هم ـ اجمعين، فى كل زمان ومكان، ولأن العالمين جمع لعالم ذوى العقول، فلأقل تقدير هناک عالم ثالث لا نعرفهم، وقد تشير إليهم آيات العالمين، وآية الشورى: «ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير».

---

[1]. ١٧: ١٠٦.

و«للعالمين» حيث تشمل الطول التاريخى والعرض الجغرافى لذوى العقول دونما استثناء، يصبح دليلاً بجنب سائر الأدلة لكون هذه الرسالة السامية هى الشاملة الخاتمة للرسالات الإلهية أجمع، والجمع الحلى باللاّم يستغرق كافة مصاديقه دونما استثناء.

فالعالمين أجمعين سواء أكانوا فى السماوات أم فى الارضين تشملهم هذه النذارة الأخيرة، وكما تلمح له «الذى له ملك السماوات والأرض..» إذا فسعة هذه النذارة هى ملك السماوات والأرض! وكما «تبارک اللّه أحسن الخالقين» حيث الفرقان فى أحسن تقويم، أحسن تقوم فى التدوين لأحسن تقويم فى التكوين.

وترى «للعالمين نذيرا» بشخصه وجها بوجه فى سِنِّى دعوته الثلاث والعشرين؟ وذلک غير واقع ولا ميسورا! فإنما الهدف فى تبنِّى هذه الرسالة القرآنية هو النذارة لكل العالمين بمن معه من حملة رسالته وبلاغها إلى يوم الدين.

ولقد أدى هو واجبه الرسالى فى عهديه المكى والمدنى، وصنع ـ بأذن اللّه ـ على ضوئها حملةً لها على طول الخط، والمحور الركين الأمين على مرّ الزمن هو الفرقان والفرقان فقط.

ولماذا ـ فقط ـ «نذيرا» لا «نذيرا وبشيرا» أو «بشيرا»؟ لأن البشارة ليست إلاّ لمن يتقبل الدعوة، فخاصة بالمؤمنين، والنذارة تعم العالمين أجمعين، ناكرين ومصدقين، ولا تجد البشارة فى سائر القرآن إلاّ صاخة دون النذارة.

«الذى نزل الفرقان...»:

«الذى له ملک السّماوات والأرض ولم يتّخذ ولدا ولم يكن له شريکٌ فى الملک وخلق كلَّ شىءٍ فقدَّره تقديرا».[1]

إذا فلتشمل دعوة القرآن ملک السماوات والأرض، ولتملک السماوات والأرض، كما سوف تتحقق وتطبَّق على العالمين أجمعين زمن القائم المهدى عجل اللّه تعالى فرجه الشريف.

«ولم يتخذ ولدا» منذ الأزل، قبل الزمان وبعد الزمان ـ إذا ـ فلن يتخذ ولدا حتى الأبد طول الزمان وبعده، حيث اتخاذ الولد ليس إلاّ لحاجة، فإذ لم تكن قبل فلن تكون بعد.

---

[1]. ٢٥: ٢.

«ولم يكن له شريک فی الملک» لا ذاتا ولا اتخاذا، فلن يكون ـ إذا ـ له شريک فی الملک. وكيف يتخذ ولدا ام له شريک فی الملک «وخلق كل شیء» ما زعمتموه ولدا وسواه، شريكا وسواه، ولن يكن المخلوق الفقير الذات إلى خالقه ولدا له أو شريكا، لا فی الخلق إذ هو مخلوق، ولا فی تقدير الخلق فإنه هو الذی «قدره تقديرا» فهل المخلوق المقدَّر يناحر الخالق المقدِّر!.

«له ملک السماوات والارض» تختص به وتحصر حقيقة ملک الكون ككل دونما استثناء، حصرا ومُلكا حقيقيين، فلا ينتقل عنه إلى ولد يتخذه أو شريک يُدَّعی له...

والمُلک الحقيقی يلازم الملِک وهما لزام المَلِک الحق دون زوال ولا انتقال.

وترى «كل شیء» تشمل أفعال العباد بجوانح أم جوارح؟ وهذا جبرٌ رافع للتكليف! قد يقال: لا، حيث الأفعال غير الأشياء، فإنها مواد الخلقة، و الأفعال صادرة عنها كمصادر تسييرا او تخييرا. وقد يؤيده «خلق» الماضی، الضارب إلى بداية الخلق، ولكن الخلق فی مثلث الزمان يخصه و«اللّه خالق كل شیء» يعم الماضی، و«كل شیء» يعم كل كائن سواء من ذوات وصفات وأفعال، وخلقه لشیء الأفعال الاختيارية لا ينافی الإختيار، حيث الإذن تكوينا فی كل فعل ـ كما فی سواه من أشياء ـ يخصه تعالی، طالما للمختار اختيار مقدمات لما يريد، ف «لا جبر ولا تفويض بل امر بين امرين».

ثم «فقدره تقديرا» بعد «خلق كل شیء» تفريعا عليه، تجعل الخلق مقدرا حينه: «إنا كلَّ شیءٍ خلقناه بقدر»[1] ومقدرا بعده «قد جعل اللّه لكل شیء قدرا».[2] فالاوّل تفريع فی تأخر رتبی، والثانی فی تأخر زمنی، فالخلق مقدر بتقدير العليم الحكيم فی بُعديه.

إذا فلا فوضی فی أصل الخلق، ولا فی تقديره بعد الخلق، ف «كل شیء عنده بمقدار. عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال».[3]

---

[1]. ٥٤: ٤٩.

[2]. ٦٥: ٣.

[3]. ١٣: ٩.

أجل! «وان تنظيم الخلق بهذه الدقة البارعة الفائقة التصور، فلو كانت قشرة الأرض أسمَک مما هی بضعة أقدام، لامتصَّ ثانی اکسید الکربون والأوکسجین، ولما امکنت حیاة للنبات! ـ ولو کان الهواء أرفع کثیرا مما هو، فبعض الشهب التی تحترق الآن فی الهواء بالملایین، کانت تضرب جمیع أجزاء الکرة الأرضیة، وهی تسیر بسرعة تتراوح بین ستة امیال واربعین میلاً فی الثانیة، وکان بإمکانها أن تشعل کل شیء قابل للإحتراق، ولو کانت تسیر ببطء رصاصة البندقیة لارتطمت کلها بالأرض، ولکانت العاقبة مروِّعة، وأما الانسان فاصطدامه بشهاب ضئیل یسیر بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعین مرة کان یمزقه إربا بمجرد حرارة مروره..».[1]

﴿واتّخذوا من دونه آلهةً لا یخلقون شیئا وهم یخلقون ولا یملکون لأنفسهم ضرّا ولا نفعا ولا یملکون موتا ولا حیاتا ولا نشورا﴾.[2]

آلهة قاحلة، عاجزة، خاویة زاهلة عن کافة شؤون الألوهیة وبدایتها الخلقة وهم «لا یخلقون شیئا»!.

ولا ذبابا: ﴿ان الذین تعبدون من دون اللّه لن یخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن یسلبهم الذباب شیئا لا یستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾[3] ﴿لا یَخلقون شیئا وهم یُخلقون﴾ ثم ﴿ولا یملکون لأنفسهم ضرا ولا نفعا﴾ مهما یضرون بأنفسهم أو ینفعون، فإنَّ مِلک الضر والنفع شیء وواقعه بما یحاولون شیء آخر، فقد یحاولون فی ضر لأنفسهم ولا یضرون، أم فی نفع ولا ینفعون، فإنهم مسیَّرون کما هم مخیرون، ف ﴿إن یمسسک اللّه بضر فلا کاشف له إلاّ هو وإن یُردک بخیر فلا راد لفضله..﴾.[4]

هنالک معاکسة فی شروطات الألوهة بین اللّه والذین اتخذوهم من دونه آلهة، ومنها أن اللّه

---

[1]. العلم یدعو الی الإیمان ترجمة محمود صالح الفلکي.

[2]. ٢٥: ٣.

[3]. ٢٢: ٧٣.

[4]. ١٠: ١٠٧.

«الذى له ملک السماوات والأرض» وهم «لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياةً ولا نشورا» فضلاً عن أن يملكوا لمن سواهم.

واللّه «خلق كل شىء فقدره تقديرا» وهم «لا يخلقون شيئا وهم يُخلقون».

فاين آلهة من إله، وآلهة كعابديها أم هى أدنى، وإله واحد قهار بيده ناصية كل شىء.

«وقال الّذين كفروا إن هذا إلاّ إفكٌ افتراه وأعانه عليه قومٌ آخرون فقد جاءوا ظلما وزُورا». [1]

أكذَب فرية فى تأريخ الرسالات: أن القرآن إفک مفترى! فإذا كان الكذب المفترى على اللّه يفوق كل كتابات اللّه، السالفة، ويفوق كل كتابة من أى كاتب، فهل الآفک به فوق خلق اللّه وفوق اللّه؟!

قالوا «إن هذا إلاّ افک افتراه وأعانه قوم آخرون» فرية عليه «ظلما وزورا» لا تقوم على أساس إلاّ العناد والخوف على مراكزهم الإجتماعية المستمدة من سياستهم الدينية، يجنح بهم إلى هذه المناورات الزور، يطلقونها فى أوساط الجمهور، الذين قد لا يميزون بين الغث والسمين والخائن والأمين، ولكنه الفرقان يفرق بين حق الوحى وباطل الزور لمن ألقى السمع وهو شهيد.

أترى مَن هم «قوم آخرون»؟ أهم قوم من العرب العَرباء؟ وليس هو بشخصه قوما حتى يكونوا هم قوما آخرين! ام هم قوم غير العرب، فهو من قوم العرب، واعانه على قرآنه قوم آخرون غير العرب؟ وكأنهم هم! كسلمان واصحابه الفرس: «ولقد نعلم أنّهم يقولون إنما يعلّمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين». [2]

ذلک الفرقان المبين الذى عجز عن الإتيان بمثله، أو سورة من مثله، العرب العرباء، هل هو من اختلاق أمى أعانه عليه قوم آخرون من الفرس، سلمان وصحبه، أم «قوم آخرون» هم أهل الكتاب إذ هم كما الفرس لم يكونوا من العرب؟ ام هم من العرب، وعلّ «قوم آخرون» تعنيهما، وعلى اية حال «فقد جاءَوا ظلما وزورا».

---

[1]. ٢٥: ٤.

[2]. ١٦: ١٠٣.

فيا حماقى البهتان، إن كان هذا القرآن إفكا افتراه محمد بمن أعانه من قوم آخرين، «فاتوا بعشر سور مثله مفتريات»[1] بل «.. بسورة مثله»[2] لكى تتغلبو عليه إبطالاً لحجته، وإغراقا فى لجته «أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربک»[3] فإن ملامح ربوبية الكتاب فيه لائحة، وحيا من اللّه لا سواه.

ثم وقولة أخرى من الناكرين يكدرون بها الجو الجاهلى ضد القرآن:

«وقالوا أساطير الأوّلين اكتتبها فهى تملى عليه بكرةً وأصيلاً»[4]

الأساطير هى الأوهام والخرافات المختلَقة المتسطرة، التى تتنقل فى نوادى التفكه واللّهو، فمن المشركين من يعتبرون الفرقان من أساطير الاوّلين، من كتابيين وسواهم، اكتتبها محمد بمن أعانه، فأصبحت كتابا تملى عليه بكرة وأصيلاً لكيلا ينساه.

وترى كيف يكتتب أساطير وغير اساطير مَن لم يكن يقرأ أو يكتب: «وما كنت تتلو قبله من كتاب ولا تخطه بيمينک إذا لارتاب المبطلون»،[5] وهنا الجواب كلمة واحدة:

«قل أنزله الّذى يعلم السرَّ فى السّماوات والأرض إنَّه كان غفورا رحيما».[6]

برهان قاطع لا مرد له على وحى القرآن، دليلاً فيه نفسه، فاستدلالاً به نفسه، فإنه الحجة الوحيدة غير الوهيدة على وحيه الصارم: «قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض» حيث الفرقان يتحدث عن سر السماوات والأرض تكوينا وتشريعا، فى تجاوب مكين امين متين بين كتابى التدوين والتكوين، إذا فالكاتب واحد هو اللّه الواحد القهار «ولو كان من عند غير اللّه لوجدوا فيه اختلافا كثيرا».

---

[1]. ١١: ١٣.

[2]. ١٠: ٣٨.

[3]. ٣٢: ٣.

[4]. ٢٥: ٥.

[5]. ٢٩: ٤٨.

[6]. ٢٥: ٦.

فكما أن رسول الوحى على بينة فى أقواله وأفعاله وتصرفاته أنه رسول الوحى: «قالوا ربنا يعلم إنا اليكم لمرسلون» فبأحرى كتاب الوحى المتحدى به على الجن والإنس، هو بيّنة بنفسه على أنه وحى، دونما حاجة إلى بينة أخرى.

فأين الكتاب الذى يحوى على سر السماوات والأرض وأين اساطير الاوّلين؟ بل وأين هو وكل سرٍّ يعلمه العلماء فى مشارق الأرض ومغاربها طول الزمان وعرض المكان، فإن كان كتاب سرِّ السماوات والأرض من أساطير الاولين، فما هو ـ إذا ـ سائر الكتابات التى تعجز عن ظاهر العَلَن فضلاً عن باطن السر.

قضية الفرقان هى من القضايا التى قياساتها معها، فكل سرٍّ فى الكائنات يظهر على تقدم العقل والعلم فى عجلتهما العاجلة والآجلة، نراه مكشوفا فى القرآن باهرا لا ريب فيه، أفلا يدل ذلک على أنه «أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض»؟

«إنه كان غفورا رحيما وترى ما هى الصلة بين هذا التعقيب وذلک التقديم؟ هى أن رحمته الواسعة اقتضت إنزالاً لكتاب السرّ، إماما لراحلة العالمين فى التكشف عن اى سر فى السماوات والأرضين، كما اقتضت الترحم على الناكرين لوحى القرآن، إمهالاً لهم رويدا، وهم يرتكبون اكبر الخطايا والظلامات الزور بحق القرآن ورسول القرآن، بتلک الدعوى المتهافتة، ومن قبل كانوا يصرون على الإشراک باللّه، ولكن باب التوبة ـ مع كل ذلک ـ مفتوحة بمصراعيها، والرجوع عن الخطيئة مهما كانت كبيرة، فالذى يعلم السر فى السماوات والأرض، فيعلم ما يسرون وما يعلنون «انه كان» منذ خلق الخلق وقبله «غفورا رحيما».

اترى «السر» الكائن فى القرآن يعم الاخفى؟ قد يكون!: «وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى»[1] ف «يعلم السر» هنا يعم السر وأخفى كما هناک أسرُّ من السر العادى.

هذه من دعاياتهم الظالمة الزور الغرور على القرآن، ومن ثم على رسول القرآن:

«وقالوا مال هذا الرّسول يأكل الطّعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملکٌ فيكون معه

---

[1]. ٢٠: ٧.

نذيرا».[1]

ويكأن رسول اللّه إلى البشر مستحيل كونه من البشر فياكل الطعام ويمشى فى الاسواق كسائر البشر، وقضية الحجة القاصمة ان يكون الرسول من جنس المرسل إليهم، قطعا لأية عاذرة فى اختلاف الجنس: «يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى...».[2]

وحتى لو كان رسول البشر مَلَكا أم نذيرا مع الرسول البشر لما كان يظهر لهم إلاّ بصورة البشر: «ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون».[3]

إن هؤلاء المقلوبة قلوبهم، المتحللين عن عقولهم، يعاكسون أمر حجة اللّه، فيستبدلون الحجة من رسول البشر، بغير حجة ام هى ادنى كرسول المَلَک، وانه اعتراض كعاذرة لهم، مكرور على طول خط الرسالات، كيف يمكن أن يكون فلان ابن فلان الذى عشناه منذ الطفولة عائشا عيشنا، آكلاً أكلتنا وماشيا فى الأسواق مشيتنا، كيف يمكن أن يكون هو رسولاً من عند اللّه إلينا؟!

افسادان اسرائيليان عالميان

يفنيها «عبادا لنا اولى باس شديد»

ثانيهما الحكومة المهدوية

سورة الأسرى

بِسْمِ اللّه الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

---

[1]. ٢٥: ٧.

[2]. ٦: ١٣.

[3]. ٦: ٩.

«سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِى إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِى وَكِيلاً * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدا شَكُورا * وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ فِى الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِى الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّا كَبِيرا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادا لَنَا أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدا مَفْعُولاً * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمْ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرا * إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرا * عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرا»[1]

سورة مثلثة الأسماء: الاسرى ـ بنى اسرائيل ـ سبحان: تتبنى الرسالة الإسلامية بمقتضياتها ومخلفاتها كقاعدة أصيلة، بأصولها الثلاثة، وما تتضمنه من ملاحم وبشارات وإنذارات مَثلات، بدايتها «سبحان» لتأكيد وتوطيد الرحلة المعراجية المنقطعة النظير، ونهايتها «الحمد للّه» تسبيح يضرب الى الحمد فانه تسبيح بالحمد وبينهما متوسطات!

وفى السورة قيلات خمس: إنها مكية إلا آيات: اثنتين او ثلاث او خمس او ثمان[2] ولا توحى هذه او تلك بمدنيتها ولا تلمح إذ نزلت نظائرها فى المكيات، ثم هى بين دالة على مكيتها او غير دالة على مدنيتها فقد تكون مكية كلها كما يقتضيه طبع الألفة والتاليف.

«سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ».[3]

---

[1]. ١٧: ١ ـ ٨.

[2]. مدنيتان كما في روح المعاني هما «وان كادوا ليفتنونك..» «وان كادوا ليستنفرونك..» وعن بعضهم اضافة: «واذ قلنا لك ان ربك احاط بالناس...» «وقل رب ادخلني مدخل صدق..» وعلّ الاخراج او منه الاخراج الى المدينة فهي مكية إذ تنبىء عن مستقبل، وعن الحسن الا «ولا تقتلوا النفس..» «ولا تقربوا الزنا..» «اولئك الذين يدعون..» «اقم الصلاة..» «وآت ذا القربى حقه..» وعن مقاتل الا «وان كادوا ليفتنونك..» «وان كادوا ليستفزونك..» «واذ قلنا لك..» و«قل رب ادخلني..» «ان الذين اوتوا العلم..» وآية الاستفزاز تشهد أنها مكية كآية الادخال وسواهما لا تشهد أنها مدنية. وعن قتادة والمعدل عن ابن عباس الاثماني هي «وان كادوا..» الى «وقل رب..».

[3]. ١٧: ١.

هنا اجمال عن الرحلة المعراجية إلى اقصى اعماق الفضاء، وفى التكوير إجمال اخصر مما هنا: «ولقد رآه بالافق المبين» ثم ينجم تفصيلها فى النجم: «وهو بالافق الاعلى» مثلث بارع رائع عن هذه الرحلة الرهيبة الخارقة، يفسر بعضها بعضا وينطق بعضها على بعض، مهما اختلفت فيها الروايات فلتعرض على القرآن لكى تنحو نحو القرآن.

«سبحان» خير بداية تتلو خير ختام «الحمد للّه» تبدأ بها سورة السبحان الاسرى ـ بنى اسرائيل، كأليق حركة نفسية نفيسة تتسق مع واقع الاسراء وجوه اللطيف، وأحرى حالة روحية حيث يبلغ صاحبها إلى الأفق الأعلى المبين.

و«سبحان» عَلَم للتسبيح منحصر فى اللّه ومنحسر عن غير اللّه، فانه التنزيه المطلق،[1] فليختص بالنزيه المطلق، وليس مطلق التنزيه حتى يشمل من سوى اللّه من الكاملين، وان فى أعلى قمم الكمال حيث الفقر ذواتهم، والنقص كيانهم فأنى لهم سبحان مطلق!.

واللّه تعالى ذاته سبحان وصفاته سبحان وأفعاله سبحان، وهى هنا: سبحان ذاته ان يعرج إليها عبده أى عروج كان، فى المكانة او فى المكان، وفانه مكن المكان فليس له مكان، وحد الحدود والجهات فليست له حدود وجهات، وهو المُنهى للنهايات والمغيى للغايات، فسبحان ذاته أن يكون منتهى العروج لعبده بأى معنى كان، اللهم إلا قمة المعرفة الممكنة باللّه: «ثم دنى فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى»!.

ثم وسبحان افعاله ان يعجز عن معراج عبده بجسمه وروحه إلى سماواته ليريه بعض آياته، كما يهرف به من لا يعرف قدرته تعالى على كل شىء.

وسبحان صفاته عن ان يضن ويبخل عن هذه المكرمة الغالية لأول العابدين وسيد الخلق أجمعين، فسبحانه سبحانه سبحانه عن اى رين وشين فى هذا البين.

ثم و«سبحان» تتكفل ـ ككل ـ بيان سلبية الصفات غير اللاّئقات بجناب عزّه، كما «الحمد» بيان للثابتات اللائقات بحضرة قدسه.

«الذى اسرى بعبده ليلاً..»

---

[1]. تفسير روح المعاني ١٥ ص ٣ في العقد الفريد عن طلحة قال: سألت رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله عن تفسير سبحان اللّٰه فقال: تنزيه للّٰه تعالى عن كل سوء.

«اسرى» من «السُّرى»: سير الليل ـ ولكنه مضمَّن معنى الرفعة والعلو فسراةُ كل شيء اعلاه، كسراة النهار: ارتفاعه، رفعة حسية او معنوية: «قد جعل ربك تحتك سريا»[1] رفيعا عظيما هو المسيح عليه‌السلام كما السرو شجرة مستقيمة رفيعة، وقد تجمع «السرى» بين الرفعتين كما في سرى الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله سرى أرضية إلى القدس في سفرة جوية، ثم سماوية الى الأفق الأعلى مكانة ومكانا.

وإذا كانت السرى سير الليل فلماذا هنا «ليلاً» وكما في ثانية «فأسرِ بعبادى ليلاً انكم متبعون»[2] ومن ثم في رابعة تأتى دون ليل «وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون»؟؟.[3]

نقول: إن جمع الليل الى السرى إذا كان مع عدم جمعه سيان كما في سرى موسى فالليل لمزيد الايضاح.[4] ام ولكى يعرف أنها في ليلة واحدة لا ليال. واذا لا كما في لوط: «بقطع من الليل» قسم من الليل يؤمن فيه عن ملاحقة قومه، لاكله أو أية قطعة منه حيث الخطر حادق والعدو حاذق، فلهذه وتلك. ام لهذه وسواها من نكات كما في الإسراء يجمعها: ١ ـ دلالة على ان السرى كانت في ليلة واحدة حيث الوحدة لائحة من تنكير «ليلاً» لا في ليال، حيث السرى وحدها أعم من ليلة او ليال. ٢ ـ واشارة إلى انها كانت في قطع من ليلها دون تمامه، حيث القطعة مشار اليها بالتنكير «ليلاً» كما الوحدة، فاستغراق الليل يقتضى «الليل» لا «ليلاً» و٣ ـ افادة للتعظيم حيث كانت ليلة العروج وكانت الإثنين وما ادراك ما الاثنان؟ انه صلى‌الله‌عليه‌وآله ولد يوم الاثنين وبعث الاثنين، وعرج به الاثنين وخرج من مكة مهاجرا الاثنين ودخل المدينة الاثنين، وارتحل الى رحمة ربه الاثنين، إثنينات ست تعم حياته، فسلام عليه يوم ولد ويوم بعث ويوم عرج ويوم هاجر ويوم مات ويوم يبعث حيا، ثم وهو الثانى في الكون والكيان بعد الحضرة الإلهية، فاللّه هو الأول في مثلث الذات والافعال والصفات،

---

[1]. ١٩: ٢٤.

[2]. ٤٤: ٢٣.

[3]. ٢٦: ٥٢.

[4]. كما في «وقال اللّه لا تتخذوا إلهين اثنين انما هو آله واحد». قصدا الى ان نفي الإثنينية كاثبات الوحدة مقصود، دون ان يكون النفي هامشيا.

واحمد هو الثانى، واين اول من ثان بون بين الوجوب وأرقى الامكان:

ز احمد تا أحد یک میم فرق استهمه عالم در آن یک میم غرق است

وما هو موقف الباء فى «بعبده» بعد أن «أسرى» متعد بالإفعال؟ هل إنها الزينة؟ ولا تعرف إلا فى خبر ليس! أم لتأكيد التعدية أن سُرى عبده انما هى منه تعالى تماما لا ومن عبده؟ ولا يعهد هكذا تأكيد! وآياتها الاخرى فى إسراء لوط باهله وموسى بقومه لا ينسابها تأكيد! أم ان مفعولها الأول محذوف كالذى عرج به كسفينته الفضائية «البراق» والذى صاحبه كجبريل[1] اذا فما هو المفعول الأول فى نظيرتها «فاسر باهلک.. أسر بعبادى..» ولا يناسبها محذوف فى لوط وموسى! ام إن سرى واسرى بمعى وهما متلازمتان[2] مع الفرق أن أسرى لأول الليل وسرى لآخرة[3] وقد كان سرى الرسول فى الثلث الاوّل من الليل؟ ـ احتمالات: اخرها اولها واولها آخرها وبينهما متوسطات.

ولماذا «بعبده» دون «محمد» او «رسوله ـ نبيه»؟

عله لأن «محمدا» دون وصف العبودية او الرسالة لا يحمل ما يتحمل هكذا معراج، ولا يذكر حين يذكر إلا للتعريف الاسمى بالرسول النبى.

ثم هذا العروج لم يكن رحلة رسالية، وإنما عبودية تتبنّى كما له فى نفسه حيث «دنى فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. لقد رأى من آيات ربه الكبرى..» فالرحلة من الرب الى الخلق رسالة، ومن الخلق الى الرب تكملة العبودية فى ذاته لتكميل الرسالة.

ثم العبودية تزيل حجب النور وحجب الظلمة والرسالة هى هى من حجب النور، وهو فى مقام الدنو والتدلى يتخلى عن الحجب كلها ويتحلى بحلية العبودية فى أعلى قممها «فأوحى الى عبده ما أوحى» دون نبيه أو رسوله، وحيا سَرِيّا سِرّيا يخصه دون سواه فسُرى المعراج تقتضى سُرى العبودية.

---

[1]. كما عن ابن عطية.

[2]. كما عن ابي عبيدة.

[3]. وقال الليث: اسرى لاول الليل وسرى لآخره.

ومن ثم ما احلى صيغة «عبده» وصبغته وصياغته ان لو لم تكن هنالك رسالة، لم تكن هنا لاول العابدين صيغة اجدر من «عبده». ثم لا نجد فى القرآن «عبدنا» و«عبده» إلا لصاحب المعراج[1] اللهم الا لداود وايوب وزكريا ونوح، ولكنه فى زكريا فى ظل رحمة ربک: «ذکر رحمد ربک عبده زکریا»[2] وفى داود تسلية لصبره: «اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد»[3] وفى أيوب كذلك ذكرى لكى يصبر: «واذكر عبدنا ايوب اذ نادى ربه..»[4] وفى نوح تصبرا على طول المدة «كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا».[5]

فليس إذا «عبده» إلا محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله كأنه هو عبده لا سواه، لأنه جامع مجامع العبودية فهو «اول العابدين» كما وأنه هو رسوله لا سواه، كما تلمح لها آياتها وتأتى فى طياتها.

ثم و«عبده» تقريرا فى مقام الإسراء إلى الدرجات العلى، ولكى لا تنسى هذه الصفة فى زهوة الرحلة الفضائية وزهرة المعراج، وليس لينساه الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله ثم ولا يلتبس مقام العبودية بمقام الألوهية كما التبس فى العقائد المسيحية.

واخيرا «عبده» توحى بأن هذه السُرى كانت بجزئيه: روحه وجسمه، دون تقسم فلم يقل بروح عبده او بجسمه حتى يهرفه الهارفون ويخرفه الخارفون: ان المعراج كان روحيا، او برزخيا فى رؤياه ام ماذا؟ وإنما «بعبده» فصاحب المعراج هنا «عبده» وفى النجم «صاحبكم» «ما ضل صاحبكم وما غوى» وفى التكوير هو رسول كريم: «انه لقول رسول كريم. ذى قوة عند ذى العرش مكين. وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالافق المبين». (٢٣)

اترى بعد ان «صاحبكم» «عبده» «رسول» هى فقط روحه، وهو ما صاحبنا ـ فقط ـ بروحه،

---

[1]. «وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا» ٢: ٢٣ «وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان» (٨: ٤١) «الحمد لله الذي نزل انزل على عبده الكتاب» (١٨: ١) «تبارك نزل الفرقان على عبده» (٢٥: ١) «فاوحى الى عبده ما اوحى» (٥٢: ١٠) «هو الذي ينزل على عبده آيات» (٥٧: ٩).

[2]. ١٩: ٢.

[3]. ٣٨: ١٧.

[4]. ٣٨: ٤١.

[5]. ٥٤: ٩.

وما رسالته ـ فقط ـ فى روحه، وما عبوديته ـ فقط ـ بروحه، ان هذه إلا هرطقة هـراء واللّـه منها براء ـ ف «سبحانه سبحانه سبحانه من قيلات هى ويـلات علـى الحـق المبـين فـاين ـ تذهبون.[1]

ولماذا «ليلاً» لا نهارا، ام مزدوجا، والنهار أبين للناظرين وأبعـد إنكـارا للنـاكرين؟ عليـه لأن الليل هنا كان نهارا هناك ولكى يرى من آيات ربه وضـح النهـار، أم علـه لأن الليـل أهـدء وأوقع لسرى المعراج، وناشئته هى «اشد وطئا وأقوم قيلاً»[2] وأية ناشئة طوال حياتـه صلى‌الله‌عليه‌وآله انشأ وانشط من ناشئة المعراج فلتكن ليلاً، ولا يحول الليل ولا أليـل منـه ظلمـة دون رؤيتـه آيات ربه الكبرى بما اراه اللّه.

والسُرى المعراجية تتبنى عروج الرسول الى أعلى الأفاق المعرفية، قبـل ان تتبنـى اعجازهـا، ولم يكن عروجه الى عمق الفضاء بالسرعة ما فوق الضـوئية او علهـا الجاذبيـة التـى تفـوق الزمان لم يكن بالذى يرى فيصدق بما يرى، اللهم الا بما خبرهم بما رآه فى سـراه مـا فـوق الأرضية الى القدس من عير ام ماذا[3] فقد كان سرى الرسول سُرىً سَرِيًا سِرِّيًا إلا فيما انبـأ بـه ربه بما أنبأ واللّه اعلم بسراه.

ثم «ليلاً» توحى بوحدة المعراج اللهم الا ان يهرف بتكراره فى نفس الليلة ولـم يخلـد بخلـد قط، فالروايات الناقلة لتكراره تؤول او تطرح[4] وروحه القدسية كانت عارجة دوما الـى مقـام

---

[1]. وما في دعاء الندبة «وعرجت بروحه» من الناقل والمنقول عنه والصحيح «وعرجت به» كما في نسخة ثانية جعلها المحدث القمي فرعا، والفرع اصلاً. فاصله لا اصل له وفرعه هو الاصل! وقد يشبه اصله ما يروى عن عائشة «ما فقدت جسد رسول اللّه ولكن اسري بروحه» كما في الدر المنثور عنها ـ فقد كذبت مرتين: ان الاسراء كانت قبل ان يتزوجها بزمان فانها قبل الهجرة بسنة وزواجها بعدها بزمان، وان الاسراء كان من المسجد الحرام لا بيت عائشة ام اي بيت، ثم واحاديثنا متظافرة بالمعراج الجسماني والروحاني معا دون تبعيض (راجع ج ٢٦ ـ ٢٣ الفرقان ص ٤١٤ ـ ٤١٥ وقد وافق عائشته زميلها معاوية في نكران المعراج الجسماني ومعاوية كان يومئذا كافرا.

[2]. ٧٣: ٦.

[3]. في روضة الكافي باسناده عن ابي عبداللّه عليه‌السلام قال: لما اسري برسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله اصبح فقعد فحدثهم بذلك فقالوا له: صف لنا بيت المقدس، قال: فوصف لهم وانما دخله ليلاً فاشتبه عليه النعت فأتاه جبرئيل فقال: انظر ههنا فنظر الى البيت فوصفه وهو ينظر اليه ثم نعت ما كان من عير لهم فيما بينهم وبين الشام ثم قال: هذه عير بني فلان يقدم مع طلوع الشمس يتقدمها جمل ازرق او احمر، قال: وبعثت قريش رجلاً على فرس ليردها، قال: وبلغ من طلوع الشمس، قال قرطة بن عبد عمرو: يا لهفا ان لا اكون لك جذعا حين تزعم انك اتيت بيت المقدس ورجعت من ليلتك» نور الثقلين ٣: ١٠٢.

[4]. كما اورده القمي عن محمد بن الحسن الصفار باسناده عن ابي عبداللّه عليه‌السلام قال: «عرج بالنبي مائة وعشرين مرة..» اقول: وعلها ليست إلاّ واحدة عروج روحي له صلى‌الله‌عليه‌وآله وقد كانت حياته بهذا المعنى معارج. وفي الكافي باسناده الى علي بن ابي حمزة

قاب قوسين او ادنى اللهم إلا فيما تضطره رسالته ببلاغه وخلطه بالمرسل اليهم، حيث الرسالة ـ على قدسيتها ـ من حجب النور، وعله صلى‌الله‌عليه‌وآله **كان يغان على قلبه ويستغفر ربه فى كل يوم سبعين مرة من حجب النور.**

«... مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ».[1]

منطلق المعراج مسجد هو أفضل المساجد فى الأض أم فى الكون كله وقد جاء ذكره فى الذكر الحكيم (١٥) مرة بكل تبجيل وتجليل، ثم المسجد الاقصى وهو أقصى المساجد الى المسجد الحرام نجده مرة واحدة هى هاهنا بمواصفة واحدة: «باركنا حوله».

ومهما اختلفت الروايات ان مبدأ المعراج بيت عائشة[2] ام بيت ام هانى[3] ام المسجد الحرام[4] فنص القرآن يؤيد ثالث ثلاثة فلا محيد عنه.

واما منتهى سرى المعراج هنا، فهل هو المسجد الاقصى الذى فى القدس؟ وهناك مسجد الكوفة أقصى منه وعله افضل! وبركات اللّه فى المسجد الحرام أقدم من القدس واكمل! وعرض المعراج فى هذه الآية الخاصرة نصا والحاصرة تقتضى التصريح بنهاية المعراج وغايته: السدرة المنتهى فى الافق الاعلى، دون متوسطه الأرضى فحسب، الاقصى الذى فى

قال: سئل ابو بصير ابا عبداللّه عليه‌السلامفقال وانا حاضر: جعلت فداك كم عرج برسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله؟ فقال: مرتين تفسير البرهان ٣: ٤٠٢ اقول: علّ المرتين هما كما قال تعالى: «ولقد رآه نزلة اخرى عند سدرة المتهى» «حيث الرواية المعراجية كانت مرتين لا اصل المعراج»!.

[1]. ١٧: ١.

[2]. كما نصت روايتها عن الدر المنثور «ما فقدت جسد رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ولكن اسري بروحه» كذبة مزدوجة!

[3]. ذكره الثعلبي عن ابن عباس بغير سند وكانه من رواية الكلبي عن ابي صالح عنه، واخرجه الحاكم والبيهقي عنه ورواه النسائي باختصار من رواية عوف عن زرارة بن اوفى عن إبن عباس.

[4]. تفسير القمي باسناد عن ابي مالك الازدي عن اسماعيل الجعفي قال كنت في المسجد قاعدا وابو جعفر عليه‌السلام في ناحية فرفع رأسه فنظر الى السماء مرة والى الكعبة مرة ثم قال: «سبحان الذي اسرى...» وكرر ذلك ثلاث مرات ثم التفت الي فقال: اي شيء يقولون اهل العراق في هذه الآية يا عراقي! قلت: يقولون اسرى به من المسجد الحرام الى البيت المقدس فقال: ليس كما يقولون، ولكنه اسرى به من هذه الى هذه واشار بيده الى السماء وقال: ما بينهما حرم نور الثقلين ٣: ٩٨ ومن حديث مالك بن صعصعة مطولاً ان المسجد الحرام مبدء المعراج متفق عليه. اقول: قد يعني هذه الارض ـ وطبعا من المسجد الحرام ـ والى هذه: عمق المعراج عند سدرة المنتهى ـ وما بينهما حرم ـ او ما بين الاقصى في الارض والاقصى في السماء حرم ام ماذا؟.

القدس! ثم ما هى «آياتنا» فى القدس التى لم يرها الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله فى البيت الحرام؟ هل هى قبور الرسل الإسرائيليين؟ وليست من آيات اللّه، وإنما الرسل هم آيات اللّه وقد أراهم اللّه إياه اذ اخذ ميثاقهم «لتؤمنن به ولتنصرنه..»[1] واراه اياهم اذ امرأن يسألهم: «وأسأل من أرسلنا من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون»[2] ثم الآيات التى أريها هى آيات ربه الكبرى فى عمق الفضاء «عند سدرة المنتهى.. لقد رآى من آيات ربه الكبرى» فهذه الرؤية كانت فى الاقصى التى فى السماء عند السدرة لا التى فى الأرض.[3]

فلقد نرى أن المسجد الاقصى، أقصى المساجد فى مطلق الكون من المسجد الحرام، ومنتهى المعراج عند السدرة المنتهى، إذ «أوحى الى عبده ما اوحى (١٠) لقد رآى من آيات ربه الكبرى» (١٨) بعدما «دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى) (٨ ـ ٩) دنوا واقترابا من العلى الأعلى!.

هذا هو المسجد الأقصى الذى بورك حوله بركات معنوية معرفية. واخرى سواها أمثالها، فمن الأولى «ولقد رآه نزلة اخرى. عند سدرة المنتهى. عندهاجنة المأوى» (١٣ ـ ١٥). ومن الاخرى جنة المأوى وما ينحو نحوها من آيات ربه الكبرى.

ف «الافق المبين ـ الافق الاعلى ـ سدرة المنتهى ـ جنة المأوى» فى التكوير، وفى النجم ـ والبيت المعمور[4] فى «الطور» علّها كلها تعابير عدة عن منتهى المعراج: المسجد الاقصى،

---

[1]. ٣: ٨١.

[2]. ٤٣: ٤٥.

[3]. وفيه ايضا عن سالم الحناط عن ابي عبداللّه عليه‌السلام قال: سألته عن المساجد التي لها الفضل فقال: المسجد الحرام ومسجد الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله قلت: والمسجد الاقصى جعلت فداك، فقال: ذلك في السماء اسري اليه رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فقلت: ان الناس يقولون: انه بيت المقدس؟ فقال: مسجد الكوفة افضل منه ومما يدل على وجود مسجد الكوفة حينذاك ما رواه القمي في تفسيره باسناده الى ابي عبداللّه عليه‌السلام في حديث فضل مسجد الكوفة: «.. حتى ان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله لما اسرى به قال له جبرئيل: تدري اين انت يا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله؟ انت مقابل مسجد الكوفان قال: فاستاذن لي ربي حتى آتيه فاصلي فيه ركعتين..» المصدر ٣: ١٣٠)، واورده ابن سعد وابو يعلي والطبراني في حديث ام هاني مطولاً «الكشاف ج ٢ ص ٥٠٥).

[4]. للبيت المعمور مصاديق اخرى كالكعبة المشرفة ويقابله المسجد الاقصى في السماء السابعة فهو ايضا البيت المعمور كما في نور الثقلين ٥: ١٣٦ عن علي عليه‌السلام كما وهو منزل القرآن ٥: ٦٢٤ عن الصادق عليه‌السلام وفي الدر المنثور عن شعب الايمان عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: البيت المعمور في السماء السابعة، اقول: واحاديث الفريقين مجمعة على انه في السماء السابعة، فليكن هو المسجد الاقصى في السابعة، عمر قبل عروج النبي ثم زادت عمارة بعروجه، ثم ومن البيت المعمور بيت قلب الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله كما مضى عن علي عليه‌السلام فانه اشرف منزل للقرآن (راجع ج ٢٧ ص ٣٥٣ ـ ٢٥٤ من الفرقان).

وقد يسمى الذى فى القدس بالمسجد الاقصى لمحاذاته الاقصى الأولى، وقد زاره الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله **فى رحلته المعراجية[1] اذا فالمسجد ان معنيان ب «المسجد الاقصى» فالذى فى السماء أصل وغاية، والذى فى الأرض ممر إليه وليس غاية.**

وأية بركة عظمى وآية كبرى خير من الجنة المأوى، وما رآه فى الافق الاعلى من آيات ربه الكبرى![2] «لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير»: رؤية للمكون بقلبه بما لافراق له ورؤية لكائناته ببصره لمتَّسع مملكته.

وترى لماذا «من آياتنا» لا كلها لكى تستكمل الرؤية وتكمل الضيافة والإضافة؟.. الجواب فى النجم: «لقد رأى من آيات ربه الكبرى» ف «من» تبعيض عن كل الآيات و«الكبرى» هى جل الآيات، فقد اصطفى الرب لمصطفاه كبرى الآيات ومصطفاها، وكفته رؤية الكبرى عما سواه: كبرى الآيات كيانا كالنبيين والملائكة الكروبيين، وكونا كسائر الآيات العظيمة الكونية ومنها سائر خلق اللّه فى سائر العوالم من سكان السماوات وعمارها.[3]

اترى ان غاية المعراج فقط «لنريه من آياتنا» لا إثبات رسالته ايضا كأية من آيات ربه؟ ومن ثم ف «من» تبعض هذه الرؤية، فى حين أرى ابراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين.

---

[1]. ثواب الاعمال عن علي عليه‌السلام عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله انه قال في وصية له:.. اني لما بلغت بيت المقدس في معراجي الى السماء... نور الثقلين ٣: ١٢٢ ومن الملاحظ في الروايات التي تنقل مروره في معراجه بالقدس انها كلها تقول بيت المقدس ولا مرة واحدة: المسجد الاقصى.

[2]. تفسير القمي في حديث المعراج من لفظ رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله لعلي عليه‌السلام.. فكشط لي عن سبع سماوات حتى رأيت سكانها وعمارها وموضع كل ملك منها... واما السادس لما اسري بي الى السماء جمع اللّه لي النبيين فصليت لهم «نور الثقلين ٣: ٢٠٢» ومن الآيات التي أريها الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله عترته المعصومون واحد بعد واحد كما في عيون اخبار الرضا عليه‌السلام قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله في حديث المعراج عن العترة... يا محمد لو ان عبدا عبده في حتى ينقطع ويصير كالشن البالي ثم اتاني جاهدا بولايتهم ما اسكنته جنتي ولا اظللته تحت عرشي يا محمد أتحت ان تراهم؟ قلت: نعم يا رب! فقال عز وجل: ارفع رأسك فرفعت رأسي فاذا انا بانوار علي وفاطمة والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وموسى بن جعفر وعلي بن موسى ومحمد بن علي وعلي بن محمد والحسن بن علي والحجة بن الحسن القائم في وسطهم كانه كوكب دري قلت: يا رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الأئمة وهذا القائم الذي يحل حلالي ويحرم حرامي وبه انتقم من اعدائي وهو راحة لاوليائي وهو الذي يشفي قلوب شيعتك من الظالمين والجاحدين والكافرين.. نور الثقلين ٣: ١١٩ وفي الدر المنثور (٤: ١٥٣) اخرج ابن عدي وابن عساكر عن انس قال: قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله لما عرج بي رأيت على ساق العرش مكتوبا: لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه ايدته بعلي»!. ومنها النبيون والملائكة الذين صلوا وراءه في البيت المعمور: كما رواه القمي باسناده الى ابي جعفر عليه‌السلام قال: كما اسري برسول صلى‌الله‌عليه‌وآله الى المساء فبلغ البيت المعمور وحضرت الصلاة فاذن جبرئيل واقام فتقدم رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فصف الملائكة والنبون خلف محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله (المصدر ١٣٠).

[3]. مضى تحت الرقم ٢ ص ٧.

إن الملكوت هى حقيقة الملك وماهية تعلق الكون باللّه تعالى، وللملكوت درجات كما للملك درجات، وكما أن أهل المُلک والملكوت درجات فلكلٍ درجة تخصه دون سواه، او تعمه ومن معه فى درجته، وصاحب المعراج أرى الكبرى من درجات الملكوت: «لقد رأى من آيات ربه الكبرى» وابراهيم وأضرابه ممن دون صاحب المعراج أرى درجات أدنى منها، فانه صلى‌الله‌عليه‌وآله «بالافق المبين»: كل ما يمكن ان يبان، و«بالافق الاعلى»: أعلى الآفاق المعرفية أماهيه لحد ما لها من سباق.

ثم ان من الملكوت ما ترى اذ ينظر اليها، للناس كل الناس: «أولم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق اللّه من شيءٍ وأن عسى أن يكون قد اقترب اجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون»[1] «قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه».[2]

ومنها ما يختص بالمخلَصين من عباد اللّه كابراهيم: «وكذلک نرى ابراهيم ملكوت المساوات والأرض وليكون من الموقنين. فلما جن عليه الليل..»[3] ان افول الآفلين دليل لا مردَّ له على الفقر المطلق للكون وحقيقة تعلقه باللّه، إراءة ومعرفة على مدرجة ابراهيم الخليل عليه‌السلام.

ومنها ما يخص صاحب المعراج حيث دنى فتدلى فكاب قاب قوسين او أدنى، إذ تخطى الكون بملكه وملكوته، بعدما اكتمل الرؤية والمعرفة فيهما وبهما، وارى من آيات ربه الكبرى بصرا وبصيرة، ثم اراه ربه نفسه بأرفع درجات المعرفة الممكنة حيث دنى بالعلم[4] وتدلى بالتجاهل عن نفسه «ولولا ان روحه ونفسه كانت من ذلک المكان لما قدر ان يبلغه»[5] وكما قال صلى‌الله‌عليه‌وآله: «قربنى ربى حتى كان بينى وبينه كقاب قوسين أو أدنى»[6] «فلم يزل عن

---

[1]. ٧: ١٨٥.

[2]. ٢٣: ٨٨.

[3]. ٦: ٧٦.

[4]. الاحتجاج للطبرسي عن موسى بن جعفر عن آبائه عن الحسين بن علي عليه‌السلام قال:...

[5]. تفسير القمي باسناده الى الصادق عليه‌السلام اوّل من سبق الى بلى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌واله وذلك انه اقرب الخلق الى الله.

[6]. تفسير روح البيان ج ٩: ٣١٩ قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌واله: وفي الدر المنثور ٤: ١٥٨: اخرج الخطيب عن انس قال قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌واله: لما اسري بي الى السماء قربني ربي تعالى حتى كان بيني وبينه قاب قوسين او ادنى لا بل ادنى..».

موضع ولم يتدل ببدن»[1] «وكان بالمكان الذى قال له جبرئيل لما أسرى به الى السماء: «تقدم يا محمد! فقد وطئت موطئا لم يطأ ملك مقرب ولا نبى مرسل..»[2] فاين ملكوت من ملكوت! واين رؤية من رؤية واين معرفة من معرفة! فلم يدن احد ما دناه الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله **ولا جبرئيل الذى صاحبه فى شطر من سراه.[3]**

انه لم تكن سرى المعراج إلا تشريفا للرسول محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله **وللملائكة وسكان السماوات ولكى يريه** صلى‌الله‌عليه‌وآله **ما أراه[4] ويوحى اليه ما اوحاه.**

«إنه هو السميع البصير» ترى من هو السميع البصير هنا؟ ثم ما هى الصلة بين السميع البصير والرحلة المعراجية؟

قد يكون هو صاحب المعراج، فلأنه سميع يسمع الوحى الخاص فى السدرة بأذن قلبه «فاوحى الى عبده ما اوحى» ويسمع محادثات الملاء الأعلى بسائر أذنه، كما يبصر من آيات ربه الكبرى ببصره «لقد راى من آيات ربه الكبرى» ويبصر ربه ببصيرته، «ولقد رآه نزلة اخرى» لهذا وذاک اسرى به، حيث يسمع ما لا يسمعه غيره بسمعيه، ويبصر ما لا يبصره غيره ببصريه.

وقد «لا» حيث الرسول وإن كان سميعا بصيرا ولكن «هو» الفاصل هنا توحى بالحصر، ولا حصر فى السمع المطلق وبصره إلا فى اللّه، وان دخل فى ضمنها رسول اللّه، فلان اللّه

---

[1]. الاحتجاج للطبرسي في آية التدلي عن موسى بن جعفر عليهماالسلام.

[2]. تفسير القمي عن الصادق عليه‌السلام.

[3]. في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى عبدالسلام بن صالح الهروي عن علي بن موسى الرضا عليه‌السلام عن آباءه عن علي عليه‌السلام عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله في حديث طويل يقول في آخره: فلما انتهيت الى حجب النور قال لي جبرئيل: تقدم يا محمد! ان هذا انتهاء حدي الذي وضعه الله لي في هذا المكان فان تجاوزته احترقت اجنحتي لتعدي حدود ربي جل جلاله فزج بي زجة في النور حتى انتهيت الى حيث ما شاء اللّٰه عز وجل في ملكوته فنوديت: «يا محمد انت عبدي وانا ربك فاياي فاعبد وعلي فتوكل فانك نوري في عبادي ورسولي الى خلقي وحجتي في بريتي» نور الثقلين ٣: ١٢٥.

[4]. في كتاب التوحيد للصدوق باسناده الى يونس بن عبدالرحمن قال: قلت لابي الحسن موسى بن جعفر عليهماالسلام لاي علة عرج اللّٰه نبيه الى السماء ومنها الى سدرة المنتهى ومنها الى حجب النور وخاطبه وناجاه هناك واللّٰه لا يوصف بمكان؟ فقال: ان اللّٰه تبارك وتعالى لا يوصف بمكان ولا يجري عليه زمان ولكنه عز وجل اراد ان يشرف ملائكته وسكان سماواته ويكرمهم بمشاهدته ويريه من عجائب عظمته ما يخبر به بعد هبوطه وليس ذلك على ما يقول المشبهون سبحان اللّٰه وتعالى عما يشركون «نور الثقلين ٣: ٩٩».

سميع بصير يجعل رسوله سميعا فى معراجه بصيرا، بما يسمع من تطلبه، «رب زدنى علما» ويبصر من تأهله لهذه الرحلة المقدسة».

ثم «السميع البصير» للّه ليستا مثلهما فى سواه ف «لم يزل اللّه عز وجل ربنا والعلم ذاته ولا معلوم والسمع ذاته ولا مسموع والبصر ذاته ولا مبصر والقدرة ذاته ولا مقدور، فلما أحدث الأشياء وكان المعلوم وقع العلم منه على المعلوم والسمع على المسموع والبصر على المبصر والقدرة على المقدور...»[1] ف «هو سميع بغير جارحة وبصير بغير آلة، بل يسمع نفسه ويبصر بنفسه، ليس قولى: «انه يسمع بنفسه ويبصر بنفسه أنه شىء والنفس شىء آخر ولكن أردت عبارة عن نفسى اذ كنت مسئولاً، وافهاما لک اذ كنت سائلاً، واقول: يسمع بكله لا ان الكل له بعض ولكن أردت إفهامک والتعبير عن نفسى وليس مرجعى فى ذلک إلا الى انه السميع البصير، العالم الخبير بلا اختلاف الذات ولا اختلاف المعنى».[2]

فلقد «سمى ربنا سميعا لا بجزء فيه يسمع به الصوت لا يبصر به، كما أن جزئنا الذى نسمع به لا يقوى على النظر، ولكن أخبر أنه لا تخفى عليه الأصوات، ليس على حد ما سمعنا نحن، فقد جمعنا الإسم بالسميع واختلف المعنى، وهكذا البصر لا بجزء به ابصر كما انا نبصر بجزء منا لا نتتفع به فى غيره، ولكن اللّه بصير لا يجهل شخصا منظورا اليه، فقد جمعنا الإسم واختلف المعنى».[3]

وهكذا تكون صفات اللّه الحسنى كافة، مجردة عما لمن سواه من حدود وقيود، ما يجب سلبها عن اللّه، إذ تختص بمن سواه.

ترى ولماذا يوصف ربنا بالسميع البصير دون الثلاثة الاخرى: اللامس ـ الشام الذائق؟ علّه لأنها تختص بحواسها الثلاث دونهما حيث يعمان حسيهما بعضويهما من السمع والبصر

---

[1]. اصول الكافي باسناده الى ابي عبدالله عليه‌السلام نور الثقلين ٣: ١٣٣.

[2]. التوحيد للصدوق عن ابي عبدالله عليه‌السلام نور الثقلين ٣: ١٣٤.

[3]. المصدر عن الرضا عليه‌السلام وفيه باسناده الى محمد بن مسلم عن ابي جعفر عليه‌السلام قال: قلت: جعلت فداك يزعم قوم من اهل العراق انه يسمع بغير الذي يبصر ويبصر بغير الذي يسمع؟ قال: فقال: كذبوا والحدوا وشبهوا تعالى الله عن ذلك، انه سميع بصير، يسمع بما يبصر ويبصر بما يسمع، قال: قلت: يزعمون انه بصير على ما يعقلونه؟ قال: فقال: انما يعقل ما كان بصنعة المخلوق وليس الله كذلك.

المجردين، ثم السمع والبصر من كيفيات العلم دون الثلاثة الاخرى الخاصة بالحس، حيث لا ذوق ولا شم ولا مس وراء الحس.

فمن الاسماء ما يخصه لفظيا كمعناه: الرحمن ـ الخالق.. ومنهما ما يخص خلقه فيها: المريض ـ النائم ـ الذائق ـ اللامس ـ الشام... ومنها ما نشارك ربنا فى لفظه دون معناه: العالم ـ القادر ـ الحى ـ الموجود ـ السميع ـ البصير.

والضابطة العامة فى أسماءه أن تجرد عن معانى الخلق وصفاته الى ما يخصه إلها ليس كمثله شىء.

ثم هذه الرحلة المنقطعة النظير للبشير النذير التى تفوق كل زمان ومكان رحلة مختارة من اللطيف الخبير، وهى آية عجيبة من آيات اللّه، ليريه من آياته الكبرى، مهما كانت آية ـ فى هامشها ـ للمرسل اليهم، تفتح القلب على آفاق عجيبة فى الكون، وتكشف عن الطاقات المخبوءه فى كيان هذا الإنسان، والاستعدادات المنقطعة النظير التى يتهيأ بها لاستقبال الفيض المطلق من السميع البصير انه لطيف خبير.

«وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِى إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِى وَكِيلاً».[1]

كتاب موسى هو التوراة ولماذا هنا الكتاب بدل التورات؟ عله لمحة من «الكتاب» بما كتب فيه وفرض عليهم. كما الكتاب ككل هو كل ما يثبت ويُثبِت. وهل أوتيه موسى هدى لبنى اسرائيل دون سواهم؟ وهو ثالث أولى العزم من الرسل حيث تعم شرايعهم كافة المكلفين من الجنة والناس أجمعين، فكيف اختصت هدى موسى بعض الناس: بنى اسرائيل..؟

هذه الرسالة العظيمة كسواها من أولى العزم الخمسة الذين دارت عليه الرحى[2] تشمل المكلفين اجمع: «قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس..»[3] «يا موسى إنى

---

[1]. ١٧: ٢.

[2]. راجع ج ٢٦ ـ الفرقان ـ ص ٧٣ في ضوء آية اولي العزم.

[3]. ٦: ٩١.

اصطفيتک على الناس برسالاتی وبكلامی..»[1] فرسالة موسى وهداه بكتابه هی للناس كل الناس، والى فرعون وملائه: «ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون الى فرعون وملائه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين»[2] استكبروا مجرمين الا جماعة من ملائه السحرة: «فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى»[3] وإلا رجل من آل فرعون سوى السحرة: «وقال رجل من آل فرعون يكتم إيمانه..»[4]

وعل تركيزه هذه الرسالة العامة على بنی اسرائيل فی الكثرة المطلقة من مواردها، لأنهم كانوا هم أضعف المستضعفين فی الأرض، والرسالات الالهية تقصد المستضعفين اولاً لتخليصهم، ثم المستكبرين لإبعادهم عنهم ومن ثم هداهم أنفسهم ـ ثم من سواهم وهم القلة القليلة فی تاريخ الرسالات.

ونرى فی مثلث الدعوة للرسالات أن الزاوية الأولى هی القاعدة، ثم الثانية للإبقاء على هذه القاعدة ثم الثالثة لعموم الدعوة، ثم وتأثير الدعوة فی الأولى أولاً وفی الثانية ثانيا وفی الثالثة ثالثا، كما فی سحرة موسى ورجل من آل فرعون.

ثم السنة الرسالية تقتضی تركيزها على قوم الرسول أولاً ثم منهم الى سواهم: «وانذر عشيرتک الاقربين»[5] ثم أهل بلده ولا سيما الألد منهم «وتنذر به قوما لدا»[6] «لتنذر قوما ما أنذر آباءهم فهم غافلون»[7] ولا شک أن الرسالة المحمدية عالمية كما تنص عليها آياتها وتدلنا عليه غاياتها.

---

[1]. ٧: ١٤٤.

[2]. ١٠: ٧٥.

[3]. ٢٠: ٧٠.

[4]. ٤٠: ٢٨.

[5]. ٢٦: ٢١٤.

[6]. ١٩: ٩٣.

[7]. ٣٦: ٦.

فموسى وكتابه هدى لبنى اسرائيل أولاً[1] ولفرعون وملائه ثانيا، ولسائر الناس اخيرا.

﴿ألا تتخذوا من دونى وكيلاً﴾.

هل المخاطبون هنا هم بنو اسرائيل؟ وغيابهم فى «لبنى اسرائيل» يقتضى غيابهم هنا «ألا يتخذوا»! ام للمسلمين المخاطبين متنا فى وحى القرآن؟ وما هى الصلة بين هدى موسى وكتابه وألا يتخذ المسلمون من دون اللّه وكيلاً؟ وهدى موسى تختص أمته!.

المخاطبون هنا هم بنو اسرائيل الحضور زمن الخطاب وعلى طول الزمن بعده فان رسالة موسى منذ بزوغه كانت هدى لبنى اسرائيل السابقين على الدعوة الإسلامية، ألا يتخذوا هم ولا تتخذوا انتم من دون اللّه وكيلاً.

والإنتقال من الغيبة الى الحضور دأب يدأبه القرآن بمناسبات شتى.

وهل تُختصر رسالة موسى وتُحتصر فى «ألا تتخذوا من دونى وكيلاً» وفى كتاب موسى أحكام أصلية وفرعية شتى؟.

اقول: ككل كلا، وأما كأصل يركز عليه الكل فبلى حيث الآلهة العدة المعدة والوكالات الاخرى كانت فى بنى اسرائيل سنة دائبة، فلذلك أصبحت «الا تتخذوا من دونى وكيلاً» كأنها هدى موسى كلها لبنى اسرائيل، فان عليهم ان يتبنوها لهداهم ككل، دون ان يتفلت اصل من الشريعة عنها أو فرع.

ثم ولا تختص شرعة موسى بهذه الأصالة، فإنها تعم الشرايع كلها فان الوكالات فى أمر التكوين والتشريع ككل، وفى سائر الوكالات كأصل إنما هى للّه سبحانه وتعالى عما يشركون.

تأتى الوكالة بمختلف صيغها سبعين مرة فى الذكر الحكيم، محتصرة الربوبيات فى اللّه تعالى: ١ ـ ان له الحكم لا سواه: ﴿إن الحكم إلا للّه عليه توكلت﴾[2] ٢ ـ وسعة العلم: ﴿وسع ربنا

---

[1]. فضمير الغائب في «جعلناه» كما يرجع الى كتاب موسى كذلك الى موسى، فموسى بكتابه وكتاب موسى هدىً دون انفصال.

[2]. ١٢: ٦٧.

كل شيء علما على اللّه توكلنا»[1] ٣ ــ والرحمة العامة: «هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنـا»[2] ٤ ــ والهداية: «وما لنا ألا نتوكل على اللّه وقد هدانا سبلنا»[3] ٥ ــ والنصـرة: «وإن يخـذلكم فمـن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى اللّه فليتوكل المؤمنون»[4] ٦ ــ والعزة ٧ ــ والحكمة: «ومن يتوكل على اللّه فإن اللّه عزيز حكيم»[5] ٨ ــ والمانع عن الضرر: «وليس بضارهم شـيئا إلا بـإذن اللّـه وعلى اللّه فليتوكل المؤمنون»[6] ٩ــ وعن سيطرة الشيطان: «إنه ليس سلطان علـى الـذين آمنـوا وعلى ربهم يتوكلون»[7] ١٠ ــ وفى كل ما عند اللّه: «وما عند اللّه خير وأبقى للذين آمنوا وعلـى ربهم يتوكلون»[8] ١١ ــ وفى رجوع الأمر كله اليـه: «وإليـه يرجـع الأمـر كلـه فاعبـده وتوكـل عليه»[9] ١٢ ــ وفى سعة القدرة: ومطلق المُلك والملك: «وللّه ما فى السماوات ومـا فـى الأرض وكفى باللّه وكيلاً».[10]

ففى هذه الأمور تكوينيا وتشريعيا ينحصر التوكل على اللّه منحسرا عن سواه.[11] فلا توكـل إلا على اللّه ولا اتكالية فى الأمور على اللّه او سواه، ولا توكيل فى وكالـة غيـر اللّـه إلا ناقصـا ينحو نحو وكالة اللّه.

---

[1]. ٧: ٨٩.

[2]. ٦٧: ٢٩.

[3]. ١٤: ١٢.

[4]. ٣: ١٦٠.

[5]. ٨: ٤٩.

[6]. ٥٨: ١٠.

[7]. ١٦: ٩٩.

[8]. ٤٢: ٣٦.

[9]. ١١: ١٢٣.

[10]. ٤: ١٣٢.

[11]. راجع ج ٢٩ ـ الفرقان ـ ص ٢١٧ على ضوء الآية: فاتخذه وكيلاً.

حيث الإتكال على اى كان يعنى تخلى الإنسان عن أية محاولة فيما يتكل فيه، والبطالـة فـى اى أمر للإنسان فيه حول وقوة محظور، وحتى وان كان على اللّـه، كمـن لا حـراک لـه فـی الحصول على رزقه ويتكل على اللّه.

ثم التوكل على غير اللّه فيما يتوكل فيه دون اتكال يعنى أن غير اللّه كاف وليس به أيا كـان، وانما يتوكل على اللّه، ولا يعنى توكيل غير اللّه لا توكلاً عليه ولا اتكالاً، وانما مسـاعدة لـک فيما لا يسعه حولک أو قوتک، ثم عليكما موكلاً ووكيلاً التوكل علـى اللّـه فيمـا لا تقـدران عليه او تقدارن! «وكفى باللّه وكيلاً».

ف «ألا تتخذوا من دونى وكيلاً» تعم الوكالتين: ١ ـ فيما يختص باللّه كما مضى فى آياتـه ٢ ـ فى كل أمر يعمله لک متعاملا معک غير اللّه، أن تراه مستقلاً فى حوله وقوته عـن اللّـه، ام غير مفتقر فى بلوغ الغاية إلى اللّه وحتى فيما يبلغه الإنسان دون حاجة ظاهرة الى سواه.

«انه كان عبدا شكورا» عله علة الأمرين: ١ ـ ان اللّه حمل نوحـا والمـؤمنين معـه، ٢ ـ وانـه جعل دريته ومن حمل معه هم الباقين.

والشكور هى المبالغ فى الشكر حسب المكنة والإستطاعة كالعبد الشكور حيـث يشـكر فـى غاية العبودية، وهى البالغ فى الشكر بمقتضى الرحمة: «ومن يقترف حسنة نزد له فيهـا حسـنا إن اللّه غفور شكور»[1] وأن شكور من شكورا! على ان «وقليل من عبادى الشكور»[2] ولقـد كـان نوح صبارا شكورا أن عاش قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، قوما كفورا وهو صبار شكورا!

«ذرية من حملنا مع نوح انه كان بعدا شكورا»[3]

«ذرية» منصوبة على الإختصاص، أفهذه الذرية هم ـ فقط ـ بنو اسـرائيل؟ اذ «جعلنـاه هـدىً لبنى إسرائيل ذرية» وهم محط الدعوة الموسوية؟ وليسوا هم ـ فقط ـ ذرية مـن حملنـا، ولا تخصهم الدعوة الموسوية، وهم ذرية ممن حملوا مع نوح لا «ذرية مَن»!.

---

[1]. ٤٢: ٢٣.

[2]. ٣٤: ١٣.

[3]. ١٧: ٣.

أم هم بنو الإنسان من ذرية نوح طيلة الرسالة الموسوية؟ حيث «وجعلنا ذريته هم الباقين»:[١] فإن بنى الإنسان كافة بعد نوح هم ـ فقط ـ ولكنهم ذرية نوح، لا «مَن حملنا مع نوح» وقد حمل معه من ذريته ومَن آمن به: «اولئک الذين أنعم اللّه عليهم من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح»[٢] فلو كانوا هم ـ فقط ـ ذرية نوح كان «ومن ذرية نوح» ک «من ذرية آدم» فذرية آدم هم ـ فقط ـ ذرية آدم، وذرية من حملنا مع نوح هم من ذريته وسواهم ممن حملوا معه: «قلنا احمل فيها من كلّ زوجين وأهلک إلاّ من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلاّ قليل»[٣] واللمحة المستفادة من «مَن حملنا مع نوح» دون «ممن» تطارد احتمال أن بنى الانسان كافة بعد نوح إنما هم من ذريته. «ومن آمن» كانوا عُقما! والرواية تُحمل على المصداق الأوضح الأعرف، وآية «الباقين» لا تعنى ذريته الأولاد فحسب، وإنما من ركب سفينة النجاة: «ونجيناه واهله من الكرب العظيم» (٧٦) يا ترى هم فقط ولده وبعضٌ منهم لم يكن من أهله «إنه ليس من أهلک أنه عمل غير صالح»[٤] والمؤمنون القلة الذين ركبوا معه قد نجوا، فأهله هنا هم كل من حُمِل معه، وهم كلهم ذريته «وجعلنا ذريته هم الباقين»(٧٧) دون الهالكين: «ثم أغرقنا الآخرين»(٨٣) فالأولون هم أهله وذريته والآخرون هم الهالكون وإن كانوا من ذريته.[٥]

«وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِى إِسْرائِيلَ فِى الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِى الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّا كَبِيرا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادا لَنَا أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدا مَفْعُولاً».[٦]

قضاء صارم بفساد عارم الى بنى اسرائيل طول التاريخ الاسرائيلى منذ البداية فى الأرض

---

[١]. ٣٧: ٧٧.

[٢]. ١٩: ٥٨.

[٣]. ٤٠: ١١.

[٤]. ١١: ٤٦.

[٥]. فلو كان اهله وذريته ـ فقط ـ من نسله لكان الآخرون الهالكون هم الكافرون مع المؤمنين القلة الذين حملوا معه!.

[٦]. ١٧: ٤ ـ ٥.

مرتين تصحب أخراهما «علوا كبيرا» ١ ـ فما هى القضاء؟ ٢ ـ وما هو الكتاب؟ ٣ ـ واين هى أرض الإفساد؟ ٤ ـ وما هما المرتان؟ والعلو الكبير؟ ٥ ـ ومن هم «عبادا لنا» حيث يجوسون فى الأولى خلال الديار، ويسوئون وجوههم فى الثانيۀ؟.

إن القضاء ككل ـ هى فصل الأمر، وقد يختلف الأمر بفصله حسب اختلاف التعلقات: قضاه ـ فيه ـ عليه ـ له ـ به ـ إليه ـ منه ـ بين.

وهى بين فصل الأمر تكوينا او تشريعا او فعلاً او تحويلاً لنباءِ: «فقضاهن سبع سماوات فى يومين»[1] تكوينا ـ «وقضى ربک الا تعبدوا إلا إياه»[2] تشريعا ـ و«ايما الاجلين قضيت فلا عدوان على»[3] فعلاً ـ و«فمنهم من قضى نحبه»[4] اجلاً للموت وهو من فعل اللّه، ثم القضاء فيه: فى القضيۀ التى تقتضيها ـ وعليه: على المحكوم فيها، وله: المحكوم له، وبه: بالحكم المقضى، ومنه ـ من القاضى، وبين: بين المتقاضيين ـ سواءً فى التكوين او التشريع او فعل وأجل.

واما القضاء اليه: ـ رابع الأضلاع لمربع القضاء ـ فقد ينحصر فى تحويل أمرٍ تكونيا كالأجل: «ولو يعجل اللّه للناس الشر استعجالهم بالخير، لقضى اليهم اجلهم»[5] أو تحويلٍ لنباءٍ فصل محتوم ايحاءً، من مخلفات لسيآت: «وقضينا إليه ذلک الأمر ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين»[6] وقطع الدابر هذا من مخلفات اعمال قوم لوط المفسدين، حيث جزاهم اللّه بما أفسدوا، او هم تحويل نباءٍ فيه تهويل كما هنا: «وقضينا إلى بنى اسرائيل..» الحكم الفصل الإنباء اليهم فى الكتاب: التورات فلا هو تشريعى ولا تكوينى، وانما قضاء علمى من أهم الملاحم

---

[1]. ٤١: ١٢.

[2]. ١٧: ٢٣.

[3]. ٢٨: ٢٨.

[4]. ٢٣: ٢٣.

[5]. ١٠: ١١.

[6]. ١٥: ٦٦.

التاريخية المنقطعة النظير يوحى إلى البشير النذير!

وهل الكتاب هنا ـ فقط ـ التوراة حيث سبق ذكرها فى «واتينا موسى الكتاب»؟ ام كل كتابات الوحى الإسرائيلى؟ او كل ما كتبه اللّه من كتاب قبل القرآن؟ نجد نبأ القضاء على مطلق الإفساد بالمهدى عليه‌السلام **واصحابه فى عديد من كتابات الوحى: فى العهد العتيق والجديد وسواهما وقد يأتى نبأه فى ختام البحث.**

وأرض الافساد هى الأرض كلها، دون اختصاص بالقدس او فلسطين، حيث الصيغة الخاصة به هى «الأرض المقدسة»: ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب اللّه لكم﴾[1] ام ولا اقل «ارضا» حتى تخص جانبا من الأرض: ﴿اقتلوا يوسف او اطرحوه أرضا﴾[2] ﴿وأورثكم ارضهم وديارهم واموالهم وأرضا لم تطؤها﴾[3] ام «ارضكم» او «ارضنا» او «ارضهم» حتى تدل على اختصاص، دون «الأرض» والقائل هو اللّه خالق السماوات والأرض، لا انسان الأض الذى يسكن جانبا منها فيعنى من «الأرض» سكناه او ما يملكه منها ام ماذا؟

فصيغة الأرض من صائغها اللّه ليست لتعنى إلا الأرض كلها، أم والأرضين السبع: ﴿ومن الأرض مثلهن﴾[4] اللهم إلا بقرينة حاضرة تخصها، وليست هنا فلا اختصاص، فهو اذا إفساد ان فى المعمورة كلها.

وهل المرتان هما ـ بعد ـ قتل زكريا ويحيى عليهما‌السلام**؟[5] وقتل كل نبى افساد! وفى انبياء اسرائيل من هم أهم واعظم منهما! فاذ يعنى الإفساد قتل نبى فلماذا «مرتين» دون «آلالف مرات»؟ وقد كانوا يقتلون فى يوم سبعين نبيا أم ما زاد او نقص!**

---

[1]. ٥: ٢١.

[2]. ١٢: ٩.

[3]. ٣٣: ٢٧.

[4]. ٦٥: ١٢.

[5]. ولم يرد فيه رواية في التفاسير الاثرية للفريقين إلاّ روايات عن بعض الاصحاب او التابعين او المفسرين دون اي دليل اللهم الا ما رووه عن علي عليه‌السلام كما في الدر المنثور ٤: ١٦٣ ـ اخرج ابن عساكر في تاريخه عن علي بن ابي طالب رضى‌الله‌عنه في قوله: لتفسدن في الارض مرتين، قال: «الاولى قتل زكريا عليه‌السلام والاخرى قتل يحيى» وهي على كونها رواية يتيمة لا توجد في كتب احاديثنا مردودة بما ذكرناه في المتن.

فليكن الإفسادان فى الأرض شاملين كل المعمورة: إفسادا فى الأنفس قـتلاً وإضـلالاً، وفـى الحرث والنسل: اقتصاديا، ثقافيا ـ اخلاقيا ـ سياسيا وحربيا ام ماذا، حيـث يجعـل المعمـورة خربة بائرة لا تليق جوّا للحياة الإنسانية السليمة.

ان التاريخ الاسرائيلى على طوله هو تاريخ الفساد والافساد، كما فى تلمودهم[1] الا بعـض مـا كان زمن سلطات الرسالات الاسرائيلية السامية كموسى ويوسف وداود وسليمان واضـرابهم، ففى الأكثرية الساحقة زمانا ومكانا وانسانا كانوا مفسدين ليل نهـار، لا مـرتين ولا آلاف فـلا يحصيها الا اللّه!

ولكن الافساد ـ كما الاصلاح ـ العالميين لا يتيسران إلا فى منظمـة وسـلطة وقيـادة قويـة، ولكى تعلو كافة النشاطات المضادة من حكومات وشعوب.

والصهاينة المجرمون كانوا ـ وقبل سنين ـ شذاذ الآفاق متفرقين فى البلاد، ليست لهـم دولـة او دويلة، فما كانوا يستطيعون الإفساد فى الأرض، حيث كانوا تحت مختلف السلطات.

ولأول مرة فى تاريخهم شكلت دويلة فى فلسطين بما تآزرت الطاقات مـن شـراذمة الآفـاق والإستعمار الشرقى والغربى، وبما تساهلت او ساعدت دويلات عربية حتى احتلت فلسـطين لحد غربى نهر الأردن وكما يروى عن النبى صلى‌الله‌عليه‌وآله «يقاتل بقيتكم الدجال على نهـر الأردن، أنتم شرقى النهر وهم غربيه».[2]

فلقد اختلقت دويلة العصابات الصهيونية منذ زهاء اربعين سنة، ثم احتلت بلادا اخرى ضمتها

---

[1]. واليهود اليوم هم الذين يديرون العالم كما يشاءون، يقوم الفيلسوف منهم فيحرك العالم بما يختلقه، جاء في التلمود وهو ملخص دين اليهود تفسيرا للتورات «ان اللّه فرقنا في الامم لانه يعلم اننا شعبه وابناءه وان العالم الانساني كله خدم لنا، والإنسان كله برزخ بيننا وبين البهائم نستعملهم للتفاهم بيننا وبين الحيوانات، فعلينا ان نجعلهم متشاكسين متقاتلين متعادين ونتدخل في سياساتهم ونجعلهم في حرب وخلاف دائمين لنربحهم في ضعفهم، ونزوح بناتنا لعظمائهم ونتدخل وندخل في كل دين لنفسده على اهله وتكون لنا السيادة على هذا الانسان الذي سخره اللّه لنا».
ولقد عملوا ما املوا وبلغوا ما املوا حيث اسسوا البلشفية في روسيا ومنهم لنين، وماركس الالماني الذي هو اصل البلشفية يهودي. ورؤساء جماهير امريكا كلهم من اليهود او عملائهم، وكذلك كفار الغرب والشرق الطواغيت وزعماء مستسلمين من المسلمين هم من عملائهم كما نراهم اليوم يعملون لصالح الصهيونية العالمية.

[2]. الطبقات ۷: ٤٢٢ عن السكوني قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله اقول: الدجال هنا هو اسرائيل شر دجال طول التاريخ، ونهر الأردن بين فلسطين والاردن، ونرى الآن ان غربي النهر محتل اسرائيلي والمسلمون في شرقيه، ولم يسبق لحد الآن في التاريخ الاسلامي احتلال الاراضي الغربية لنهر الاردن من قبل غير المسلمين الا قبل سنين من قبل الدجال الاسرائيلي ومن الطريف جدا صدق الصفة الخاصة للدجال المعروف في قائد الحرب الاسرائيلي ب موشي دايان فانه ممسوحة العين.

إليها بعد سنين بما فيها القدس، ثم اخيرا اعلنت ان القدس عاصمة اسرائيل، ثالوث منحـوس من إفسادهم العالمى الأول، انطلاقا من فلسطين، واطلاقا الى المعمورة كلها وحتى متـى؟ لا ندرى.

هذه هى المرة الأولى من إفسادهم مرتين، وطبعا لا علو كبير ـ على علوه ـ فان كبيره للثانيـة، وفى الأولى يساعدها او ينضم اليها او يستجيبها ويحرضها سائر سواعد الكفـر والفسـاد فـى المعمورة، لا سائر اليهود والنصارى وسواهم من الكفار والملاحدة والمشركين فحسب، بـل، وممن يتسمون المسلمين وايضا: من دويلات خليجية أماهيه التى هى ويلات علـى الإسـلام والمسلمين العائشين تحت نيرهم، وكما نراهم يساعدون البعث الكافر ضـد ايـران المسـلمة التى رفعت ولأول مرة فى تاريخ الإسلام ـ راية الجمهورية المجيدة الإسلامية، فجنـد الكفـر جنوده من مشارق الأرض ومغاربها على الحدود العراقية الايرانية ولكى يربح صِـدام صـدام على هذه الجمهورية المباركة وتتخلص من حكم الإسلام الصارم.[1]

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادا لَنَا أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُـوا خِـلاَلَ الـدِّيَارِ وَكَـانَ وَعْدا مَفْعُولاً﴾.[2]

وعد الأولى هو موعد الانتقام منهم فى المرة الأولى مـن إفسـادهم العـالمى، حيـث تشـمل زبانيته مشارق الأرض ومغاربها.

وعلنا نعيش الآن فى وعد الأولى، فى بداية قضينا فيها على المكية الجبارة فى ايران، واخـذنا فى محاربة المستعمرين شرقيين وغربيين فارسلوا علينـا ذنبـا مـن أذنـابهم احمـق واشـرس عملائهم «صدام».

يا ترى من هم «عبادا لنا» غيرنا ومن يلحق بنا ويستجيبنا من المسلمين الغيارى الاحرار؟ هـل

---

[1]. لقد جاءتنا أنباء موثقة من جيشنا الباسل الاسلامي في المحمرة: خونين شهر، وسواها من الحدود الايرانية العراقية ان المساعدات في شتى الحاجيات الحربية تأتي للعراق من ١٠٦ دولة، وان المحاربين في خطوط النار ضد الجمهورية الاسلامية الآن من (٢٥) دولة شرقية وغربية.
نقل لي جماعة من هؤلاء اننا اسرنا في المحمرة (٣٥) منهم وكانوا من (١٧) دولة كمصر والاردن والسعودية والمغرب وامريكا وانكلترا وروسيا وفرنسا واسرائيل و...، وان المحاربين الاردنيين في الجبهات بلغوا زهاء ٤٠/٠٠٠ نفرا، وهكذا يجند الكفر جنوده ضد جمهوريتنا، اللهم انصرنا عليهم بالمهدي وآبائه الطاهرين عليهم‌السلام.

[2]. ١٧: ٥.

هم بعدُ بخت النصر الوثنى مع جنوده الوثنيين ام هم من خيرة عباد اللّه الصالحين؟.

إن هذه الصيغة سائغة لعباد اللّه الخصوص، مصوغة لمن يختصون عبوديتهم وعبادتهم باللّه دون سواه، ففى العباد المعصومين نجد هكذا فرادى ك «عبده زكريا»[١] و«عبدنا داود»[٢] و«عبدنا ايوب»[٣] و«نوح»[٤] وك «عبده» الرسول الأعظم محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله كما هنا، وجماعات: «واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب اولى الأيدى والابصار. إنا اخصلناهم بخالصة ذكرى الدار. وإنهم عندنا لمن المصطفين الاخيار»[٥]

ثم ونجد «عبادا لنا» فيمن دون المعصومين صيغة مختصرة منقطعة النظير تخص هؤلاء المبعوثين مرتين لدحر السلطات الصهيونية، طالما «عبادى» يعمهم وسواهم من المكرمين: «يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا انتم تحزنون»[٦] «فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه»[٧]

وكما فى مثلث العباد «عبادنا» هم المصطفون: «ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن اللّه. ذلك هو الفضل الكبير»[٨] حيث السابق بالخيرات من العباد هم «عبادنا» والظالم لنفسه «عباد الشيطان» والمقتصد بين ذلك عوان، ونحن لا نجد فى الطول التاريخى والعرض الجغرافى الإسلامى «عبادا لنا» خيرا من المسلمين الثوار الايرانيين بمن يلحق بهم ويستجيبهم من سائر المسلمين فى هذه

---

[١]. ١٩: ٢.

[٢]. ٣٨: ١٧.

[٣]. ٣٨: ٤١.

[٤]. ٥٤: ٩.

[٥]. ٣٨: ٤٧.

[٦]. ٤٣: ٦٨.

[٧]. ٣٩: ١٧.

[٨]. ٣٥: ٣٢.

المعركة المصيرية بين مطلق الإسلام ومطلق الكفر، اللهم إلا بعضا ممن كانوا مع الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله **وعلى والحسين** عليهم‌السلام**ام من ذا؟ ولكنهم عاشوا قبل المرتين من الإفسادين العالميين، ونحن نعيش المرة الأولى منهما، فلنكن نحن «عبادا لنا» وقد يعبِّر عنهم الرسول** صلى‌الله‌عليه‌وآله **باخوانه فوق اصحابه! فى قوله** صلى‌الله‌عليه‌وآله: **«اللهم لقنى إخوانى»[1] «ويا ليتنى قد لقيت اخوانى»[2] وهم رفقاءه** صلى‌الله‌عليه‌وآله[3] **«الواحد منهم له اجر خمسين منكم».[4]**

ولئن قلت إن هؤلاء حسب النص يبعثون «اذا جاء وعد اولاهما» وأنى لكم انكم فى زمن وعد الأولى وعقابها وإفساد هذه المرة بعد لم يشمل المعمورة كلها حتى يحين حين وعدها. علة لأن المرة الأولى بادئة منذ زمن، ولان فى وعدها يبعث «عبادا لنا» وتصدق هذه الصغية لأول مرة علينا، فلنكن نحن هم، وإلا فليقل «عبادا لنا» كذا وكذا حتى لا يشملنا، ثم البعث آخذ فينا موقعه لما قطعنا ذنبا طويلاً من أذناب اسرائيل «الشاه» ونعيش الآن قطع أذناب اخرى حتى نصل الى صاحب الأذناب «اسرائيل».

فكما أن إسرائيل تفسد فى الأرض بأذنابه، بخيله ورجله، برجاله ورجّاله من مشارق الأرض

---

1. البحار ٥٢: ١٢٣ ـ ٨ ير باسناده عن ابي بصير عن ابي جعفر عليه‌السلام قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله، ذات يوم وعنده جماعة من اصحابه: «اللهم لقني اخواني» مرتين ـ فقال من حوله من اصحابه: اما نحن إخوانك يا رسول اللّه؟ فقال: لا ـ إنكم اصحابي واخواني قوم في آخر الزمان آمنوا ولم يروني لقد عرفنيهم اللّه باسمائهم واسماء آبائهم من قبل ان يخرجهم من اصلاب آبائهم وارحام امهاتهم، لاحدهم بأشد بقية على دينه من خرط القتر في الليلة الظلماء، او كابعابض على جمر الغضاء اولئك مصابيح الدُجى، ينجيهم اللّه من كل فتنة غبراء مظلمة.
وفيه ١٢٢ ٤ ـ ج عن ابي حمزة الثمالي عن ابي خالد الكابلي عن علي بن الحسين عليه‌السلامقال: تمتد الغيبة بولي اللّه الثاني عشر من اوصياء رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله والأئمة بعده. يا ابا خالد! ان اهل زمان غيبته القائلون بامامته، المنتظرون لظهوره افضل اهل كل زمان، لأن اللّه تعالى ذكره اعطاهم من العقول والافهام والمعرفة ما صارت به الغيبة عندهم بمنزلة المشاهدة، وجعلهم في ذلك الزمان بمنزلة المجاهدين بين يدي رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله بالسيف، اولئك هم المخلصون حقا وشيعتنا صدقا والدعاة الى دين اللّه سرا وجهرا، وقال: «انتظار الفرج من اعظم الفرج».
وفيه (١٢٥) ١٢ ـ ك: عن الصادق عليه‌السلام عن آبائه قال قال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله لعلي عليه‌السلام: «يا علي! واعلم ان اعظم الناس يقينا قوم يكونون في آخر الزمان لم يلحقوا النبي وحجب عنهم حجة فآمنوا بسواد في بياض».

2. ١٣٢ ٣٦ ـ جاء باسناده عن عوف بن مالك قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ذات يوم: يا ليتني قد لقيت اخواني...».

3. المصدر ١٢٩ ٢٥ غط باسناده عن ابي عبداللّه عليه‌السلام قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: طوبى لمن ادرك قائم اهل بيتي وهو مقتد به قبل قيامه يتولّى وليه ويتبرء من عدوه، ويتولى الأئمة الهادية من قبله، اولئك رفقائي وذووا ودّي ومودتي واكرم امتي علي (واكرم خلق اللّه عليّ).

4. الغيبة للطوسي ٢٩٠ عن ابي عبداللّه عليه‌السلام قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله سياتي قوم من بعدكم الرجل الواحد منهم له اجر خمسين منكم قالوا يا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله نحن كنا معك ببدر وأحد وحنين ونزل فينا القرآن؟ فقال: انكم لو تحملتم لما حُمِّلوا لم تصبروا صبرهم.

ومغاربها، فليكن الإنبعاث فى «عبادا لنا» نابعا منا نابغا كأصل، ومستأصلاً كل الفساد بمن يستجيبنا من مسلمى المعمورة الاحرار.

لهؤلاء الثوار الأماجد حسب النص مثلث من الميزات: ١ ـ «بعثنا..» ٢ ـ «عبادا لنا» ٣ ـ «اولى باس شديد» والنتيجة: «فجاسوا خلال الديار» حيث يحققون الوعد: «وكان وعدا مفعولاً»!.

والبعث الربانى ولا سيما فى جمعية الصفات «نا» يعنى بعثا ربانيا ايمانيا صامدا صارما كالبعثات الرسالية. فالبعث الصهيونى فى الإفساد العالمى يتطلب بعثا ربانيا يكافئه فى الإصلاح العالمى: بعث عتيد فيه باس شديد!، ومن قبل تأذن اللّه نوعية هذا البعث: «واذ تأذن ربک ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربک سريع العقاب وانه لغفور رحيم»:[1] سلسلة من عباد اللّه الصاحلين فى حلقات متواصلة متفاصلة طول التاريخ الإسرائيلى لمن يسومهم سوء العذاب، ثم ويختص «عبادا لنا» بأخلصهم فى هذا البين وأشدهم بأسا حيث يقضى بهم على الإفسادين العالميين.

فمن هؤلاء الخصوص؟ هم «قوم يبعثهم اللّه قبل خروج القائم فلا يدعون وترا لآل محم إلا اخذوه[2] قتلوه[3] وتفجرة هذه البعثة المظفرة علّها من قم ف «هم واللّه اهل قم»[4] بمن يقودهم من رجله القائد الأعظم الخمينى نصره اللّه وكما يروى عن الإمام الرضا عليه‌السلام: «رجل من اهل قم..».[5]

هؤلاء هم الأولون فى وعد الأولى، ثم الآخرون فى وعد الثانية «هم القائم عليه‌السلام واصحابه».[6]

---

[1]. ٧: ١٦٧.

[2]. تفسير البرهان عن العياشي عن الامام صادق عليه‌السلام والوتر بفتح الواو وكسره: الفرد او ما لم يتشفع والذحل او الظلم فيه هو المقصود هنا.

[3]. تفسير نور الثقلين ٣: ١٨ عن روضة الكافي عن الامام الصادق عليه‌السلام في تفسير قوله تعالى: «بعثنا عليكم عبادا لنا...».

[4]. تاريخ قم تاليف حسن بن محمد القمي نقلاً عن جماعة من اصحاب الامام الصادق عليه‌السلام قالوا: كنا حضورا عنده عليه‌السلام فتلا: «حتى اذا جاء وعد اولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا...» قلنا: جعلنا فداك من هؤلاء؟ قال: هم واللّه اهل قم.

[5]. ياتي تفصيل هذا الحديث.

[6]. نور الثقلين عن تفسير العياشي عن حمران عن ابي جعفر الباقر عليه‌السلام.

ف «عبادا لنا» يقتسمون الى من «جاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولاً» ومن ثم من «ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه اول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا» وكما الإفساد الثانى اقوى وعلوه أعلى من الأول واشجى، كذلک «عبادا لنا» فيه هم أحق واحرى، كما أن قائدهم المهدى عليه‌السلام إمام لقائد المرة الأولى ولكافة المكلفين ـ اللهم عجل فرجه وسهل مخرجه.

ثم لا نجد البعث فى آياته إلا بعث الرسل او بعث الاموات فالثانى تكوينى والأول تشريعى يعم المرسلين دون سواهم، اللهم إلا من ينحوا منحاهم كطالوت: «إن اللّه قد بعث لكم طالوت ملكا»[1] اللهم إلا من يسومهم سوء العذاب دوما وأخيرا الا «عبادا لنا» أخصاء ثم لا بعث إلا رساليا إلا فى الغراب: «فبعث اللّه غرابا يبحث فى الأرض»[2] خارجا عن الشرعة التشريعية.

وذلک البعث أيا كان، رسوليا او رساليا فى غير الرسل يتضمن حركة قوية صارمة تقضى على الحياة العارمة، فكما أن بعث الاموات يحييهم، كذلک ذلک البعث يحيى ميت البلاد، ويحرر مستضعفى العباد عن سلطان الطواغيت بصورته العامة المستمرة ب «من يسومهم» والخاصة بالمرتين ب «عبادا لنا».

ثم «عبادا لنا» هى ک «بعثنا» تخصهم دون سواهم! وكذلک «باس شديد» اذ لا نجدها إلا فى الحديد: «وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد»[3] ام فى بأس اللّه: «واللّه أشد بأسا وأشد تنكيلاً»[4] اللهم إلا فيما يدعيه من لا يصدَّقون: «قالوا نحن اولوا قوة واولوا بأس شديد»[5] وقد تبين أن بأسهم بائس أمام بأس سليمان عليه‌السلام واخيرا من يحذَّر المخلفون من الاعراب عنهم: «قل

---

[1]. ٢: ٢٤٧.

[2]. ٥: ٣١.

[3]. ٥٧: ٢٥.

[4]. ٤: ٨٤.

[5]. ٢٧: ٣٣.

للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم اولى بأس شديد تقاتلونهم او يسلمون..»[1] وهذا هو البأس الشديد لأعداء الإسلام منقطع النظير فى التاريخ وعله بأس اليهود فى المرتين،[2] يقابله بأس شديد من «عبادا لنا» بأس شديد ببأس شديد، واين شديد من شديد، ثم لا نجد شديدا للمصلحين فى تاريخ الرسالات ام للمفسدين إلا هذا وذاک.

فهذا المثلث المجيد، المنقطع النظير بزواياه، يقضى على الصهاينة المجرمين، حيث يجوسون خلال الديار.

«.. فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدا مَفْعُولاً».

فالجوس هو الطلب باستقصاء فى تردد حتى يتوسط المطلوب، وهؤلاء المؤمنون الاشداء يطلبون اولئک المفسدين فى المرة الأولى باستقصاء وتردد خلال ديارهم وسائر الديار، دارا بعد دار ليجازوهم ما افسدوا ويستأصلوهم ما وجدوهم، ونحن هم انشاء اللّه! حيث لا ندع وترا لآل محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله إلا أخذناه او قتلناه، والصهيونية العالمية بمن معها من كفرة البلاد او مسلميهم المستسلمين، هم كلهم وتر لآل محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله ونحن ـ باذن اللّه ـ سوف نطأ ما فيها ومن فيها بلا تهيب! وإننا فى هذه المرة ندخل المسجد الاقصى منتصرين وكما فى آى الانتصار الثانى «وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة..»!.

«ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمْ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرا * إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لاَِنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الأخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرا».[3]

هذه الآيات من الملاحم الغيبية الثانية إنباء هاما من آخر الزمن، حيث الظلم والفساد يعم المعمورة كلها على سلطة عالية صهيونية عالمية وعملائها وأذنابها فى مشارق الأرض ومغاربها، ومن ثم يقضى على هذه السلطة بفرقة ثانية هى أسنى وأسمى من الأولى من

---

[1]. ٤٨: ١٦.

[2]. راجع سورة الفتح الجزء ٢٦ من الفرقان ص ١٨٢ على ضوء آية البأس الشديد.

[3]. ١٧: ٦ ـ ٧.

«عبادا لنا» وهم القائم عليه‌السلام واصحابه وتتحقق الدولة الأخيرة‌الإسلامية العالمية والى يوم القيامة.

إن لقيام صاحب الأمر شرطين اساسيين سلبا وايجابا كما هما لهذه الدولة الإسلامية ب «عبادا لنا» قبلها، فالسلبى هو سلب الحق والعدل عن المعمورة بمن يعيثون فى الأرض فسادا، والايجابى هو تحصُّل «عبادا لنا» تبلورا من مسلمى المعمورة المجاهدين المناضلين، ولكى يحصل جند المهدى الأصلاء العشرة آلاف، وأصحاب ألويته الثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً حيث يقودون الوية الدولة المهدوية وهم من أقسام مملكته فى كل المعمورة.

عمال الناحية السلبية لتأسيس هذه الدولة هى الصهيونية العالمية واضرابها وكما فى المرة الأولى، وعمال الناحية الايجابية لها هم خيرة من «عبادا لنا» كما فى الأولى، اشداء خيرين وجاه اشداء شريرين.

وكما ان الصهيونية العالمية تعمل وتتعامل فى عيث الإفساد العالمى فى المرتين هاتين ـ وعلى طول الزمن ـ فضرورة المكافحة الإسلامية تقتضى النضال المكافح المتغلب من مسلمى المعمورة تبلورا فى «عبادا لنا» فى المرتين هاتين ـ وعلى طول الزمن ـ لتكون كلمة اللّه هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى: «ولولا دفع اللّه الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن اللّه ذو فضل على العالمين»[1] وإذا الأرض فسدت حيث «عبادا لنا» يستضعفون ولا يناصرهم امثالهم من مسلمى البلاد، فعليهم ان يثوروا ويفوروا جميعا ولكى يجوسوا خلال الديار ويسوءوا وجوههم، «وكان وعدا مفعولاً».

فهناک على طول الخط «من يسومهم سوء العذاب» بعثا الهيا الى يوم القيامة، ثم «عبادا لنا» فى مرتى الإفساد العالمى، كما ـ علّنا ـ نعيش الآن أولاهما وتتلوها الثانية بقيام صاحب الأمر صلوات اللّه عليه.

ونباء وملاحم السلطة الصهيونية فى غلبهم وأنهم سيغلبون وفيرة عن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌واهل بيته الكرام، نستعرض هنا منها نماذج:

---

[1]. ٢: ٢٥١.

قال صلى‌الله‌عليه‌وآله: «لتقاتلن اليهود فلتقتلنهم حتى يقول الحجر يا مسلم هذا يهودى فتعال فاقتله»[1] وهذا يشمل مرتى الوعد فى افساديهم العالميين.

وقال صلى‌الله‌عليه‌وآله: «تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم حتى يقول الحجر يا مسلم هذا اليهودى من ورائى فاقتله».[2]

وقال على عليه‌السلام: «ثم ليستعملن عليكم اليهود والنصارى حتى تنفوا ـ يعنى الى اطراف الأرض ـ ثم لا يرغم اللّه إلا بآنافكم ثم واللّه ليبعثن اللّه رجلاً منا اهل البيت يملأها عدلاً وقسطا كما ملئت ظلما وجورا».[3]

ولا واقع لهذه الملحمة طول التاريخ الإسلامى لمثناه الاستثمار والاستعمار اليهودى النصرانى إلا عند احتلال فلسطين بما تناصرا وتعاضدا ـ وتخاذل المسلمون ـ حيث نفى الفلسطينيون الى اطراف الأرض، ومن ثم سائر المسلمين بين منفيين عن أراضيهم او عن سلطاتهم الإسلامية، عائشين تحت السلطة الصهيونية الصليبية، ثم السلطة الإسلامية عليهما مرتان اخراهما هى العالمية الكبرى الدائبة، كما الإفساد الثانى عالمى، وهذه الخطبة تبشر بالثانية، وسائر ما ننقله من الملاحم شاملة لهما.[4] او تخص الثانية.[5]

وكما الآيات الأولى انذرت بالمرة الأولى فى الافساد العالمى ثم بشرت ان «عبادا لنا» يجوسون خلال الديار كذلك هذه الثانية تنذر أشد من الأولى وتبشر ببشارة فوقها.

إنذارات وتبشيرات جزاء وفاقا والعاقبة للتقوى:

---

[1]. صحيح مسلم ج ٨ ص ١٨٨ والبخاري ٢: ١٧١.

[2]. سنن الترمذي ص ٣٢٥.

[3]. الكني للدولابي ج ٢ ص ١٥٧ عن شيخ من النخع سمعت عليا عليه‌السلام يقول وهو على المنبر:...

[4]. ومنها اضافة الى ما مضى في الرقم ١ و٢ ما رواه احمد في مسنده (٢: ٤١٧) عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبىء اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر او الشجر يا مسلم يا عبدالّله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله..».

[5]. في الفائق ٢: ٢١٩ ـ غر خطب الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله فذكر الدجال وقتل المسيح له قال: فلا يبقى شيء مما خلقه الّله تعالى يتوارى به يهودي الا انطق الّله ذلك الشيء لا شجر ولا حجر ولا دابة فيقول يا عبدالّله المسلم هذا يهودي فاقتله الا الغرقدة فانها من شجرهم فلا تنطق، ولا ترفع الشحناء والتباغض وتنزع حُمةُ كل دابة حتى يُدخل الوليدة في فم الحنش فلا يضره».

فمربع الانذار: ١ ـ لتفسدن، ٢ ـ ثم رددنا.. ٣ ـ وامددناكم.. ٤ ـ وجعلناكم..

ومربع: ١ ـ فجاسوا، ٢ ـ ليسؤوا وجوهكم، ٣ ـ وليدخلوا المسجد، ٤ ـ وليتبروا..

هذا مربع التبشير بفضل اللّه ورحمته، فترى كيف يضيف اللّه الى نفسه ثالوثا من الإنذار؟.

عله حتى لا يقال أنهم غالبون على أرادة اللّه حيث يكرون على «عبادا لنا» المبعوثون من اللّه، ذلک بان اللّه لا يحول دون ثالوثهم جبرا عليهم فی حولهم وحِيَلهم حيث الدار دار الاختيار وليس الإجبار، ومجرد أنه لا يحول بينهم وبين كرتهم هذه يسمح بهذه الإضافة «رددنا..» وكما فی اضرابها: ﴿إنا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا﴾[1] ﴿وكذلک جعلنا فی كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها﴾[2] ﴿وكذلک جعلنا لكل نبيٍّ عدوا شياطين الإنس والجن﴾[3] إرسال وجعل تكوينی فی اختيار دون اجبار[4] لا تشريعی حيث الأمور كلها راجعة الى اللّه وصادرة عنه، وكما يليق بساحة قدسه دون تغلب لأحد على اللّه لا فی خير ولا فی شر.

إن الإمهال الالهی لعمال الإفساد إمتهان واستدراج للمفسدين وامتحان للمؤمنين: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾.[5]

وتلكم الكرة الأخيرة على «عبادا لنا» علها ليست لأنهم يتساهلون فی نضالهم. وإنما لتقللهم فی عِدتهم وعُدتهم، وتعلل من تتوجب عليهم نصرتهم من مسلمی البلاد من ناحية، ثم

---

[1]. ١٩: ٨٣.

[2]. ٦: ١٢٣.

[3]. ٦: ١١٢.

[4]. فاذلا مؤثر في الوجود إلا اللّه فكل اثر وتاثير فيه اذنٌ من اللّه، فان كان خيرا فالاذن في مثلث: التشريعي ـ التكويني توفيقا والتكويني في الجزء الاخير من العلة التامة، وان كان شرا فالاخير فقط، بعدما قدم المكلف كل حوله وقوته ولم يبق من مقدمات فعله الا اذنه تعالى تكوينا، فان لم ياذن اذا اصبح المكلف مسيرا مجبورا في ترك الشر، وان اذن حيث يجعل المكلف مجبورا في فعل الشر كان ظلما، والعدل العوان بين ذلك هو أن يكون اذنه تعالى بعد تكملة مشيئة المختار بما قدم من مقدمات اختيارية، فهو تعالى ياذن هنا كجزء من اجزاء العلة التامة، وما دام الفعل مسنودا الى اختيار من الفاعل وان كان واحدا بالمائة من مقدماته يعتبر ذلك الفعل اختياريا، وان كان العقاب والثواب حسب درجات الاختيار فان افضل الاعمال احمزها.
فاذ ينسب اللّه شرا الى نفسه لا يعني إلا سلبا وايجابا: انه لم يحل بين العبد وشره «ويذرهم في طغيانهم يعمهون» وانه اذن له اخيرا في فعله تكوينا لا ينافي الاختيار، فليس اللّه فاعلا لشره ولا معاونا له شريكا في شره. وانما لم يمنع اجبارا واذن له اختيارا: اذن في اختياره السوء ان يتحقق ما يريده باختياره السوء، «وما اللّه يريد ظلما للعباد».

[5]. ٢١: ٣٥.

أخرى الإنتفاضة العامة من الصهيونية المتبقية خلال الديار، بمن يستجيب لهم من سائر الكفار، حيث يجند الشيطان جنده ويحزب حزبه للمرة الثانية والاخيرة ويضاف الى الإفساد العالمى من الصهيونية العالمية علو كبير، حيث الإفساد فى الأرض مرتان والعلو مرة واحدة وهى فى الثانية: «لتفسدن فى الأرض مرتين. ولتعلن علوا كبيرا» لا علوين، وهو فى الافساد الثانى، اذ هم فيه «أكثر نفيرا»!.

وترى كيف بامكان اليهود هذان الإفساد ان العالميان والعلو العالمى فى الاخير، وهم مضروب عليهم بالذلة والمسكنة؟ وهل الدولة القوية والسيطرة العالمية بعدُ ذلة ومسكنة، وهم ممدود لهم بأموال وبنين وهم بعدُ اكثر نفيرا؟! واللّه تعالى يبعد المسلمين فى تصريحه قاطعة: «لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوهم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون»؟.[1]

بلى! إنهم مضروب عليهم بالذلة حيث ما ثقفوا إلاّ بحبل من اللّه وحبلٍ من الناس، و«لن يضروكم إلاّ اذى» ولكن شريطة تحقيق شروطٍ من اللّه وكما قال اللّه: «يا ايها الذين آمنوا إن تطيعوا فرقا من الذين كفروا يردوكم عن ايمانكم كافرين * .. ومن يعتصم باللّه فقد هدى الى صراط مستقيم * يا ايها الذين آمنوا اتقوا اللّه حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون * واعتصموا بحبل اللّه جميعا ولا تفرقوا.. * ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئک هم المفلحون * ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات واولئک لهم عذاب عظيم.. * كنتم خير أمة أخرجت الناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون باللّه.. * لن يضروكم إلاّ اذىً وإن يقاتلوكم يولّوكم الأدبار ثم لا ينصرون * ضُربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلاّ بحبل من اللّه وحبل من الناس وباءوا بغضب من اللّه وضُربت عليهم المسكنة ذلک بأنهم كانوا يكفرون بآيات اللّه ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلک بما عصوا وكانوا يعتدون».[2]

فهناک ذلة بترک الحبلين ومسكنة على اية حال لكفرهم بآيات اللّه وقتلهم الأنبياء بغير حق

---

[1]. ٣: ١٠٨.

[2]. ٣: ١٠٩.

ذلک بما عصوا وکانوا یعتدون، فلو أنهم تمسکوا بـالحبلین لزالـت عـنهم الذلـة والمسـکنة تماما، أو انهم تمسکوا بحبل واحد وکما هم متمسکون الآن بحبلٍ من النـاس[1] لزالـت عـنهم الذلة علی حدِّ تمسُّکهم وتماسکهم مع بعض، ثم المسکنة هی حالة الإحتیاج وان کـانوا فـی غنیً ظاهریة اقتصادیا وکما هم لزامهم هذه الحالة وان ملکوا ثروات العالم.

ثم المسلمون المخاطبون «لن یضروکم» انما هم المخـاطبون بسـابقة الآیـات الصـابغة لهـم بصبغة : ١ ـ الا یطیعوا الکفار ٢ ـ ویعتصموا بحبل اللّه جمیعا وهو الإعتصام بالحبلین جمیعا ٣ ـ ویتقوا اللّه حق تقاته ٤ ـ ویعتصموا باللّه ٥ ـ وتکن فیهم أمة داعیة آمـرة ناهیـة ٦ ـ ولا یتفرقوا!.

واما المسلمون المستسلمون أمام الإستعمار الکافر، التارکون للحبلین، ام ماذا؟ ممـا خوطبـوا به فی هذه الآیات فلا یصدق لهم «لن یضروکم» فالمتمسک بحبـل واحـد وان کـانوا هـودا یتغلب علی تارک الحبلین وان کانوا مسلمین، وکما انتصرت اسرائیل علی المسلمین العـرب المستسلمین حیث انتکس هؤلاء عن حقیقة إسلامهم وتمسک الیهود بحبل مـن النـاس فیمـا بینهم انفسهم بتدعیم الوحدة بینهم وسائر المستعمرین شرقا وغربا، فلم یکن ذلـک الانتصـار وتأسیس دویلة العصابات، وتلکم الإنتکاسة مـن المسـلمین العـرب لا جـزاء وفاقـا لأولاء وهؤلاء واللّه من وراء القصد ف «لیس بامانیکم ولا أمانی أهل الکتاب من یعمل سـوءً یجـز به...»[2]

«ثم رددنا لکم الکرة علیهم» کرة للصهیونیة العالمیة علی «عبادا لنا»: رجوعـا علـیهم بتغلـب أشد من الأولی وأنکی، حیث العِدة والعُدة لهم فی هذه المرة اقوی: «وأمددنکم بأموال وبنین وجعلناکم اکثر نفیرا»: منهم، ومنکم فی المرة الأولی ولیس إمدادهم بـاموال وبنـین وجعلهـم اکثر نفیرا حیث تسببا رد الکرة علیهم، إلا مسارعة لهم فی إساءة وجـوههم: «ایحسـبون انمـا

---

[1]. وان کان حق التمسک بحبل من الناس ان یتبنی حبلاً من الله، ولکن لحبل من الناس متحللاً عن حبل الله اثره وجاه تارک الحبلین تماما.

[2]. ٤: ١٢٣.

نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون»[١] وإلا إملاء لهم ليزدادوا اثما: «ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين».[٢]

كما وان جعلهم اكثر نفيرا فى حربهم «عبادا لنا» ليس إلا إملاء لهم واملالا، وكل ذلک امتهانا لهم، وامتحانا ل «عبادا لنا» ولأنهم قلّوا واولئک كثروا، وأنهم تخلى عن مناصرتهم مسلموا البلاد، واولئک تماسكوا أكثر من المرة الأولى و«لا يغرنک تقلب الذين كفروا فى البلاد. متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد».[٣]

ثم ورد الكرة عليهم لا يعنى القاء الحاسم على «عبادا لنا» وانما قضاءً مّا لردح قليل من الزمن، حيث العلو الكبير يختصهم فلا يبقى لهؤلاء الأكارم إلا علوا دون الكبير، حفاظا على كيانهم، وتحلُّلاً عن السيطرة الإسلامية على المعمورة كلها، عكس ما مضى فى المرة الأولى، حيث الجوس فى البلاد ما عنى القضاء الحاسم على الصهيونية، فلذلک تراها تنبو بعد ذلک وتنموا حتى ترد الكرة عليهم.

ثم «ليسوءوا وجوهكم» فى وعد المرة الآخرة، راجع الى «عبادا لنا» مهما قضى نحبه البعض منهم وخلفه آخرون من اجناسهم دون اشخاصهم، فهذه الدولة الحقة التى يؤسسها «عبادا لنا» فى المرة الأولى سوف تبقى ومن ثم تضعف برد الكرة ردحا من الزمن، وتتصل بالدولة الأخير المهدوية وكما يشير الى ذلک باقر العلوم عليه‌السلام: **«كأنى بقوم قد خرجوا بالمشرق يطلبون الحق فلا يعطونه فاذا رأوا ذلک وضعوا سيوفهم على عواتقهم فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يقوموا ولا يدفعونها إلا الى صاحبكم قتلاهم شهداء أما إنى لو ادركت ذلک لاستبقيت نفسى لصاحب هذا الأمر».[٤]**

---

[١]. ٢٣: ٥٦.

[٢]. ٣: ١٧٨.

[٣]. ٣: ١٩٧.

[٤]. غيبة النعماني ص ١٤٥ ـ ابو خالد الكابلي عن الامام محمد علي الباقر عليه‌السلام.
وفي ج ٣ ص ٢٢١ ملحقات احقاق الحق شرح لآية اللّه العظمى المرعشي باب يخرج ناس من المشرق فيوطئون للمهدي سلطانه: قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله يخرج ناس من المشرق فيوطئون للمهدي يعني سلطانه اقول: وعلّهم هؤلاء الثوار المخلصون الذين

وقد ينطبق تماما على ثورتنا الإسلامية المجيدة المظفرة فى ايران حيث قمنا ثلاث قومات[1] وفى الثالثة اقمنا الجمهورية المباركة الإسلامية بقيادة القائد الاعظم نائب الامام السيد روح اللّه الخمينى اطال اللّه بقاءه، وسوف لا ندفع هذه الراية المظفرة إلا الى صاحبنا صاحب الأمر الحجة بن الحسن المهدى صلوات اللّه وسلامه عليه وستأتيكم روايات كهذه وأوضح فى انباء وملاحم غيبته ان شاء اللّه تعالى.

وقد يناسبها ما يروى عن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله حيث يفسر آية الكرة بقيام القائم عليه‌السلام، ويفسر «عبادا لنا» بسلمان الفارسى ومن كان مثله ممن يوالى القائم بحقيقة المعرفة[2] وعل دمج المرتين ببعض هنا وهناك يشير الى قلة الفصل بينهما، وان الأولى: افسادا او اصلاحا، لتعبيد الطريق إلى الثانية، اللهم عجل لنا الثانية بما تعبّده فى الأولى.

«.. إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا..»[3]

فى هذه الفترة من الكرة. ان احسنتم «دون افساد وعلو» احسنتم لانفسكم حيث لا يُقفى

يعبِّدون الطريق للمهدي عليه‌السلام ويناسب الثورة المباركة الاسلامية في ايران.
رواه جماعة من الاعلام منهم الحافظ وابن ماجة القزويني في سنن المصطفى ج ٩ ص ٥١٩ والعلامة الحمويني في فرائد السمطين مخطوط والحافظ نور الدين علي بن ابي بكر في مجمع الزوائد ج ٧ ص ٣١٨ مكتبة القدسي بالقاهرة والعلامة السيوطي في الحاوي للفتاوى ص ٦٠ ط القاهرة والعلامة ابو عبداللّه محمد بن عثمان البغدادي في المنتخب من صحيحى البخاري ومسلم ص ١٨٣ مخطوط والعلامة النبهاني في الفتح الكبير ج ٣ ص ٤٢٠ ط مصر والعلامة القرطبي في التذكرة ط مصر والحافظ الكنجي الشافعي في البيان في اخبار آخر الزمان ص ٣١٤ ط النجف والعلامة ابن حجر الهيتمي في الصواعق ص ٩٨ ط عبداللطيف بمصر والعلامة المولى على المتقي الهندي في منتخب كنز العمال المطبوع بهامش المسند ج ٦ ص ٢٩ الميمنة بمصر والعلامة الشيخ عبدالنبي بن احمد القدوسي الحنفي في سنن المهدي ص ٥٧٢ مخطوط.

[1]. القيام الاول ـ في هذا الوجه ـ كان في الثاني عشر محرم الحرام ـ ١٥ خرداد ١٣٤١ حيث سقط من جرائه عشرات الآلاف من القتلى، والثاني في عام ١٣٥٦ حين استشهد نجل نائب الامام السيد مصطفى الخميني واستشهد الآلف، والثالث حين انتقل نائب الامام من النجف الى باريس واضطر محمد رضا بهلوي الى تسليم الامر اليه ثم يبقى هو على عرشه دون اية مسؤلية، ولكن الامام لم يقبل منه حتى ثار الثورة الثالثة حيث فر الشاه ومن ورائه رئيس وزرائه واسست الجمهورية الاسلامية بقيادة نائب الإمام روح اللّه الخميني.

[2]. كما في تفسير البرهان ٢: ٤٠٦ ـ ابو جعفر محمد بن جرير في مسند فاطمة باسناده الى محمد بن خلف الطاهري عن زادان عن سلمان ـ في تعريفه صلى‌الله‌عليه‌وآله بالأئمة الاثني عشر، ثم محمد بن الحسن الهادي المهدي الناطق القائم بحق اللّه ثم قال يا سلمان انك مدركه ومن كان مثلك ومن تولاه بحقيقة المعرفة قال سلمان فشكرت اللّه كثيرا ثم قلت يا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله! واني مؤجل الى عهده ثم قال يا سلمان اقرء «فاذا جاء وعد اولاهما.. ثم رددنا لكم الكرة عليهم..» قال سلمان: فاشتد بكائي وشوقي ثم قلت يا رسول اللّه بعهد منك فقال: اي واللّه الذي ارسل محمدا بالحق مني ومن علي وفاطمة والحسن والحسين والتسعة وكل من هو مني ومعنا وفينا اي واللّه يا سلمان وليحضرن ابليس وجنوده وكل من محض الايمان محضا ومحض الكفر محضا حتى يوخذ بالقصاص والاوتار والاثوار ولا يظلم ربك أحدا وتحقق تأويل هذه الآية: «ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض...».

[3]. ١٧: ٧.

عليكم إن احسنتم فاصبحتم عدولا مسلمين، ام بقيتم هودا مستسلمين، «وان اسأتم» وأفسدتم فی الأرض بعلو كبير «فلها» حيث «عبادا لنا» لكم بمرصاد صارم ف «يسؤوا وجوهكم».

إنه ليس الحسنى بالتی تحسن حالة طائفة فحسب دون أخرى، او السيئة تسیء جماعة دون آخرين، فالضابطة العامة التی لا تتغير فی الدنيا والآخرة، والتی تجعل عمل الإنسان كله له دون سواه، بكل ثماره ومخلفاته، وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل، انها «ان احسنتم احسنتم لانفسكم وان اسأتم فلها» دونما استثناء.

«.. فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا».[1]

وعد الآخرة، وما يدريک ما وعد الآخرة؟ إنها ليست الآخرة فی الاخرى. بل هی الآخرة من مرتی الإفساد فی الدنيا: الأرض كلها، حيث تجمع الصهيونية العالمية بين الإفساد والعلو الكبير العالمی بأذنابها الكفار أمّن ذا؟؟ من بنی الإنسان المتخلفين عن شرعة اللّه، اذ تتذرع بثالوثها لتجعل الأرض فاسدة كاسدة لا تصلح فيها حياة انسانية إلا على تخوف وحذر. ثم لا يطول فسادهم العالمی الا ردحا من الزمن حيث تتفجر الجماعات البشرية ب «عبادا لنا» فی وجه الظلم والطغيان، وليحققوا مثلثا من النكال والإصلاح: ليسؤوا وليدخلوا ـ وليتبروا!.

وهذه هی المرة الثانية والأخيرة من دولة الباطل حيث يقضی عليها بالمهدی عليه‌السلام وأصحابه ـ وعلى طول الخط ـ كما قضی عليها بأضرابهم ردحا من الزمن، وعلّ الدولتين متصلتان على فترة فی ضعف بينهما للأولى وهنا أوامر ثلاث يحققها زعيم الدولة الإسلامية الأخيرة بأصحابه الاكارم «فبه يملأ اللّه الأرض قسطا وعدلاً بعدما ملئت ظلما وجورا».

١ ـ «ليسوءوا وجوهكم»: كما اسأتم وجوه الإنسانية وأفسدتم وجه الحياة، ف «عبادا لنا» من تبقّى من المرة الأولى ومن يستحصل حتى المرة الثانية من أضرابهم وهم اقوى واهدى سبيلاً، هؤلاء الأكارم مبعوثون مرة ثانية بمر اللّه أن يواجهوهم كل الوجوه وبكل الوجوده، استئصالاً لنائرتهم، واسودادا لوجوههم وسيادة لوجوه المؤمنين واشراقة دائبة لا تنقضی.

---

[1]. ١٧: ٧.

«ليسوءوا وجوهكم» قتلاً وتشريدا وتنكيلاً وتذليلاً، وليس قتل الإبادة ـ فقط ـ اذ يتبقى منهم جماعة لا حيلة لهم ولا حول ولا قوة، عائشين حياة الذل والعداء فيما بينهم: «وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها اللّه ويسعون فى الأرض فسادا واللّه لا يحب المفسدين»[1] وهذه لليهود، ولا يعنى سعى الفساد منهم إلا لحد المرة الثانية من إفساديهم العالميين، وسائر إفسادهم لهذا الحد، حيث هم كإخوانهم النصارى لا قوة لهم فى هذه الدولة: «ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم اللّه بما كانوا يصنعون»[2] فالطائفتان باقيتان على قلة من عِدة وعُدة الى يوم القيامة، عائشتان العداوة والبغضاء فيما بينهم، ولكنهم تساء وجوههم فى افسادهم الثانى، فلا تضر عداءهم فى بينهم الدولة الإسلامية العالمية.

وبعدما ساءت وجوههم وشاهت وانهارت شكوتهم وعلوهم الكبير: ٢ ـ «وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة»: يدخل «عبادا لنا» المسجد الأقصى دخولا لاخروج عنه، حيث يصبح مقرا لزعيم الدولة الإسلامية القائم المهدى عليه‌السلام «كما دخلوه أول مرة» حيث «جاسوا خلال الديار»، واين مرة من مرة؟!

فاول مرة من مرتى الإفساد التى ـ علّنا ـ نعيشها الآن سوف ندخل المسجد الاقصى ونبقى فيه مسيطرين ردحا من الزمن، ثم نخرج فنرجع اليه زمن المهدى عليه‌السلام مرة ثانية وعلى طول الخط اللهم عجل فرج صاحب الأمر.

٣ ـ «وليتبروا ما علوا تبتيرا» والتبر هو الإهلاك الكبير حيث لا يبقى ولا يذر وترا من المفسدين وليس هو هلاک عمال الفساد فحسب، فانه هلاک فسادهم أيضا: تبارهم بفسادهم ومن تبار العمال: «وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا»[3] ومن الأعمال: «ان هؤلاء متبَّر ما

---

[1]. ٥: ٦٤.

[2]. ٥: ١٤.

[3]. ١٧: ٧.

هم فيه وباطل ما كانوا يعملون[1] وهؤلاء هم العاكفون على اصنام لهم.

وتبار الصهيونية فى هذه المرة بالمهدى عليه‌السلام واصحابه هو تبار استئصال لهم بفسادهم وعلوهم الكبير، هلاک كبير لعالين وعلوٍّ كبير، ف «ما علو» كم يعنى علوهم[2] كذلک يعنى أشخاصهم فى علوهم استئصالاً للشرور والشريرين.

فقد يستأصل الشر بآثاره والشرير باق يجدده، وقد يستصل الشرير والشر باق بمختلفاته، «وليتبروا ما علوا» ليس تتبيرا لأحدهما والآخر باق وإنما «تتبيرا» مستأصلاً للشر والشرير معا بحيث لا يجدد ابد الآبدين ودهر الداهرين، وكذلک تكون ثورة المهدى عليه‌السلام ودولته.

ثم هؤلاء الصهاينة الجرمون بمن معهم من أوتارهم واذنابهم وأحزابهم، انهم يقتسمون فى تبارهم أقساما، فمنهم من يقتل ومنهم من يتوب، ومنهم عوان بين ذلک: لا يقتل ولا يتوب، وانما يستأصل شره وافساده، فلا تبقى عدائهم إلا فيما بينهم كما مضت آية إلقاء العداوة بين اليهود وإغرائها بين النصارى الى يوم القيامة، ثم لا يعودون ولن الى إفساد عالمى:

«عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرا».[3] فالرحمة المرجوة لهم تشمل رحمة الغفران بالايمان، ثم رحمة الابقاء لهم بلا ايمان ولا إفساد، فان عادوا فى الافساد عاد لهم التبار الهلاک هنا ثم فى الآخرة «وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا»: سجنا يحصرهم.

الفصل بين الافسادين:

وترى هل الفصل بين الافسادين بالدولة الإسلامية طائل ام ماذا؟

عله طائل لمكان «ثم رددنا لكم الكرة عليهم..» حيث توحى بالتراخى ثم لا تراخى للإفساد الثانى لمكان «ف»: «فاذا جاء وعد الآخرة..» فبين الوعدين بون متراخ للدولة الإسلامية

---

[1]. ٧: ١٣٩.

[2]. و«ما» هنا مصدرية تؤول مدخولها الى المصدر «علّوهم» والنتيجة ليتبروا علوهم ـ وكذلك هي موصولة: ليتبروا الذين علوا في الدرجة التي علوا ـ تتبيرا وهما معا هنا معنيان: تتبيرا لهم على علوهم ولفسادهم.
وانما «ما» دون «من» وذووا العقول يتطلبون «مَن»؟ لامرين: أن المصدرية هنا معنية كما الموصولة فلتكن «ما» وانهم اراذل لحد البهائم بل هم اصل فلا يستحقون «من» الخاص بذوي العقول.

[3]. ١٧: ٨.

الاولى التى نعيشها، والدولتان متصلتان على فترة قصيرة حيث الإفساد الثانى، فيها فتور للدولة الأولى، وقوة للإفساد الثانى اقوى من الأول، وكما يستفاد من احاديثنا حول الافسادين والدولتين.

وترى كيف تجتمع الدولة الإسلامية الأولى مع الإفساد العالمى الثانى فى فترته القصيرة؟

انها تبقى لحد الحفاظ على اصل كيانها، ولكى تحصل البقية الباقية من جنود المهدى عليه‌السلام **وأصحاب ألوليته.**

وكما أن دولة الهدى عليه‌السلام **أقوى وأسمى وأشمل دولة الهية طول تاريخ الرسالات كذلك أصحاب ألويته هم سلالات وحُصالات الرسالات، من أنبياء وأولياء وأصحاب الرسل وأفضل من تربى فى حجور الرسالات.**

فمن الرسل داود وسليمان ودانيال ام من ذا؟

ومن اصحاب الرسل يوشع وصى موسى وشمعون وصى عيسى عليه‌السلام **ومن أصحاب محمد** صلى‌الله‌عليه‌وآله **سلمان الفارسى ومالك الأشتر النخعى وابو دجانة الانصارى ام من ذا؟**

«ومن قوم موسى امة يهدون بالحق وبه يعدلون» وهم خمسة وعشرون رجلاً.

ومن هم وكم هم من قوم عيسى؟ لا ندرى..

ثم ومن هم وكم هم من امة محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله **علهم أو انهم اكثر الامم، ويستحصلون طول الرسالة الإسلامية حتى قيام القائم** عليه‌السلام.

وقد يكون قائد ثورتنا الإسلامية السامية فى ايران منهم ومن أفاضلهم بعد انبياءهم وأئمتهم.

وحيث اللواء لغويا هو قائد الجيش ومتصرف اللواء، فهؤلاء الثلاثمائة والثلاثة عشرا هم قواد الجيش ومتصرفوا ألوية الدولة الإسلامية، «فاذا اجتمعت له هذه العدة من اهل الاخلاص اظهر امره».[1]

---

[1]. بحار الانوار ٥٢: ٢٨٣ ج ١٠ ـ ك: السناني عن الاسدي عن سهل عن عبدالعظيم الحسني قال قلت لمحمد بن علي بن موسى... وفي سفينة البحار ٢: ٧٠٣ عن عبدالعظيم الحسني قال قلت لمحمد بن علي بن موسى عليه‌السلام اني لارجو ان تكون القائم من اهل بيت محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله الذي يملأ الارض قسطا وعدلاً كما ملئت ظلما وجورا فقال: يا ابا القاسم ما منا إلاّ قائم بامر اللّه عز وجل وهاد الى دينه ولكن القائم الذي يطهر اللّه به الارض من اهل الكفر والجحود ويملأها عدلاً وقسطا هو الذي يخفي على الناس ولادته ويغيب عنهم شخصه ويحرم عليهم تسميته وهو سمي رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله وكنيه وهو الذي تطوى له الارض ويذل له كل صعب يجتمع اليه اصحابه عدة اهل بدر ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً من اقاصي الارض وذلك قول اللّه عز وجل: «اينما تكونوا يات بكم اللّه جميعا ان اللّه على كل شيء قدير» فاذا اجتمعت له هذه العدة من اهل الاخلاص اظهر امره فاذا كمل له العقد وهو عشرة

واصول الجيش بداية هذه الدولة هم عشرة آلاف، قلوبهم كزبر الحديد يعطى لكل واحد منهم قوة أربعين رجلاً، ثم اللاحق الملتصق بهم لا ندرى عِدتهم وعُدتهم، ولكنهم كمجموع ـ هم دون ريب ـ اقوى جيش فى تاريخ الرسالات والإنسان وعدة ايمانية وحربية عادلة، اللهم اجعلنا منهم.

«انباء الدولة الإلهية وابنائها فى الكتاب».

عل الكتاب فى «وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب» يعنى عامة التورات لا خاصتها، فهى كعامة تشمل العهد العتيق كله، بما فى كتابات الوحى التوراتى بتوراتها كأصل وبسائر أسفارها كفروع لها، ام وكتابات الوحى الانجيلى ايضا اصولاً وفروعا، حيث الشرعة التوراتية والإنجيلية شرعة واحدة اللهم إلا شذرا مما فى الانجيل من تحليل للبعض مما حرم على اسرائيل من محرمات ابتلائية مؤقتة، او يعنى الكتاب مطلق كتابات الوحى قبل القرآن.

ومما تبقّى من هذه الأنباء هى التى تؤكد قيام صاحب الأمر استئصالاً لجذور الظلم والطغان «وليتبروا ما علوا تتبيرا»[1] ما جاء فى زبور داود مرارا وتكرارا كما فى تصريحة قرآنية: «ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادى الصالحون. إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين وما أرسلناك الا رحمة للعالمين».[2]

و«عبادى الصالحون» هنا، هم من «عبادا لنا» هناك حيث يرثون الأض بعد إفسادها الثانى، والزبور هو زبور داود عليه‌السلام فانه بعد الذكر: «التوراة» حيث تذكر نفس البشارة بشتى العبارات، ولقد كتب اللّه تعالى هذه البشارة الاسرائيلية من عتيقها وجديدها.

ففى الزبور ٣٧: ١ ـ ٣٤ تتكرر هذه البشارة كالتالى:

«فان الأشرار يُستأصلون وأما الذين يرجون الرب فإنهم يرثون الأرض (١٠) ... أما الآثمة فيعاقَبون وذرية المنافقين تُستاصل (٢٩). والصديقون يرثون الأرض ويسكنونها الى الابد

آلاف رجل خرج باذن الله عز وجل فلا يزال يقتل اعداء الله حتى يرضى الله عز وجل...

[1]. راجع الى كتابنا (رسول الاسلام في الكتب السماوية) من ٢٥ ـ ٢٧٠ تجد فيه تفاصيل ما جاءت في كتابات الوحي منذ خمسين قرنا.

[2]. ٢١: ١٠٦.

(٤٣) انتظر الرب واحفظ طريقه فيرفعك لترث الأرض عند استئصال المنافقين تنظر (٣٤)».
والآية الاخيرة بشارة لداود أنه من ورثة الأرض فى الدولة الحقة الأخيرة وقد يكون من الثلاثمائة والثلاثة عشر أصحاب الأولوية ويحق له!.
«القائم فى اشعيا تصطلح فى ملكه السباع»:
كما فى (اشعياء ١١: ١ ـ ١٠): ويخرج قضيب من جذريسى وينمى فرع من أصوله (١) ويستقر عليه روح الرب روح الحكمة والفهم وروح المشورة والقوة وروح العلم وتقوى الرب (٢) ويتنعم بمخافة الرب ولا يقضى بحسب رؤية عينيه ولا يحكم بحسب سماع أذنيه (٣) بل يقضى للمساكين بعدل ويحكم لبائسى الأرض بإنصاف ويضرب الأرض بقضيب فيه ويهلك المنافق بنفس شفتيه (٤) ويكون العدل منطقة حقويه والحق حزام كشحيه (٥) فيسكن الذئب مع الحمل ويربض النمر مع الجدى ويكون العجل والشبل والمعلوف معا والأسد ياكل التبن كالثور (٦) ويلعب المرضع على حجر الأفعى ويضع الفطيم يده فى نفق الأرقم (٨) لا يسيؤون ولا يفسدون فى كل جبل قدسى لأن الأرض تمتلىء من معرفة الرب كما تغمر المياه البحر (٩) وفى ذلك اليوم اصل يسىء القائم راية للشعوب اياه تترجى الامم ويكون مثواه جيدا (١٠).
هذه الآيات تفسرها التى سلفت من الزبور، دالة على أن القضيب من جذريسى ابى داود ليس هو داود، فان داود من أصحاب الويته فى دولته، ثم ولم يعهد اصطلاح البهائم وامتلاء الأرض من معرفة الرب واستئصال الشر فى اى زمن رسالى على طول الخط ولا اى ملك الهى، اللهم إلا ما وعدناه ونرجوه زمن «القائم» من جذريسى حيث ينتسب من ناحية الأم الى يسى ابى داود٧ ويضرب الأرض بقضيب فيه حيث يقوم بالسيف فى آخر الزمن!.
وفى اشعياء ٦٥: ١١ ـ ٢٥ تنديد شديد ببنى اسرائيل لافسادهم ويهددهم بالتبار وانتقال دولتهم الى «عبيدى» وهم «عبادا لنا» فى الاسراء:
«وأنتم الذين تركوا الرب ونسوا جبل قدسى الذين يهيؤون المائدة لجدٍ ويعدون الممزوج لمناه (١١) فأعينكم للسيف وتجثون جميعكم للذبح. لأنى دعوت ولم تجيبوا. تكلمت ولم تسمعوا وصنعتم الشر فى عينىَّ وما لم أشأ إياه آثرتم (١٢) لذلك هكذا قال السيد الرب: ها

إن عبيدى ياكلون وأنتم تجوعون. عبيدى يشـربون وأنـتم تعطشـون (١٣) عبيـدى يفرحـون وأنتم تحزنون. عبيدى يرنِّمون من طيب القلب وأنتم تصرخون من كآبة القلـب وتولـون مـن أنكسار الروح (١٤) وتخلفون اسمى لمختاريَّ ويقتلك السيد الرب ويدعو عبيده باسـم آخـر (١٥) فالذى يتبارک بهذا الإسم على الأرض يتبارک بآله الحق والذى يقسم به علـى الأرض يقسم بآله الحق لان المضائق الاولى قد نُسيت وسُتِرت عن عينى (١٦) لأنـى هاءنـذا أخلـق سماوات جديدة وأرضا جديدا فلا تُذكر السـالفة ولا تخطـر علـى البـال (١٧) بـل تهلّلـوا وابتهجوا الى الأبد بما أخلق فإنى هاءنذا أخلق اورشليم ابتهاجا وشعبها سرورا (١٨) وابـتهج باورشليم وابشر بشعبى ولا يُسمع فيها من بعدُ صوت بكاءٍ ولا صوت صراخ (١٩) لا يكـون هناک طفل أيام ولا شيخ لم يستكمل أيامه لأن الصبى يموت وهو ابن مائة سـنة والخـاطىء يُلعن وهو ابن مائة سنة ويبنون بيوتا ويسكنون فيها ويغرسون كروما ويأكلون ثمرهـا (٢١) لا يبنون ويسكن آخر ولا يغرسون ويأكل آخر لأن ايام شعبى كأيام الشجر ومختـاريَّ يتمتعـون بأعمال أيديهم لا يتبعون باطلاً ولا يلدون للرعب لأنهم ذرية مباركىّ الرب وأعقـابهم معهـم قبل أن يَدعوا أجيب وفيما يكلمون أستيجب (٢٤) الذئب والحَمَل يرعيان معا والأسـد كبقـر يأكل التبن. أما الحية فالتراب يكون طعامها، لا يضرون ولا يفسدون فى جبل قدسى (٢٥)».

هذه الانباءات هى آتية فى أنباء الإسلام للدولة المهدوية حذو النعل بالنعل والقـذة بالقـذة،[1] وكما اجمل عن نبأِهم فيآيات الإسراء ـ تأمل.

«وفى (دانيال ١٢: ١ ـ ٣): وفى ذلک الزمان يقوم ميكائيل الرئيس العظيم القائم لبنـى شـعبک بكون وقت ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلک الزمان. وفى ذلک الزمان ينجو شعبک كـل من يوجد مكتوبا فى الكتاب (١) وكثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون بعضـهم للحياة الأبدية وبعضهم للعار والرذل الأبدى (٢) ويضىء العقلاء كضياء الجَلَد والذين جعلوا كثيرين أبرارا كالكواكب الى الدهر والأبد (٣)».

[1]. في احاديثنا: ينزل المهدي الى بيت المقدس ـ تخرج له الارض افاليذ ـ افلاذ كبدها ـ تصطلح في مكة السباع ـ اقل الاعمار مائة سنة حتى ان الرجل ليرى مائة نسمة من نسله ـ يستاصل الفساد عن الارض.
وهناك انتقالان من بني اسرائيل الى بني اسماعيل ـ انتقال الشريعة بمحمد صلى‌الله‌عليه‌وآله وانتقال الملك بالمهدي من آل محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله
راجع رسول الاسلام في الكتب السماوية.

وفيها تصريحة الرجعة العامة وكما فى الصادقى عليه‌السلام[1] ثم فى الآية (١٣) «وانت اذهب الى الإنقضاء وستستريح وتقوم فى قرعتك الى انقضاء الأيام» وعلّها اشارة الى كونه كداود من أصحاب ألوية الإمام المهدى عليه‌السلام الثلاثمائة والثلاثة عشر رجلاً.

أنباء وملاحم غيبته فى الروايات الإسلامية:

من خطبة قصيرة لعلى امير المؤمنين عليه‌السلام حول مستقبل الفتن:

«فتن كقطع الليل المظلم، لا تقوم لها قائمة، ولا ترد لها راية، تأتيكم مزمومة مرحولة، ويحفزها قائدها، ويجهدها راكبها، أهلها قوم شديد كلَبهم، قليل سلَبهم، يجاهدهم فى اللّه قوم أذلة عند المتكبرين، فى الأرض مجهولون، وفى السماء معروفون، فويل لك يا بصرة عند ذلك من جيش من قم اللّه لا رهج له ولا حس، وسيبتلى أهلك بالموت الأحمر والجوع الأغبر».[2]

ويروى عن جعفر بن محمد عليه‌السلام «... وأهل مدينة تسمى الزوراء. تبنى فى آخر الزمان يستشفون بدمائنا ويتقربون ببغضنا يوالون فى عداوتنا ويرون حربنا فرضا وقتالنا حتما».[3]

و«لما رجع امير المؤمنين عليه‌السلام من وقعة الخوارج اجتاز بالزوراء فقال: إنها الزوراء فسيروا وجنبوا عنها فإن الخسف أسرع إليها من الوتد فى النخالة».[4]

ومن خطبة له عليه‌السلام: «... لكأنى انظر الى ضليلٍ قد نعق بالشام وفحص براياته فى ضواحى كوفان، فاذا فغرت فاغرته واشتدت شكيمته، وثقلت فى الأرض وطأته، عضت الفتنة أبناءها بأنيابها، وماجت الحرب بأمواجها، وبدا من الأيام كلوحها، ومن الليالى كدوحها، فاذا أينع زرعه وقام على ينعه، وهدرت شقاشقه، وبرقت بوارقه، عقدت رايات الفتن المعضلة، واقبلن

---

[1]. عنه عليه‌السلام يرجع من الاموات من محض الايمان محضاً من محض الكفر محضا.

[2]. الخطبة ١٠١ من نهج البلاغة للسيد الشريف الرضي له عن علي عليه‌السلام.

[3]. ج ٢ ص ٥٦٧ سفينة البحار للمحدث القمي نقلا عن بحار الانوار للمجلسي له والزوراء هي بغداد.

[4]. ج ٢ ص ٥٦٧ سفينة البحار للمحدث القمي نقلا عن بحار الانوار للمجلسي له والزوراء هي بغداد.

كالليل المظلم والبحر الملتطم، هذا ـ وكم يخرق الكوفة من قاصف، ويمر عليها من عاصف، وعن قليل تلتف القرون ويحصد القائم ويحطم المحصود».[1]

وعل القرون الثانية هى القرون الإسلامية فى دولة المهدى عليه‌السلام **وقبيلها ب «عبادا لنا» التى نعيشها، فالقائم** عليه‌السلام **يحصد ما زرعته الصهيونية العالمية من إفساد المعمورة، ويحطم ما حصدته ـ اللهم عجل فرجه وسهل مخرجه.**

وقد تروى عنه عليه‌السلام **غرة قد تنطبق على ثورتنا الإسلامية المجيدة ضد فورة العمالة الصدامية الصهيونية. فى حديث سلسلة الذهب[2] انه قال** عليه‌السلام: **«ايها الناس سلونى قبل ان تفقدونى، فإن بين جوانحى علما جما، فسلونى قبل ان تشغر برجلها[3] فتنة شرقية تطأ فى خِطامها،[4] ملعون ناعقها ومولِّيها وقائدها وسائقها والمتحرز فيها، فكم عندها من رافعة ذيلها يدعو بويلها دجلة أو حولها، لا مأوى يكنها ولا أحد يرحمها، فاذا استدار الفلک قلتم مات أو هلک، وبأى واد سلک،[5] فعندها توقعوا الفرج وهو تأويل هذه الآية: «ثم رددنا لكم الكرة عليهم...» والذى فلق الحبة وبرىء النسمة ليعيش اذ ذاک ملوک ناعمين، ولا يخرج الرجل**

---

[1]. من الخطبة ١٠٠ نهج البلاغة للسيد الرضي عن علي عليه‌السلام.

[2]. تفسير نور الثقلين ٣: ١٣٩ في تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمد عن ابيه عن جده قال قال امير المؤمنين عليه‌السلام في خطبته:...

[3]. شغر الكلب برجلها ليبول بال ام لم يبل، وشغر الرجل رجله للنكاح ـ شغرت الارض لم يبق بها احد يحميها ويضبطها فهي شاغرة، والشغر الاخراج والبعد، وشغر البلد بعد من الناصر، وارض شاغرة، لا تمنع من غارة أحدٍ لخلوها والتفرقة فيها، وشغرت الناس برجلي علوت الناس.

[4]. الخطام كخطاب موضع الزمام من أنف البعير ام ماذا.

[5]. سفينة البحار ٢: ٧٠٢ عن عبدالعظيم الحسني عن ابي جعفر عليه‌السلام عن آبائه عن امير المؤمنين عليه‌السلام قال: للقائم منا غيبة امدها طويل كأني بالشيعة يجولون جولات النعم في غيبته يطلبون المرعى فلا يجدونه الا فمن ثبت منهم على دينه لم يقس قلبه لطول أمد غيبة امامه فهو معي في درجتي يوم القيامة..».
وفيه عن ابي خالد الكابلي قال قال لي علي بن الحسين عليه‌السلام يا ابا خالد! ليأتين فتن كقطع الليل المظلم لا ينجو الا من اخذ الله ميثاقه اولئك مصابيح الهدى وينابيع العلم ينجيهم الله من كل فتنة مظلمة كاني بصاحبكم قد علا فوق نجفكم بظهر كوفان في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً جبرئيل عن يمينه وميكائيل عن شماله واسرافيل امامه معه راية رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله قد نشرها لا يهوي بها لى قوم الا اهلكهم الله عز وجل.
وفي نفس المصدر عن ابي الحسن الرضا عليه‌السلام عن آبائه قال قال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله: «والذي بعثني بالحق بشيرا ليغيبن القائم من ولدي بعهد معهود اليه مني حتى يقول اكثر الناس: ما لله في آل محمد من حاجة ويشك آخرون في ولادته، فمن ادرك زمانه فليتمسك بدينه ولا يجعل للشيطان عليه سبيلاً بشكه فيزيله عن ملتي ويخرجه من ديني فقد اخرج ابويكم من الجنة من قبل وان الله عز وجل جعل الشياطين اولياء للذين لا يؤمنون».

منهم فى الدنيا حتى يولد لصلبه الف ذكر، آمنين من كل بدعة وآفة والتنزيل، عاملين بكتاب اللّه وسنة رسوله، وقد اضمحلت عليهم الآفات والشبهات».

الفتنة الشرقية:

علها او أنها الفتنة الصهيونية الشرق أوسطية البادئة من اسرائيل فى احتلال فلسطين والقدس، المتعلقة بحبل من الناس النسناس شرقيا وغربيا.

ومن أذنابها العملاء الفتنة الصدامية العفلقية من بغداد وما حولها، كما نعيشها الآن.

«تشغر برجلها ـ تطأ فى خطامها»

فتنة شاغرة بارض شاغرة من مفتتنين شاغرين، وكأن أصلها إنسانة مجنونة تتخبط فى مشيتها، حيث تمشى مكبة على وجهها، ذ ترفع هذه الإنسانية الحيوانة برجلها، وبدل أن تطأ فى أرضها تطأ فى عرضها ـ فى خطامها: أنفها الذى هو موضع زمامها، فلا تتمنع من غارة أحد لأرضها لخلوها ممن يحميها والتفرقة فيها.

ترفع برجلها لتحتل ارضا او اراضٍ أخرى، فاذا هى بوطئها خطامها تثبت فى موضعها وتحتل أرضها ويُهتك عرضها، ولأنها رفعت رجلها الى غير حقها، متخبطة فى وطئتها، ماشية مكبة على وجهها، فلا تطأ وتذل إلا أنفها، فتبتلى بخماسية لعنتها:

«ملعون ناعقها ومولیها وقائدها وسائقها والمتحرز فيها».

كأن «ناعقها» الذى ينعق ويعربد لهذه الفتنة هو صدامها الصهيونى البعثى حيث اخذ يعربد لحرب وحشية شعواء عشواء على الجمهورية الإسلامية لصالح الصهيونية العالمية، كأنحس ذنب عميل من أذنابها، يرعد ويبرق ولا يحرق إلا نفسه.

و«موليها» الذى يوليها ويتولاها كأصل لها هى نفس الصهيونية فى اسرائيل ثم سواها، حيث تتولى هذه الحرب بأرذل وأطول أذنابها فى البداية، ثم إلى أذنابها الشرقية والغربية الأخرى.

وعل «قائدها» هو الامبريالية الأمريكية حيث تقود هذه الفتنة لصالح الصهيونية، وهى هى من عمالها الأقوياء، ومن ثم الإمبريالية السوكيتية ام ماذا؟.

و«سائقها» الذى يسوقها هو العمالة البعثية العفلقية بناعقها «صدام» حيث تسوق هذه الفتنة الشاغرة العارمة فى جِنَّة وتخبط.

ثم «المحترز فيها» تحرز الحفاظ على كيانه من بأس الثورة الإسلامية وتحرز الفرار عن بـأس البعث الصدامى، علّها عديد من دويلات الخليج وأضرابها التى هى ويـلات علـى الإسـلام، والمتحرزين فيها من شيوخ الخليج وملوكها الإشذرا حيث يقـدمون بالعِـدَّة والعُـدَّة، تقويـة لمطلق الكفر أمام مطلق الإسلام.

«فكم عندها من رافعة ذيلها» فتن جزئية هامشية عند الفتنة الأم، ترفع ذيلهـا فـرارا دون قـرار لتنجوا من بأسها وبؤسها ولات حين فرار إذ: «يدعو بويلها»: الفتنـة الأم وذرياتهـا «دجلـة أو حولها» فدجلة «بغداد» عاصمة الفتنة الزوراء «او حولها» من بـلاد عراقيـة ثـم دويـلات مـن الخليج «يدعو بويلها» اذ ينادى بكافة وسائل النداء الإعلام مستصرخة مستغيثة قـوات الكفـر اجمع ف «لا مأوى يكنها ولا أحد يرحمها» حتى لا يبقى كِنٌ ولا راحم مـن جنـود الشـيطان لهذه الفتنة، الا مخذولة مرذولة، حيث «عبادا لنا جاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولاً» فـلا تبقى لهم باقية، فهنالک تتم الدولة الإسلامية مسيطرة على دويـلات الكفـر فـى ويـلات لهـا وويلات.

ثم يستدير الفلک برد الكرة عليهم فاستضعاف هذه الدولة الكريمة ردحا من الـزمن، فيجـىء وعد الآخرة ليسوءوا وجوههم:

«فاذا استدار الفلک» وأصبح الياس بالشدة جارفا لحدٍ: «قلتم مات» صاحب الأمـر «أو هلـک باى وادٍ سلک» واذا هو موجود هنا وقريب منا فكيف لا ينصرنا «فعند ذلک توقعـوا الفـرج»: النهائى الدائب، بعد الفرج البدائى الذاهب...[1]

---

[1]. اقول: قد رويت هذه الخطبة بصورة اخرى كما في البحار ٥٢: ٢٧٢ ج ١٦٧ ـ وباسناده عن اسحاق يرفعه الى الاصبغ بن نباتة قال سمعت امير المؤمنين عليه‌السلام يقول للناس: سلوني قبل ان تفقدوني لأني بطرق السماء اعلم من العلماء وبطرق الارض اعلم من العماء، انا يعسوب الدين، أنا يعسوب المؤمنين وامام المتقين، وديان الناس يوم الدين ـ الى قوله ـ الا ايها الناس سلوني قبل ان تفقدوني فان بين جوانحي علما جما فسلوني قبل ان تشغر برجلها فتنة شرقية وتطأ في خِطامها بعد موتها وحياتها وتشب نار باحطب الجزل من غربي الارض. رافعة ذيلها تدعو يا ويلها لرحله ومثلها فاذا استدار الفلك قلتم مات او هلك باي واد سلك فيومئذ تاويل هذه الآية «ثم رددنا لكم الكرة..».

هنا تضاف شب نار بالحطب الجزل من غربي الارض، مساعدات حربية غربية تؤجج نيران الحرب في هذه الفتنة الشرقية تجنيدا لمطلق الكفر من شرق الارض وغربها ضد مطلق الاسلام.

والحطب الجزل هو اليابس الغليظ العظيم منه والكثير وكانه الاسلحة الفتاكة التي يؤتى من الغرب تقوية لهذه الفتنة الشرقية.

و«رافعة ذيلها» علها الطائرات الحربية، وهي تدعو يا ويلها من مدفعيات جبارة من الجمهورية الاسلامية الايرانية، وفي سير الاعلام ٢: ٢٩٧ قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: اما اول الشراط الساعة فنار تخرج من المشرق فتحشر الناس الى المغرب ورواه مثله عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله في مختصر التذكرة ١٣٢ ومستدرك الحاكم ٤: ٤٥٨ وفي الاخير: «تبعث نار تسوق الناس من مشارق الارض الى مغاربها» اقول: ونرى صدق هذه الإنباتات حيث ظهرت نار وفتنة شرقية صهيونية صدامية.

ويروى عن الإمام الرضا عليه‌السلام ما ـ عله ـ يشير الى هذه الفتنة «ولا بد من فتنة صماء صيلم يسقط فيها كل وليجة وبطانة وذلك بعد فقدان الشيعة الثالث من ولدى»[1] والفتنة الصدامية ـ كذنب للفتنة الصهيونية ـ هى اصم فتنة طول تاريخ الفتن حيث لا أُذن لها يسمع الحق او يستمع اليه، صماء عن كل قائل إلا قولة الصهيونية عمالةً مجنونة لصالحها، والصيلم: المستأصل الشديد، هى الفتنة التى تنحو منحى استئصال الحق عن بكرته. ورغم انها «صماء صيلم» يسقط فيها كلٌّ من لها من «وليجة» هو «المتحرز فيها» و«بطانة» هو «ناعقها ومولیها وقائدها وسائقها» ثم لا تبقى الا «عبادا لنا» فى دولتهم الإسلامية المباركة!.

ويروى عنه عليه‌السلام ايضا فى قائد الدولة المظفرة الإسلامية قبل المهدوية العالمية ـ نائب الإمام نصره اللّه: «رجل من اهل قم يدعو الناس الى الحق، تجتمع معه قوم كزبر الحديد، لا تزلهم الرياح العواصف ولا يملون من الحرب، ولا يجبنون وعلى اللّه يتوكلون والعاقبة للمتقين».[2]

«رجل» تتبناه كافة البطولات والرجولات الإسلامية «من أهل قم» تبنته هذه الحوزة المباركة حيث الأهلية هنا هى اهلية تلكم الرجولة لا الولادة «يدعو الناس الى الحق» اذ خذله مخالفوه وحمته ـ لا فحسب لفظا باللسان، وانما بالانفس والنفائس وبسيول الدماء «تجتمع معه قوم كزبر الحديد» وهم علّهم «عبادا لنا» المبعوثون لاستئصال الفساد العالمى الصهيونى الأول: «لهم مربع الطاقات الجبارة: ١ ـ «لا تزلهم الرياح العواصلف» التى تصعف شرقا وغربا حيث هم مؤمنون حقا والمؤمن كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف ٢ ـ «ولا يملون من الحرب» حيثما بلغت بهم نائرتها ٣ ـ «ولا يجبنون» من استشهاد ام ماذا؟ ٤ ـ «وعلى اللّه يتوكلون» دون سواعد شرقية او غربية او مساعدات من هنا وهناك:

---

[1]. سفينة البحار ج ٢ ص ٧٠٣ باب ما جاء عن الرضا عليه‌السلام في ذلك يج ـ يج ٣٨ ك عن احمد بن زكريا قال قال لي الرضا عليه‌السلام اين منزلك ببغداد قلت: الكرخ ـ قال اما انه اسلم موضع ولا بد من فتنة...

[2]. سفينة البحار ج ٢ ص ٤٤٦.

«والعاقبة للمتقين»: الدولة العاقبة لدولتهم ـ الاخيرة فى دول التاريخ ـ للمتقين[1] وهم اولاء بتاسيسهم دولة الحق بزعامة نائب المهدى عليه‌السلام **الخمينى يعبّدون الطريق لدولته المباركة العالمية التى تبقى مع الزمن حتى القيامة الكبرى.**

وقد تعنى معناه خطبة لأمير المؤمنين عليه‌السلام **حيث يقول فيها:**

«لا بد من رحى تطحن فاذا قامت على قطبها، وثبتت على ساقها بعث اللّه عليها عبدا عسفا: (عنيفا) خاملاً اصله، يكون النصر معه، اصحابه الطويلة شعورهم، واصحاب السبال، سود ثيابهم، اصحاب رايات سود، ويل لمن ناواهم يقتلونهم هرجا، واللّه لكأنى انظر اليهم والى افعالهم، وما يلقى من الفجار منهم والاعراب الجفاة، يسلطهم اللّه عليهم بلا رحمة، فيقتلونهم هرجا على مدينتهم بشاطىء الفرات البرية والبحرية جزاءً بما عملوا وما ربک بظلام للعبيد».[2]

والعبد العسف: العنيف ضد الظلم الخامل اصله علّه هو نائب الإمام حيث كان خاملاً طول عمره، وبدا اشتهاره وبدء منذ قيامه، واصحابه الطويلة شعورهم اصحاب السبال كما نرى الكثير من الانقلابيين معه كذلک.. ولعل الرايات السود هى التى ترتفع عند موته او استشهاده حيث يرفعها اصحابه وينتصرون فى حربهم ضد الكفر حتى يحققوا امر اللّه «فجاسوا خلال الديار وكان أمرا مفعولاً»!.

وقد يعنيه ما يروى عن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌ **.. انا اهل بيت اختار اللّه لنا الآخرة على الدنيا وان اهل بيتى سيلقون بعدى بلاءً وتشريدا وتطريدا حتى يأتى قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخير فلا يعطونه فيقاتلون فينصرون فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعوها الى رجل من اهل بيتى فيملاءها قسطا كما ملؤوها جورا فمن ادرک ذلک منكم فليأتهم ولو حبوا على الثلج.[3]**

---

[1]. العاقبة في هذه الآية صفة لمحذوف هي الحياة او الدولة، تعني الحياة او الدولة الاخيرة في عالم التكليف للمتقين، وليست الحياة الآخرة فحسب وان كانت منها:...

[2]. البحار ٥٢: ٢٣٢.

[3]. سنن المصطفى ص ٥١٧ حدثنا عثمان بن ابي شيبة ثنا معاوية بن هشام ثنا علي بن صالح عن يزيد بن ابي زياد عن ابراهيم عن علقمة عبدالله قال: بينما نحن عند رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله اذا اقبل فتية من بني هاشم فلما رآهم النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله اغرورقت عيناه وتغير لونه قال: ما نزال نرى في وجهك شيئا نكره فقال:...
اقول: وهذا الحديث يواطي ما مر عن الامام الباقر عليه‌السلام في نقل غيبه النعماني ص ١٤٠ مع بعض الزوائد هناك، ولعل الرايات

قيام البهلوى من قزوين من علائم ظهور المهدى عليه‌السلام:

من الملاحم المروية عن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله فى تفصيل علامات ظهور المهدى عليه‌السلام: «...فعندها يتكلم الرويبضة ــ فقال سلمان: وما الرويبضة يا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله، فداك ابى وامى؟ قال صلى‌الله‌عليه‌وآله: يتكلم فى امر العامة كل قوم ألا أنها خارت فى ناحيتهم فيمكثون ما شاء اللّه ثم ينكثون فى مكثهم فتلقى لهم الأرض افلاذ كبدها... فهذا معنى قوله: «فقد جاء اشراطها»».[1]

والرويبضة علها لا معنى لها فى لغة ولذلك لم يفسرها الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله هنا الا بعنوان مشير: «يتكلم...» وهى هى «رضا بهلوى» باختلاف ترتيب حروفها، ولا ينافيه ما فسره هو صلى‌الله‌عليه‌وآله فى رواية اخرى ب «الرجل التافه»[2] فانه حقا تافه.

وعن محمد بن الحنيفة قال قلت له: ــ الإمام على عليه‌السلام ــ قد طال هذا الامر حتى متى ــ الى ان قال ــ: انى يكون ذلك ولم يقم الزنديق من قزوين فيهتك ستورها، ويكفر صدورها، ويغير سورها، ويذهب ببهجتها من فر منه ادركه ومن حاربه قتله، ومن اعتزله افتقر، ومن تابعه كفر حتى يقوم باكيان: «باك يبكى على دينه وباك يبكى على دنياه»[3] والزنديق هو البهلوى[4] وقد كان قيامه من قزوين وصدقت عليه الافتعالات.

السود هي رايات عزاء الحسين عليه‌السلام في ١٢ محرم ١٥ خرداد ٤١ حيث قاموا لاخذ حق الاسلام من الشاه المعدوم واسترجاع المرجع الديني الاعلى من السجن فلم يكن الا قتلاً ذريعا فيهم.

[1]. تفسير القمي باسناده عن عبداللّه بن عباس، قال حججنا مع رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله حجة الوداع فاخذ بحلقة باب الكعبة ثم اقبل الينا بوجه فقال: «الا اخبرك باشراط الساعة وكان ادنى الناس منه يومئذٍ سلمان فقال: بلى يا رسول اللّه فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله: من اشراط الساعة.. الى أن قال...».

[2]. كما في البحار ٥٢: ٢٤٥ ح ١٢٤ ني باسناده عن ابن نباته قال سمعت عليا عليه‌السلام يقول: ان بين يدي القائم سنين خدّاعة يكذب فيها الصادق ويصدق فيها الكاذب ويقرب فيها الماحل وفي حديث وينطق فيها الرويبضة قال الجزري في حدث اشراط الساعة «وان ينطق الرويبضة في امر العامة ـ قيل وما الرويبضة يا رسول اللّه؟ فقال: الرجل التافه ينطق في امر العامة.
اقول: فالرويبضة اذا تصغير الرابضة العاجز الذي ربض عن معالي الامور وقعد عن لبها وزيادة التاء للمبالغة.
ثم اقول: ما اجمع الجمع بين المعني من الرويبضة: التافه ـ ورضا بهلوى حسب تأليف حروفها!.

[3]. بحار الانوار الطبعة الجديدة ج ٥٢ ص ٣١٢ ح ٦١ غط الفضل عن ابن ابي نجران عن محمد بن سنان عن ابي الجارود عن محمد بن بشر عن محمد بن الحنفية.

[4]. في مجمع التبحرين: الزنديق هو البهلوي.

وعن النبى صلى‌الله‌عليه‌وآله: **«يخرج بقزوين رجل اسمه اسم بنىًّ يسرع الناس الى طاعته المشرك والمؤمن يملأالجبال خوفا»**[1] **و«بنى» تصغير «ابن» هو «رضا» بُنَىٌّ الرسول** صلى‌الله‌عليه‌وآله**الامام الرضا** عليه‌السلام.

وعن ابى عبداللّه عليه‌السلام **فى استعراض علائم الظهور «وشمول اهل العراق خوف لا يكون معه قرار».**[2]

وفى كلام لعلى امير المؤمنين يتحمل الايحاء الى الحالة الموجودة بيننا بين البعثية الصدامية الكافرة.

قال عليه‌السلام: **«لا يقوم القائم حتى تفقأ عين الدنيا وتظهر الحمرة فى السماء وتلك دموع حملة العرش على اهل الأرض، وحتى يظهر فيهم قوم لا خلاق لهم يدعون لولدى وهم براء من ولدى، تلك عصابة ردية لا خلاق لهم، على الاشرار مسلطة وللجبابرة مفتنة، وللملوك مبيرة، يظهر فى سواد الكوفة، يقدمهم رجل اسود اللون والقلب، رث الدين، لا خلاق له، مهجن زنيم عتل، تداولته ايدى العواهر من الامهات من شر نسل لاسقاها اللّه المطر فى سنة اظهار المتغيب من ولدى صاحب الراية الحمراء والعلم الاخضر، اى يوم للمخيبين بين الانبار وهيت ـ ذلك يوم صيلم الاكراد والشراة، وخراب دار الفراعنة، ومسكن الجبابرة، ومأوى الولاة الظلمة، وام البلاء واخت العار، تلك ورب على يا عمر بن سعد بغداد، الا لعنة اللّه على العصاة من بنى امية وبنى فلان الخونة الذين يقتلون الطيبين من ولدى ولا يراقبون فيهم ذمتى، ولا يخافون اللّه فيما يفعلون بحرمتى...**[3]

---

[1]. بحار الانوار... ص ٢١٣ غط ردي عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله انه قال:...

[2]. البحار ٥٢: ٢٢١ ج ٨٥ شا. الحسين بن زيد عن منذر الجوزي عن ابي عبداللّه عليه‌السلام قال سمعته يقول: يزجر الناس قبل قيام القائم...

[3]. عن ابي عبداللّه عليه‌السلام ٢٢٦ ج ٩٠ في باسناده عن عمر بن سعد عنه عليه‌السلام..
ومن الطريف جدا خطاب الامام عليه‌السلام اخيرا لعمر بن سعد جد صدام عامل هذه الفتنة وعميلها، بعدما يصف عصابة البعث العفلقي التي يقودها صدامها، ثم يصفه لعنة اللّه عليه يسواد اللون والقلب ـ وقد جمعهما ـ وانه رث الدين مهجن زنيم عتل تداولته ايدي العواهر من الامهات من شر نسل، ثم وعدا بيوم صيلم الاكراد والشراة وخراب دار الفراعنة مسكن الجبابرة وماوى الولاة الظلمة وام البلاء واخت العار تلك ورب علي يا عمر بن سعد! بغداد!:
وفي ج ١٣ ص ٣١٤ ملحقات احقاق الحق عن العلامة المولى على المتقي الهندي في كنز العمال ج ٧ ص ٢٦١ ط حيدر اباد الدكن روى عن علي عليه‌السلام في خطبة له «وليكونن من يخلفني في اهل بيتيرجل يامر بامر اللّه قوي يحكم بحكم اللّه وذلك بعد زمان مكلح مفصح يشتد فيه البلاء وينقطع فيه الرجاء، ويقبل فيه الرشا فعند ذلك يبعث اللّه رجلاً من شاطىء دلجة لامر حزبه يحمله

كتابات كما انه من آيات اقتراب الساعة ونبيه نبى الساعة.

وترى لماذا هنا وفى عديدٍ غيرها «هذا القرآن» حيث توحى بان هناك قرآنا أو قرائين أخرى، وفى عديد اخرى «القرآن» والقرآن هو القرآن؟

لأن «قرآن» من اللّه هو جنس المقرو بالوحى كتابا على المكلفين، شاملاً كتابات الوحى كلها، وأفضلها هذا القرآن، فقد يعرف ب «هذا» ليدل على حاضره دون غابره، و«هذا» فى موارده كلها يتضمن ميزة او ميزات له عن سائر القرآن[1] وقد تدل على عمومه لسائر الوحى: «قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدلّه..»[2] «وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه».[3]

إذا فلا بد من تعريف به ليميزه عن غيره ب «هذا» او «العظيم»«ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم»[4] او تعريف اللام عهدا الى حاضره حيث يخاطبهم به: «وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدَلهم..»[5] او بضمير يعرفه:«وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن..»[6] او وصف:«تلك آيات الكتاب وقرآن مبين»[7] ام ماذا من إشارة تميزه عن سواه ويختص «هذا

الحقد على سفك الدماء قد كان في ستر وغطاء فيقتل قوما وهو عليهم غضبان شديد الحقد حران في سنته بختنصر يسومهم خسفا ويسقيهم سوط عذاب وسيف دمار ثم يكون من بعده هنات وامور مشتبهات الا من شط الفرات الى النجفات بابا القطقطانيات في آيات وآفات متواليات يخدش شكا بعد يقين يقوم بعد حين يبني المدائن ويفتح الخزائن ويجمع الامم ينفدها شخص البصر وطمح النظر وعنت الوجوه وكشف البال حيث يرى مقبلاً مدبا فيا لهفى على ما اعلم.

[1]. ك «اوحي الي هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ» ٦ ـ ١١٩ «وما كان هذا القرآن يفترى من دون اللّه» ١٠: ٣٧ «نحن نقص عليك احسن القصص بما اوحينا هذا القرآن» ١٢: ٣ «ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا» ١٧: ٤١ «قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن» ١٧: ٨٨ «وقال الرسول رب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا» ٢٥: ٣٠ «ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل..» ٢٧: ٧٦ «وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه» ٣٤: ٣١..

[2]. ١٠: ١٥.

[3]. ٣٤: ٣١.

[4]. ١٥: ٨٧.

[5]. ٥: ١٠١.

[6]. ١٠: ٦١.

[7]. ١٥: ١.

القرآن» هنا بما يعرفه أنه «يهدى للتى هى أقوم» من قوامات الوحى وقيامات صاحب الوحى والمكلفين به.

و«قرآن» مع كل ذلک عَلم لهذا القرآن، لم يسم به غيره من قرآن وان كان يشمله جنسه، وهو أفضل واكثر أسماء القرآن.

ثم هنا هادٍ ومهدى ومهدى له وبشارة لمن يهتدى وإنذار على من لا يهتدى، فالهادى هو القرآن حيث الهدى طبيعته وحالته وصياغته لأعلى قمم الهدى، دون ابقاءٍ على هدى ممكنة إلا وهو يهدى لها غير قاصر ولا ضنين.

والمهدى هو على الإطلاق كل مكلف بحاجة الى هدى، وبامكانه أن يهتدى بلا حدود من زمان أو مكان أو اقوام وأجيال فانه هدى اللّه والهدى الالهية فى القرآن كاملة شاملة.

والمهدى له، وترى لماذا «له» دون «إليه» ام دون جارٍ ک «اهدنا الصراط المستقيم»؟.. ثم «التى» بحذف الموصوف المتردد بين عديد ک: الطريقة ـ الشريعة ـ الملة ـ الرسالة ـ الولاية ام ماذا؟ ولا يحذف الموصوف الا المعلوم لحد لا يحسن ذكره بل ويحسن حذفه؟.

نجد الهداية فى القرآن فى هذا المثلث، وليس «يهدى له» إلا هنا لكتاب اللّه، وفى أخرى للّه: «قل هل من شركائكم من يهدى الى الحق قل اللّه يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدِّى إلا ان يهدى فما لكم كيف تحكمون»[1][2] ثم لا ثالث لهما، فإنما اللّه وكتاب اللّه يهدى له لا سواه، فلتكن «الهداية له» خاصة باللّه بقرآن المبين.

ثم اللّه وإن كان يهدى بالقرآن من ابتع رضوانه سبل السلام ويهديهم الى صراط مستقيم: «قد جاءكم من اللّه نور وكتاب مبين يهدى به اللّه من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور ويهديهم الى صراط مستقيم»[3] هداية إياه وهداية اليه، إلا ان أيا منهما لا

---

[1]. ١٠: ٣٥.

[2]. ومن الطريف ان «يهدى للحق» الخاصة باللّه تتوسط «يهدي الى الحق» لغير الله اولاها «شركائكم» سؤال تعنُّت، واخراها لكافة الهداة الى الحق حيث تجمعهم «يهدي الى الحق» فليس تغيير صيغة الهداية مجرد تفنُّن التعبير وانما لخصوص المعني من «لـه» و«اليه».

[3]. ٥: ١١٦.

يشمل مطلق الهدى، والهداية له تشمله كله، فالهداية «الى» دلالة الى الهدى الآفاقية البعيدة عن المهدى اذ هى خارج ذاته، او الانفسية البعيدة عنها كالآفاقية لمن احتجب عن نفسه بعيدا،[1] والهداية اياه ايصال الى المقصود آفاقية وانفسية او يقارب الايصال لمكان القرب بين المهدى والمهدى له لحد الاتصال.[2] والهداية له تشمل الايصال والدلالة الى الانفسية والآفاقية قريبة وبعيدة، دلالة الى ما فى النفس من هدى العقل والفطرة ام ماذا؟ وايصالاً الى حقها وواقعها، ودلالة إلى ما فى الآفاق تكوينا وتشريعا وايصالاً إليها فالهداية له ـ اذا ـ اتم واطم من الهداية إليه وإياه[3] فما الطفه التعبير عن الهداية المطلقة ب «يهدى اياه» وعن الدلالة المؤثرة وسواها ب «يهدى اليه» وعن مجموع الهدايات ب «يهدى له» الشاملة لكافة مراحل الهداية مستغرقة لها كلها!

ولأن هذه الآية هى الفريدة فى نوعها للهداية الشاملة فلتشمل الهدى كلها، دلالة وايصالاً للهدى أنفسية فى هداية العقل والفطرة، وآفاقية فى هداية التكوين والتشريع، فالقرآن نسخة كاملة للهدى كلها حيث يهدى به اللّه من اتبع رضوانه سبل السلام.

إنه هدى للكافرين كما للمؤمنين دلالة، وهدى للمتقين فى مزيد الدلالة ثم الايصال الى حق الهدى، ثم وهو هدى للإنسان وأضرابه آفاقيا وأنفسيا.

واما «التى» بحذف الموصوف فللايحاء باطلاق المهدى له، دون خصوص الملة او الطريقة او الرسالة او النبوة او الولاية اماهيه؟.[4]

فانه هدى بكل بنودها ومتطلباتها للإنسان وأضرابه كأفضل ما يمكن وأكمله فى عالم الفطرة والعقل، وفى التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه وبينه وبين ربه فى علاقة المعرفة والعبودية،

---

[1]. لان «الى» توحي لفصل بين المهدي والمهدي اليه، والهدى الانفسية ليست بعيدة عن المهدي:...

[2]. حيث الهداية اياه توحي الى وحدة عريقة بين المهدى والمهدى له دون فصل بينهما، اما حقفيا كما الايصال ويشارفه كالقريب القريب.

[3]. حيث الهداية له، واللام للاختصاص اعم من الدلائل الخاصة والايصال الخاص الى مادة الهدى آفاقية وأنفسية، فالهداية اياه هي «له» والهداية اليه كذلك «له» كما الهداية الآفاقية والأنفسية كلاهما «له» وان كانت «له» مراتب عدة.

[4]. ١ ـ كالسبل ٢ ـ والآيات الآفاقية والانفسية ٣ ـ والاخلاق ٤ ـ والحياة ٥ ـ واحكام الفطرة والعقل ٦ ـ والايمان ٧ ـ والاسلام ٨ ـ والتقوى ٩ ـ والزهادة ١٠ ـ والمعرفة والمعجزة ١١ ـ مواد الهداية التي تدعو اليها كتابات الوحي، فكل هذه الموصوفات تصلح ان تكون للتي هي اقوم دون ابقاء على مادة من الهدى إلاّ وهي تشملها.

وبينه وبين الناس فى علاقة العشرة، وفى كافة زوايا الهدى ومتطلباتها وتنسيقاتها ومخلفاتها الحاضرة والمستقبلة.

«للتى هى اقوم» فكتابات اللّه كلها قويمة قيِّمة لا عوج فيها ولا قصور، ولكنها مؤقتة زمنا، محدودة بالمتطلبات المرسومة لزمنها، والإستعدادات لطالبيها فيها، وأما القرآن فهو يهدى للتى هى اقوم: قيمة وقوامة واستقامة وقياما[1] منذ بزوغه ما طلعت الشمس وغربت، فشمسه لا تغرب وما يحتاجه المهتدون به لا يعزب، فلا يقعد عن هدايته، ولا يفشل عن استقامته ولا ينقص عن قيمته وقوامته لأنه كتاب الزمن كله.

ف «هى أقوم» من غيرها على الإطلاق قواما وقياما: «قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما..»[2] فيه كافة القوامات والقيامات لحد القيامة الكبرى، لا أفول لشمسه ولا انقطاع لشرعته، لا كتاب بعد كتابه ولا رسالة بعد رسالته، حيث الأقوم يتطلب ختام الوحى بوحيه.

فهذه الآية اجمال عن مثلث الخاتمية: شريعة ورسالة وكتابا، نجد تفاصيلها فى آيات اخرى، والتى هى اقوم يشمل هذا المثلث وما معها من ملة وطريقة وولاية، والولاية المطلقة للقرآن ونبيه وأهل بيته هى أقوم الولايات طول الرسالات الالهية، وهى كلها على هامش الولاى الالهية.[3]

ثم القرآن ليس ليهدى للتى هى اقوم هداية المعرفة والإيصال الى الحق إلا لمن اتخذه دليلاً بحق وكما عن الإمام على عليه‌السلام: «ايها الناس انه من استنصح اللّه وفق، ومن اتخذ قوله دليلاً هدى للتى هى اقوم»: دليل المعرفة والعمل الصالح ثم يبشره:

---

[1]. فالاقوم تتحمل كونها من القوام والقيامة والقيمة، والقرآن يهدي للتي هي اقوم في مثلثه دون اختصاص باحدها.

[2]. ٦: ١٦١.

[3]. في تفسير العياشي عن الفضيل بن يسار عن ابي جعفر عليه‌السلام في تفسيره الآية قال: يهدي الى الولاية اقول: وهي تشمل الولايات كلها ومنها ولاية الائمة التي هي ثالث مراتبها بعد ولاية اللّٰه والرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وقد يفسر بولاية الامام بيانا لثالث مصاديقها لانه مختلف فيها حتى يلحق بولاية الرسول، ومن ذلك ما في حديث سلسلة الذهب، يرويه ابن بابويه باسناده عن عياش بن يزيد مولى زيد بن علي، قال حدثني ابي قال حدثني موسى بن جعفر... وعن علي بن الحسين عليه‌السلام قال: الامام منا لا يكون الا معصوما وليست العصمة في ظاهر الخلقة فيعرف بها فلذلك لا يكون الا منصوصا فقيل له يا بن رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله ! فما معنى المعصوم؟ فقال: هو المعتصم بحبل اللّٰه وحبل اللّٰه هو القرآن لا يفترقان الى يوم القيامة فالامام يهدي الى القرآن والقرآن يهدي الامام وذلك قول اللّٰه عز وجل «ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم» وروي تفسيره بالامام باسناده عن ابي عبداللّٰه عليه‌السلام ايضا.

ومراتب الهدى القرآنية آخذة من العلمية الى العقيدية الى العملية التطبيقية، والأخيرة هى المبشر لها «ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم اجرا كبيرا».

ومراحل العلم القرآنى «على أربعة أشياء على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق فالعبارة للعوام والإشارة للخواص واللطائف للأولياء والحقائق للأنبياء».[1]

ومراتب العقيدة اليقين ثلاث: علم اليقين ـ عين اليقين ـ حق اليقين.

ومراتب العمل تنحو مراتب العلم واليقين، كلما ازداد ازداد وكلما نقص نقص.

والدلالة القرآنية ثلاث: دلالة التعبير فى مراتبها، ثم دلالة الاهتداء، ثم الإيصال الى المطلوب: الصراط المستقيم.. ومما توحيه آية الاقوم أن هذا القرآن هو المتن الأعلى للإسلام وما سواه من احاديث ليس الا على هامشه ان وافقه فليكن متنا متينا مكينا فى الحوزات العلمية الإسلامية وفى كافة الحقول.

ومن التى هى اقوم فى هدى القرآن إعجازها، حيث الآية الرسالية فيه أقوم الآيات إذ تعيش الزمن ويعيشها الزمن دون حاجة إلى آية اخرى.

ومنها السياسة القرآنية التى تقود دولة عالمية على طول الزمن كما يقودها القائم المهدى عليه‌السلام فى آخر الزمن.

ومنها الحقوق القرآنية التى تحلق على كافة الحقوق طول التاريخ، وتكفى معونة الحياة المتوسعة المتداخلة المتشابكة المتشاكسة.

ومنها الملاحم الغيبية والإنباءات المستقبلة التى توقظ النُوَّم وتنبه النهابهين كى يكونوا على أهبة وحذر لبناء المستقبل المجيد للدولة الإسلامية.

ومنها الإقتصاد القرآنى وقد تكفى حلاً لمشكلة الإقتصاد العضال آية وحيدة منه «وأن ليس للإنسان الا ما سعى».

ومنها ومنها وقد تحدى القرآن فيما تحدى الانس والجن «على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا»: طول الزمان وعرض المكان.

---

[1]. سفينة البحار يرويه الامام الحسين عن ابيه علي امير المؤمنين عليه‌السلام.

«ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجرا كبيرا».[1]

يبشر من آمن باللّه واليوم الآخر وما بينهما على ضوء القرآن، ويعملون الصالحات التى تصلح نتيجة للايمان وتصلح الحياة كل الحياة على ضوء القرآن، ويبشرهم قدر ما اهتدوا به وآمنوا وعملوا الصالحات «ان لهم اجرا كبيرا»: لا ناقصا عما قدموا فانه عجز وبخل، ولا مساويا مواتيا له فانه مثل بمثل، وليس اللّه مثلاً لنا حيت يواتينا فى ثواب اعمالنا، وانما فضلاً واحسانا: «اجرا كبيرا» اكبر مما قدموا وان كان تسمية الثواب أجرا فضلاً عن «كبيرا» هو ايضا اجر كبير ولطف غزير، حيث العبد لا يستحق بايمانه وعمله الصالح اجرا من ربه، إذ لا يعود نفعه الا اليه لا الى ربه، اذا فاصل الثواب فضل وتسميته اجرا فضل وصفته كبيرا فضل، مثلث الفضل فى قول فصل.

ثم القرآن لمن لم يتخذه دليلاً لا يزيده إلا خسارا، ولا سيما الذين لا يؤمنون بالآخرة، وإن كانوا مؤمنين باللّه، حيث الايمان باللّه دون الآخرة لا يُلزم المؤمن به بما يلتزم به المؤمن بآخرته من عمل الصالحات، ومجرد الايمان باللّه دون عمل لا ينفع حتى إذا كان ايمانا بالآخرة ايضا:

«وَأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالأْخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابا أَلِيما».[2]

لا يؤمنون بالحياة الآخرة ودلائلها فى القرآن واضحة وفى الآفاق والانفس لائحة!

والإعتاد هو التهيئة، والعذاب الأليم يشمل ذوقه يوم الدنيا فى المعيشة الضنك وفى البرزخ بوجه آكد، ثم فى القيامة واقع لأليم العذاب: «ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى..»:[3] عذابات معتدة فى مثلث الحياة بما قدمته أنفسهم.

«وَيَدْعُ الأْءِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الأْءِنسَانُ عَجُولاً».[4]

---

[1]. ١٧: ٩.

[2]. ١٧: ١٠.

[3]. ٢٠: ١٢٤.

[4]. ١٧: ١١.

تأنيب بهوى الانسان العجول الجهول التارک لهدى القرآن حيث يدعو بالشر دعاءه بالخير فشتان شتان بين هدى القرآن وهدى الإنسان.

قانون تدرج الوحى القرآنى فى سياسة الخطوة الخطوة

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً».[1]

قالة ضالة مضللة من الذين كفروا عداءً وإجراما بحق القرآن ونبيه، تأتى مرة واحدة يتيمة بإجابتين اثنتين: و«الذين كفروا» هنا هم بين كتابيين ومشركين، المتعودين على كتابات سماوية تنزل جملة واحدة، فالقبيلان قد يعتبران وحى القرآن بدعا من الوحى «لولا نزل القرآن جملة واحدة» كما نزلت سائر كتابات السماء جملة واحدة؟

ومختصَر الجواب وعلّه محتصَره: «لنثبت به فؤادک ورتلناه ترتيلاً».

والفؤاد هو القلب المتفئد بنور تشتعل فيه فتتصاعد كما القلوب الطاهرة، أم بنار عاتمة تتسعَّر فيه: «نارالّله الموقدة. التى تطلع على الافئدة»[2] نارا على نار، كما هناک نور على نور يهدى الّله لنوره من يشاء.

أترى أن فؤادک: الرسول ما كان مثبَتا ليحتاج إلى تثبيت بتنزيل القرآن مفرَّقا؟ ولولاه لما نزل إليه وحى القرآن!.

كما أن الافئدة النيِّرة درجات، كذلک لتثبيتها درجات: «وقل رب زدنى علما» وكما تثبَّت فؤاده المنير بوحى القرآن المحكم جملة واحدة فى ليلة القدر، كذلک يتثبت بوحى القرآن المفصل نجوما عدة معرفيا وعمليا.

وفى ذلک المكث من تنزيله يتثبت قلبه المنير على مكث، وبأحوج إلى ذلک أفئدةُ المؤمنين:

---

[1]. ٢٥: ٣٢.

[2]. ١٠٤: ٧.

«وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً».[1]

هنا تثبيت لفؤاد الرسول كما يناسبه إلى قمم الكمال ولتثبت رسالته إلى المرسل إليهم كافة، حيث هنالك تثبيت لأفئدة المؤمنين إيمانا ومزيد إيمان، ولكيلا يُخيَّل إلى بسطائهم أن الرسول إنما يحدثهم عن نفسه وعقليته: «وإذا بدلنا آية مكان آية واللّه أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون. قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدىً وبشرى للمسلمين».[2]

فإنزال القرآن دفعيا ليلة القدر كان بلا وسيط، وتنزيله تدريجيا بذلك الوسيط، تثبيتا للذين آمنوا، وأصل التدريج فى التنزيل «لنثبت به فؤادک ورتلناه ترتيلاً» لتحور قلوب مؤمنة حول محور فؤاده المنير، إذاعة قرآنية تذيع ما تستذيع، دون ظِنَّة ولا تضييع، ودون فارق فى الإستذاعة بينه وبين المرسل إليهم!

فلكلٍّ من الرسول والمرسل إليهم فائدة وعائدة فى تنزيله مفرقا على نجومه، كلٌّ كما يناسب حاجيته وحاله.

فكما فى قصص الأنبياء تثبيت لفؤاده، وعلى ضوئه أفئدة المؤمنين فى حمل أعباء هذه الرسالة السامية: «وكلاً نقص عليک من أنباء الرسل ما نُثَبِّت به فؤادک وجاءک فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين».[3]

كذلک فى تدرُّج نزوله ككل، أحكاما وأنباءً غيبته أما هيه، تثبيت لفؤآده المنير، رسولية ورسالية.

فترى قصص الماضين تقص طول العهدين: المكى والمدنى، حسب الحالات والمناسبات الرسالية والرسولية، تثبيتا لفؤاد الرسول والمؤمنين العائشين عبء هذه الرسالة، تخفيفا عن كواهلهم هنا وهناک، فتراه تتكرر فى مختلف الصور، وفى الطول والقِصَر، اللّهم إلاّ قصة

---

[1]. ١٧: ١٠٦.

[2]. ١٦: ١٠٢.

[3]. ١١: ١٢.

يوسف حيث الحكمة اقتضت إفرادها فى مجالها المناسب.

«ورتلناه ترتيلاً» لفظيا كممتاح لترتيل معنوى، تدرجا لنزول أمطار الوحى الغزير على افئدة المؤمنين، وكما يروى عن النبى صلى‌الله‌عليه‌وآله: «إذا قرأت القرآن فرتله ترتيلاً وبيِّنه تبيينا، لا تنثره نثر الدقل ولا تهذّه هزَّ الشعر، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكونن هم أحدكم آخر السورة».[1]

فلتكون القلوب داعية الحركة بدوام البركة، فتتفأد بأنوار المعرفة دائبة، فلا تقف عَجَلة السير فيها، لذلک «رتلناه ترتيلاً» ونزلناه نجوما.

لقد نزل القرآن لإنشاء أمة فى الطول التاريخى والعرض الجغرافى، وليقيم نظاما دائما قويما، والتربية بحاجة إلى تدرُّج فى موادها، وإلى حركة تترجم التأثر والإنفعال إلى واقع المُرام، وليست النفس البشرية لتتحول قفزة من اللاّ شىء إلى كل شىء.

لذلک ينزل القرآن منجَّما وفق الحاجات الحية للعالمين، وهى فى طريق نشأتها ونموها، حسب الإستعدادات الموهوبة فى ظلال المنهج التربوى الربانى الدقيق العميق.

أوامر ونواهى يومية، وإنباءات تلوَ بعضٍ فتُجدِّد الجانب المعرفى والحالة العملية، يتلقاها المسلمون فى أحيانها المطلوبة فيها، المحتاج إليها، ليعلموا بها فور تلقيها، كما يتلقى الجندى فى ثكنته او فى خط النار ليطبِّق واجبة ساعة فساعة، ويوما فيوما.

لقد عاش ذلک القرآن العظيم والمعجز العميم طول زمن الرسول، وليكون على حجة وبينة دائبة على طول الخط، وليعلم الناس أنه ليس من عنده، ولو كان لما انتظر فى إجابات عن سؤالات نزولَ الوحى، وليزداد هو والمؤمنون علما بعد علم، فيعيشوا نَظِرة الرحمة الإلهية دائبين ودونما انقطاع.

وأما أن كتابات الوحى السالفة إنما نزلت جملة واحدة لأنها نزلت على أنبياء يقرئون ويكتبون، ولكن محمدا ما كان يكتب او يقرأ فقد ينساه، فيطارده قوله تعالى: «سنقرئک فلا

---

[1]. الدر المنثور ٦: ٢٧٧ ـ اخرجه الديلمي عن ابن عباس مرفوعا عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله واخرجه العسكري في المواعظ عن علي عليه‌السلام عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله.

تنسى».[1]

ولئن سألت فما هو الفارق بينها وبين القرآن فى فرق التنزيل وجمعه؟ أوَلم يكن النبيون من قبل بحاجة إلى تثبيت فؤادهم فى ترتيل وحيهم، وهم أحوج منه بكثير؟

فالجواب: أن الفارق الأصيل هو أن القرآن آية معجزة بنفسه دون سائر الوحى، فليحشر زمن الرسول على طول، ليعيش آية رسالته مادام حيا دونما انقطاع، وكما يعيشها المكلفون بعده حتى القيامة الكبرى، وأنه كتاب معرفة خالدة زائدة على سائر الوحى، فليثبت فؤاد الرسول وأفئدة المؤمنين بترتيله، وسائر الوحى أحكام لا تحمل إنباءات غيبية إلا نذرا قليلاً، وليس فيها نسخ وهو كائن فى القرآن، فهو بميِّزته فى منازل عدة يمتاز بنجومه... فى تنزيله.

وأن سائر الوحى تحمل احكاما تعبدية بسيطة، تعبِّد الطريق للشرعة الأخيرة الخالدة القرآنية.

وعلى الجملة ف «لنثبت به فؤادک» على سند الرسالة فى كل سنِّيها، وتثبيت لمزيد العلم والمعرفة له، وتثبيت فؤاده على الدعوة به ترتيلاً، وتثبيت وحيه أنه ليس منه، ولو كان لما كان ينتظر الوحى دائبا «ورتلناه ترتيلاً» لک وللمرسل إليهم: «ورتل القرآن ترتيلاً».

لذلک فعلينا نحن العائشين بعد زمن الرسول أن نترتل فى القرآن رويدا رويدا، ونرتله على الناس ترتيلاً، دون أن نترسل فى آياته كغزير الهاطل فنغرق فى خضمِّها، أو نرسل لطلابها فإذا هم غارقون فيها.

ولقد كان رسول اللّه صلىاللهعليهوآله يشارط من يتعلمون القرآن أن يتقنوه علما وعملاً شيئا فشيئا، دون تسرُّع لا فى قرائتِه ولا فى تعلُّمه، وإنما ترتلاً وترتيلاً ليأخذ مواضعه من العقول والقلوب والأفئدة، فتثبت عليه الأفئدة، وتتحرک به القلوب، فيصبح أمة القرآن فى حركة دائبة بترتيله.

«ولا يأتونک بمثلٍ إلاّ جئناک بالحق وأحسن تفسيرا».[2]

لهم أمثال الباطل، ولنا تفسير الحق، «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى

---

[1]. ٨٧: ٦.

[2]. ٢٥: ٣٣.

الأرض» ـ

فحجة القرآن البالغة محلّقة على أمثالهم الباطلة، دارجة لها إدراج الرياح، دونما إبقاء لهـا إلاّ فى ارتتاج.

﴿الّذين يحشرون على وجوههم الى جهنّم أولئک شرٌ مكانا وأضلُّ سبيلاً﴾.[1]

ذلک لأنهم بكل اتجاهاتهم ووجوههم حشروا يوم الدنيا تأجيل نيران الضلال والإضلال، فيوم القيامة يُحشرون على وجوههم بنفس الوجوه جزاء وفاقا ف ﴿من يهدِاللّـه فهـو المهتـد ومـن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عُميا وبكمـا وصـما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا ذلک جزاءهم بما كفروا﴾.

ولاية الكافرين على المؤمنين محظورة منكورة

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ للّه جَمِيعا﴾.[2]

وهذه مواصفة أخرى للمنافقين أنهم «يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين» إختصاصـا لموالاتهم الكافرين ومعاداتهم المؤمنين، فقد تعنى «مـن دون المـؤمنين» أنهـم لا يختصـون موالاتهم بهم فإنما يستبدلون الكافرين بالمؤمنين، وأما الموالاة العوان بين هؤلاء وهؤلاء فهى موالات مشركة لا تُعتبر من موالاة الإيمان، كما العبادة المشركة ليست من عبادة اللّه.

وماذا يبتغون من هذه الموالاة الكافرة؟ «أيبتغون عندهم العزة»! «فإن العزة للّه جميعا» ولأهـل اللّه، ف ﴿للّه العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾.[3]

فعزة الرسول والمؤمنين راجعة الى اللّه فإنها من اللّه على ضوء الإيمـان، فـلا معارضـة بـين آيتى إختصاص العزة باللّه وتعميمها للرسول والمؤمنين.

إن عبودية اللّه وولاية اللّه ورسوله والمؤمنين هى كلها عزة وإعـتلاء، فكيـف يعتـز المـؤمن

---

[1]. ٣٤.

[2]. ٤: ١٣٩.

[3]. ٦٣: ٨.

بمن يكفر باللّه، وكأن اللّه لا يكفيه عزةً أم هو ذليل وأعداءه أعزة.

فالإعتزاز بأية موالاة فى أىٍّ شأن من شؤون الكفار إهتزاز فى الإيمان وإبتزاز منه، بل وموالاتهم محرمة على أية حال إعتزازا وسواه من غايات «إلاّ أن تتقوا منهم تقاة» فظاهرة الولاية ـ فقط ـ والضرورات تقدر بقدرها: «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من اللّه فى شىء إلاّ أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم اللّه نفسه وإلى اللّه المصير»[1] وقد فصلنا القول حول ولايتهم والتقية منهم على ضوء هذه الآية فلتراجع.

ذلك، ومن موالاتهم ألا تقعدوا معهم حين يكفرون بآيات اللّه ويستهزءون أو يمنعون فينتهون:

«وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّه يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللّه جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعا».[2]

«قد نزل عليكم فى الكتاب» من ذى قبل كما فى الأنعام المكية ـ وهذه مدنية ـ: «وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وإمّا يُنسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين».[3]

فكما الخوض مع الخائضين هو من شيمة الكفافرين: «وكنا نخوض مع الخائضين»[4] كذلك القعود معهم حيث تتأثر بخوضهم أم لا تؤثر فى تركهم ساكتا فيحسبونه منهم ف «إنكم إذا مثلهم» مهما اختلف خائض ومشارك معه، وقاعد ساكت عنه، فإنهم ثالوث الدركات.

ذلك، إلاّ أن يعنى القعود معهم الرد عليهم فى مجلسهم، أو المحاولة فيه حيث تسمعهم ما يقولون ثم تخلوا بالمؤمنين العارفين لكى تدبّر الإجابة عن شطحاتهم والرد على كفرهم

---

[1]. ٣: ٢٨.

[2]. ٤: ١٤٠.

[3]. ٦: ٦٨.

[4]. ٧٤: ٤٥.

وإستهزاءهم.

فإنما محظور الحضور معهم هو قعود المقاعدة المجاراة والمسايرة[1] دون سائر القعود.

ذلک والصغی الی المعاصی ککل هو من المعاصی[2] والجلوس فی مجالس الظلم هو من الظلم، إلا أن تمنع أهلها، «فلا تقعد بعد الذکری مع القوم الظالمین» أیا کان الظلم، فکما الظلم درکات، فالإصغاء إلیه والقعود مع الظالم فی ظلمه أیضا درکات.

فلا یختص المحظور بالجلوس علی مائدة یشرب علیها الخمر، بل کل موائد العصیان والظلم وکل مجالسة محظورة مهما اختلفت درکاتها.

أجل «إنکم إذا مثلهم» وإن فی نفاق القعود معهم ساکتین حیث یخیَّل إلیهم وفاقکم وفیه فتٌّ لعضد الإسلام وثلّم فی ساعده «إن اللّه جامع المنافقین والکافرین فی جهنم جمیعا»مهما اختلفت درکاتهما کدرکات کل منهما، وقعود المؤمن معهم ساکتا هو أخف درکا فأطفُّ مماثلة.

والمخاطَبون فی «قد نزل علیکم.. إذا سمعتم.. فلا تقعدوا.. إنکم» هم کل المسلمین مؤمنین ومسلمین سذَّج ولمَّا یدخل الإیمان فی قلوبهم والمنافقین، ثم «إنکم إذا مثلهم» فی الأصل هم المنافقون الرسمیون، وعلی هامشهم الآخرون.

فهنا أصل الضلالة «الکافرون» وعلی هامشهم المنافقون القاعدون معهم المسایرون المصایرون، ثم بسطاء المسلمین ومن ثم المؤمنون السذَّج الذین یقعدون معهم أحیانا.

و«إن اللّه جامع المنافقین والکافرین» یعنی المنافقین الرسمیین، دون القسمین الآخرین الذین

---

[1]. نور الثقلين ١: ٥٦٤ عن الكافي عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد عن شعيب العقرقوفي قال سألت أبا عبدالله عليه‌السلام في قول الله عز وجل «وقد نزل عليكم في الكتاب..» فقال: «إنما عنى بهذا الرجل يجحد الحق ويكذب به ويقع في الائمة فقم من عنده ولا تقاعده كائنا من كان».
وفيه مثله عن العياشي عن محمد بن الفضل عن أبي الحسن الرضا عليه‌السلام في الآية قال: إذا سمعت الرجل يجحد الحق ويكذب به ويقع في أهله فقم من عنده ولا تقاعده.

[2]. المصدر فيمن لا يحضره الفقيه قال أمير المؤمنين عليه‌السلام في وصيته لابنه محمد بن الحنفية ففرض على السمع ألا تصغى به الى المعاصي فقال عز وجل: «وقد نزل عليكم في الكتاب..».
تفسير البرهان ١: ٤٢٣ بسند متصل عن أبي الصلت المروي عن الرضا عليه‌السلام في قول الله جل جلاله «ولين يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا» قال فإنه يقول «ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين حجة ولقد أخبر الله تعالى عن كفار قتلوا نبيهم بغير الحق ومع قتلهم إياهم لم يجعل الله لهم على أنبياءه سبيلاً».

لا يعنون بقعودهم معهم نفاقا مهما كانت عمليتهم من النفاق أو من ضعف الإيمان أم لمَّا يدخل الإيمان فى قلوبهم.

والقعود المحظور معهم إنما هو «حتى يخوضوا فى حديث غيره» لا لنا ولا علينا، فإذا تركوا الخوض المحظور فلا محظور من هذه الناحية.

ولأن القاعدين معهم درجات، فكذلك المماثلة والجمع فى الجحيم دركات.

فالمنافق القاعد معهم هو مثلهم تماما أو هو أنحس: «إن المنافقين فى الدرک الأسفل من النار» ف «إن اللّه جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا» كما كانوا يوم الدنيا فى الكفر بآيات اللّه والإستهزاء بها جميعا.

ثم «إن اللّه جامع» القاعدين الآخرين دونما عذر عاذر «مع الكافرين» قدر المحظور من قعودهم وجمعهم معهم، فقد يكتفى لهم بنار البرزخ إذا لم يتوبوا ولم يثوبوا.

«الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنْ اللّه قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فَاللّه يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللّه لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً».[1]

هؤلاء المنافقون المصلحيون «الذين يتربصون بكم» سِجال الحرب «فإن كان لكم فتح من اللّه» وهم أولاء غير فاتحين ولا متفتحين معكم فى جبهات القتال «قالوا ألم نكن معكم» فى الإيمان.

إذا فلنا نصيب من غنيمة الفتح كما لكم نصيب «وإن كانَ للكافرين نصيب» من الحرب وليس فتحا أيا كان، ولا من اللّه تأييدا لهم «قالوا» لهم «ألم نستحوذ عليكم» إستحفاظا لغَلَبَكم عليهم «ونمنعكم من المؤمنين» بما كنَّا نوصلكم من أخبارهم مُنعة لكم عن أوضارهم؟.

وذلک من لقاء النفاق العارم، أنهم يَلقون كلاً من المؤمنين والمنافقين بوجه إمساكا للعصا من وسطها، وتلوِّيا وتلوُّنا كالديدان والثعابين مذبذبين بين ذلک لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء،

---

[1]. ٤: ١٤١.

إنتفاعا من الجانبين وتحذُّرا عن بأس الجانبين.

ففى فتح المؤمنين «ألم نكن معكم» معيۀ بقلوبنا، أم ومعيۀ فى نفس المعركۀ، فقد كانوا يخرجون إليها أحيانا تخلخلاً للصفوف وإظهارا للوجود فيها مع كل حائطۀ على أنفسهم كيلا يُقتلوا أو يصابوا بشىءٍ.

وفى نصيب الكافرين «ألم نستحوذ عليكم» أن غلبناكم من ذى قبل «ونمنعكم من المؤمنين» حيث آزرناكم واوزرناكم بحمى ظهوركم وتخذيل المؤمنين لصالحكم إذ تخللنا فى صفوفهم لصالحكم والتجسّس والتحسّس لكم، حيث الإستحواذ هو الغلبۀ، وقد تعنى ـ فيما عنت ـ أن البعض منكم هممتم الدخول فى الإسلام ونحن حذَّرناكم عنه فغلبناكم على ما هممتم فغلبتم عليهم، فهاتوا نصيبنا من غَلَبكم عليهم لأن لنا شطرا من ذلك الغَلَب.

فهم أولاء الأنكاد البعاد بطنوا فى قلوبهم السمّ ضد المؤمنين وعلى ألسنتهم الدهان لكى ينتفعوا من الجانبين ويأمنوا الضر من الناحيتين.

«فاللّه يحكم بينكم يوم القيامۀ».

واقعيا لا حِوَل عنه ولا تحويل، مهما حكم يوم الدنيا شرعيا وبعض الواقع قدر ما لا يزول الإبتلاء من البين، ثم

«ولن يجعل اللّه للكافرين على المؤمنين سبيلاً».

فالكافر أيا كان وأينما كان لا سبيل له على المؤمن، و«لن يجعل» سلب بات لواقع الجعل وشرعته، شرعيا يوم الدنيا، وواقعيا فى النشآت الثلاث.

فالمؤمنون مزودون بكافۀ الآيات الربانية آفاقيۀ وأنفسيۀ، وبكافۀ الحجج الفطريۀ والعقليۀ والكونيۀ والشرعيۀ، ولا حجۀ للكافرين عليهم مكافحۀ، إلا تسويلات إبلسيۀ لا سبيل لها الى المؤمنين، ف «لن يجعل اللّه للكافرين على المؤمنين سبيلاً» «من طريق الحجۀ»[1] ولا أيۀ محجۀ ومبلجۀ، فحجۀ المؤمنين بما جعل اللّه بالغۀ وحجۀ الكافرين دامغۀ.

---

[1]. الدر المنثور ٢: ٢٣٥ ـ أخرج عبدالرزاق والفرياني وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن علي عليه‌السلام أنه قيل له: ارأيت هذه الآية «ولن يجعل اللّه للكافرين على المؤمنين سبيلاً» وهم يقاتلون فيظهرون ويقتلون؟ فقال: أدنه أدنه ثم قال «فاللّه يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل اللّه للكافرين على المؤمنين سبيلاً».

ولأن اللّه يحكم بينكم يوم القيامة[١] فليست الحرب السِجال بغلَبِ الكافرين على المؤمنين سبيلاً لهم عليهم حيث يجبر كل كسر لهم منهم يوم القيامة.

ثم إن ذلك الغَلَب هو بين محنة لهم ومهنة، محنة حين لم يقصّروا فى واجبهم تجاه اللّه، ترفيعا لدرجاتهم، ومهنة حين يقصّرون كما فى أحد، ولن يضيع حق المؤمن بشرف الإيمان أينما كان.

فحين يجد المؤمنون سبيلاً للكافرين عليهم فى سلطة زمنية أماهيه، فليس ذلک من جعله سبحانه فى شرعة له أو تكوينا منه كما من عنده، فصحيح أنه «كل من عند اللّه» ولكن «ما أصابک من سيئةٍ فيمن نفسک» شخصيا أو من أنفس الآخرين.

فالسلطة الشرعية للكافرين على المؤمنين مستأصلة عن بكرتها فى شرعة اللّه، والسلطة الزمنية لهم عليهم كما الشرعية ليست من شرعة اللّه، فإنما هى لقلة الهمم الإيمانية أمّاهيه من ملابسات قضيتُها أن يتسلطوا علينا ردحا من الزمن و«لا تهنوا أو لا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين»[٢] و«لن يضروكم إلاّ أذىً وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا يُنصرون»،[٣] والمخاطَبون هنا هم المؤمنون المحققون شرائط الإيمان فرديا وجماعيا، و«ذلک بأن اللّه لم يک مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».[٤]

وليس قتل الكافرين الأنبياءَ والائمة والصالحين سبيلاً منهم عليهم[٥] حيث الحجة الربانية بالغة

---

[١]. الدر المنثور ٢: ٢٣٥ ـ أخرج عبدالرزاق والفرياني وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن علي عليه‌السلام أنه قيل له: ارأيت هذه الآية «ولن يجعل اللّه للكافرين على المؤمنين سبيلاً» وهم يقاتلون فيظهرون ويقتلون؟ فقال: أدنه أدنه ثم قال «فاللّه يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل اللّه للكافرين على المؤمنين سبيلاً».

[٢]. ٣: ١٣٩.

[٣]. ٣: ١١١.

[٤]. ٨: ٥٣.

[٥]. نور الثقلين ١: ٥٦٤ في عيون الأخبار عن أبي الصلت الهروي قال قلت للرضا عليه‌السلام يا بن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله في سواد الكوفة قوم يزعمون أن الحسين بن علي عليهما‌السلام لم يقتل وأنه ألقي شبهه على حنظلة بن أسعد الشامي وأنه رفع الى السماء كما رفع عيسى بن مريم عليهما‌السلام ويحتجون بهذه الآية «ولن يجعل اللّه للكافرين على المؤمنين سبيلاً» فقال كذبوا عليهم غضب اللّه ولعنته وكفورا بتكذيبهم لنبي اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله وقتل من كان خيرا من الحسين وأمير المؤمنين والحسن بن علي عليهما‌السلام وما منا إلا مقتول وإني واللّه لمقتول بالسم بأغتيال من يغتالني أعرف ذلك بعهد معهود إليّ من رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله أخبره به جبرئيل عليه‌السلام عن رب العالمين عز وجل وأما قوله «ولن يجعل اللّه للكافرين على المؤمنين سبيلاً» فانه يقول: «لن يجعل اللّه لهم على أنبياء عليهم‌السلام سبيلاً».

على هؤلاء الظالمين، وليس من اللّه إلا عدم المُنعة التكوينية عن هذه المظلمات، وقد يمنع أحيانا كما فى نار إبراهيم وملاحقة موسى وإغتيال المسيح عليه‌السلام، وفى ليلة المبيت لرسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله وكلٌّ حسب الحكمة العالية الربانية فى أصلين أصيلين، أصل الإختيار وأصل الحفاظ على الرسالات.

وترى الشهداء فى سبيل اللّه هم المغلوبون بسبيل القتل عليهم؟ وقد رفعت درجاتهم بالشهادة الكريمة والمغلوب هو القاتل الظالم إذ لم يقتل إلاّ الجسد وأما الروح فهو الغالب.

فليس لأسنة الظالمين ورماحهم نصيب إلاّ الأبدان وللأرواح التعالى وإرتفاع الدرجات، وأحسِن بما أنشد فى حق سيد الشهداء والإمام الحسين عليه‌السلام:

قد غيَّر الطعن منهم كل جارِحةٍسوى المكارم فى أمنٍ من الغِيَر

ثم «لن يجعل» تعم فى الشرعى منه الإمضاء مع الإنشاء، فكما اللّه لن يجعل سبيلاً للكافرين على المؤمنين فى أى حقل من الحقول فردية وجماعية، أحكامية وزمنية، كذلك لن يمض ما يجعله المؤمن على نفسه للكافر.

فلا ولاية للكافر على المؤمن أصيلة ولا فرعية، ومن فروعها عدم ولاية الأب الكافر على الولد المؤمن اللّهم إلاّ مصاحبة معه معروفة «وصاحبهما فى الدنيا معروفا».

ومنها نعدم جواز نكاح المؤمنة بالمشرك لعدم جواز طاعته عليها ولاية، إضافة الى نص «لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن»[1] «ولا تنحكوا المشركين حتى يؤمنوا».[2]

فسلطة الولاية وسلطة المَلكية والمالكية أماهيه من سلطات وسبل لهم على المؤمنين منفية منهية، فليس للكافر أن يشترى عبدا مؤمنا، ولا يُقتل مؤمن بكافر ذميا وسواه، ولا يملك الكافر مال المؤمن بغنيمة وسواها إلاّ أن تكون تجارة عن تراض أماهيه من تعامل مشروع.

وترى حين تختص السبيل المسلوبة للكافرين على المؤمنين بهم، فهل المنافقون وسائر المسلمين الذين لمّا يدخل الإيمان فى قلوبهم، هل للكافرين عليهم سبيل؟.

---

[1]. ٦٠: ١٠.

[2]. ٢: ٢٢١.

المنافقون هم مثل الكافرين بحكم المماثلة المنصوصة فى الآية إلا فيما خرج بقاطع البرهان كظاهر الأحكام الإسلامية التى تعم كافة المسلمين، ثم الباقون داخلون فى المؤمنين فقرينة قرنهم بالكافرين والمافقين.

فحين تعم «يا أيها الذين آمنوا آمِنوا» مؤمنى أهل الكتاب وسائر الموحدين، فكيف لا تشمل هنا طليق «المؤمنين» غير المنافقين الرسميين، الذين آمنوا بهذه الرسالة السامية مهما كانوا فيه درجات!.

فكما لن يجعل اللّه للكافرين على المؤمنين بهذه الرسالة سبيلاً، كذلك لن يجعل اللّه للكافرين بسائر الرسالات على المؤمنين بها سبيلاً، ولن يجعل للمشركين والملحدين على الموحدين سبيلاً، ضابطة عامة روعيت فيها رجاحة الإيمان على أية حال.

ذلك! فالقدر المعلوم هنا من «المؤمنين» المؤمنون ـ على درجاتهم ـ بهذه الرسالة السامية، فكما لا سبيل للكافر عليهم، كذلك لا سبيل للمنافق عليهم مثلان لا يتفارقان إلاّ فى البعض من المظاهر المنافقة، فلا يجوز تزويج المؤمنة بمنافق ولا منافقة بمؤمن حيث الغاية المجوزة فى آية البقرة «حتى يؤمنوا وحتى يؤمنَّ» والمنافق ليس مؤمنا، وكذلك كافة الأحكام التى موضوعها الإيمان لا تشمل المنافقين والمنافقات، مهما شملت المسلمين والمسلمات ولمَّا يدخل الإيمان فى قلوبهم.

فهذا وعد يحمل كل إنشاءٍ واخبار من اللّه، يستأصل كل سبيل للكافرين والمنافقين على المؤمنين، فالهزائم اللاحقة بالمؤمنين ليست إلا من خلفيات ثغرات فى إيمانهم، فى شعورهم أو عملهم.

فحين يؤمر المؤمنون باتّا لا حِوَل عنه «وأعدوا لهم ما أستطعتم من قوة..» فلا يعنى إنهزامهم أحيانا عن الكفار إلاّ إنهزامهم عن ذلك الإعداد المستطاع.

ولئن تتبعنا الهزائم الإسلامية طول التاريخ الإسلامى، نجدها كلها من مخلّفات ثغرات، ففى أحد ثغرة ترك الطاعة لقائد القوات المسلمة الرسولية.

«ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين».

فإعجاب المؤمنين بكثرتهم ثغرة فى محكم إيمانهم، يبتليهم اللّه بهزيمة وقتية لكى ينتبهوا ثم نصرهم بإيمانهم لما انتبهوا ف «لقد نصركم اللّه فى مواطن كثيرة ويوم حنين.. ثم أنزل اللّه سكينة على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلک جزاء الكافرين. ثم يتوب اللّه من بعد ذلک على من يشاء واللّه غفور رحيم».[1]

والهزيمة الإبتلائية للمؤمنين كما فى حنين وكذلک هزيمة البلاء كما فى أحد، كانت هزيمة ظاهرية حملت معها قوة فى نفوس المؤمنين، حيث تبعث الهمة وتذكى الشعلة وتُبصر لمزالق وتكشف عن الأخطاء وعن طبيعة المعركة، فإنها تقدمات للغَلَب بعد الهزيمة مهما طال الطريق.

ف «لن يجعل اللّه للكافرين على المؤمنين سبيلاً» تقرر إنتصار الروح الإيمانية على مدار الزمن، غالبين فى المظاهر أو مغلوبين.

فما اللّه عزيز غالب على أمره، كذلک المؤمنون باللّه هم أعزة لا يَذلون ولا يُذلُّون ما هم مؤمنون، فهناک فرق بين دعوى الإيمان ومظهره وحقيقته، فحقيقته فى التصور والعقيدة والعمل لا تُغلب أبدا، ولكن دعواه دون مظهر، أو مظهر دون حقيقة، إنها بطبيعة الحال تُغلب كما يُغلب سائر من لا حقيقة له.

«إنَّ المنافقين يخادعون اللّه وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصّلاة قاموا كسالى يراءون النَّاس ولا يذكرون اللّه إلاَّ قليلاً».[2]

«يخادعون اللّه»: يعاملون معه عمل المخادع كأنه ـ وعوذا به ـ يُخادَع «وهو خادعهم» كما هم يخادعونه، ولكن أين مخادعة من مخادعة «يخادعون اللّه والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون»[3] ف «إن اللّه عز وجل لا يخادَع ولكنه يجازيهم جزاء الخديعة».[4]

---

[1]. ٩: ٢٧.

[2]. ٤: ١٤٢.

[3]. ٢: ٩.

[4]. نور الثقلين ١: ٥٦٥ في عيون الأخبار عن علي بن الحسن بن علي بن فضال عن أبيه قال سألت الرضا عليه‌السلام ـ إلى أن قال ـ.. وسألته عن قول اللّه عز وجل «سخر اللّه منهم» وعن قوله «يستهزىء بهم» وقوله تعالى «ومكروا ومكر اللّه» وعن قوله عز وجل

ذلک ومن مخادعتهم اللّه «وإذا قاموا الى الصلاۀ قاموا کسالی» قاموا حال أنهم کسالی وهم فی کل أحوالهم فی القیام الی الصلاۀ کسالی «وإنها لکبیرۀ إلاّ علی الخاشعین» وعبءٌ وحِمل ثقیل علی الذین لا یؤمنون.

«یراءون الناس» حتی فی قشر الصلاۀ، فلولا الناس لترکوها کما ترکوا باطنها.

«ولا یذکرون اللّه» بألسنتهم «إلاّ قلیلاً» ذکرا قلیلاً، و قلیلاً منهم، فلا یذکرونه بقلوبهم لا کثیرا ولا قلیلاً لأنهم لا یؤمنون، ثم وحتی لو ذکروا اللّه بألسنتهم کثیرا فهو قلیل فی میزان اللّه[1] حیث الذکر إنما هو بالعُدّۀ الباطنیۀ لا بالعِدۀ الظاهریۀ إلا إذا صاحبها الباطن.

فذلک الثالوث بشأن الصلاۀ هو الشأن الشائن الفاتن للمنافقین.

فهم لا یقیمون الصلاۀ بل یقومون الی الصلاۀ کسالی یراءون الناس ولا یذکرون اللّه إلاّ قلیلاً، فیذکرون اللّه فی الصلاۀ لفظا باللسان فیما یجهر فیه إذا کانوا مع المؤمنین ثم یترکون سائر الذکر واجبا أو راجحا إذ لا یؤمنون.

کما وفی غیر الصلاۀ لا یذکرون اللّه متجاهرین إلاّ إذا لزم الأمر لمصلحۀ النفاق، فذکرهم المخصوص بألسنتهم قلیل فی قلیل، قلیل مهما کان کثیرا إذ لیس له معنی فی القلب، وقلیل فی ظاهر اللسان إذ لیس إلاّ إذا لزم الأمر، وقلیل فی إخفاته باللسان إذ لیس کذلک إلاّ إذا لزم الأمر، قلات ثلاث وهی بثالوثها قلیلۀ بجنب ذکر المؤمنین مهما کان قلیل المظاهر.

فالصلاۀ حالۀ الکسل حالۀ منافقۀ وإن حصلت للمؤمنین بفارق أن حال المنافقین فی حقل الصلاۀ کلها کسل، والمؤمن قد تتفق له تلک الحالۀ البئیسۀ.

وهم یراءون الناس فی کل عباداتهم ومظاهر أفعالهم ولیس کذلک بسطاءُ المؤمنین فضلاً عن وسطائهم أو الکملین.

«یخادعون الله وهو خادعهم» فقال: إن الله عز وجل لا یسخر ولا یستهزیء ولا یمکر ولا یخادع ولکنه عز وجل یجازیهم جزاء السخریة وجزاء الإستهزاء وجزاء المکر والخدیعة تعالى عما یقول الظالمون علوا کبیرا.

[1]. المصدر ٥٦٦ في أصول الکافي قال أمیر المؤمنین علیه‌السلام من ذکر الله عز وجل في السر فقد ذکر الله کثیرا إن المنافقین کانوا یذکرون الله علانیة ولا یذکرونه في السر فقال الله عز وجل: یراءون الناس ولا یذکرون الله إلاّ قلیلاً.
وفي الدر المنثور ٢: ٢٣٧ ـ أخرج مسلم وأبو داود والبیهقي في سننه عن أنس قال قال رسول الله صلی‌الله‌علیه‌وآله: تلک صلاة المنافق یجلس یرقب الشمس إذا کانت بین قرني الشیطان قام فنقر أربعا لا یذکر الله فیها إلاّ قلیلاً.

وهم لا يذكرون اللّه على أية حال إلا قليلاً، والمؤمنون قد يذكرونه كثيرا وأخرى قليلاً، ثم وذكر المؤمن كأصل هو بكلا القلب واللسان وذكر المنافق لا يتجاوز اللسان.

أجل وهؤلاء المنافقون ليسوا من الكافرين ـ بفارق مظاهر الإيمان ـ وليسوا من المؤمنين ـ إذ هم فى قلوبهم كافرون ـ وليسوا من المسلمين ـ ولمَّا يدخل الإيمان فى قلوبهم، إذ لا ينتظر منهم إيمان حيث تعرَّق الكفر فى قلوبهم ـ يظهرون الإيمان ويصيرون الى الكفر والتكذيب لعنهم اللّه.[1]

ذلك «وللمنافق ثلاث علامات يخالف لسانُه قلبه وفعلُه قوله وعلانيتُه سريرته وللكسلان ثلاث علامات يتوانى حتى يَفرط ويفرط حتى يضيع ويضيع حتى يأثم، وللمرائى ثلاث علامات يكسل إذا كان وحده[2] وينشط إذا كان الناس عنده ويتعرض فى كل أمر للمحمدة.[3] فيا أيها المؤمن «لا تقم الى الصلاة متكاسلاً ولا متناعسا ولا متثاقلاً فإنهما من خلال النفاق»[4] ف «من حسَّن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو فتلك إستهانة إستهان بها ربه».[5] والكسل على أية حال فشل، إن فى أمر الآخرة فلها وإن فى أمر الدنيا فلها[6] و«مثل المنافق

---

[1]. نور الثقلين ١: ٥٦٥ في أصول الكافي عن محمد بن الفضيل قال كتبت إلى أبي الحسن عليه‌السلام أسأله عن مسألة فكتب إلي: إن المنافقين ـ إلي ـ فلن تجد له سبيلاً ليسوا من الكافرين وليسوا من المؤمنين وليسوا من المسلمين يظهرون الإيمان ويصيرون إلى الكفر لعنهم الله.

[2]. وفيه عن معاني الأخبار عن عبداللّه بن سنان قال كنا جلوسا عند أبي عبداللّه عليه‌السلام إذ قال له رجل من الجلساء جعلت فداك يا بن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله أخاف علي أن أكون منافقا فقال: إذا خلوت في بيتك نهارا أو ليلاً أليس تصلي؟ فقال: بلى فقال: فلمن تصلي؟ فقال: للّه عز وجل فقال كيف تكون منافقا وأنت تصلي للّه عز وجل لا لغيره؟.

[3]. المصدر في كتاب الخصال عن أبي عبداللّه عليه‌السلام قال قال لقمان لابنه يا بني لكل شيء علامة يعرف بها ويشهد عليها ـ إلى قوله ـ وللمنافق...

[4]. المصدر في كتاب العلل بإسناده إلى زرارة عن أبي جعفر عليهما‌السلام حديث طويل يقول فيه: ولا تقم إلى الصلاة... وقد نهى اللّه عز وجل المؤمنين أن يقوموا إلى الصلاة وهم سكارى يعني من النوم وقال للمنافقين «وإذ اقاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلاّ قليلاً».
أقول: يعني من النوم بيان لأخف المصاديق للسكر وأخفاها فإن أصل السكر من الخمر.

[5]. الدر المنثور ٢: ٢٣٥ ـ أخرج أبو يعلى عن ابن مسعود قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله:...

[6]. المصدر عن أبي عبداللّه عليه‌السلام قال: من كسل عن طهوره وصلاته فليس فيه خير لأمر آخرته ومن كسل عما يصلح به أمر معيشته فليس فيه خير لأمر دنياه، وفيه قال أمير المؤمنين عليه‌السلام إن الأشياء لما ازدوجت ازدواج الكسل والعجز فنتجا بينهما الفقر. وفيه عن علي بن الحسين عليهما‌السلام قال: «إن المنافق ينهى ولا ينتهي ويأمر بما لا يأتي وإذا قام إلى الصلاة اعترض قلت يا بن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله وما الاعتراض؟ قال: الالتفات فإذا ركع ربض يمسى وهمه العشاء وهو مفطر ويصبح وهمه النوم ولم يسهر وإن حدثك كذب وإن ائتمنته خانك وإن غبت اغتابك وإن وعدك اخلفك».

مثل جذع أراد صاحبه أن ينتفع به فی بعض بنيانه فلم يستقم له الموضـع الـذی أراد فحوَّلـه فی موضع آخر فلم يستقم فكان آخر ذلک أن أحرقه بالنار»:[1] «وإذا رأيتهم تعجبک أجسـامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسنَّدة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فأحذرهم قاتلهم اللّه أنَّى يؤفكون».[2]

«مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِکَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَمَنْ يُضْلِلْ اللّه فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً».[3]

حالة جامعة جامحة للمنافقين «مذبذبين بين ذلک» الذی سبق من إيمان وكفر.

والذبذبة هی الحركة الدائبة وتنقُّلة مستمرة كذبذبة الساعة غيـر المسـتقرة علـى حـال، وقـد تكون مركبة من «ذب ـ ذب» فكلما يميلون الى جانب يذبون عنه الى آخـر، فلأنـه مكـرور منهم دون ثبات فهم إذا «مذبذبين بن ذلک» ثم «لا الى هؤلاء ولا الـى هـؤلاء» تفسـر تلـک الذبذبة الحائرة المائرة:

«لا الى هؤلاء» المؤمنين باطناً الى ظاهر، «ولا الى هؤلاء الكافرين» ظـاهرا الـى بـاطن، فقـد اقتسموا إسرارهم وإعلانهم بين الفريقين، يعتذرون الى كلٍّ إن عرفوا حالهم أنهم لَمنهم فإنما يسايرون عدوهم مستهزئين، وذلک هو الضلال المبين.

«ومن يضلل اللّه» بما ضل هو نفسه عن سواء الصراط «فلن تجد له سبيلاً» الى الهدى: «ولمـا زاغوا أزاغ اللّه قلوبهم» فقد ذبذبوا أنفسهم بين ذلک فأضلهم اللّه بأن ذبذبهم «فلن تجـد لـه سبيلاً» حيث أذاقهم اللّه وبال أمرهم.

ذلک والذبذبة بين الحق والباطل هی نفاق عارم على أية حـال، مهمـا تسـربت الـى بعـض المؤمنين البسطاء دون الفضلاء والوسطاء.

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُـؤْمِنِينَ أَتُرِيـدُونَ أَنْ تَجْعَلُـوا للّـه

---

[1]. المصدر عن سعيد بن يسار عن أبي عبداللّٰه عليه‌السلام قال قال رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله: مثل المنافق...

[2]. ٦٣: ٤.

[3]. ٤: ١٤٣.

عَلَيْكُمْ سُلْطَانا مُبِينا».[1]

لقد كان للأنصار بالمدينة فى بنى قريظة رضاع وحلف ومودة فقالوا لرسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله من نتولى؟ فقال: المهاجرين، فنزلت الآية.[2]

و«الكافرين» هنا تعم المنافقين وسائر الكافرين بل هم أولاء أكفر منهم وأضل سبيلاً لتجسسهم فى نفاقهم على المؤمنين واضلالهم بسطاءهم فى عشرتهم اللئيمة.

فإتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين هو إتخاذ للشيطان وليا من دون اللّه وهذا سلطان مبين للّه على هؤلاء.

«إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرا».[3]

الدرک هو الهابط كما الدرج هو الصاعد، فكما للجنة درجات حسب درجات المؤمنين، كذلک للنار دركات حسب دركات الكافرين: «لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزءٌ مقسوم»[4] وقد تكون أبوابها عمودية فوق بعض فأسفلها هو الدرک الأسفل فلأن «لكل باب منهم جزءٌ مقسوم» فليست النار فسحة واحدة فإن مختلف أبواب فسحة واحدة لا تخلّف مختلف العذاب، فهى ـ إذا ـ أبواب سبعة سِفل بعضٍ أسفلها جحيم المنافقين.

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللّه رَبِّكُمْ إِنْ كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادا فِى سَبِيلِى وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ».[5]

ملامح هذه الآية وما بعدها، ومصارحها أيضا، تشهد أنها نزلت تنديدا ببعض المهاجرين

---

[1]. ٤: ١٤٤.

[2]. تفسير الفخر الرازي ١١: ٨٦ والسبب فيه أن الأنصار...

[3]. ٤: ١٤٥.

[4]. ١٥: ٤٤.

[5]. ٦٠: ١.

الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم وأهليهم، وظلت نفوسهم مشدودة عالقة إلى بعض من خلفوا هناک من الأهلين، فاتخذوا مشركى مكة أولياء، يعتاضون بولايتهم الحفاظ على أهليهم، ومنهم ــ كحاطب بن أبى بلتعة ــ مَن ألقى اليهم بالمودّة، فلم يكتفِ هذا الذليل الهزيل الإيمان بموادتهم، فقد تخطاها إلى إلقاء أسرار النبى صلى‌الله‌عليه‌وآله**اليهم بالمودة، يتسقطهم أسراره ذات الخطورة، فإلقاء المودة شیء، والإلقاء بالمودة شیء آخر يتطلب مفعولاً به محذوفا، وما هو إلا أسرار النبى** صلى‌الله‌عليه‌وآله **وكما تقول الروايات،[1] كما وأن نفس الإلقاء إيحاءٌ بكيان هذه الولاية، أنها ملقاة مفصولة عن القلب، بمكتوب أو سواه بعث لهم سرا.**

ف «تلقون اليهم بالمودة» و«تُسرُّون اليهم بالمودة» تقتضيان أدبيا أن جماعة منهم ألقوا إلى المشركين مسرِّين شيئا من الأسرار، وقد فضحهم اللّه كما يفضح المنافقين، لأنهم اعتملوا عملية النفاق، وإن لم يكونوا منافقين، ولكنه ضلال عن سواء السبيل، فما دور الأرحام والأولاد بجنب الإيمان إلا دور الأغارب البعيدين سواء، فلماذا الاعتياض بإلقاء الأسرار بهم بالمودة؟ إعلانا أو إسرارا «وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم»؟.

يقف الإنسان هنا حائرا من فعلة حاطب وأضرابه، وهو مسلم مهاجر، فيا للنفس البشرية من منحنيات عجيبة، قد يحتمى لمن يعانده حفاظا على قرابته وأحمئته، وبينه وبين الذين يلقى اليهم بالمودة ثالوث المفارقات: «عدوى وعدوكم» «كفروا بما جاءكم من الحق» «يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا باللّه».

إنهم عادوا اللّه إذ أشركوا به، وعادوا الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله **إذ كذبوه، وكفروا بالحق الذى جاءكم من اللّه يحمله رسول اللّه** صلى‌الله‌عليه‌وآله**، وأخرجوا الرسول والمؤمنين مغبّة إيمانهم باللّه ومحبة**

---

[1]. الدر المنثور ٦: ٢٠٣ ـ أخرج أحمد والحميدي وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وأبو عوانة وابن حبان وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وأبو نعيم معا في الدلائل عن علي عليه‌السلام قال: بعثني رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله أنا والزبير والمقداد فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فائتوني به، فخرجنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة، فقلنا، اخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، قلنا: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها فأتينا به النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله فإذا فيه: من حاطب بن ابي بلتعة إلى اناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله، فقال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله: ما هذا يا حاطب؟ قال: (تجد الجواب في المتن).
وروى القمي أن حاطب بن أبي بلتعة قد أسلم وهاجر الى المدينة وكان عياله بمكة وكانت قريش تخاف أن يغزوهم رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فصاروا الى عيال حاطب وسألوا أن يكتبوا الى حاطب يسألوه عن خبر محمد هل يريد أن يغزو مكة؟ فكتبوا الى حاطب يسألوه عن ذلك، فكتب اليهم حاطب: إن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله يريد ذلك، ودفع الكتاب الى امرأة تسمي صفية فوضعته في قرونها ومرت، فنزل جبرئيل على رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله وأخبره بذلك، فبعث رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله أمير المؤمنين عليه‌السلام...

إدخالهم فى الكفر كما هم: «أن تؤمنوا باللّه ربكـم» لا تتخـذوهم أوليـاء «إن كنـتم خـرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى» فمفاصلة أعداء اللّه من شـروط الإيمـان الـذى يـدفعكم للخروج عن الأموال والأهلين جهادا فى سبيل اللّه وابتغاء مرضاة اللّه.

فكيف يوادهم ويلقى اليهم بالمودة أسرارا، مَن هم رجال اللّه المنتسبون اليه الذين يحملـون شارته فى هذه الأرض المغبـرة، ويمثلـون شاشـة الحق فـى مصـارح ومسـارح المجتمـع المتصارعة؟.. إنه ليس إلا ضعف الإيمان ولمّا ينضج، وإنـه مـن عقبـات رواسـب الأواصـر القريبة، والعصبيات الصغيرة، والقرابات التافهة، التى يجب أن تذوب فى بوتقة الإيمان ولمّـا تذب!.

ولئن سأل سائل: إذا كان هؤلاء أعداء اللّه وأعداء المؤمنين فكيف بالإمكان موالاتهم والإلقاء اليهم بالمودة، والقلب لا يتحمل المتناقضين؟ فالجواب: ان الموالاة هنا ليسـت هـى القلبيـة، وإنما ظاهرية دفاعا ن شرٍّ يُزعم، وشاهدا عليه ـ إضافة إلى شاهد الإلقاء ـ ترجّى المودة فـى المستقبل إذا زال الكفر: «عسى اللّه أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة».

ثم هذه الآيات وإن كانت تنديدا شديدا من زاوية بمن اعتمل هذه العملية النكـراء الخائنـة، ولكنها من زوايا اخرى بين محذرة الكفار المستغِلين، ومربية البعض مـن المـؤمنين الضـالين هنا سواء السبيل.

فهنالك نقف مرة اخرى وقفة الحائرين أمام عظمة العطف الربانى بشـأن هـؤلاء إذ يخـاطبهم خطاب المؤمنين، لا المنافقين، رجاء رجوعهم عما فعلوا، وندمهم عما افتعلـوا كمـا فعلـوا، وكذلك العطف النبوى المعطوف إلى العطف الربانى بخلقة العظيم إذ لا يعجل بحاطب حتى يسأل: (ما حملك على ما صنعت؟) بكل رحابة صدر وحنان، فلما صارحه بما قصـد مجيبـا عتاب الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله: (لا تعجل علىّ يا رسول اللّه! إنى كنت امرءا ملصقا من قـريش ولـم أكن من أنفسها، وكان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأمـوالهم بمكـة، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أصطنع اليهم يدا يحمون بها قرابتـى، ومـا فعلـت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن دينى واللّه يا رسول اللّه ما نافقت ولا غيَّرت ولا بدَّلت، وإنى أشد

أن لا إله إلا اللّه وأنک رسول اللّه حقا).[1]

هنا يكف الصحابة عنه بقوله صلى‌الله‌عليه‌وآله: (صدق، لا تقولوا إلا خيرا)، ولينتهضه من عثرته من فوره، دون مطاردة ومشاردة.

ونجد خلاف هذا الحزم فى الخليفة عمر، إذ ينظر إلى العشرة ذاتها، دون أن يفكر فى علاجاتها: (إنه قد خان اللّه ورسوله والمؤمنين، فدعنى أضرب عنقه)، فأين علاج من علاج فيه كل فجاج وحراج!

وفى أحاديث عدة أن النبى صلى‌الله‌عليه‌وآله أجاب عمر: (إنه شهد بدرا، وما يدريک لعل اللّه اطلع على أهل بدر فقال: اعلموا ما شئتم فقد غفرت لكم)، ولكنه لا يوافق الاصول الإسلامية لا كتابا ولا سُنة، فمن أعجب العجاب أن يرفع قلم التكليف عمن أتى بواجب الجهاد! ولا يرفع عن النبى الذى كلُّ حياته جهاد! ومن أقرب ما يعارض هذه الفرية الفاتكة نفس الآية: «ومَن يفعله منكم فقد ضلّ سواء السبيل».

ثم هذا الخطاب اللطيف العتاب يجعل من هذا المؤمن الجاهل الضعيف مؤمنا عارفا قويا نادما على ما افتعل، وينبّه سائر المؤمنين ألا يفعلوا فعلته، مبينا مع الآيات التالية أخطارها:

«إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ».[2]

إن عداء هؤلاء الأعداء لكم مركوز فى كيانهم وقلوبهم المقلوبة، مهما تظاهروا بالولاء، بغية مساندتكم إياهم، إلقاءً بالمودة لهم أسرار الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله، ولكنه يظهر لكم ببسط أيديهم وألسنتهم بالسوء اليكم «إن يثقفوكم»: يظهروا عليكم، وهذه الصيغة المضارعة بعد أداة الشرط «إن» تشير الى التحذير من مستقبل الثَّقف الذى يعدُّه المؤمن على نفسه بجهالة التصرفات الفوضى، كما أن مضىّ «ودُّوا» إيحاءٌ الى تعمُّق هذا الودّ قديما فى نفوسهم ـ دون رباط بشرط الثقف، إلا أن «لو» الدالة على امتناع مدخولها، تكافح هذا الخطر الكامن، ما دام المؤمنون متمسكون بعروة الإيمان.

---

[1]. الفقرة الاولى في الدر المنثور، والثانية في تفسير القمي.

[2]. ٦٠: ٢.

وبما أن البسط مقابل القبض، فبسط الألسن هو إظهار الكلام السيء، فيهم بعد زمِّ الألسن عنهم، فيكون الكلام كالشيء الذى بُسط بعد انطوائه واظهر إن المفاصلة بين المسلمين والكفار قاطعة شاملة، ثم بينهم وبين المستسلمين المنافقين قلبية فحسب، ثم بينهم وبين فرقاءهم فى الإيمان مواصلة شاملة دون أية مفاصلة، والمودة الموعودة تشمل المواصلتين.

ان حرمة الموادة تتركز على المعادين المحاربين، دون الكفار المسالمين، فعاشروهم بالمعروف وأقسطوا إليهم علّهم يؤمنون:

«لاَ يَنْهَاكُمْ اللّه عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللّه يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ».[1]

فهؤلاء، برهم، والأقساط إليهم غير محظور، وانها من أُسس شرعة الحق والعدل، ان الأصل للمسلم مع من سواه البر والخير والعدل إلا مع المحاربين المعتدين، دفاعا عن الحق، وحفاظا على الحقوق.

«إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللّه عَنْ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ».[2]

إنها مقاتلة فى الدين وتشريد ومظاهرة على إخراجكم فى الدين، هى التى تمنعكم عم موادتهم، وتفرض عليكم عداءهم، لا أصل الكفر وكما تشهد له الروايات،[3] ولا أية مقاتلة ولا أى إخراج، فلو قاتلك الكافر على نفسه وماله وحقه، وأخرجك من داره التى اغتصبتها، فلا عليك ولا لك معاداته، ولا تحرم لك موالاته.

انه نظام سياسى ثابت صامد للمسلمين ما عاشوا، دون اختصاص بمن مضى من مشركى العرب، فهناك كانت امبراطوريتان قويتان الفارسية والرومانية تحيطان بأرض الإسلام، بدأتا

---

[1]. ٦٠: ٨.

[2]. ٦٠: ٤.

[3]. الدر المنثور ٦: ٢٠٥ ـ أخرج الطيالسي وأحمد والبزاز وأبو يعلي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في تاريخه والحاكم وصححه والطبراني وابن مرديه عن عبدالله بن الزبير قال: قدمت قتيلة بنت عبدالعزى ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا ضباب واقسط وسمن وهي مشركة فأبت أسماء أن تقبل هديتها أو تدخلها بيتها حتى أرسلت إلى عائشة أن سلي عن هذا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌و‌آله فسالته فانزل الله: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين» إلى آخر الآية، فامرها أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها.

تجمعان له، إذ تشعران بخطورته، تؤلبان عليه الإمارات العربية وسواها، من مستعمراتها، كذلک واضرابها من الدول المستعمرة المعادية للاسلام طول التاريخ، فلم يكن بد من تطهير المعسكر الإسلامی من أعدائه الجهال أو المعاندين، وتخليصه من المرتزقة، ولكی تكون كلمة اللّه هی العليا وكلمة الذين كفروا هی السفلی.

لا فحسب الرجال فی عسكر الإسلام هم الذين وجب امتحانهم، فامتهانهم وتأنيبهم أو تأديبهم، بل النساء كذلک يدخلن فی هذه البوتقة.

* * *

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّه أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّار لاَ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنفَقُوا وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللّه يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللّه عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِنْ فَاتَكُمْ شَیْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللّه الَّذی أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ * يَا أَيُّهَا النَّبِیُّ إِذَا جَاءَکَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَکَ عَلَى أَنْ لاَ يُشْرِكْنَ بِاللّه شَيْئًا وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَکَ فِی مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللّه إِنَّ اللّه غَفُورٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللّه عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنْ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ».[1]

أحكام عدة بشأن المؤمنات المهاجرات، تبتدیء بامتحانهن وتحرِّی أسباب هجرتهن، ألا تكون وراء حب فردی فی دار الإسلام، أو تخلصا عن زواج مكروه فی دار الكفر، وإنما هجرة فی اللّه، خالصة فی دين اللّه، وتنتهی بشرط قبول رسول اللّه صلی‌الله‌علیه‌وآله مبايعتهن، وبذلک يكمل إيمانهن.

تقول الروايات إن هذه الآيات نزلت بعد صلح الحديبية الذی جاء فيه: (على ألا يأتيک منا

[1]. ٦٠: ١٠-١٣.

أحد وإن كان على دينک إلا رددته الينا) زعما من المشركين أنه يشمل النساء أيضـا،[1] أو إذا شملهن يرضى الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله **بردِّهن الى الكفـار فيـرجعن كـافرات! فلمـا كـان الرسـول** صلى‌الله‌عليه‌وآله **ـ والمسلمون معه ـ بأسفل الحديبية، جاءته نساء مؤمنات يطلبن الانضمام إلـى دار الإسلام فى المدينة، فجاءت قريش تطلب ردّهن، زعم تنفيذ المعاهدة، فنزلت الآيتان تمنعـان ردّ المهاجرات المؤمنات بعد الامتحان والعلم بإيمانهن كيلا يكنَّ منافقات فترجـع هجـرتهن بالخسار على دار الإسلام.**

«فامتحنوهن»: وكيف الإمتحان؟ هل انه الإقرار بالشهادتين؟[2] وليس امتحانـا، فإنـه محنـة ولا محنة فى لفظة القول، وقد أقرّ بهما المنافقون، ثم النص تفرض الإيمان موضوعا للهجرة قبـل الامتحان «إذا جاءكم المؤمنات»، والشهادتان من أقل الإيمان ! لحدٍّ قد لا تسمَّيان إيمانا «قـل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا».

أو انه التحقق من واقع الشهاتين فى قلوبهن؟ فهذا حق، ولكنه كيف يتحقق؟ فهل بالاشـتراط عليهن: «ألا يشركن باللّه شيئا ولا يسرقن ولا يـزنين ولا يقـتلن أولادهـن ولا يـأتين ببهتـان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينک فى معروف» فذلک حق كلـه وهـى مـن اصـول الإيمان العملى الذى يدل على تعرُّق الإيمان فى قلوبهن، ولكن مجرد قبول الشرط لا يكفـى شاهدا على الالتزام به وبواقعه!.

إذا فليكن الامتحان فى أمثال هذه عمليا بعد الاشتراط، ليجمـع بـين عمـل الإيمـان وعقيـدة الإيمان، طالما لا يحصل منه اليقين، وإنما العلم العادى، وقد اكتفى اللّه للمـؤمنين بـه: «فـإن علمتموهن مؤمنات» دون أن يحمّلنا العلم الحقيقى كما اللّه يعلم:

---

[1]. عن الجبائي: لم يدخل في شرط صلح الحديبية إلا رد الرجال دون النساء، ولم يجر للنساء ذكر، وأن ام كلثوم بنت عتبة بن أبي معيط جاءت مسلمة مهاجرة من مكة فجاء أخواها الى المدينة وسألا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ردها عليهما، فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله: إن الشرط بيننا في الرجال لا في النساء فلم يردها عليهما، وفي الدر المنثور ٦: ٢٠٦ ـ أخرج ابن سعد عن ابن شهاب ـ مثله ـ وفيه: جاء أخوها يريدان أن يخرجاها ويرداها اليهم، فانزل اللّه...

أقول: وفي أحاديث عدة ان اللّه نسخ العقد بالنسبة للنساء ولكنها تخالف جوهر الاسلام الذي يفرض رعاية العهود من لم ينقضوها، وان رد النساء المؤمنات خلاف المصالح الإسلامية جماعية وفردية، فكيف يعاهدكم الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله هكذا، ويمضيها اللّه تعالى ثم ينقضها؟ رغم التصريح في الآية: «ذلكم حكم اللّه...»، إذ تلمح بانه حكم ثابت على طول الخط.

[2]. خلافا لما في الدر المنثور ٦: ٢٠٧ ـ أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا عبده ورسوله..

«اللّه أعلم بإيمانهن»:

إن حصيلة الامتحان هذا هى العلم بأنهن ما خرجن طامعات، وإنما مؤمنات، فليركز الامتحان ـ أيا كان ـ على ركيزة الهجرة، امتحان الحلف: (باللّه ما خرجت من بغض زوج، وباللّه ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وباللّه ما خرجت التماس دنيا، وباللّه ما خرجت إلا حبا للّه ورسوله) ثم يتمم بامتحانهن عمليا فيما هى شريطة قبول بيعتهن، فقبل البيعة بشروطها لا يمكن العلم بإيمانهن، إذا:

«فلا ترجعوهن الى الكفار لا هن حلّ لهم ولا هم يحلّون لهن..»:

إن رَجع المؤمنات المهاجرات، بعد العلم بإيمانهن، إنه محرَّم عليكم وعليهن وعلى أزواجهن، عليكم لأنه قد يسبب رجوعهن الى الكفر، وعليهن كذلك، ولأنه سبيل للكافر على المؤمن، وعليهم إذ انقطعت الصلة بينهم وبينهن، والزوجية حالة اندماج فاستقرار، ولا اندماج بين الكفر والإيمان فلا استقرار، فلا الشرع يسمح بهكذا رجع، حفاظا على صالح الإيمان، ولا الواقع يجاوبه إذ لا سكن ولا اطمئنان بين المؤمن ومَن ليس له إيمان.

وهل الكفر المانع من زواج المؤمنة هو الشرك فحسب؟ كما المشركون فقط هم شأن نزول الآية، إذ كانوا هم فقط فى مكة المكرمة، أم إن الكفر هو المانع إطلاقا، كفرا باللّه أو كفرا بالإسلام، كما هو موضوع الحكم بالحرمة هنا «فلا ترجعوهن إلى الكفار» فلم يقل «إلى المشركين»، وهو كالصريح فى موضوعية مطلق الكفر، وشأن النزول لا يخص الآية بنفسه.

وتدل عليه آية البقرة أيضا، إذ تعلل حرمة نكاح المؤمنة للمشرك ب: «اولئک يدعون إلى النار» فعموم الكفار هنا وفعلة الدعوة الى النار فى المشرک، المعممة له الى مطلق الكافر أيضا، يثبتان عموم التحريم على الكافر مشركا أم كتابيا، فسبيل الكافر على المؤمن، الممنوعة، ودعوته الزوجة المؤمنة الى النار، يساندان عموم التحريم على الكفار، دون المؤمن والكتابية، إذ تعكس بينهما الدعوة والسبيل، وآية المائدة تسمح بزواج الكتابية للمؤمن، دون زواج الكافر بالمؤمنة كما يأتى.

وهل ان المؤمنة المهاجرة أو غير المهاجرة، غير العريقة فى الإيمان، الساقطة فى الإمتحان، هل يحل رجعها الى الكفار، أو زواجها به بدوا؟ هنا الآية لا تحرّم، وعلّه للظروف الخاصة

السياسيۀ آنذاک، التی تتطلب تخليص دار الإسلام عن عناصر غير صالحۀ، حفاظا على صالح الدولۀ الإسلاميۀ، إلاأن رجعها الى الكافر لا يجوز مبدئيا، بسند دليل الدعوۀ والسبيل، وعموم آيۀ البقرۀ فی تحريم المؤمنۀ على الكافر، إذ تشمل كافۀ مراتب الإيمان، كما تشمل كافۀ مراحل الكفر، ولا أقل من نسخ آيۀ البقرۀ فی عموم التحريم، آيۀ الممتحنۀ فی خصوصها على المؤمنات الممتحنات، ولنا إلقاء خصوصيۀ الإمتحان وكما الإيمان للأدلۀ المسبقۀ، وأن «لا هن حلٌّ لهم ولا هم يحلون لهن» حكم مستقل عن «لا ترجعوهن إلى الكفار» ففی رجع الممتحنۀ حرمۀ مغلَّظۀ، وفی رجع غيرها من المؤمنات حرمۀ عاديۀ، وقد تؤيده السنۀ.[1]

إذا فلا تحلُّ المسلمۀ ـ وحتى المقِرَّۀ بالشهادتين فحسب ـ على الكافر، وحتى الكتابی الموحد، لا استدامۀ، ولا ابتداءً.

وإذ لا يحلُّ رجعهن إلى الكفار فكيف يجبر خسارهم فيما أنفقوا، فهل تذهب أزواجهم بما أخذن منهم هدرا؟ كلا! إن الإسلام أعدل من هذا ولو بالنسبۀ للكفار المعاهدين:

«وآتوهم ما أنفقوا»: سواء أنكحتموهن أم لا، ما أنفقوا فی أصل الزواج، دون النفقات الاخرى، فقد أخذوا حقوقهم منهن مضاجعۀ وسواها بدل ما أعطوا من هذه النفقات، وإنما على المسلمين رجع نفقات الزواج الى الأزواج، ثم وما هو دور نكاحهن:

«ولا جناح عليكم ان تنكحوهن إذا آتيتموهن اجورهن»: لا محظور فی نكاحهن شرط أن تؤتوهن اجورهن، دون أن تحاسبوا عليهم ما آتيتم أزواجهن من اجورهن، فإنه زواج ثانٍ لا يحكم عليه بحكم الأول وقد مضى.

إن إيمان زوجۀ الكافر يفصلها عنه دون طلاق، فهل تعتد عدۀ الطلاق، أم عدۀ الوفاۀ، أم لا عدۀ وإنما تريّثٌ لاستبراء رحمها، أم ولا تريّثَ إطلاقا؟

إن آيات العُدد وفاۀً وطلاقا مختصۀ بهما، لا تتخطاهما الى غيرهما إلا بحجۀ قاطعۀ، وآيتنا هذه تنفی الجناح عن نكاحهن شريطۀ المهر دون ذكر عدۀ ولا تريُّث، إذا فلا عدۀ هنا لعدم

---

[1]. في الكافي بإسناده عن الفضيل بن يسار قال: قلت لأبي عبدالله عليه‌السلام: ان لامرأتي اختا عارمة على ديننا وليس على ديننا بالبصيرة إلا قليل، فإن زوجها لا يرى رأيها، قال عليه‌السلام: لا ـ ولا نعمة، ان الله عز وجل يقول: «فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن».

الحجة، اللهم إلا لاولات الأحمال منهن: «واولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن»[1] اللهم إلا أن يختص الحكم بالمطلقات، لأن الآية بما قبلها، فى بيان أحكام الطلاق، ثم التريُّث أيضا لا دليل عليه، إلا أن لحوق الولد بالفراش أقل ما يفرضه هنا هو التريث، لكى لا يختلط أمر الولد بين الزوجين، طالما لا حرمة للزوج الكافر تعتد هى لأجلها، ففى العدة حِكَم عدة، منها حرمة الزوجية وقد انتفت هنا، ومنها عدم اختلاط المياه، والحفاظ على النسب، ويكفيه التريث للتعرُّف الى كونها حاملاً أم لا.

والخبر الدال على عدة الطلاق،[2] إضافة الى أنه من الآحاد، يختص بالنصرانى، فلا ينهض حجة لإثبات حكم لا يلائم القرآن، إلا أن الأحوط هنا الأخذ بأقل العُدد: عدة الطلاق.

وكما ان المرأة المؤمنة تنفصل عن الكافر دون طلاق، كذلك الكافرة تنفصل عن المؤمن دون طلاق، لانفصام العلاقة هنا وهناك:

«ولا تمسكوا بعصم الكوافر»: فلا يحل إمساك نساءكم اللاتى بقين على الكفر، والعصمة ما يُعتصم به، وهى بين الزوجين علقة الزوجية الحاصلة بالعقد، ف: لا تقيموا على نكاح الكافرات وخلاطهن كأزواج، بعد ما انقطعت عصمة الإيمان وعلقته بينكم، بإيمانكم وبقائهن على الكفر.

وحرمة الإمساك بعصمة الكافرة ـ وقد كانت زوجة ـ تتخطاه إلى حرمة النكاح البادىء ـ وأحرى ـ فلا تحل الكافرات للمؤمنين على أية حال، بداية واستدامة.

وهل ان الكافران هنا المشركات، كما الآيات نازلة فيهن وفى المشركين؟ أم هن والكتابيات، لأن شأن النزول لا يخص الآية بموردها، وإنما المتبع فيها عموم اللفظ: «الكافر» لا خصوص المورد: «المشركات»؟ وجهان أشبههما ثانيهما، فلا تحل ـ إذا ـ نكاح الكتابيات على أية حال لعموم هذه الآية.

---

[1]. ٦٥: ٤.

[2]. فروع الكافي ج ٢ ص ١٣٣ والتهذيب ج ٢ ص ٢٧٤ حمران عن الباقر عليه‌السلام في امة ول لنصراني أسلمت أيتزوجها المسلم؟ قال: نعم، وعدتها من النصراني إذا أسلمت عدة الحرة المطلقة ثلاثة قروء، فإذا انقضت عدتها فليتزوجها إن شاءت، ورواه الشيخ بإسناده عن الحسن ابن محبوب مثله.

اللهم إلا أن آية البقرة تخص الحرمة بالمشركات، فعلّها ناسخة عموم الكوافر هنا، وآية المائدة تصرح بحلّ الكتابيات، فهى ناسخة آية الكوافر، ومؤكدة ان المشركات فى البقرة لا تعم الكتابيات، أو إذا عمت بما تعلّل فهى أيضا منسوخة بآية المائدة، فتحل الكتابيات على المؤمنين، وتبقى حرمة المؤمنات على الكافرين مشركين أم كتابين، على قوتها، فى عموم آيتى الممتحنة والبقرة.

فآية الممتحنة حرمت المؤمنات على الكافرين: «فلا ترجعوهن إلى الكفار» مشركين وكتابيين، وحرمت الكافرات على المؤمنين «ولا تمسكوا بعصم الكوافر» كذلك فإن موضوع الحرمة فيها هو الكفر لا خصوص الشرك، رغم أنه مورد نزولها.

ثم آية البقرة، وإن كانت تختص الحرمة بالشرك دون مطلق الكفر: «ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم اولئك يدعون إلى النار واللّه يدعوا إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون».[1]

هذا ـ ولكن الغاية التى تزيل الحرمة: (حتى يؤمن.. حتى يؤمنوا) إنها تضم الكتابيين والكتابيات إلى جماعة الشرك، إذ لم يؤمنوا ولم يؤمن، واحتمال ان الإيمان هنا هو الخروج عن الشرك فيعم الكتابى، انه ـ على بُعده ـ تدفعه حكمة الحكم أو علته: «اولئك يدعون إلى النار» مهما اختلفت نار الدعوة بين المشركين والكتابيين، وعلّ اختصاص المشرك بالذكر بحساب أنه الأصل فى الحرمة، التى لا علاج لها ولا استثناء فيها، دون الكتابى.

وأخيرا تأتى آية المائدة ـ وهى آخر ما نزلت، ناسخة غير منسوخة ـ تأتى ناسخة لعموم الحرمة فى الكتابيات فقط: «والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن اجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان..»[2] فصدرها يدل على سابق الحرمة: «اليوم أُحلّ لكم الطيبات وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم

---

[1]. ٢: ٢٢١.

[2]. ٥: ٥.

حل لهم والمحصنات».

فإنما خرجت عن حرمة الزواج الكتابيات، على شروط فصلت فى الروايـات دون الكتـابيين على المؤمنات، فهم باقون على قوة الحرمة بعمومها فى آية الممتحنة، وبما يقرب النص فـى آية البقرة: «اولئک يدعون إلى النار» فسيطرة الزوج على الزوجة فـى مختلـف فـى مختلـف الطاقات والإمكانيات والمتطلبات تجعل لدعوته إياها تـأثيرا، دون العكـس، إلا بالمغريـات والملهيات، فدعوة إلى النار لها زوجها المؤمن، أو ولدها، فهذا الزواج أيضا محظـور، وكمـا تؤيده الروايات.

وما ألطف التشريع فى هذه الآيات الثلاث، ان الاولى تعم الحرمة فى الكافرات، مشـركات أم كتابيات، والثانية تعتبر موضوع الحرمة المشركين والمشركات، مع التلـويح ـ لمكـان الغايـة والتعليل ـ إلى حرمة الكتابيات، والثالثة الناسخة تحلل الكتابيات، وتبقى الكتابيين فى عمـوم التحريم، والروايات الناظرة إلى الآيات، والمفسرة لها متضاربة، بين ما يوافق هذه الآيات وما فى مجراها فمقبولة[1] أو لا توافقها، أو تخالفها فمضروبة عرض الحائط[2] أو مردودة إلى أهلها.

وحكمة الحرمة أو علتها فى آية البقرة «اولئک يدعون إلى النار» ليسـت بـالتى تنسـخها آيـة المائدة أو أى ناسخ، وإنما تنسخ أصل الحرمة كضابطة عامة، مـع بقـاء الحرمـة فـى مـوارد الدعوة إلى النار، فلا تحل الكتابية التى تدعوه للضلالة أو أولاده، ولا تزويجها على مسـلمة،

---

[1]. الوسائل ١٤ ب ٢ ص ٤١٣ ج ٦ علي بن الحسين المرتضى في رسالة المحكم والمتشابه نقلاً عن تفسير النعماني باسناده عن علي عليه‌السلام قال: وأما الآيات التي نصفها منسوخ ونصفها متروك بحاله وما جاء من الرخصة في العزيمة فقوله تعالى: «ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن»وذلك ان المسلمين كانوا ينكحون في أهل الكتاب من اليهود والنصارى وينكحونهم حتى نزلت هذه الآية نهيا أن ينكح المسلم من المشرك أو ينكحونه ثم قال تعالى في سورة المائدة: «والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم»فاطلق الله مناكحتهن بعد ان كان نهى وترك قوله: «ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا» على حاله لم ينسخه. أقول: وهو مقبول على تأمل في سابق حل الكتابي ذكرا وأنثى. ومما يلائم الآيات الأحاديث المعللة لمنع نكاح الكتابيات كما رواه عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه‌السلام في حديث قال: وما أحسب للرجل المسلم أن يتزوج اليهودية ولا النصرانية مخافة أن يتهود ولده أو يتنصر.

وما رواه معاوية بن وهب وغيره جميعا عن أبي عبدالله عليه‌السلام في الرجل يتزوج اليهودية والنصرانية فقال: إذا أصاب المسلمة فما يصنع باليهودية والنصرانية؟ فقالت له: يكون له فيها الهوى، قال: إن فعل فليمنعها من شرب الخمر وأكل لحم الخنزير، واعلم أن عليه في دينه غضاضة.

[2]. كما ورد في أن آية المائدة منسوخة بآية الممتحنة، ففي الوسائل ج ١٤ ص ٤١٠ عن زرارة بن أعين قال: سألت أبا جعفر عليه‌السلام عن قول الله عز وجل: «والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم» فقال: هي منسوخة بقوله: «ولا تمسكوا بعصم الكوافر»، وآية المائدة خاصة وناسخة، لأن المائدة آخر ما نزلت، وإلا فكيف تنسخ بآية الممتحنة وهي من اوليات المدنيات؟.

فإن لزامه سبيل الكافرة عليها بالمشاركة فى حقوق الزوجية، وتسوية بينهما فيها،[1] ولا أن يتزوج مسلمة على كتابية وهى لا تعم لأنه مسٌ من كرامتها، اللهم إلا برضاها،[2] فلو أمن كل ذلک جاز نكاحها على كراهية، إلا البله المستضعفة، فلا كراهية،[3] وإلا التى يرجى إسلامها فراجحٌ أو واجب، والضابطة العامة هى حرمة نكاح المشركين والمشركات إطلاقا، وكذا الكتابيين، وحلّ الكتابيات كحكم ثانوى على الشروط المسبقة، وعلة الحرمة «اولئک يدعون إلى النار» تتخطى غير المسلمين إلى فساق المسلمين الذين يدعون إلى الفسق، أو لا يؤمن عليهم، ففى الحرمة هنا وهناک مراتب عدة حسب مراحل الأخطار التى يجلبها الزواج المتخلف.

وبعد إجراء هذه التفاريق بين المؤمن والكافر فى الزواج يأتى دور إجراء التعويض على مقتضى العدل والمساواة:

«واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا»: فيرد على الزوج الكافر قيمة ما أنفق من المهر على زوجته التى فارقته لإيمانها، كما يرد على الزوج المؤمن قيمة ما أنفق من المهر على زوجته التى ظلت كافرة أو ارتدّت، وهكذا يكون حكم اللّه بعيدا عن الجور حتى بالنسبة للكافرين، ضامنا للعدل حتى مع الظالمين: «ذلک حكم اللّه يحكم بينكم واللّه عليم حكيم».

وفيما إذا لم يدفع الكافر مثل نفقة زوجة المؤمن ــ الفائتة ــ اليه، فعلى الدولة الإسلامية أن تدفع ولا سيما إذا أراد الزواج:

«وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنفَقُوا

---

[1]. المصدر ص ٤١٨ ـ محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه‌السلام قال: لا تتزوج اليهودية والنصرانية على المسلمة. عون أبي عبداللّه عليه‌السلام في رجل تزوج ذمية على مسلمة قال: يفرق بينهما ويضرب ثمن حد الزاني اثنا عشر سوطا ونصفا، فإن رضيت المسلمة ضرب ثمن الحد ولم يفرق بينهما.
الفرقان ـ ١٩

[2]. المصدر ص ٤٢٠ ـ أبو بصير المرادي في حديث عن أبي جعفر عليه‌السلام: فإن تزوج عليها يهودية ونصرانية حرة مسلمة ولو تعلم أن له إمرأة نصرانية ويهودية ثم دخل بها فإن لها ما أخذت من المهر، فإن شاءت أن تقيم بعد معه أقامت، وإن شاءت أن تذهب إلى أهلها ذهبت، وإذا حاضت ثلاثة حيض أو مرت لها ثلاثة أشهر حلت للأزواج، قلت: فإن طلق عليها اليهودية والنصرانية قبل أن تنقضي عدة المسلمة، له عليها سبيل أن يردها الى منزله؟ قال: نعم.

[3]. المصدر ص ٤١٤ ـ عن زرارة قال قلت لأبي جعفر عليه‌السلام: إني أخشى أن لا يحل لي أن أتزوج ممن يكن على أمري، فقال: وما يمنعك من البله؟ قلت: وما البله؟ قال: هن المستضعفات من اللاتي لا ينصبن ولا يعرفن ما أنتم عليه.

وَاتَّقُوا اللّه الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ».[1]

فقد تفوت زوجات المؤمنين إلى الكفار بانفلاتهن اليهم كافرات، أو أسرهن عندهم مؤمنات، ثم تحصل المعاقبة، فعلى الآخرين ـ ممن بأيديهم أزمة امور المسلمين ـ أن يعوضوا المحرومين عما أنفقوا مثل ما أنفقوا، فما هى المعاقبة؟ وممن هى؟

إنها قد تكون معاقبة الزواج لمن فاتتهم أزواجهم، فإنها الوصول إلى عقبى الشىء وهى هنا زواج بعد الاولى تعقبها، وكما عن الإمام الرضا عليه‌السلام: (أن يتزوج اخرى)،[2] أو معاقبتهم أزواجهم دون أن يقدروا على رجعهن، أو معاقبتهم ـ بسائر جنود الإسلام ـ الكافرَ، ولكى يحصلوا على ما أنفقوا ولم يحصلوا.

ولفظ الآية يتحملها جمعاء، والقدر المتيقن منها وجوب إنفاق ما انفق، إذا لم يحصل عليه من الكفار، وأراد معاقبة الزواج، سواء غنمَ المسلمون منهم شيئا أم لم يغنموا، والمتيقن من عدمه أو عدم جوازه من بيت المال، ما إذا حصل على ما أنفق ولم يرد الزواج، وأما إذا لم يرد الزواج ولم يحصل على حقه ففيه تردد، وإطلاق المعاقبة يشمله فيؤتى من بيت المال.

ثم الخطاب الأول «فاتكم» للأزواج، والثانى «فعاقبتم» يعمّهم وغيرهم حسب المحتملات، والثالث «فآتوا» يخص غيرهم، فان الإنسان لا يؤتى نفسه ولا يعوض عن نفسه، ومزج الخطاب هنا وهناك يوحى بأن المسلمين إخوة لا يفرق بينهم أى فارق.

ثم يأتى مرة ثانية مكملة للاولى، دور المؤمنات فى تفاصيل البيعة وموادها الأساسية:

«يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك»:[3] مهاجرات وغير مهاجرات، مجيئا إليك لغاية

---

[1]. ٦٠: ١١.

[2]. وفي علل الشرائع بإسناده عن يونس عن اصحابه عن ابي جعفر وأبي عبداللّه عليه‌السلام قال قلت: رجل لحقت امرأته بالكفار وقد قال الله عز وجل في كتابه: «وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا» ما معنى العقوبة ههنا؟ قال: إن الذي ذهبت امرأته فعاقب على امرأة اخرى غيرها يعني تزوجها، فإذا هو تزوج امرأة اخرى غيرها فعلى الامام ان يعطيه مهر امرأته الذاهبة، فسألته: فكيف صار المؤمنون يردون على زوجها المهر بغير فعل منهم في ذهابها؟ وعلى المؤمنين ان يردوا على زوجها ما انفق عليها مما يصيب المؤمنين؟ قال: يرد الامام عليه أصابوا من الكفار أم لم يصيبوا، لأن على الامام ان يجبر حاجته من تحت يده وإن حضرت القسمة فله ان يسد كل نائبة تنوبه قبل القسمة وإن بقي بعد ذلك شيء قسمه بينهم وإن لم يبق لهم شيء فلا شيء لهم.

[3]. الدر المنثور ٦: ٢١١ ـ أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس أن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌و‌آله أمر عمر بن الخطاب فقال: قل لهن ان رسول الله يبايعكن على أن لا تشركن باللّه شيئا، وكانت هند متنكرة في النساء، فقال عمر: قل لهن ولا يسرقن، قالت هند: واللّه إني لاصيب من مال ابي سفيان الهنة، فقال: ولا يزنين، فقالت: وهل تزني الحرة؟ في نقل آخر: فتبسم عمر بن الخطاب لما

المبايعة الإيمانية، المسرودة اليهن موادها الأصيلة مسبقا:

«على أن لا يشركن باللّه»: كحلقة اولى من مقومات الحياة الجديدة، وهى كلها هنا سلبية توحى بأن لترك المنكرات عقائدية وعملية سبقا على فعل واجباتهما، فتلك تزكية وهذه تحلية، والاولى هى أساس للثانية.

«ولا يسرقن» الأموال والنفوس والأعراض، من أزواجهن وسواهم.

«ولا يقتلن أولادهن» كما كان من دأب الجاهلية وأد البنات مخافة العار أو خشية إملاق أم ماذا؟

«ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن»: من حمل عن زنا يحمّلنه أزواجهن زورا وافتراءً، فقد كانت المرأة فى الجاهلية تبيح نفسها لعدة رجال شهوة وتجارة، فإذا حملت ألحقته بمن تهواه وهى تعلَم من أبوه، وعلّ بهتان «بين أرجلهن» يختص بإزالة البكارة إذا كانت بغير زوجها، ثم هى تفتريها على زوجها.

«ولا يعصينک فى معروف»: ف «ک» هنا تصريح وتلميح، تصريح للرسول خاصة، ف «فى معروف» قيد توضيحى، فان كل أوامره معروفة، فلا يتقيد أمره بشىء لأنه يصدر عن اللّه، وكما للّه طاعة مطلقة دون شرط، اصالة، كذلک للرسول طاعة مطلقة ولأولى الأمر المعصومين عليهم‌السلام **الصادرين عنه دون قصور أو تقصير، رسالة عنه.**

ثم وتلميح الخطاب يعمّ غير اللّه والرسول وأُولى الأمر، الذين يحكمون بين المسلمين، فلا تجب طاعتهم إلا «فى معروف»، وهذا الشرط هو أحد القواعد الأساسية فى نظام الإسلام: ان لا طاعة عمياء لأحد على المسلمين إلا فى العروف الذى تقرره شريعة اللّه، إلا فى اللّه ورسوله وآله، فطاعتهم مطلقة إذ لا خطأ ولا جهل ولا جور فيها إطلاقا.

وإنما نسب العصيان الى الرسول «لا يعصينک» دون اللّه «لا يعصون اللّه» وإن كانت طاعة

جرى بينه وبينها في الجاهلية فقال: ولا يقتلن أولادهن، قالت هند: أنت قتلتهم يوم بدر، قال: ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأجلهن...

وأخرج عبدالرزاق في المصنف وأحمد وابن مردويه عن انس قال: أخذ النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله على النساء حين بايعهن ان لا ينحن، فقلن يا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله، ان نساء أسعدتنا في الجاهلية أفنسعدهن في الاسلام؟ فقال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله: لا إسعاد في الاسلام ولا شطار ولا عقر في الاسلام ولا خبب ولا جنب، ومن انتهب فليس منا.

الرسول هى طاعة اللّه «ومن يطع الرسول فقد أطاع اللّه»، لأن طاعة الرسول تعنى ما سنّه، كما أن طاعة اللّه تعنى ما فرضه فى كتابه، فللرسول أوامر بالولاء بما خوّله اللّه «لتحكم بين الناس بما أراك اللّه»[1] فلا يُطلب الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله فيما يأمر أو ينهى كولى الأمر، بحجة من كتاب اللّه، لأن سنته حجة بعد كتاب اللّه، والكل راجع إلى اللّه مهما اختلفت كيفية الصدور عن اللّه.[2]

ومن ثم، إذا أكملن هذه الشروط: «فبايعهن» كما تناسبک، (وقد قالت ام حكيم، يا رسول اللّه! كيف نبايعک؟ قال: إننى لا اصافح النساء، فدعا بقدح من ماء فأدخل يده ثم أخرجها فقال: أدخلن أيديكن فى هذا الماء).[3]

بايعهن حتى يستقبلن حياةً جديدة طاهرة زاهرة، وأما بالنسبة لما مضى:

«واستغفر لهن اللّه إن اللّه غفور رحيم»: فلاستغفار الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله ـ حيث يُشفع باستغفار المذنبين ـ أثر عظيم فى الغفران، شفعا عزيزا لا يردّه اللّه: «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوک فاستغفروا اللّه واستغفر لهم الرسول لوجدوا اللّه توّابا رحيما».[4]

وهنا السورة تنتهى بما بدأت به من النهى الشديد عن تولى المغضوب عليهم:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَوَلَّوْا قَوْما غَضِبَ اللّه عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنْ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ».[5]

علَّ القوم المغضوب عليهم هنا هم اليهود وكما فى آيات عدة، وقد يشهد له تنظيرهم فى

---

[1]. ٤: ١٠٥.

[2]. لذلك ذكرت في الأحاديث من المعروف هنا ما لا يعرف من كتاب الله، فقد سألت ام حكيم رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: ما ذاك المعروف الذي أمرنا الله أن لا نعصيك فيه؟ قال: لا تلطمن خدا ولا تخمشن وجها ولا تنتفن شعرا ولا تشققن جيبا ولا تسودن ثوبا ولا تدعين بويل... فبايعن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله على هذا.
وفي بعضها أضيف البعض من أوامر الله ليدل على شمول «ولا يعصينك» لما أمر الله به، كما رواه عبدالله بن سنان قال: سألت أبا عبدالله عليه‌السلام عن قول الله «ولا يعصينك في معروف» قال: هو ما فرض الله عليهن من الصلاة والزكاة وما أمرهن به من خير.

[3]. في الكافي بإسناده عن ابان عن ابي عبدالله عليه‌السلام قال: لما فتح رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله مكة بايع الرجال ثم جاءت النساء يبايعنه، فأنزل الله عز وجل: «يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك...».

[4]. ٤: ٦٤.

[5]. ٦٠: ١٣.

يأسهم من الآخرة بيأس الكفار من أصحاب القبور، وهم المشركون الناكرون للآخرة، ولقد حرّم توليهم على المسلمين لأنهم تماشوا المشركين فى نكران يوم الدين، أو عدم المبالاة به: «قد يئسوا من الآخرة»: من ثوابها بما قدمت أيديهم: «قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند اللّه خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين. ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم واللّه عليم بالظالمين. ولتجدنَّهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يودُّ أحدهم لو يعّر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمّر واللّه بصير بما يعملون».[1]

فهذا يأس بحساب عدم الثواب، ولهم يأس آخر بنكران الحساب، وهو أشبه بيأس الكفار من أصحاب القبور، إذ يئسوا من حياتهم ومن حسابهم بعد موتهم، فكما يئس المشركون الناكرون لحياة الحساب من أصحاب القبور كذلك اليهود يئسوا من الآخرة، رغم أن المعاد من اصول دينهم.

وقاية جماعية مفروضة هى سياسة جماعية

وكما لا يجدى نساءَ النبى صلى‌الله‌عليه‌وآله كونهن نساءَه إلا أن يكنَّ قانتات عبادات صابرات مجاهدات، كذلك المؤمن لا يكفيه إيمانه ما لم يَقِه وأهليه نارا:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللّه مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ».[2]

إن وقاية الإيمان لا تكفى كعقيدة، إلا بانضمام وقاية عمل الإيمان، لا للمؤمن نفسه فحسب، وإن وجب كمبدء: «قوا أنفسكم» فللأهلين أيضا «أهليكم» لأنه مكفل بهم كما بنفسه، وإن كان الأهلون أيضا يؤمرون بوقاية أنفسهم، فإنهم مكلفون، إلا أن نقصهم وقصورهم فى تكفلهم أنفسهم هنا يُجبر بوقاية وقيادة حكيمة ممن يأهلهم ويرعاهم ف (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته).

---

[1]. ٢: ٩٦.

[2]. ٦٦: ٦.

والوقاية هنا تشمل المعرفية العقائدية والعملية[1] للأنفس والأهلين، أن (تأمروهم بما يحبه اللّه وتنهوهم عما يكره اللّه).[2] فأبواب الجهاد والدفاع والموعظة والإرشاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، هى كلها تعنى الوقاية الجماعية، وكما الأمة مأمورة بالوقايات الفردية، سواء.

ثم الأهلون لا تختص بالزوجة والأولاد للزوج والوالدين، إنه يشمل كل مقود لقائده، وكل مسوس لسائسه، من الجو العائلى، الى الأقربين، الى العائلة أجمع، وإلى الزعامة الدينية والزمنية سواء.

«قوا... نارا وقودها الناس والحجارة»، فالوقود هو الزناد والصِلاء، والناس الوَقود لهذه النار الزناد هم اصول الكفر من النسناس ﴿إن الذين كفروا... اولئك هم وقود النار﴾[3] ﴿فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أُعدَّت للكافرين﴾[4] كما ويوحى بذلک قرن الحجارة بالنار، وهى الأحجار التى يعبدونها: ﴿إنكم وما تعبدون من دون اللّه حَصَب جهنم أنتم لها واردون﴾[5] حجارة معبودة وأُخرى غيرها يعرِّفها الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله.[6]

وأما الناس المؤمنون المقصرون عقيدة او عملاً، فهم إنما تمسُّهم نار هؤلاء الكفار على قدر تخلفهم، ثم تشملهم رحمة الغفار ويخرجون أخيرا من النار.

«عليها ملائكة غلاظ شداد» غلاظ على الكفار، شداد فى تعذيبهم بالنار، يخففون عنهم ولا يرحمون؛ لأنهم هكذا يؤمرون، عذابا فوق عذاب:

---

[1]. الدر المنثور ٦: ٢٤٤ ـ عن علي عليه‌السلام في الآية، قال: علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم.

[2]. أخرجه في الدر المنثور ٦: ٢٤٤ ـ عن زيد بن أسلم قال: تلا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله هذه الآية فقالوا: كيف نقي أهلنا نارا؟ قال: ... وفي الكافي مثله عن الامام الصادق عليه‌السلام مع زيادة: لما نزلت هذه الآية جلس رجل من المؤمنين يبكي ويقول: أنا عجزت عن نفسي وكلفت أهلي! فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله: حسبك أن تأمرهم بما تأمر به نفسك وتنهاهم عما تنهى عنه نفسك.

[3]. ٣: ١٠.

[4]. ٢: ٢٤.

[5]. ٢١: ٩٨.

[6]. في الدر المنثور ٦: ٢٤٤ عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله ان الحجر منها لو وضع على جبال الدنيا لذابت منه، وان مع كل إنسان منهم حجرا أو شيطانا، واللّه أعلم.

«لا يعصون اللّه ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون» فهم غلاظ شداد فى تنفيذ أوامر اللّه هناک بحق المجرمين، دون مسايرة ولا مهادنة.

فيا لها من نار متسعِّرة اللّه، الناس فيها كالحجارة سواء الكمية والكيفية وما معهما من نعم خاصة منقطعة النظير بين العالمين، و«العالمين» هنا هو عالمى زمن القيادتين الإسرائيليتين منذ آدم عليه‌السلام، **حيث القيادة المحمدية** صلى‌الله‌عليه‌وآله **هى أعظم القيادات على الإطلاق فيها كل الحقول والحلقات.**

فمن ملوک بنى إسرائيل روحيا رساليا وزمنيا يوسف وداود وسليمان عليهم‌السلام، **ومنهم زمنيا طالوت، ومنهم روحيا سائر رسلهم مهما كانت لهم سلطات زمنية جزئية.**

ف «جعل فيكم أنبياء» جعلٌ خاص للنبوات الإسرائيلية مهما شملت قيادات زمنية، و«جعلكم ملوكا» تعم كافة السلطات الإسرائيلية بدرجاتها ومختلف ظروفها، فكل شخص يملک نفسه ولا يُملک هو مَلِکٌ، وإذا ملک غيره فهو أملک حتى يملک طليق الملک على كافة الناس أم ومَن سواهم.

فقد تعنى «ملوكا» هنا جمع المَلِک والمالک، أم إن المَلِک أعم من المالک مهما اشتهر فى المُلک الخاص.

وهنا «جعلكم ملوكا» دون «جعل فيكم» دليل شمول المُلک للمرسوم المعروف وغيره، وحيث أخرجهم اللّه من أسر السلطة الفرعونية فملكوا أنفسهم بعد ما كانوا مملكوكين لا دور لهم ولا كور، وأصل الملوكية هو الحرية الشخصية، ومن ثم أن يملک الحر ما سواه ومن سواه، روحيا أو زمنيا أم كليهما.

إذا فقد تعم «جعلكم ملوكا» مثلث المُلک، شخصيا أم جماعيا، روحيا أو زمنيا.[1]

ذلک، وقد تسمى القيادة الروحية ملوكية كما «فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما» ثم «جعل فيكم أنبياء» تشمل ملوكهم الخصوص كيوسف وسليمان، فهى قرينة قاطعة على أن ليس المعنى من «جعلكم ملوكا» الملوكية المرسومة الزمنية، فكيف

---

[1]. الدر المنثور ۲: ۲٦۹ عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: كانت بنو إسرائل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وإمرأة كتب مَلِكا، وفيه عن زيد بن أسلم قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: من كان له بيت وخادم فهو ملك.

يصح خطابهم ككلٍّ ب «جعلكم ملوكا» والملوک الرسميون فيهم منذ يعقوب إلى المسيح عليهم‌السلام **لم يكونوا إلاّ نذرا قليلاً والأنبياء كثير، فلو عنى الملوک الرسميون لكان حق التعبير «وملوكا» عطفا على «وجعل فيكم أنبياء»، دون «جعلكم ملوكا» الشاملة لهم كلهم!.**

هذا، فأنعم النعم الروحية لهم تبدل السلطة الخانقة الفرعونية عليهم بالسلطة الرسالية، وتبدلهم عن تلک العبودية والرقية الذليلة بأن ملكوا أنفسهم، حيث السلطة العادلة لا تستعبد الشعوب وتستخدمهم بل هى المستخدَمة لهم وتجعلهم أحرارا فى مسير الصلاح ومصير الإصلاح، فالشعب الفاقد للحرية الصالحة تحت القيادة الصالحة هو أفقر شعب وأقفره، والذى يملک الأمرين هو أغنى شعب وأعمره وأبهره، ومالک أحدهما هو عوان بينهما، والمحور الأصيل بين هذه الأمرين هو الحرية الصالحة والقيادة المصلحة حيث تصلح لصالح هذه الحرية.

ذلک، وقد ينعم المكلفون كافة بأرقى النعم المحلقة على كافة حيوياتهم زمن صاحب الأمر عجل اللّه تعالى فرجه وسهل مخرجه.

أجل «وجعلكم ملوكا» بعد أن «اتخذتهم الفراعنة عبيدا فساموهم سوء العذاب، وجرّعوهم المُرار، فلم تبرح الحال بهم فى ذلک الهلكة وقهر الغلبة».[1]

بنو إسرائيل هنا يذكرون ببارع النعم الربانية عليهم حتى يلينوا لأمر اللّه دخولاً فى الأرض المقدسة التى لهم فيها سيادة أخرى رجوعا إلى عاصمة الرسالة الإسرائيلية.

وقد يحلق هذان الجعلان منذ يعقوب حتى الزمن الأخير من الرسالة الإسرائيلية، أم يخصان منذ يعقوب حتى موسى عليهماالسلام **فأضيق دائرة بكثير.**

إن السلطة الروحية والسلطة الزمنية والحرية الشخصية والجماعية هى من النعم الناعمة التى اختص بها بنو إسرائيل بين العالمين، أن جعل من اللاّ شىء لهم كل شىء، ومن كل ذل وهو ان تحت نير الذل الفرعونى «إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا..»!.

إذا فأحرى بهم أن يطيعوا أمر اللّه فيما يرجع إلى عودهم إلى عاصمة الرسالة الإسرائيلية: الأرض المقدسة التى كتب اللّه لهم، ولكن إسرائيل هى إسرائيل، المجبولة على جبلة الجبن

---

[1]. نهج البلاغة الخطبة ٣٦٩/٣/٩٠.

والتمحُّل والأريحية والنكوص على الأعقاب والإرتداد على الأدبار وإساءة الأدب مع الرسل ومع اللّه تعالى!.

«يقوم ادخلوا الأرض المقدَّسة التى كتب اللّه لكم ولا ترتدُّوا على أدباركم فتنقلبوا خسرين».[1]

«الأرض المقدسة» ما جاءت فى القرآن إلاّ هذه المرة بنفس الصيغة، وهى القدس المبارك، ولا نعرف من قدسيتها وبركتها إلا ما عرفنا اللّه «إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله»[2] ـ «وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها»[3] والبركة العظمى هى الروحية المتمثلة فى الأنبياء الذين بعثوا فيها ودفنوا، إذا فهى المباركة بقدسية العاصمة الرسالية ومنطلقها إلى ما حولها من القرى، وكما فى مكة المكرمة ـ وهى أعلى من القدس ـ «لتنذر أم القرى ومن حولها».

تلك «الأرض المقدسة التى كتب اللّه لكم» أنتم، وهى محتلة بأيدى الوثنيين، وهذه الكتابة كتابة تشريعية وأخرى تكوينية شرطَ المحاولة المستطاعة، لا تكوينية طليقة وإلا لما احتلت رغم كتابة اللّه ف «ادخلوا.. ولا ترتدوا على أدباركم» خوفة من المحتلين «فتنقلبوا خاسرين» حاسرين عن إيمانكم تشككا فى أمر اللّه وإرتدادا عنه، أو وعن بغيتكم المكتوبة لكم، وكما انقلبوا تائهين فى التيه أربعين سنة والآية تحتمل المعنيين، والإرتداد على الأدبار منه ـ وهو أهمه ـ الارتداد عن الدين شكا بعد اليقين، فتكونوا كالمقهقر الراجع والمتقاعس الناكص.

فكتابة دخول الأرض المقدسة تكوينيا هى مشروطة بتحقيق الكتابة الشرعية، فلما تخلفوا عن دخولها كما أمروا تخلف عنهم الدخول وهذا هو المعنى من البداء فى دخولهم[4] هؤلاء ثم

---

[1]. ٥: ٢١.

[2]. ١٧: ١.

[3]. ٧: ١٣٧.

[4]. نور الثقلين ١: ٦٠٦ عن تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن ابي عبدالله انه سئل عن قول الله «ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم» قال: «كتبها لهم ثم محاها ثم كتبها لأبناءهم فدخلوها يمحو الله ما يشاء وعنده أم الكتاب» أقول: الكتابة الممحوة هي مجموعة التشريعية والتكوينية إذ لم يقوموا بشرائطها ثم أثبتها للقائمين بشروطها، والكتابة هي للأمة الإسرائيلية ولم يكن التحريم إلا لردح من الزمن ثم أحلت، سواء للذين بقوا من المخاطبين أولاً أم غيرهم.

القضاء لدخول أبناءهم وذراريهم فإنه من المكتوب[1] كما «ونريد أن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم فى الأرض»[2] وقد عـرَّفهم موسـى مـن شرط تحقيق هذه الإراءَة الربانية: «قال موسى لقومه اسـتعينوا باللّـه واصـبروا إن الأرض للّـه يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعـد مـا جئتنـا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعلمـون»[3] ـ «وأورثنـا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمـت كلمـة ربـك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا»[4] والكلمة الحسنى هى: «.. أدخلوا الأرض المقدسة التـى كتب اللّه لكم..» تحقيقيا حقيقا لذلك الدخول بشرطه الصالح الفالح.

ثم وهذه الوراثة والكتابة لهم بعد شرط اللّه فيهما شرطُ بقاء شرعة اللّه هذه التوراتية فليسـت لهم بعد نسخها كما نسخت بالقرآن واللّه وعد أهـل القـرآن بـدخول القـدس مـرتين عنـد إفساديهم العالميين، بعد المرة الأولى بداية الإسلام، فهم ـ إذا ـ لا يملكون الأرض المقدسة على مدار الزمن إلا فى ردح الرسالة الإسرائيلية، وشرط شروط مسرودة.

«قالوا يموسى إنَّ فيها قوما جبّارين وإنّا لن نَّدخُلها حتَّى يخرجوا منها فإن يخرجوا منهـا فإنَّـا داخلون»[5]

نراهم هنا يخافون من جبارين ظالمين فى الأرض المقدسة ولا يخافون من التخلُّف عن أمـر الجبار العدل الحكيم، بل ويُحيلون طاعتهم له: «وإنا لـن نـدخلها» اللّهـم إلا إذا خـرج منهـا جبارون دون محاربة، وهذه الأريحية الحمقاء كانت منهم غباءً وبلاءً فأدخلتم فى التيه أربعين عاما.

---

[1]. في سفر تكوين المخلوقات للتورات ١٢: ٧ ـ أنه لما مر إبراهيم بأرض الكنعانيين ظهر له الرب «وقال لنسلك أعطى هذه الأرض».

[2]. ٢٨: ٦.

[3]. ٧: ١٢٩.

[4]. ٧: ١٣٧.

[5]. ٥: ٢٢.

ذلک، وقد فسر لهم رجلان من الذين أنعم اللّه عليهما أمر الدخول الإمر فى حسبانهم:

﴿قال رجلان من الّذين يخافون أنعم اللّه عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنّكم غلبون وعلى اللّه فتوكّلوا إن كنتم مُّؤمنين﴾.[1]

هنا «يخافون» تحتمل إلى خوفهم من اللّه خوفَهم من جبارين فيها قضيةَ حذف المتعلّق فلو كان ـ فقط ـ اللّه لذكر، أم الجبارين لذكروا، ثم سابق ذكر جبارين يدخلهم فى نطاق خوفهم، ولاحق ذكر «أنعم اللّه» يضيف إلى خوفهم خوف اللّه، فقد امتاز هذان الرجلان من الذين يخافون الجبارين أن كانوا يخافون اللّه ويرجون ألاّ يخافوا إلاّ اللّه، فأنعم اللّه عليهما من بينهم أن حصرا خوفهما باللّه.

فجعلهما لا يخافان مع اللّه أحدا، ف «من خاف اللّه أخاف اللّه منه كل شىء ومن لم يخف اللّه أخافه اللّه من كل شىء» وقد يعنى «يخافون» الخوف من العمالقة الجبارين ولكنهما يمتازان عمن سواهم أن «أنعم اللّه عليهما» بخوف من اللّه يتغلب على خوفهما، أم أصبحا لا يخافان هؤلاء، فإنما يخافان اللّه.

وقد يصحُّ عدُّهما من النقباء الإثنى عشر من بنى إسرائيل السابق ذكرهم، فإذاً قد تعنى «من الذين يخافون» هؤلاء النقباء الخائفين اللّه دون سواه، «أنعم اللّه عليهما» من بينهم بنعمة خاصة، أو أنعم اللّه عليهما معهم حيث الكل «يخافون» اللّه لا سواه.

ذلک، و«أنعم اللّه عليهما» صفة لها بعد صفة، فهما رغم أنهما «من الذين يخافون» قد «أنعم اللّه عليهما» فقلّ خوفهم عن الجبارين أم زال، ولم يكونوا من القائلين الغائلين «إنا لن ندخلها..» بل هما من الذين يخافون ككل، ولكنه خوف تغلبت عليه نعمة اللّه.

وهنا أقل محتد روحى للرجلين أنهما من الصالحين الكُمَّل، وقد يحتمل كونهم من الشهدا أو الصديقين[2] أو النبيين حيث هم من المنعم عليهم: ﴿ومن يطع اللّه والرسول فأولئک مع الذين

---

[1]. ٥: ٢٣.

[2]. مما قد يصدق أنهما كانا من الصديقين من خلفاء موسى عليه‌السلام ما في نور الثقلين ١: ٦٠٦ عن تفسير العياشي عن أبي جعفر عليهماالسلام «قال رجلان» أحدهما يوشع بن نون ووكلا بن ياخثا كالب بن يافنا وهما ابن عمد.

أنعم اللّه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئک رفيقا».[1]

ولكن «رجلان» و«من الذين يخافون» قد تبعدانهم عن منصب النبوة، ثم ولا نعرف نبيّا مع موسى غير هارون، فهما على أية حال كانا فی قمة من قمم الإيمان والتكلان على اللّه فی مثل ذلک الموقف الحَرِج المَرِج، بذلک الأمر الرشيد الجرىء الإمر: «أدخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون»: إذا دخلتم باب البلدة المقدسة إنهزموا فلا يبقى منهم نافخ نار ولا ساكن دار.

وذلک درس يحلّق على كافة الأمثال لهذه الهجمة المؤمنة المتوكلة بأمر اللّه، فصاحب الحق وقد احتُل مركزه واللّه يأمره أن يأخذ حقه، إنه بطبيعة الحال يتأكد نجاحه فی مثل هذه الهجمة القوية، فلو أنهم لا ينجحون لاستحال على اللّه أمرهم بالدخول فی الأرض المقدسة وقد كتبها اللّه لهم: ضابطة ثابتة فی علم القلوب وتكتيک الحروب: أقدِموا واقتحموا، فمتى دخلتم على القوم فی عقر دورهم انكسرت قلوبهم وضعفت معنوياتهم قدر ما تقوى قلوبكم وتعلو معنوياتكم، فهم يشعرون بهزيمة عظيمة تفشل بها طاقاتهم مهما كانوا جبارين «وعلى اللّه فتوكلوا إن كنتم مؤمنين».

ذلک ولمجرد الهجمة المفاجئة وإن كانت بدائية ظالمة، لها دورها فی الغلبة، فضلاً عما هی دفاعية لإسترجاع حق مغتصب ومن مؤمنين باللّه وهی بأمر اللّه.

وإذا كانت الحروب النارية هكذا قضية انحلال الشخصية والتصميم من المهاجمين، فماذا ترى الحروب الباردة فی حقول الحجاج اللجاج، فلا ريبة فی تغلُّب صاحب الحق على صاحب الباطل، ولا سيما حين يقدم المبطل فی عرض دعواه فيهاجمه المحق فی أسود نقطة من نُقَط، فيتهدر المبطل عن بكرة أبيه.

ففرق بين أن يأمر اللّه بالدفاع أو الجهاد دون ضمان للغلبة حيث الحرب سجال، وبين أن يأمر بالدخول فی الأرض المقدسة المحتلة وقد كتبها اللّه لهم.

ففی مثلث «كتب اللّه.. ادخلوا.. وعلى اللّه فتوكلوا» يكون النجاح مضمونا دون ريب، فلا

---

[1]. ٤: ٦٩.

يكفى الدخول إلاّ بأمر اللّه وكتابة النجاح فيه، ثم لا تكفى الكتابة والدخول إلاّ بالتوكل على اللّه، فقد «جعل التوكل مفتاح الإيمان والإيمان قفل التوكل، وحقيقة التوكل الإيثار وأصل الإيثار تقديم الشى بحقه، ولا ينفک المتوکل فى توكله من إثبات أحد الإيثارين فإن آثر معلول التوكل وهو الكون حجب به، وإن آثر علة التوكل وهو البارى سبحانه بقى معه».[1]

«قالوا يموسى إنَّا لن نَّدخلها أبدا مَّا داموا فيها فاذهب أنت وربُّک فقتلا إنَّا ههُنا قعدون».[2]

وذلک أسوء تعبير عن القدير اللطيف الخبير أن «فاذهب أنت وربک» كأنه ـ فقط ـ ربه لا وربهم، ثم وهو بحاجة إلى مناصرة فى مقاتلة الجبارين، مما يدل صارخة أنهم لمّا يؤمنوا باللّه وحتى قدر إيمان المشركين به، المعترفين بأنه رب السماوات والأرض وله المُلک!
ولأنهم كانوا من المشبهة المجسمة كما هو صريح آيات اختلقوها فى التورات ک «إن إسرائيل صارع اللّه فصرعه فأخذ بركة النبوة لنفسه عوضا عن العيص ثم خلّص اللّه بهذه المعاوضة» أو «إن اللّه كان يمشى فى الجنة قائلاً: يا آدم يا حوا أين أنتما لا أراكما» أمَّا ذا من تجسيم جسيم حسيم لساحة الربوبية المقدسة!

ويا له من تخاذل أمام الجبارين عن نصر الحق وتوهين الباطل، وتجاهل أمام اللّه، فدخولاً فى التيه.

وهكذا يكون دور المتخاذلين هودا أو نصارى أو مسلمين دون إختصاص بطائفة دون أخرى وكما خاطب على أمير المؤمنين عليه‌السلام أضراب هؤلاء اليهود قائلاً:

«أيها الناس لو لم تتخاذلوا عن نصر الحق ولم تهنوا عن توهين الباطل لم يطمع فيكم من ليس مثلكم ولم يقوَ من قوى عليكم لكنكم تهتم متاه بنى إسرائيل ولعمرى ليضعفن لكم التيه من بعدى أضعافا خلفتم الحق وراء ظهوركم وقطعتم الأدنى ووصلتم الأبعد».[3]

فنفس الهجوم على العدو ولا سيما بطمأنية الإيمان وأمر اللّه وضمانه للغلبة، ذلک مظهر من

---

[1]. مصباح الشريعة قال الصادق عليه‌السلام في كلام طويل وقال عز وجل «وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين» جعل...

[2]. ٥: ٢٤.

[3]. نور الثقلين ١: ٦٠٩ عن نهج البلاغة للسيد الشريف الرضي عنه عليه‌السلام.

مظاهر القوة القاهرة للداخل الهاجم، فيَهابُه المهاجَم عليه مهما كان أقوى منه، فإنه يزدادک قوة وينقصه عن قوته، فالضربة الأولى هی القاضية علی المضروب، سادَّة عليه كل الدروب للفرار عن النكسة، أو القرار للتغلب.

وهكذا يكون دور الحجاج أن الغلبة الأولى قاضية وإن لم تكن حقة فضلاً عن الحاقة.

فعلى المُحاور المحق أن يقدم فی حواره أقسى الضربات حتى يربح أقصاها، ومن تكتيكات الحوار الناجحة أن تصغى إلى محاورک فتعرف كل ما عنده من حجة، ثم تبتدر فی الإجابة عنه أضعف نقطه فتركز عليها بضربة قاسية قاضية، وبذلک تنجح على مدار الحوار.

فشكلية الحوار هی قد تكون أهم من مادتها، والجمع بينهما كأحسنهما وأقواهما أجمع وأقوى فی النضال، وكما تعرَّفنا إلى كل صنوف الجدال على أضواء القرآن فی سرده محاورات اللّه وأنبياءه.

ذلک الجهل الكافر والتخلف العاهر من بنی إسرائيل ونحن نقول يا رسول الهدى محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله: لا نقول كما قالت بنو إسرائيل.. «والذی بعثک بالحق لو ضربت أكبادها إلى برک الغماد لاتبعناک».[1]

وهكذا يحرج الجبناء فيتوقحون ويفزعون من الخطر أمامهم فيرفسون بأرجلهم كالحمر المستنفرة فرت من قسورة، بل يريد كل امرىء منهم أن يخدمه اللّه ورسوله وهم فی أريحيتهم عائشون.

وهذه هی نهاية المطاف بموسى فی رسالته المليئة بالعقاب والعقوبات والنكرانات وإحتمال كل الرذالات والإنحرافات والإلتواآت من بنی إسرائيل، نكوصا عن الأرض المقدسة، وإرتدادا إلى أدبار الجاهلية والوخزة الفرعونية، فماذا يصنع ـ إذا ـ بهؤلاء وقد وصل النكران إلى ذلک الحد القاحل الجاهل؟.

---

[1]. الدر المنثور ٣: ٢٧١ ـ أخرج أحمد والنسائي وابن حبان عن انس أن رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله لما سار إلى بدر استشار المسلمين فأشار عليه عمر ثم استشارهم فقالت الأنصار يا معشر الأنصار إياكم يريد رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله قالوا «لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، والذي بعثك بالحق لو ضرب أكبادها...».
وفيه عن ابن مسعود قال لقد شهدت من المقداد مشهدا لأن أكون أنا صاحبه أحب إلي مما عدل به آتى رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله وهو يدعو على المشركين قال واللّٰه يا رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل... ولكن نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك فرأيت وجه رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله يشرق لذلك وسَر بذلك.

ماذا؟ إلاّ أن يلتجىء إلى ربه داعيا ملتمسا أن يفرق بينه وبينهم وقد فعل:

«قال ربِّ إنّى لا أملک إلاّ نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين»[1]

دعوة مليئة بالآلام والأسقام مع الإستسلام، دعوة الفراق بينه وبين هؤلاء اللئام، فإلى مَن يشكو حاله إلاّ إلى اللّه الملک العَلاّم، يشكو بثه وحزنه ونجواه إلى اللّه حيث يعلم من اللّه ما لا يعلمون، انه لا تربط بهم بعد ذلک النكول الكافر أية رابطة صالحة، لا نسب ولا تاريخ ولا جهد سابق، فإنما الرباط فيما بين كان الدعوة إلى اللّه وقد فشلت وشلّت، متقطعا عنهم من كل وشائج الأرض حين تنقطع العقيدة الصالحة، فما هى الجدوى ـ إذا ـ فى كونه معهم ولم يعمل فيهم طائل الزمن الرسالى إلاّ بُعدا، اللّهم إلاّ قلة قليلة منهم.

وترى ماذا عنى موسى عليه‌السلام من «لا أملک إلاّ نفسى وأخى»؟ وهناک معه رجلان من الذين يخافون أنعم اللّه عليهما، ومعهما سائر النقباء وسواهم من الذين يخافون، وقد أدوا رسالة موسى فى هذه الحالة المحرجة؟.

فهل نتوسع فى «أخى» أنها جنس الأخ، شاملة لإخوته فى الإيمان إلى أخيه هارون فى النسب والرسالة؟ وصالح التعبير عن هذه الجمعية «إخوتى»!.

أم «لا أملک» فى نفاذ الدعوة الرسالية على ضوء الولاية المطلقة الشرعية إلاّ نفسى وإلا أخى؟ فكذلک الأمر! حيث نفذت فى الذين يخافون وأنعم اللّه عليهم: «ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون»[2] وذلک فى زمن موسى عليه‌السلام حيث يتلوها: «وأوحينا إلى موسى..».

أم «لا أملک» أنا «إلاّ نفسى» فى تطبيق أمرک «و» لا يملک كذلک «أخى»؟ فكذلک الأمر! إضافة إلى أن صالح التعبير ـ إذا ـ «إنى وأخى لا نملک إلاّ أنفسنا»! مع أنهما مُلكا أمر الولاية الشرعية وقد أثرت فيمن أثرت.

«إنى لا أملک إلاّ نفسى وأخى» قد تعنى ملک تطبيق الرسالة فى هؤلاء الفاسقين، فله ملک

---

[1]. ٥: ٢٥.

[2]. ٧: ١٥٩.

الرسالة الأصلية ولأخيه ملك الرسالة الفرعية ـ وهو الولاية المطلقة الشرعية الرسولية ـ تحت مُلكته الرسالية، ثم «لا أملك» هنا نسبية أمام هؤلاء الفاسقين، وأما ملك هذه الرسالة بالنسبة للمؤمنين القلة معه فهو أمر واقع لا مردَّ له كما فى نص الآية «رجلان من الذين يخافون..» فقد يعنى بقوله إنى وأخى، نفضنا أيدينا عن بلاغ الرسالة كما أمرنا، وهنا «لا أملك» مضارعة تعنى حاله ومستقبله دون ماضيه حيث أثرت دعوته مهما كانت فى قلة قليلة، فلأن الرسالة لا تعنى بدورها إلاّ تحقيقها وقد تحققت فى هؤلاء القلة، ثم تجمدت أمام هؤلاء الكثرة الفاسقة فلا طائل ـ إذا ـ تحت تبقية الرسول وقد نفض يديه عن الوحى بلاغا وإبلاغا، ثم لا يرى لإستمراية بلاغه بينهم إلاّ مزيدا لفسقهم أو كفرهم، وهكذا تكون أدوار الحياة الرسولية أن الرسول حين ينفض يديه عن كامل الوحى الرسولى بلاغا وإبلاغا ثم لا يرى بعد فترة تأثيرا فى دعوته، أن بقاءه بعدُ فيهم ليس تحته طائل، إذا يصح دعاءُه: «فافرق بيننا» أنا وأخى كرسولين، وسائر المؤمنين نقباء وسواهم كأعضاد هذه الرسالة، «فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين»، إذ كلت الدعوة وما أثرت إلاَّ نكوصا ونكولاً، وما خلفت فيهم إلاَّ نكالاً، فلا تعنى «فافرق» طلبا لفرْقه عن أصل الرسالة أم عن دعوتها، بل هو تطلب لموته أمّا أشبه بما يخلصه عن هذه الورطة، ولكن اللّه ـ حسب المفهوم من آيات لم يستجب دعاءه فى موته إن كان هو المطلوب، بل حوّل إستجابته إلى تحريم الأرض المقدسة عليهم كأصل، وتحريم سائر البلاد عليهم كفرع فلقد راعى موسى الأدب الرسالى فلم يترك الحوزة الرسالية خلافا ل «ذا النون إذ ذهب مغاضبا..» بل التجاء إلى الدعاء: «فافرق» دون تعيين لمصداق له تأدبا، فإستجابة اللّه فى اللّه فى فرق صالح بينه وأخيه، وبين القوم الفاسقين فى «إنها محرمة عليهم» لا وعليهما، فقد كنا نزور القدس خلال هذه الأربعين.

فالمطلوب فى دعاءه هو فرقٌ مَّا ينجيه من ذلك الفَرَق وقد نجاه اللّه بفرْق صالح دونما موت أو عزل له عن الرسالة أم دعوتها، ونفس ذلك التيه فيه ما فيه من فرْق فيه لهم فَرَق يرجعهم عما كانوا فيه من طيش، عذاب فارق بينهم وبينهما، ومن ثم فارق الموت بعد دخولهم فى الأرض المقدسة، كما فرق بينهما وبين جمع منهم ماتوا فى التيه.

«قال فإنَّها محرَّمةٌ عليهم أربعين سنةً يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين».[1]

هل «قال» اللّه إجابة لدعوته «فإنها محرمة عليهم..» وهذا فراق بينهم وبين الأرض المقدسة دونه وإياهم وقد تطلب «فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين»؟ علّ الفاء فى «فإنها» إشارة إلى تحريمها عليهم عقوبة وهى كافية فى الحكمة التربوية، وأما «فافرق» فلا تصلح الفراق بين رسول ومرسل إليهم إلاّ بموتهم أو موته، وهل مات موسى عليه‌السلام فى التيه[2] بعدما عاش معهم ردحا فيه فخلفه يوشع بن نون فى رسالته[3] إذ مات خليفته الأولى هارون قبله، وقد يروى أن قبر موسى قذفة حجر من الأرض المقدسة؟[4] ذلك لا تناسب الآيات التالية ولا سيما «أدخلوا مصرا..».

وترى ما هى وأين هى أرض التيه؟ إنها بطبيعة حال خروجهم عن مصر تجاه الأرض المقدسة هى بينهما وقد تاهوا فيها، ونحن تائهون فى تعايشهم أربعين تيه اللّهم إلاّ ما بينه اللّه لنا من ماءِهم فيه وغذاءِهم وتظليل الغمام عليهم: «وقطعناهم عشرة أسباطا أمما وأوحينا إلى موسى إذا استسقاه قومه أن إضرب بعصاك الحجر فانبجست منه إثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»[5] «وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه إثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق اللّه ولا تعثوا فى الأرض مفسدين. وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع

---

[1]. ٥: ٢٦.

[2]. نور الثقلين ١: ٦٠٨ في الكافي عن أبي عبدالله عليه‌السلام قال قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله مات داود النبي عليه‌السلام يوم السبت مفجوعا فأظلته بأجنحتها ومات موسى عليه‌السلام في التيه فصاح صائح من السماء مات موسى وأي نفس لا تموت؟.

[3]. المصدر في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده إلى أبي حمزة عن أبي جعفر عليهما‌السلام حديثا طويلاً يقول فيه: ان الله تبارك وتعالى ارسل يوشع بن نون إلى بني إسرائيل من بعد موسى بنبوته بدؤها في البرية التي تاه فيها بنو إسرائيل.

[4]. الدر المنثور ٢: ٢٧٢ ـ أخرج عبد بن حميد عن الحسن قال لما استسقى موسى لقومه أوحى الله إليه أن اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه إثنتا عشرة عينا فقال لهم موسى ردوا معشر الحمير فأوحى الله إليه قلت لعبادي معشر الحمير وإني قد حرمت عليكم الأرض المقدسة قال يا رب فاجعل قبري منها قذفة حجر فقال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: «لو رأيتم قبر موسى لرأيتموه من الأرض المقدسة قذفة بحجر».

[5]. ٧: ١٦٠.

لنا ربک يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثاءها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير إهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم..»[1]
فهكذا يدخلون مصرا وعلّها الأرض المقدسة التى كتب اللّه لهم: «وإذ قيل لهم أسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وأدخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطاياكم سنزيد المحسنين. فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون».[2]
ذلک، وقد تلمح «فلا تأس على القوم الفاسقين» أنه أسى على تيههم أربعين سنة، إذ ما كان يخلد بخلده أن اللّه يستجيبه هكذا، فإنما فرقا بينه وبينهم، لا جمعا فى تيه العذاب، اللّهم إلاّ ردحا منه قليلاً يسقى قومه بما ضرب عصاه الحجر وما أشبه.
ولأن موسى وهارون والنقباء الإثنى عشر ومعهم المؤمنون كانوا مع القوم فى التيه فقد يبرز هذا السؤال، كيف يستجيب اللّه دعاء موسى على نفسه كما على قومه؟.
والجوائب أن تيه الأربعين كان عليهم عذابا لم يسأله موسى، ولم يكن له عذابا إذ لم يكن دخول الأرض المقدسة محرما إلا عليهم «فإنها محرمة عليهم» ثم اللّه سهل على رعيل الإيمان ما لم يسهل على الفاسقين، ومنه لموسى عليه‌السلام تظليل الغمام وانفجار العيون بما ضرب موسى عصاه، وإنزال المن والسلوى، آيات ثلاث ربانية كانت لصالح الرسالة الموسوية علّهم يؤمنون.
فأما دعاءه «فافرق..» فقد فرق اللّه بينه وبينهم بموته دون عزله عن الرسالة فإنه عضل، ولا فرقه عنهم حيا فإنه إنعزال لا يجوز فى سنة الرسالة مهما كان المرسل إليهم عزَّل عن الإيمان وعُضَّل، ومن الفرق هو فارق العذاب لهم فى التيه دونه وهارون والمؤمنين معهما.
والقول إن اللّه فرق بينهم وبين القوم فور دعاءه قبل التيه، تيه فى القول حيث كان انبجاس العيون وتظليل الغمام وما أشبه، آياتٍ ربانية بيد موسى عليه‌السلام وهم فى التيه، إذ لا حاجة إلى

---

[1]. ٣: ٦١.

[2]. ٧: ١٦٢.

ذلک الإستسقاء الجمعی وتظلیله إلاَّ فی التیه.

فلقد تاهوا فی تلک التیهاء لا یهتدون من أی إلی أی، وقد لا تعنی «فإنها محرمة علیهم» حرمة تعبدیة إذ هم لم یکونوا یتعبدون بسلب ولا إیجاب، بل هی محرمة علیهم حتی إن لم یکن فیها جبارون حیث أتاهم اللّه عنها فظلوا فی التیه إذ ضلوا عن الأرض المقدسة فیه واللّه أعلم بما فی التیه ومَن فیه، بسالبه ومنفیه.

هذا ما یقوله القرآن عن سبب التیه فی التیه، وإلیکم نصا من التوراة فی سبب التیه: «فقال الرب لموسی وهارون من أجل أنکما لم تؤمنا بی حتی تقدسانی أمام أعین بنی إسرائیل لذلک لا تدخلان هذه الجماعة إلی الأرض التی أعطیتهم إیاه. هذا ماءٌ مریبة حیث خاصم بنو إسرائیل الرب فتقدس فیهم».[1]

ذلک، ولم یسبق هذا النص المزری بحق الرسولین الکریمین إلاّ قصة إخراج الماء من الحجر بأمر اللّه حیث «١٠ ـ قال لهم إسمعوا أیها المردة. أمن هذه الصخرة نخرج لکم ماءً. ١١ ـ ورفع موسی یده وضرب الصخرة بعصاه مرتین فخرج ماءٌ غزیر. فشربت الجماعة ومواشیها. فقال الرب...».

وحصیلة المعنی من دعاءه علیه‌السلام بإستجابته أن اللّه حرم علیهم الأرض المقدسة أربعین سنة، ولیس علی موسی وهارون وسائر المؤمنین، فقد یلمح أنهما مع هؤلاء کان لهم الدخول إلی الأرض المقدسة خلال الأربعین علی أیة حال حتی إذا دخلوا مصرا.

إذا فلم یکن موت موسی علیه‌السلام فی التیه، ولم تکن إستجابة دعاءه فی الفرق بینه وبینهم إلاَّ بفارق عذاب التیه حیث قال «فإنها محرمة علیهم» دون «علیکم».

وهکذا تکون أدعیة الصالحین، غیر جازمة فیما یطلبون، وإنما حسب المصلحة الربانیة، ولم یکن لحاضر موسی من العقدة إلا «لا أملک إلا نفسی وأخی» وبناءً علیه «فافرق بیننا وبین القوم الظالمین» وقد فرق بینهما وبینهم بما فرق.

فهنا فی «فافرق..» المتفرعة علی «إنی لا أملک..» إحتمالات عدة:

---

[1]. سفر الإعداد ٢٠: ١٢ ـ ١٣.

١ ـ «فافرق» بعزلى عن هذه الرسالة؟ وتطلُّب العزل عضل من رسول معصوم وفرية جهل على اللّه تعالى كأنه جهل صلاحية هذه الرسالة فليعزلهُ عنها حين لا يملكها!.
٢ ـ «فافرق» بتركى حوزة المسئولية فى هذه الرسالة، إنعزالاً عن هؤلاء المرسل إليهم إلى عزلة خالية عن الدعوة؟ وتطلُّب الإنعزال لا يناسب «عذرا أو نذرا» فى الرسالات كلها، ولقد ظلم ذا النون «إذ ذهب مغاضبا..» حيث ترك حوزه الدعوة دونما إستئذان من اللّه!.
٣ ـ «فافرق» بموتى حيث تم الوحى الرسالى وطم الإنذار فلا طائل بعدُ تحت هذه الرسالة؟ ولا طائل تحت هذا الطلب ممن يعلم مدى صالح الدعوة الرسولية!.
٤ ـ «فافرق» بموتهم؟ وهكذا الأمر! وعلّ فيهم من يؤثر فيه كرور الدعوة.
٥ ـ «فافرق» بفارق العذاب الذى هو قضية ذلك التخلف المتواتر المتواصل منهم فلا تشملنى وأخى والمؤمنين بذلك العذاب.
٦ ـ «فافرق» كما تراه صالحا؟ وهذا هو الأدب الرسولى السامى المرجو من مثل موسى عليه‌السلام.
«قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة» وليس قضية خصوص هذه الحرمة أن يمنعوا عن بلاد أخرى غيرها، ولكن «يتيهون فى الأرض أربعين سنة» إتاهتهم عن غيرها كما عنها، والتيه عذاب أليم أيا كان، ولا سيما فى غير بلد وهم فى الصحراء وليس لهم إلاّ طعام واحد وجوٌّ واحد، كلما يحاولون الوصول إلى مصر لا يسطعون فإن «يتيهون» إخبار عن واقع لا مرد له.
حول التيه وما ورد فيه:
أتراهم وهم فى التيه ما حاولوا أن يدخلوا الأرض المقدسة أم غيرها من البلاد ولماذا وهم حائرون بائرون من تيه التيه؟.
«إنها محرمة عليهم» تعنى حرمة واقعية إلى حرمة شرعية فلذلك لم يسطعوا أن يدخلوها، ثم «يتيهون فى الأرض» نبأ عن واقع حرمانهم عن الدخول فى أية بلدة إلا بعد أربعين التيه، وقد ورد فيه من الآثار والأخبار ما فيه ما فيه، اللّهم إلا ما يوافق الواقع المعقول المقبول، الذى

يتلقاه المؤمن العاقل بالقبول.[1]

هل الحاكم الرسولى يُستأذن فانه رئيس كل القوى

«لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللّه عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ».[2]

ضابطة ثابتة لا تخطىء، فالذين يؤمنون باللّه واليوم الآخر لا ينتظرون الإذن فى أداء فريضة اللّه بعدما أمرهم اللّه وأكد لهم، فهم لا تلكأون فى تلبية داعى اللّه نفرا فى سبيل اللّه، بل هم سِراع إليها خفافا وثقالاً، طاعةً لأمره ويقينا بلقاءه وإبتغاءَ مرضاته دونما حاجة إلى حثٍّ بعدما حثهم اللّه فضلاً عن الإستئذان.

أفبعد أمر اللّه المؤكد بالجهاد بالأموال والأنفس يُستأذن رسول اللّه فى ذلك الجهاد، فضلاً عن استئذانه فى تركه، إذا فمجرد استئذانهم للقعود قعود لهم عن الإيمان حين يكون

---

[1]. بحار الأنوار ١٣: ١٧٦ عن أبي جعفر عليهماالسلام قال: لما انتهى بهم إلى الأرض المقدسة قال لهم: «ادخلوا الأرض المقدسة» قالوا: «إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، قال رب...» فلما أبوا أن يدخلوها حرمها الله عليهم فتاهوا في أربعة فراسخ أربعين سنة «يتيهون في الأرض...» قال عليه‌السلام: وكانوا إذا أمسوا نادى مناديهم: أمسيتم الرحيل فيرتحلون بالحداء والرجز حتى إذا أسحروا أمر الله الأرض فدارت بهم فيصبحون في منزلهم الذي ارتحلوا منه فيقولون: قد اخطأتم الطريق، فمكثوا بهذا اربعين سنة ونزل عليهم المن والسلوى حتى هلكوا جميعا إلا رجلين: يوشع بن نون وكالب بن يوفنا وابناءهما وكانوا يتيهون في نحو من أربعة فراسخ فإذا أرادوا أن يرتحلوا ثبت ثيابهم عليهم وخفافهم...».

وفيه ١٨٠ عن أبي جعفر عليهماالسلام... وكانوا ستمائة ألف... وعن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهماالسلام عن قوله: «يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة...» قال: «كتبها لهم ثم محاها» وعن أبي عبدالله عليه‌السلام إن بني إسرائيل قال لهم «ادخلوا الأرض المقدسة» فلم يدخلوها حتى حرمها عليهم وعلى أبناءهم وإنما دخلها ابناء الأبناء.

وعن إسماعيل الجعفي عن أبي عبدالله عليه‌السلام قال قلت له: اصلحك الله: «ادخلوا الأرض المقدسة...» أكان كتبها لهم؟ قال: «أي والله لقد كتبها لهم ثم بدا له لا يدخلوها» وعنه عليه‌السلام قال: «كتبها لهم ثم محاها ثم كتبها لأبناءهم فدخلوها والله يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب، وعنه عليه‌السلام فحرمها الله عليهم اربعين سنة ويتَّهمم فكان إذا كان العشاء أخذوا في الرحيل ونادوا الرحيل الرحيل ألوحى ألوحى، فلم يزالوا كذلك حتى تغيب الشفق حتى إذا ارتحلوا واستوت بهم الأرض قال الله للأرض: ديري بهم فلم يزالوا كذلك حتى إذا أسرحوا وقارب الصبح قالوا: إن هذا الماء قد أتيتموه فأنزلوا فإذا أصبحوا إذا أبنيتهم ومنازلهم التي كانوا فيها بالأمس فيقول بعضهم لبعض يا قوم قد ضللتم وأخطأتم الطريق فلم يزالوا كذلك حتى أذن الله لهم فدخلوها وقد كان كتبها لهم».

وفيه عنه عليه‌السلام يقول: نعم الأرض الشام وبئس القوم أهلها وبئس البلاد مصر أما إنها سجن من سَخط الله عليه ولم يكن دخول بني إسرائيل مصر إلا من سخط ومعصية منهم لله لأن الله قال: «ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم» يعني الشام فأبوا أن يدخلوها فتاهو في الأرض اربعين سنة في مصر وفيا فيها ثم دخلوها بعد أربعين سنة، قال: «وما كان خروجهم من مصر ودخولهم الشام إلا من بعد توبتهم ورضى الله عنهم».

وفيه عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله في الآية قال: «كان في علمه أنهم سيعصون ويتيهون أربعين سنة ثم يدخلونها بعد تحريمه إياها عليهم».

[2]. ٩: ٤٤ ـ ٤٥.

الإستئذان للجهاد يشى بعدم الإيمان «واللّه عليم بالمتقين» إياه، والطاغين دون حاجة إلى استئذان منهم وعدم استئذان، فإنما ذلک البيان إعلان للرسول والذين معه ليعرفوا المنافقين فى لحن القول.

ولقد كان أكابر المهاجرين والأنصار يقولون: لا نستأذن النبى صلى‌الله‌عليه‌وآله فى الجهاد فإن ربنا ندبنا إليه مرة بعد أخرى، فلماذا ـ إذا ـ الإستئذان؟ وكانوا بحيث لو أمرهم الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله بالقعود لشق عليهم. فترى عليا عليه‌السلام لما يأمره الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله بأن يبقى فى المدينة يشق ذلک عليه حتى يقول رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى.

والإستئذان المنفى هنا لا يختص بالقعود، بل هو الظاهر فى الخروج، مما يرجح أن جماعة منهم إستأذنوه للخروج فأذن لهم، كما وأن «إئذن لى ولا تفتنى» هو من آخرين استأذنوه للبقاء، فقد يصح حمل «لم إذنت لهم» على الأمرين، إذن فى الخروج وإذن فى البقاء، والجهاد فى سبيل اللّه ليس من مسارح الإذن سلبا وإيجابا.

أجل «لا يستأذنک.. إنما يستأذنک الذين لا يؤمنون باللّه واليوم الآخر» سواءٌ أكان استئذانهم للجهاد أم تركه، وهو أحرى دلالة على كفرهم باللّه واليوم الآخر، فالإستئذان فى هذا المسرح لأيٍّ كان ومن أيٍّ كان، إنما هو لأولئک الذين خلت قلوبهم من الإيمان فهم يتلمسون المعاذير وهم فى ريبهم يترددون، استئذانا للخروج وآخر للقعود.

ذلک الإستئذان كان للقعود وان استأذنوه بعد للخروج: «فإن رجعک اللّه إلى طائفة منهم فاستأذنوک للخروج فقل لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين».[1]

وفى «لا يستأذنک» تلميحة أنهم لم يستأذنوه ـ فقط ـ فى القعود، بل وفى الخروج مع المجاهدين أيضا ليزيدوكم خبالاً، ولكن المحور فى «لم أذنت لهم» هم الذين إستأذنوه لعدم الخروج حيث «لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة..»).

---

[1]. ٩: ٨٣.

وهنا «لا يستأذنک» علم حادث له صلى‌الله‌عليه‌وآله إذ لو کان يعلمه لکان استئذانهم إياه علما له بکذبهم، فلا يرد أنه لم يکن مأذونا فی إذنهم حين أذن لهم ولا يعمه «فأذن لم شئت منهم».
إنهم أولاء الأنکاد البعاد «إرتابت قلوبهم» فی الحق «فهم فی ريبهم يترددون» بين الخروج والبقاء، وکلاهما منهم خيانة وکيد على الجماعة المسلمة «ومن تردد فی الريب سبقه الأولون وأدرکه الآخرون وقطعته سنابک الشياطين»،[1] فذلک علامة أولى لکذبهم فی استئذانهم ثم ثانيا:
«وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللّه انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ».[2]
إن إرادة الخروج، العازمة الحاسمة، قضيتُها الطبيعية الواقعية إعداد عُدة له وإن بسيطا، وهم لم يُعدوا له أية عُدة، إلا کل عدة للتخلف عنه «ولکن کره اللّه انبعاثهم فثبطهم»: کسَّلهم وضعَّف رغبتهم فی الإنبعاث کيلا يخرجوا، فإن خروجهم مروج فيهم، فخروج عن صالح الحرب إلى طالحها، فقد تطلَّبت منهم شِرعَة التکليف أن يخرجوا، ثم ثبطتهم شِرعة التکوين بما تثبطوا فی أنفسهم «وقيل اقعدوا مع القاعدين» قيلة من رؤوس النفاق حيلة، وقيلة من الشيطان الرجيم غيلة، ثم اللّه لم يمنعهم عن هذه القيلة الحيلة الغيلة، وعن قعودهم بها، حيث «إنا أرسلنا الشياطين على الکافرين تؤزهم أزا»[3] «وقيضنا لهم قرناء فزينوا ما بين أيديهم وما خلفهم»[4] ذلک و:
«لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّه عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ».[5]

---

[1]. نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه‌السلام.

[2]. ٩: ٤٦.

[3]. ١٩: ٨٣.

[4]. ٤١: ٢٥.

[5]. ٩: ٤٧.

«لو» إحالة واقعية بما عزموا على عدم الخروج وبما ثبطهم اللّه وقيل أقعدوا مع القاعدين «لو خرجوا فيكم» أنتم المؤمنين الصالحين «ما زادوكم إلاّ خبالاً»: فسادا واضطراب رأى «ولأوضعوا»: أسرعوا فيها وفى أى فساد «خلا لكم»: تخللاً فاسدا كاسدا بين صفوفكم الإيمانية، حال أنهم: «يبغونكم الفتنة»: أن يطلبوكم إياها، كأن لا بغية لهم بخروجهم فيكم إلاّ إياها «وفيكم سماعون للكذب» أذنا لكل كلام دونما تثبت عنه كالبسطاء من المؤمنين والذين اسلموا ولمَّا يدخل الإيمان فى قلوبهم، «واللّه عليه بالظالمين» الضالين والمضلّلين، ذلک:

«ولَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَکَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللّه وَهُمْ كَارِهُونَ».[1]

و«من قبل» هنا منه يوم أحد حيث تخلف عبداللّه بن أبى سلول بثلث القوم خذلانا للنبى صلى‌الله‌عليه‌وآله وإضلالاً للذين معه «وقلبوا لک الأمور» التى كانت مؤاتية لصالح الحرب حيث عملوا دعايات مضادة لها بين صفوف المؤمنين «حتى جاء الحق وظهر أمر اللّه» نصرة بعد النكسة «وهم كارهون» مجىء الحق وظهور الأمر، متربصين عليه دوائر السوء، عليهم دائرة السوء ولكنهم لا يعلمون.

«وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِى وَلاَ تَفْتِنِّى أَلاَ فِى الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ».[2]

هؤلاء الأنكاد الأغباش، ومنهم جد بن قيس حين يقول له الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله: يا جد هل لک فى جهاد بنى الأصفر؟ قال: أتأذن لى يا رسول اللّه فإنى رجل أحب النساء وإنى أخشى إن أنا رأيت ساء بين الأصفر أن افتتن، فقال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله وهو معرض عنه: قد أذنت لک، فأنزل اللّه «ومنهم من يقول أئذن لى ولا تفتنى»[3] ـ «ألا فى الفتنة سقطوا» بأنفسهم المفتونة الفاتنة، فلم يفتنهم النبى صلى‌الله‌عليه‌وآله بترک الإذن لقعودهم ترغيبا فى بنات بنى الأصفر خلاف ما

---

[1]. ٩: ٤٨.

[2]. ٩: ٤٩.

[3]. الدر المنثور ٣: ٢٤٧ ـ أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبدالله قال سمعت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله يقول لجد بن قيس:...

يروى.[1]

ويا له من مشهد مرسوم يرسم لهم كأن الفتنة فيه هاوية وهم فيها ساقطون، فهم هنا فى جحيم الفتنة التى أججوها بذات أيديهم ماقتون، ثم هم فيما أججوه خالدون «وإن جهنم لمحيطة بالكافرين» فكفرهم وفتنتهم هما جحيمهم التى أججوها من ذى قبل: «بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون».

هذه جهنم هنا وهناك تأخذ عليهم كل المنافذ والمتجهات فلا يفلتون.

ذلك ومن أحوالهم المزرية ضد هذه الرسالة السامية:

«إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَهُمْ فَرِحُونَ».[2]

«إن تصبك حسنة» فى حرب وسواها، من غلبة وغنيمة وسواهما «تسؤهم» ثم «وان تصبك» رمية «مصيبة» على أية حال «يقولوا قد أخذنا أمرنا» لصالحنا حيث قعدنا عن الحرب «من قبل» ثم «ويتولوا» عن جنابكم إلى نواديهم «وهم فرحون»[3] رغم أن المؤمنين هم قَرِحون!.

ذلك بأنهم «يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» حاسبين السيئة شرا فى كل حال، والحسنة خيرا بأى مجال، رغم أن الحياة سجال بين مختلف الفتن تمحيصا للمؤمنين وتقليصا للكافرين، وهنا الجواب كلمة واحدة هى:

«قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّه لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّه فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ».[4]

فحيث نمشى ونمضى بأمر اللّه إلى جبهات القتال، إذا ف «لن يصيبنا إلاّ ما كتب اللّه لنا» قتلاً لأجل مسمّى فلا ضير، بل هو خير فى سبيل اللّه، أم لأجل معلق على القتال فكذلك

---

[1]. وفيه أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: اغزو تغنموا بنات بني الأصفر فقال ناس من المنافقين انه ليفتنكم بالنساء فانزل اللّه هذه الآية.

[2]. ۹: ۵۰.

[3]. الدر المنثور ۳: ۲۴۸ ـ أخرج ابن ابي حاتم عن جابر بن عبداللّه قال: جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله أخباء السوء يقولون: إن محمدا وأصحابه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا فبلغتهم تكذيب حديثهم وعافية النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله وأصحابه فساءهم ذلك فأنزل اللّه تعالى: أن تصبك...

[4]. ۹: ۵۱.

الأمر، حيث علّق على تحقيق أمر اللّه، فهو مجتمع أمريه تكوينا وتشريعا كما الأول، مهما اختلف محتوم عن معلق حيث هما بأمر اللّه و«هو مولانا» لا سواه «وعلى اللّه» لا سواه «فليتوكل المؤمنون» باللّه، دون توكلّ فى أيّ من الأمور على سواءٍ.

وهنا «ما كتب لنا» يعم إصابة الحسنة والسيئة، وهما لنا حسنة حيث كتب اللّه لنا، فما كتب اللّه للمؤمن هو خير له أيّا كان، وما يكتبه غيره مفارقا شرعة اللّه هو شر أيّا كان، فهو ـ إذا ـ مما كتب اللّه عليه كما هو كتبه على نفسه، ف «لنا» صالحة تختص بالصالحين و«علينا» طالحة لسائر الناس الطالحين «وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى».

فالمؤمنون منصورون هازمين ومنهزمين، قاتلين ومقتولين ف «إن اللّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل اللّه فيَقتلون ويُقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلک هوالفوز العظيم».[1]

ذلک، فلا تعنى «ما كتب اللّه لنا» أن كل المحاصيل بسوء الإختيار إلى حسنه هى مما «كتب اللّه لنا» طالما الكتابة الربانية تحلّق عليها كلها، إذ «ما كان لنفس أن تموت إن بإذن اللّه كتابا مؤجلاً»[2] فأين كتابة من كتابة؟.

هنا كتابة حسنة أو سيئة ونحن فى سبيل اللّه وتحقيق أمر اللّه فهى خير لنا تكوينا إلى تشريع، وهناک كتابة حسنة أو سيئة وهم فى سبيل الطاغوت فهى شرٌ لهم فى تكوين، وشر لهم فى تشريع، حيث خالفوا فيها شرعة اللّه فهو مما كتب اللّه عليهم، وهنا يبرز ناصع الحق وناصحه من قول الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله: «قال لكل شيءٍ حقيقة وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه».[3]

إذا فنحن السائلون إلى اللّه، المجاهدون فى سبيل اللّه، نعيش إحدى الحسنيين، وأنتم

---

[1]. ٩: ١١١.

[2]. ٣: ١٤٥.

[3]. الدر المنثور ٣: ٢٤٩ ـ أخرج أحمد عن ابي الدرداء عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله قال:...

السالكون إلى الطاغوت المجاهدون فى سبيله تعيشون إحدى السؤتين:

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللّه بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾.[1]

إعلام عام هام فى هذه الإذاعة القرآنية من قبل المؤمنين بهذه الرسالة السامية قبال الذين لا يؤمنون، من ملحدين أو مشركين أو كتابيين أو منافقين من المسلمين، وكل الذين فى قلوبهم مرض وليست حياتهم حياة الجهاد فى سبيل اللّه، أن تصيبهم مصيبة سيئة فى هذه السبيل.

وقد «تكفل اللّه لمن جاهد فى سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد فى سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة».[2]

«وكذلك المرء المسلم البرىء منه الخيانة ينتظر إحدى الحسنيين، إما داعى اللّه فما عند اللّه خير، وإما رزق اللّه فإذا هو ذو أهل ومال ومعه دينه وحسبه».[3]

وهكذا يؤدبنا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله **على ضوء كتاب اللّه، تكريسا محيصا لحياتنا فى الحصول على «إحدى الحسنيين».[4]**

لقد تكرر ذكر الحسنى فى القرآن ثمانية عشر مرة، المناسبة منها لما هنا تعنى الحياة الحسنى، وهى الطليقة دون اختصاص بجانب منها تحلّق على كافة الحيويات الحسنى ف ﴿للذين استجابوا لربهم الحسنى﴾[5] ﴿وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاءً الحسنى﴾[6] ﴿فأما من أعطى

---

[1]. ٩: ٥٢.

[2]. نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه‌السلام.

[3]. تفسير روح المعاني ١٠: ١١٦ وصح من حديث أبي هريرة عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: تكفل اللّه...

[4]. المصدر أخرج الحاكم وصححه وضعفه الذهبي من طريق سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة عن أبيه عن جده: بينما النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله بالروحاء إذ هبط عليه أعرابي من سرب فقال مَن القوم وأين تريدون؟ قال: قوم بدوا مع النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله، قال: مالي أراكم بذّة هيئتكم قليلاً سلاحكم؟ قال: ننتظر إحدى الحسنيين أما أن نُقتل فالجنة وإما أن نغلب فيجمعهما اللّه تعالى لنا، الغلبة والجنة، قال: أين نبيكم؟ قالوا: ها هوذا، فقال له يا نبي اللّه ليست لي مصلحة آخذ مصلحي ثم ألحق، قال: اذهب إلى أهلك فخذ مصلحتك فخرج رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله يوم بدر وخرج الرجل إلى أهله حتى فرغ من حاجته ثم لحق بهم ببدر فدخل في الصف معهم. فاقتتل الناس فكان فيمن استشهد فقام رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله بعد أن انتصر فمر بين ظهراني الشهداء ومعه عمر فقال: ها يا عمر انك تحب الحديث وان للشهداء سادة وأشرافا وملوكا وان هذا يا عمر منهم.

[5]. ١٣: ١٨.

[6]. ١٨: ٨٨.

واتقى. وصدق بالحسنى، فنيسره لليسرى»[1] وإلى «إحدى الحسنيين» إنشقاقا للحسنى إلى اثنتين، إنما هى الحسنى هنا، فإما نَقتل فى سبيل اللّه أم نُقتل: ف «إن اللّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل اللّه فيَقتلون ويُقتَلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم».[2]

فالحسنيان بالنسبة لآحاد المجاهدين فى سبيل اللّه أن يَقتلوا أو يُقتلوا، وهما نسبة إلى المجموعة المجاهدة غالبين ومغلوبين، فحين يؤدى المجاهدون فى سبيل اللّه واجبهم كان انهزامهم كهزيمتهم عدوَّهم على سواء.

فسوءا أصابتهم سيئة أم اصابتهم حسنة فى حرب وسواها، فما داموا هم هنا وهناك فى سبيل افهم يعيشون إحدى الحسنيين إذ «لن يصيبنا إلا ما كتب اللّه لنا» من حياة أو ممات، من هزيمة أو انهزامة، ومن مختلف ملابسات الحياة.

وذلك وقد يُجمع بين الحسنيين فرادى وجماعات، فالمناضل الذى يَقتل ثم يُقتل، والجيش الذى يَهزم ويُهزم، أما ذا من جمع بين الحياتين الإيمانيتين، هؤلاء هم من مجامع الحسنيين.

فرغم أن أعداءَنا يتربصون بنا كل دوائر السوء غالبين ومغلوبين، هنا يعبر عنهما ب «الحسنيين» فإما إحداهما أم كلاهما، فلا نعيش نحن إلاّ حياة سعيدة على أية حال ما دمنا نعيش مرضات اللّه تحققيا لشرعته فى حياتنا وكل حيوياتنا، مهما أنكر ناكرون، حيث الواقع لنا «إحدى الحسنيين» مهما كان متربَّص العدو إصابتنا بقتل أو شبهه وهى السوآئى الوحيدة دون أية حسنى فضلاً عن إحدى الحسنيين.

فذلك الإعلان مما يرتعش به العدو حيث يعرف ـ مهما كان ناكرا فى نفسه ـ أننا صامدون فى خط النار، غير راجعين إلاّ بإحدى الحسنيين، فحين يعرف العدو مدى صمودنا يحسب حسابه أمامنا فيهدر وينحدر من علواءه وغلواءِه إلى واقع حضيضه، فيفقد حظه فى جبهة

---

[1]. ٩: ٦.

[2]. ٩: ١١١.

القتال.

ذلك فى ضَفَّة الإيمان على مدار حياة الإيمان، وأما حياة الكفر ف : «نحن نتربص بكم أن يصيبكم اللّه بعذاب من عنده» هنا، أم بعد الموت فى البرزخ والأخرى «أو بأيدينا» أن تُقتلوا أو تُغلبوا، فنحن ـ إذا ـ منتصرون غالبين ومغلوبين، وأنتم معذبون غالبين ومغلوبين «فتربصوا» بنا إحدى الحسنيين «إنا معكم متربصون» بكم إحدى السوءتين.

«قُلْ أنفِقُوا طَوْعا أَوْ كَرْها لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْما فَاسِقِينَ * وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللّه وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ * فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّه لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ * وَيَحْلِفُونَ بِاللّه إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمْ اللّه وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللّه سَيُؤْتِينَا اللّه مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّه رَاغِبُونَ * إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللّه وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنْ اللّه وَاللّه عَلِيمٌ حَكِيمٌ».[1]

«قل انفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين».[2]

وترى مجرد الفسوق وإن فى غير مسرح الإنفاق وهو «طوعا» كيف يعمل فى أن «لن يتقبل منكم» ل «إنكم كنتم قوما فاسقين» إذا فشرط قبول الإنفاق هو العدالة الطليقة! أو العدالة فى الإنفاق حيث «يتقبل اللّه من المتقين».

هنا الفسوق محلّق على كافة الأعمال لمكان تحليق الكفر على القلوب، حيث المورد هو المنافقون، ومن شروط قبول العبادة الإيمانُ، فحتى إذا أنفقوا هؤلاء طوعا ـ ولن يكون ـ ف «لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين» فكينونة الفسق ضاربة إلى أعماقكم، فاصلة بينكم

---

[1]. ٩: ٥٣ ـ ٦١.

[2]. ٩: ٥٣.

وبين الإيمان والمؤمنين، فكيف تتقبل أية عبادة من كافر أو منافق هو أشر منه؟! وقد تبين ذلك بالآية التالية:

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللّه وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.[1]

هنا ثالوث يمنع عن ﴿أن تقبل منهم نفقاتهم﴾ هو: كفرهم باللّه وبرسوله، وصلاتهم وهم كسالى، وإنفاقهم وهم كارهون، مهما تظاهروا أنه بطوع ورغبة، والأخيران منطويان فى الأول، فهما له لزامان لا ينفصلان، فكما «الإيمان لا يضر معه عمل وكذلک الكفر لا ينفع معه عمل»[2] فطالح العمل لا يمحى صالح الإيمان استئصالاً وإحباطاً، وصالح العمل لا يثبت بالكفر، ضابطة ثابتة لا تستثنى.

هنا ﴿لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى﴾ حصر لصلاتهم بحالة الكسل وحسر لها عن النشاط العبودى، وهذه صفة الكافر باللّه، والمنافق فى عمله كسلاناً ومرائياً: ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس﴾[3] والكسل يعم الجسم إلى الروح ولأن كلاً يؤثر على الآخر.

ذلک فصلاة الكسلان المرائى حابطة منافقاً كان أو مؤمناً، ولكن المنافق كل أعماله حابطة قضيةَ عدم الإيمان، فالمؤمن بشىءٍ يضحى فى سبيله قدر إيمانه، فهلا نصلى نحن فى ضارة الخاطر وحضارة الحال، وربنا هو الذى دعانا وأمرنا أن نحضر معراجه، وسمح لنا أن نكلمه بمحاويجنا، فالتثاقل التكاسل عن الصلاة، أو إتيانها كسلاناً، هو دليل على عدم الهمامة فيها ترجيحاً لسائر المهام، ويْكأن غير اللّه أحب إلينا من اللّه؟ أو أن سائر الصِّلات أنفع لنا من الصلة باللّه.

---

[1]. ٩: ٥٤.

[2]. نور الثقلين ٢: ٢٢٥ في الكافي مسنداً عن أبي عبد اللّه عليه‌السلام وفيه عن كتاب الإحتجاج عن أمير المؤمنين عليه‌السلام حديث طويل وفيه: فكل عمل يجري على غير أيدي الأصفياء وحدودهم وعهودهم وشرايعهم وسننهم ومعالم دينهم مردود غير مقبول وأهل بمحل كفر وأن شملتهم صفة الإيمان ألم تسمع إلى قول اللّه تعالى: وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا باللّه ورسوله «فمن لم يهتد لم يهتد من أهل الإيمان إلى سبيل النجاة لم يغن عنه إيمانه باللّه مع دفن حق أولياءه وحبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين.

[3]. ٤: ١٤٢.

فلسنتجوب أنفسنا فی محکمة العقل والإیمان، إن کان لنا إیمان، ولنتدرج فی درجات القرب والرضوان من الرحیم الرحمن حتی نصل لحد لا نرجح علی حال الصلاة حالاً، ولا علی أقوال الصلاة أقوالاً، ولا علی أفعلها وأفعالاً، وکما قال أول العابدین: «وقرة عینی الصلاة» جرب قلبک، هل إن شوقک للقاء اللّه أکبر أم لسائر اللقاء، فیا ویلاه إن کنت ترجح سائر اللقاء علی لقاء اللّه، وسائر الصِلات علی الصَلاة للّه.

إن أهل اللّه لا یصطفون علی حال الصلاة حالاً، بل هم دائبون فی الصلاة «خوشا آنان که دائم در نمازند»: «الذین هم علی صلاتهم دائمون».[1]

ولأنها عمود الدین وعماد الیقین، لذلک نجدها من أجلی جلوات الشیاطین، وأسرع صرعاته ضد المصلین، حیث یکرس کافة طاقاته بکل خیله ورجِله لیصرعهم فیها، ولکی یصرعهم فی سواها، لأن «الصلاة عمود الدین إن قبلت قبل ما سواها وإن ردت رد ما سواها».

فقد یبعد عنک شیطانک فی شطر من صلاتک فیجلو لک ما غاب عنک من حصائل فکریة مهما کانت حول غوامض من الکتاب والسنة، قضیة زوال الحجاب بینک وبینها، فیخیِّل إلیک الشیطان أن الصلاة هی مجال الحصول علی کل ضالّة فکریة ثمینة بعد ضاَلتها، فیخرجک بذک عن الحضور أمام ربک فیها، فیجعل صلاتک الفائضة بالصِلاة فاضیة خاویة عن الصِلات.

فلو أنک تأملت فی نفسک، من أنت فعرفت أنک الفقر المجرد اللاّشیء عن أی غنیً، ثم تأملت فی مقام ربک من هو، فعرفت أنه مجرد الغنی وله کل شیء، ثم فکرت فی موقفک من صلاتک أنک علی فقرک دعیت إلی معراج ربک لمصلحتک وحاجتک دون حاجته سبحانه ومصلحته، لذُبت تخجلاً من ذلک الشرف العظیم، وّی إن ربی دعانی بل فرض علی أن أکلمه؟ وأنا عنه لاهٍ مفکر فی سواه.

ولکنک لما تصلی دون صلة، فارغاً قلبک عن الحضور بمحضره، ناسیاً ربک حاضراً لما سواه، کان علیک أن تموت خجلاً.

---

[1] ۷۰: ۲۳.

ولو لا واجب الصلاة بأمر اللّه لكانت صلواتنا محرمة من الكبائر، لأنها هتكٌ لساحة الربوبية أن نحسب لكل غاية فيما سوى اللّه حسابه، ولا نحسب للصلاة لديه أى حساب!.

ذلك ولنعرف أن إتيان الصلاة حالة الكسل هو من علامات النفاق ومن أسباب عدم قبول الإنفاق، مهما لم يصل إلى حد النفاق الرسمى الذى تتحدث عنه هذه الآية وما أشبه من آيات النفاق، وأقل تقدير هنا أن إنفاق هؤلاء وإن أسقط واجب تكليف الإنفاق ولكنه لا يقبل كما يقبل سائر الإنفاق رفعاً له إلى ساحة القبول حيث «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه».

فالثالوث: الكفر باللّه، وإتيان الصلاة الكسالى، والإنفاق كارهاً، هذه دركات ليست تقف لحد المرسوم منها، فمهما نزلت هذه الآية تنديداً بالمنافقين، فقد تمل الموافقين الذين لهم نصيب منها، ف«ما يؤمن أكثرهم باللّه إلا وهم مشركون»[1] توسِّع نطاق الإشراك باللّه، كما «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» تسلب البر عما دون ما تحبون مهما لم تكونوا كارهين، و«إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» تُخرج الصلاة المأتى بها حالة الكسل عن حقل الصلاة، بل هى منكرة من المنكرات فكيف «تنهى عن الفحشاء والمنكر».

ذلك فإصلاح الصلاة إصلاح لكافة العبادات، وكافة القالات والحالات والفعالات، فإن الصلاة عمود الدين وعماد اليقين، فتضييعها ـ إذاً ـ عمود اللاّدين والخروج عن اليقين.

جرِّب نفسك فى كافة المصارع مع الشيطان فقد تطلع قوياً تصرعه فيها، وقراءة وذكر صالحين يخرسانه ويصمانه، فأعمل جهدك لكى تصلح صلاتك بسلاح الإيمان والإستعانة باللّه.

و«صل الصلاة لوقتها الموقت لها، ولا تعجِّل وقتها الفراغ، ولا تؤخرها عن وقتها لاشتغال، وأعلم أن كل شىء من عملك تبعٌ لصلاتك».[2]

وترى «لا ينفقون إلاّ وهم كارهون» تناسب «أنفقوا طوعا أو كرها»؟ الظاهر لا، لمكان حصر

---

[1]. ١٢: ١٠٦.

[2]. العهد ٢٧.

إنفاقهم هناک فی الکراهیة، وهنا بینها وبین الطواعیة، ولکنه نعم، إذ الواقع منهم هو «کرها» فی إنفاقهم وکل طاعاتهم، و«أنفقوا طوعا» ردفا ب «کرها» قد یعنی الطوع المدعی أم هو واقع الطوع تحدیا أنه غیر واقع، فحتی لو وقع فلا یقبل لکفرهم المحبط لأعمالهم، وکما أن «لن یتقبل» إحالةً للقبول، تحلّق علی طوع إلی کَره لو اتفق طوع، ولکنه کَره علی أیة حال.[1]

ذلک وفی طوعا وکرها وجوه أخری مع ما ذکر ک «طوعا» دون إلزام من اللّه، أو إلزام من رؤسائکم مصلحیةَ الحفاظ علی ظاهر الإیمان، ف «کرها» إلزاما هنا أو هناک.

فإنفاقهم علی أیة حال، وبکل معانی وحالات الطوع، هو کالکَرة علی سواء أنه «لن یتقبل» إحالة لقبوله «طوعا أو کرها» تقبلاً من اللّه أو رسوله أو المؤمنین النابهین.

وهذه نماذج من صور المنافقین المناحرة لِسَیرهم، مظاهر خاویة من روح الإیمان، خالیة من التصمیم، وإنما خوف ومدارات بقلب منحرف، وعقل خَرِف، وضمیر مدخول منجرف.

فمهما تکن لهؤلاء الأنکاد من طائلة الأموال والأولاد، فلیست هی بشیء بجنب اللّه:

«فَلاَ تُعْجِبْکَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا یُرِیدُ اللّه لِیُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِی الْحَیَاةِ الدُّنْیَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ کَافِرُونَ».[2]

إذا «فلا تعجبک» أیها الناظر، والرسول هنا خارج عن الدور إلاّ بمعنی إیاک أعنی واسمعی یا جارة، أم تأکید للحرمة الفطریة والعقلیة لذلک الإعجاب، وخطاب النبی بخصوصه أو بین آخرین یعنی أن ذلک الإعجاب محرم علی الکل، ولیس النبی لنبوته ومحتده مستثنی عن ذلک، فإذا کان الإعجاب محرما علیه فعلی غیره أحری، فالنهی قد ینحو نحو المنکر المفعول فنهی عن منکر واقع، فهو نهی عن المنکر، أم تشریع لما یکن محرما أم کان محرما فطریا وعقلیا، فهذا تأکید وذاک إنشاء للحرمة، وهما لا یدلان علی المخاطب به مقترف لمادة النهی، وهکذا تکون مناهی الرسول صلی‌الله‌علیه‌وآله اللّهم إلا فیما کان حلاً ثم حرم ک «أن تجمعوا بین الأختین» وما أشبه، فمجرد ورود نهی للنبی صلی‌الله‌علیه‌وآله أم سواه لا یدل علی أنه اقترف

---

[1]. قال ابن عباس: نزلت في جد بن قيس قال للنبي صلى‌الله‌عليه‌وآله أئذن لي في القعود وهذا مالي أعينك به.

[2]. ٩: ٥٥.

المنهى على حرمته، إنما هو تجذير ذو احتمالات ثلاث.

«لا تعجبک أموالهم ولا أولادهم» أن تحملک على عَجَب أو عُجْب كأن هذه الأموال والأولاد أعماد لحياتهم بها يعيشون، ويكأن اللّه أراد فيها بهم خيرا «إنما» ليس إلا «يريد اللّه ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا» عذابا فى الحصول عليها، وعذابا فى حفاظها، وعذابا فى ظالمة التصرفات وملتوياتها، مهما كانت لهم حظوة ظاهرة، ثم عذابا ـ من جراء الدنيا ـ فى الآخرة، ف «من أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى»[1] ومن ضنكها أنهم «تزهق أنفسهم» كارهين حيث يفقدون أموالهم وأولادهم هنا ولا يجدونها هناک إلا عذابا ف «تزهق وهم كافرون».

فالأموال والأولاد قد تكون نِعمة يسبغها اللّه على عباد له شاكرين لأنعمه، مصلحين أنفسهم وذويهم، فمتجهين بها إلى اللّه، دون أن تلهيهم عنه إلى سواه، فإذا هم مطمئنوا الضمير ساكنوا الأنفس، واثقين فى ذلک المسير حاصلَ المصير، كلما أنفق من أموال وأولاد فى سبيل اللّه إستروح، وكلما أصيب إحتسب، فالسكينة النفسية على أية حال له غامرة، وطويته بذكر اللّه عامرة.

وأخرى تكون نَعمة ونِقمة يصيب بها آخرين حيث يعلم فسادهم ودَخَلهم وإفسادهم، وكسادهم عن الإيمان ودَجَلهم، فإذا القلق على الأموال والأولاد يحوِّل حياته جحيما وضنكا. وهذه النَعمة النِقمة فى المنافقين أبرز، حيث ينفقون من أموالهم، أو يؤخذ منهم ضرائب إسلامية وهم كارهون، والكفر ملة واحدة فى ضنک المعيشة، حيث لا أمل لأصحابه فى مستقبل الحياة، وهم فى صراع دائم بين أموال وأولاد وشئونات أخرى.

وهنا «تزهق أنفسهم وهم كارهون» تعنى العذاب الأخير من الحياة الدنيا، ف «تزهق أنفسهم» بكراهية مزدوجة، أنهم يستدبرون هذه الثروات الركام لغيرهم، وهم يستقبلون عذاب الأبد، وإن كانوا ناكرين له حياتَهم، حيث يُكشف لهم الغطاء عند المكوت. فبعين يرون الدنيا حسرة وحزنا على تركها، وبأخرى يرون الأخرى خوفا على دخولها.

---

[1]. ٢٠: ١٢٤.

فقد يعنى تعذيبهم بأموالهم وأولادهم فى الحياة الدنيا أن «تزهق أنفسهم وهم كافرون» فإنه عذاب يكسح وينسى كل رياحة سلفت، وكفاه عذابا يمر على الحياة كلها فى اللحظة الأخيرة فيجعلها مرا مهما كانت حلوة.

كما ويعنى أوسع من ذلك إنفاقهم على كره فإنه عذاب فوق عذاب النفاق، حيث النفاق بنفسه عذاب يجعل الإنسان حيران فى إزدواجية شخصية، دائم المراقبة على نفسه بين طرفى المخاصمة إيمانا وكفرا، ثم الإنفاق حالة النفاق عذاب على عذاب.

وثالث هو أوسع منها تحليقا على حياة المنافق والكافر تعنيه «من أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا» إذ لا مولى له يرتكن عليه إلاَّ دنياه المزعزعة التى هى دوما على شُرُف وشفا جرف هار من الزوال والسقوط والإنهيار بأعداء له يتربصون كل الدوائر لاستلاب منصبه وماله ونفسه، والمؤمن مولاه هو اللّه، مطمئنا به قلبه دون تزعزع: «ألا بذكر اللّه تطمئن القلوب».

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّه إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾[1]

«.. إنهم لمنكم» بكل تأكيد «منكم» إيمانا صالحا دون أى فارق وفَرَق «وما هو منكم» فى إيمان «ولكنهم قوم يفرقون» فرقا بين القلب والقالب فى إيمان، إيمانا بألسنتهم ومظاهر أعمالهم، وكفرا بقلوبهم، كما و«يفرقون» فرقا بين المؤمنين بمكائد النفاق، وذلك لأنهم «يفرقون» فَرَقا، فَرِقين من المؤمنين فارغين من الإيمان، يتظاهرون به، ومن الكافرين فيسرُّون إليهم بالكفر: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾[2] فهم يعيشون ثالوث الفرْق والفَرَق، ومن فَرَقهم فى فرقهم أنهم:

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾[3]

«لو» أنهم بثالوث فرْقهم وفَرَقهم «يجدون» ثالوثا: «ملجأً» يلجأون إليه من أعباء ظاهر الإيمان

---

[1]. ٩: ٥٦.

[2]. ٢: ١٤.

[3]. ٩: ٥٧.

وتكاليف النفاق «أو مغارات» بمداخل الجبال يغورون فيها «أو مدَّخلاً» متدخَّلاً يتدخلون فيه بتكلف، ف «لو يجدون» مفلتا من واقعهم المرزى بسهولة: «ملجأً أو مغارات» أم بصعوبة «مدَّخلاً» «لولّوا إليه» معرضين عن جو الإيمان والمؤمنين «وهم يجمحون»: مسرعين بوجه لا يَرد وجوههم شيءٌ.

فهم لُعَناء جُبناء، متطلعين أبدا إلى مخبأٍ فيه يختبون، أو مأمن إليه يأمنون، أو مدَّخل فيه يدَّخلون، مذعورين مطاردين، ومن تخوفهم منكم حلفهم باللّه «إنهم لمنكم» ثم ومنهم «وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم» هناک بحلف إذ لا يصدَّقون، وهنا دون حلف إذ يصدَّقون.

«وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُکَ فِی الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ».[1]

اللمز هو الإعتياب، والهمز الإغتياب، وقد يكون اللمز همزا إذا كان الإعتياب اغتيابا، أو الهمز لمزا إذا كان الإغتياب إعتيابا، وقد ينفردان كاعتياب دون إغتياب فهو لمز دون همز، أو اغتياب دون اعتياب فهمز دون لمز، والذين كانوا يلمزون الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌في الصدقات كانوا يعتابونه حضورا وغيابا، فهم ـ إذا ـ هامزون لامزون، و«ويل لكل همزة لمزة»!.

هؤلاء يلمزونک فی الصدقات أخذا وإعطاءً، لماذا تأخذها: «أنطعم من لو يشاء اللّه أطعمه» ام تأخذ كثيرا ثم هكذا تعطيها ونحن محرومون أم ناقصون فی العطية «فإن أعطوا منها» كما يهوون «رضوا» بظاهر الحال، و«إن يعطَوا منها» كما يهوون «إذاهم يسخطون» عليک، وهؤلاء هم ثلثا الناس[2] أو يزيدون.

وليس ذلک اللمز منهم فی الصدقات رعاية لعدل، أم حماسة لحق، أو غيرة على الدين، إنما ذلک التطاول مغبة أهواءهم ورغباتهم الغائلة الطائلة، وحماسة لهوساتهم الجهنمية، «فإن

---

[1]. ۹: ۵۸.

[2]. في الكافي باسناده عن إسحاق بن غالب قال قال أبو عبداللّه عليه‌السلام يا إسحاق كم ترى أهل هذه الآية: فإن عطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها إذا هم يسخطون؟ قال: هم أكثر من ثلثي الناس.
وفي تفسير القمي في الآية أنها نزلت لمّا جاءت الصدقات وجاء الأغنياء وظنوا أن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌يقسمها بينهم فلما وضعها رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله في الفقراء تغامزوا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ولمزوه وقالوا: نحن الذين نقوم في الحرب ونغزو معه ونقوي أمره ثم يدفع الصدقات إلى هؤلاء الذين لا يعينونه ولا يغنون عنه شيئا فأنزل اللّه الآية، ثم فسر اللّه عزَّ وجلّ الصدقات لمن هي وعلى من يجب فقال: «إنما الصدقات للفقراء...».

أعطوا منها رضوا» مهما كان ظلما «وإن لم يعطَوا منها إذا هم يسخطون» مهما كان عدلاً.

ولقد اسخطوا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله بهمزهم ولمزهم إياه فى الصدقات ومن قالاتهم: «إعدل يا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فقال: ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل»[1] أم «هذه قسمة ما أريد به وجه اللّه».[2]

وتلك السجية المافقة اللعينة وهى عدم الرضى بحكم اللّه فى تقسيم صدقة أماهيه، إنها دركات حسب دركات الحالات والمجالات، فحتى المؤمن غير الراضى بقَسم اللّه فى تكوين أو تشريع داخل فى حقل التنديد قدر السخط فى ذلك قالاً وحالاً وأعمالاً.

وترى يجوز أن يدفع لمنافق صدقة؟ طبعا لا، فكيف «إن اعطوا منها رضوا» وإعطاءهم منها محظور؟.

إعطاءهم منها كأصلٍ محظورٌ، وأما إعطاءهم خوف إفسادهم فمحبور، وكما فعل رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله[3] وهكذا الأمر فى المؤلفة قلوبهم، فَعلَّ المنافق يصبح موافقا بتلك العطية أو يترك شرَّه وضَرَّه.

«وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمْ اللّه وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللّه سَيُؤْتِينَا اللّه مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا

---

[1]. الدر المنثور ٣: ٢٥٠ عن أبي سعيد الخدري قال: بينما النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله يقسم قسما إذ جاءوه ذو الخويصرة التميمي فقال: اعدل... فقال عمر بن الخطاب: يا رسول اللّه أئذن لي فأضرب عنقه، فقال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فينظر في قذذه فلا يوجد فيه شيءٌ ثم ينظر في نضبه فلا يرى فيه شيءٌ ثم ينظر في نصله فلا يوجد فيه شيءٌ قد سبق الفرث والدم آتيهم رجل أسود إحدى يديه ـ أو قال ـ ثدييه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدرد يخرجون على حين فرقة من الناس، قال: فنزلت فيهم «ومنهم من يلمزك في الصدقات...» قال أبو سعيد: أشهد أني سمعت هذا من رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله وأشهد أن عليا حين قتلهم وأنا معه جيء بالرجل على النعت الذي نعت رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله.

[2]. وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: لم اقسم النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله غنائم حنين سمعت رجلاً يقول: إن هذه قسمة ما أريد بد وجه اللّه فأتيت النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله فذكرت له ذلك فقال: «رحمة اللّه على موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر ونزل» ومنهم من يلمزك في الصدقات.
وفي تفسير الفخر الرازي ١٦: ٩٧ قال الكلبي قال رجل من المنافقين يقال له أبو الجواظ لرسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: تزعم أن اللّه أمرك أن تضع الصدقات في الفقراء والمساكين ولم تضعها في رعاء الشياه؟ فقال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: لا أبا لك أما كان موسى راعيا أما كان داود راعيا فلما ذهب قال صلى‌الله‌عليه‌وآله: احذروا هذا وأصحابه فإنهم منافقون.

[3]. وفيه روى أبو بكر الأصم أنه صلى‌الله‌عليه‌وآله قال لرجل من أصحابه: ما علمك بفلان؟ فقال: ما لي به علم إلا أنك تدنيه في النجلس وتجزل له العطاء، فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله: إنه منافق أدارى عن نفاقه وأخاف أن يفسد على غيره، فقال: لو اعطيت فلانا بعض ما تعطيه، فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله: إنه مؤمن أكِله إلى إيمانه وأما هذا فمنافق أداريه خوف إفساده، وفيه قال الضحاك: كان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله يقسم بينهم ما آتاه اللّه من قليل المال وكثيره وكان المؤمنون يرضون بما اعطوا ويحمدون اللّه عليه وأما المنافقون فإن أعطوا كثيرا فرحوا وإن أعطوا قليلاً سخطوا، وفيه: قيل إن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله كان يستعطف أهل مكة يومئذٍ بتوفر الغنائم عليهم فسخط المنافقون.

إِلَى اللّه رَاغِبُونَ».[1]
«لو» هنا ترجٍّ لما لم يحصل منهم أو لمَّا يحصل، فالنص يقرر أن المنافقين على نفاقهم لو رضوا... لأصبحوا من المؤمنين بذلک الرضى فإنه قضية الإيمان، وهنا تعنى «ما آتاهم اللّه» تكوينا وتشريعا «ورسوله» تطبيقا رساليا، إذ ليس الرسول مشاركا للّه تكوينا أو تشريعا ولا نائبا عنه، وهكذا «سيؤتينا اللّه من فضله» تقديرا «ورسوله» تقريرا «إنا إلى اللّه راغبون» لا سواه.
ذلک أدب نفسى أديب أريب أن يرضى العبد بقسمة اللّه، رجاءً.

دعوة الى اللّه ومجادلة فى اللّه

«ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّکَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ».[2]
هنا القرآن يُرسى قواعد الدعوة الى سبيل ربک، بالحكمة والموعظة الحسنة، وحين تفشل الدعوة بصلابة المدعوين وصلاتتهم، فلكى لا يتغلبوا على الحق فيضلوا اصحابه فبقاعدة واحدة «وجادلهم بالتى هى احسن» وهذه الثلاث هى اركان الحوار مع الناس ــ المهتدين وسواهم ــ لا سواها.
فانما الجدال مع المنازع المكابر حتى يحيد عن كيده ولا يميد فى غيه واضلاله، واما الذين هم على الفطرة السليمة، المتحرين عن الحقيقة بدرجاته، ام غير المناوئين للحق مهما لم يتحرّوا عنه، فهم تكفيهم الحكمة عقلية او علمية او عملية، أو الموعظة الحسنة، ام تكفيهم هذه المجموعة الاربع، فلا يجادلون فى الحق حتى يجادَلوا.
كل ذلک ل «ان ربک هو اعلم بمن ضل عن سبيله» فلا يفيقه ويصده عن طيشه الا جداله بالتى هى احسن «وهو اعلم بالمهتدين» فلا تهديهم الى سبيل ربک الا الحكمة والموعظة

---
[1]. ٩: ٥٩.
[2]. ١٦: ١٢٥.

الحسنة.

ثم الحسنة ليست صفة ـ فقط ـ للموعظة، حيث الحكمة احوج الى الحسنة من الموعظة التى هى بطبيعة الحال حسنة، ومن حيث الضابطة الأدبية الـلام الداخلـة علـى الحسـنة موصـولة وتتحمل صلتها الإفراد والتثنية والجمع حسب القرائن الموجودة، متصلة ومنفصلة، ثم الحسنة مع غض النظر عن الموصول صفة على البدل ام جنس تشمل اكثر من واحدة، ولـو خصـت الموعظة بالحسنة لتقدمت بوصفها على الحكمة، فكما الموعظة فى الدعوة مشروطة بالحسنة، كذلك وبأحرى الحكمة، فانها ان خلت عن الحسنة ما أثرت كما يرام، فلتكن الحكمـة علـى أية حال فى زواياها الثلاث حسنة لينة، كما الموعظة.

وانما يكتفى فيها بالحسنة ولا يكتفى فى الجدال إلا التى هى أحسن، لأنهما ليسـتا إلا وجـاه الذين يهتدون فتكفيهم الحسنة وإن كانت الحسنى فبأحرى، ولكن الجدال فهى وِجاه المنازع المكابر، فلا بد من كسره بالتى هى احسن حيث لا تبقى له رمقا وحيوية فى الدعاية الباطلة.

فسبيل ربک هى السبيل القمة التى رباک ربک لها، فانت تدعو العالمين الى هذه السبيل التـى تجتازها قبلهم الى الحق المُرام.

فليست هذه الدعوة إليک فما انت الا رسولاً، ولا الى ربک اذ لا يصـل اليـه احـد، ولا الـى سبيل رب العالمين فان السبل الى اللّه بعدد انفاس الخلائق، وانما «الى سبيل ربـک» السـبيل التى رباک فيها ربک وهداک اليها وهى القمة التربوية الرسـالية، فانـت السـبيل الـى ربـک[1] فلتكن الدعوة بالقرآن وبالسنة الرسالية لرسول القرآن[2] لأنها دعوة بالتى هى احسن.

والحكمة هى هيئة خاصة من الحكم وهو الوصل بين منفصل، الـذى فِصـاله خـلاف الحـق والتربية الإلهية، والحكمة الحسنة هى التى تُحكِّم عرى فطريـة او عقليـة او علميـة او عمليـة

---

[1]. المصدر في الكافي عن ابي عبداللّه عليه‌السلام حديث طويل يقول فيه: فاخبر انه تبارك وتعالى اوّل من دعا الى نفسه ودعى الى طاعته واتباع امره فبدء بنفسه وقال: واللّه يدعو الى دار السلام ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم ثم ثنى برسوله فقال: ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن يعني بالقرآن، اقول: بالقرآن متعلق بالحكمة والموعظة الحسنة كما بالتي هي احسن.

[2]. نور الثقلين ٣: ٩٥ عن تفسير القمي عن ابي عبداللّه عليه‌السلام قال واللّه نحن السبيل الذي امركم اللّه باتباعه قوله «وجادهم بالتي هي احسن» قال: بالقرآن.

منفصمة، فترجعها الى حالة حكمية خارجة عن اى تفسخ وانفصام وعند ذلك تتجلى الحقيقة كما هيه.

ومن حسنة الحكمة رعاية أحوال المدعوين وظروفهم حتى لا تثقل عليهم الحكمة فتبوء بالخسار والفصال اكثر مما فى الحال، فعل حسب القابليات تؤثر حكيمة الفاعليات فتسود الدعوات، واذا زادت او نقصت نقضت، واذا سادت انتفضت، وليكن الداعية طبيبا دوارا بطبِّه يضع الدواء حيث الحاجة اليه، بعد معرفة الداء والدواء.

فمن الناس من تنقصه الحكمة العقلية فلا تفيده غيرها، ام تنقصه الحكمة العلمية فلا تفيده العقلية، وكما منهم من تحكمت حِكَمه كاملة عقلية وعلمية اما هيه، ولكن تنقصه الموعظة الحسنة، ام تحكمت عنده الموعظة ولكن تنقصه الحكمة.

فليكن الدّاعية بصيرا بمواضع الحاجة فيضع الدواء حيث الداء حتى تاتيه الشفاء.

فالحكمة الحسنة تأخذ بازمة القلوب المهتدية فهى لها شعار، وقد تكفيها هدىً اذا دخلت شغافَها، وقد لا تكفيها فهى ـ إذا ـ بحاجة الى دثار الموعظة الحسنة التى تدخل القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف، دون اى زجر وتأنيب، ولا بفضح الأخطاء التى تحصل عن جهالة، فان الموعظة الحسنة كثيرا ما تهدى القلوب الشاردة، وتؤلف النافرة الماردة، فهى بأحرى ان تليِّن القلوب المهتدية التى لا تطمئن ـ فقط ـ بالحكمة الحسنة، لضعف العقلية او العلمية ام صلابة الطوية.

فمن القلوب ما تحتاج الى كلتا الحسنتين، لأنها خاوية عن الحكمة، خالية عن الموعظة، فقد تتقدم لها الحكمة الحسنة ثم الموعظة، ام تتقدم الموعظة الحسنة ثم الحكمة تربطها، حسب اختلاف القلوب المهتدية فى حاجياتها الدعائية.

فاذا كانت الحكمة او الموعظة سيئة انقلب الى اضل مما كانت، واذا كانت حسنى الموعظة والحكمة، فهى قمة الدعوة ولكنها ليست ضرورية، فبحسَب الدعوة للمهتدين تكون الحكمة والموعظة الحسنة.

ثم إذا كان الحوار مع من ضل عن سبيل ربك، متعنتا ضد الحق، متفلتا عنه، متلفتا الى الضلال والإضلال، فلا الحكمة الحسنة تنجه، ولا الموعظة الحسنة تكفيه، هنا يأتى دور

الجدال بالتى هى احسن، ولا السىء ولا الحسن، والجدال هى المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة وأصله من جدلت الحبل اى احكمت فتله، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد مجادله عن رأيه.

ام هى الصراع وإسقاط الانسان صاحبه على الجَدالة وهى الأرض الصلبة.

ولا يسمح فى الجدال على أية حال إلا إذا لزم الأمر، ولم تؤثر الحكمة والموعظة الحسنة الأثر المُرام، ثم لا يسمح فيه إلاَّ بالتى هى أحسن، وطبعا إذا أثرت الحسنى، وإلا فحربا حربا: «ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتى هى احسن الا الذين ظلموا منهم».

فليطامن الداعية أمام من ضل من حماسه واندفاعه، فلا يتحامل عليه ولا يُسىءَ إليه، بل ويُحسن كأحسن ما يُرام حتى يطمئَن إليه، ويشعر ان ليس هدفه القضاء عليه، فما هو ميدان مصارعةٍ يصرع كلٌّ خصيمه بمختلف الحيل، وإنما الهدف فى الحوار كشف القناع عن الحق، سواء أكان مع الداعية او المدعو ف «إنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين».

فالنفس البشرية ـ ولا سيما الضالة المعتدية غير المهتدية ـ لها كبرياءها وعنادها، فهى لا تتنازل عما ترتيه إلا برفق، كيلا تشعر فى صراعه بهزيمة، فانها ـ بطبيعة الحال ـ تعتبر التنازل تنازلاً عن هيبتها وحرمتها وكيانها، والجدال بالتى هى احسن تُطامن من هذه الكبرياء والحساسية المرهفة، وتُشعر المجادل أن حرمته مصونة، وقيمته كريمة محترمة وأن الداعى لا يقصد إلا كشف الحقيقة التى هى احق منهما.

ولأقل تقدير فالجدال بالتى هى اسحن تُطامن من طيش المدعو فتخمد نار دعوته الضالة، ودَلالُه أمام المهتدين، فيصد عن شره وضره، وان لم ينصدَّ هو عن ضلاله فى نفسه.

فقد يحاور الداعية ضالاً صامدا معاندا، فيزيد فى عناده وعدائه بما يستعمل من طرق سيئة فى حواره، تجهيلاً له، وسلبا لما يقدسه، وتهوينا لرأيه، وفى ذلك إماتة للحق وإحياء للباطل، وتحريض لأهله ان يكرسوا طاقاتهم وإمكانياتهم ضد الحق وأهله، وهذه جدال بالتى هى أسوء.

وقد يحاوره دون حُسن ولا سوء فهى جدال بالسوء، حيث لا تنفع وقد تضر، وهى لأقل تقدير تبقى الضال على ما كان، وذلك لغو وباطل من القول.

وقد يحاوره بحسن ليس ليصده عن الدعاية الباطلة، وانما تخفِّف عن طيشه ولا تجفف، فهى حسنة لا تكفى صدا عن ضره وشره.

فلتكن الجدال بالتى هى أحسن، فان تحقيق الحق وازهاق الباطل واجبٌ حسب المستطاع، إذا ف «جادلهم بالتى هى أحسن».

وفى رجعة أخرى الى الآية ـ لنرى مدى الحسنة فى الحكمة والموعظة، والاحسن فى الجدال ـ أحكام حكيمة فى شرعة الدعوة والجدال، مسرودة فى آيات الدعوة والامر والنهى والجدال.

ومن حسن الحكمة ان يتصف بها الداعية، ولأقل تقدير قدر الدعوة، فليس لغير الحكيم ان يدعوا بالحكمة، وكما ومن حسن الموعظة اتعاظ الداعية قبل الدعوة ولاقل تقدير قدرها: «اتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب افلا تعقلون»[1] «يا ايها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند اللّه ان تقولوا ما لا تفعلون».[2]

ومن الحسنى فى الجدال ان يتذرع بالحق الجلى لإبطال الباطل او تحقيق الحق، سواء اكان حقا واقعا، ام اذا يرفضه محاوره ويفرض ما يعتقده، ان يتبنى اعتقاده بصيغة التردد، ان كان ما تقوله حقا فليكن ما اقوله حقا، وان كان ما اقوله حقا فكذلك الامر.

فتبنِّى الباطل لابطال باطل آخر او تحقيق حق، هو من الإغراء بالجهل، سلوكا لسبيل وعرة شاغرة، وهو من الجدال السىء، وأسوء منه استعمال الخناء والسب فى الجدال الى جانب تبنى الباطل لإبطال باطل آخر او إحقاق الحق.

وتبنِّيحق يوجد أحق منه واوضح حجة، مع لين كلام هو من الجدال الحسن، ولا يكتفى به فى اجتثاث جذور الهجمات الباطلة وهمجاتها.

ثم تبنّى احق الحق باوضحه حجة، وألينه محجَّة والطفه بيانا وتبيانا، مع اتصاف المجادل بما يحتج به عقائديا وعلميا وعمليا، هو ابلج المناهج فى الجدال، وهى المقصود بالتى هى

---

[1]. ٢: ٤٤.

[2]. ٤٠: ٣٥.

احسن، وحين لا يستطيع المجادل ان يجادل بالتى هى احسن فليتعلم، او يـاتِ بمـن يعلـم، حيث «التى هى احسن» مطلق مطبَق دون اختصاص بما يستطيعه المجادل، اللهم إلا فى عسر او حرج فلا عسر ـ إذا ـ ولا حرج، ان يكتفى بما يستطيعه، إلا إذا لـم تـؤثر جدالـه بغيـر الأحسن الأثر المُرام، او انقلب ضدَّه، فهنالک السکوت، حيـث القصـد مـن الاحسـن سـدّ الثغرات وخفق النعرات والزمجرات ضد الحق.

فحين لا تفيد الحكمة والموعظة الحسنة فهنا دور الجدال بالتى هى اسحن صدا لثغرة الباطـل وسعاره، بمضلِّل شعاره، لان الداعية حين لا يستطيع بحكمته وموعظته ان يهدى من ضل عن سبيل اللّه، فليحاول بجداله سدا عن تضليله، ليعرف كليله وعليله، ولا يحسب له قـوة قـاهرة على الحق واهله.

ثم اذا لم تفد جداله بالحسنى، وبدل الاهتداء او السكوت يعتدى على اهل الحق، فهو داخـل فى الذين ظلموا: «ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتى هى احسن الا الذين ظلموا».

ظلما شخصيا على المجادل بالحسنى، ام ظلما جماعيا على المسلمين، فهنالـک دور الضـربة القاسية القاضية، نفيا لمادة الفساد قدر الضرورة ولحد القتال اذا انحصر بها العـلاج وانحسـر المضلل عن الاضلال واللجاج.

«وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ».[1]

فمعاقبة المجادل الظالم، التى لم تنفعه بالحسنى، فضلاً عن الحكمة والموعظة الحسنة، إنها ـ كضابطة مطردة ـ معاقبة بالمثل، فهى مسموحة ككل، إلا اذا كان فـى تركهـا خسـار وبـوار متواصل لا يصده إلا معاقبته فواجب، ام غير مسموحة لو ان معاقبته تزيد فـى طيشـه بضـره وشره، والصبر أمامه له منعة ـ ولا اقل ـ مـن تطاولـه، ام راجحـة وهـى فـى غيـر الواجـب والمحرم «ولئن صبرتم لهو خير للصابرين»، والصبر على أية حال أم فى الاكثرية المطلقة هـو مفتاح الفرج فراجح «لهو خير للصابرين».

فهذه طرق اربع يتطرقها الداعية فى سبيل الـدعوة وصـد الضـلالة، قـد تجتمـع فـى بعـض

[1]. ١٦: ١٢٦.

المدعوين، وقد تنفرد، فمن الناس من تكفيه الحكمة، او الموعظة الحسنة، أو الجـدال بـالتى هى احسن، أو المعاقبة، أو الأربع كلها، أو اثنتان منها، ام ثـلاث، وذلـک حسـب مقتضـيات الظروف والمتطلبات فى سياسة الدعوة لكل داعية، فالأقسام تصبح اربعة عشر قسـما، فإنهـا أربع وحدات وجمع الاربع، واربع ثلاثيات وخمسة اثنينات.

«وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُکَ إِلاَّ بِاللّه وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَکُ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْکُـرُونَ * إِنَّ اللّـه مَـعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ».[1]

«واصبر» على كل حال، أيها الداعية فى دعوتک بالحكمة والموعظة الحسنة وجـدالک بـالتى هى احسن، وفى معاقبتک لما عوقبت، تفكرا فى كل من هذه الاربع، وتنقلاً عـن كـل مرتبـة فى كل منها الى أخرى، كما من كل الى الآخر، صبرا فى كل سلب وايجاب، فـى كـل قـالٍ وحال وفعال «وما صبرک» فى هذه العقبات، والدوائر المتربصة بـک «الا باللّـه» بحـول اللّـه وقوته وبغاية الحفاظ على شرعة اللّه والدفاع عنها، وبامر اللّه «فاصبر كما صـبر اولـوا العـزم عن الرسل».

«ولاتک فى ضيق مما يمكرون» خائفا عن مكرهم «ان اللّه مع الذين اتقوا» المحاظيرَ، واتقـوه فى سبيل الدعوة اليه «والذين هم محسنون» يصبرون فيما يحق لهم المعاقبة بمثل ما عوقبوا.

فالصبر على الظلم، ألا يتخاذل المظلوم أمام ا لظالم، ولا يغيِّر من اهدافه القدسية، ولا يدفعـه الدفاع عن نفسه الى اعتداء اكثر مما اعتدى عليه، والى اصل الدفاع ايضا عـلَّ الظـالم ينـدم عما فعل فيصلح ما افسد، ام لا يزيد ظلما، ام يقف عـن ظلمـه، فكـل ذلـک صـبر وتقـوى للمظلوم وجاه طغوى الظالم، إلا إذا أنتج الصبر تطاول الظالم عليه وعلـى الآخـرين، فـذلک الصبر ظلم وصَيمٌ بحق نفسه وبحق الآخرين، وليس الا بالشيطان وللشيطان، والصـبر العـدل والفضل هو باللّه وللّه لانه بحاجة الى مقاومة للانفعال وضبط للعواطف وكبت للفطرة وحـبط للقدرة.

وعلّ رجاحة الصبر هنا هى قضية الجو المكـى، صـبرا لـى الهجـرة وفيهـا قـوة المسـلمين،

---

[1]. ١٦: ١٢٨.

فبإمكانهم المعاقبة بمثل ما عوقبوا، ولكنها رجاحة فيها وجاهة اسلامية سليمة على أية حال، اللهم الا فى قضايا استثنائية تحرِّم ام تفرض المعاقبة، ولا معنى للصبر عن الضعف الا نَظِرة القوة.

على ان المعاقبة انما يسمح فيها ام ينهى عنها فيما امكنت، فلتكن الآية مدنية وكما وردت به الرواية.

ذلک هو دستور الدعوة للداعية إيجابية وسلبية كما رسمه اللّه، والنصر مرهون باتِّباعه كما وعد اللّه، ومن أصدق من اللّه وعدا وما النصر إلا من عند اللّه العزيز الحكيم.

استقامة فى الدعوة الى اللّه

«فَلِذَلِکَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللّه مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللّه رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللّه يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ».[1]

آية يتيمة عديمة النظير تأمر صاحب هذه الرسالة السامية إلى الدعوة والإستقامة كما أُمر، وإلى عشرة كاملة من نواهى وأوامر هامة تتبناها الرسالة الإسلامية كأصول الدعوة: ١ ـ دعوة ٢ ـ واستقامة ٣ ـ وتركا فيها لأهواءهم ٤ ـ «وقل آمنت» ٥ ـ «وأمرت» ٦ ـ «اللّه ربنا..» ٧ ـ «لنا أعمالنا..» ٨ ـ «لا حجة بيننا..» ٩ ـ «اللّه يجمع..» ١٠ ـ «وإليه المصير»!.

وقد تشبهها آية أخرى فى أصل الإستقامة إضافة إلى من تاب معه وتركا للبعض من هذه العشرة قضية الشركة كما أضيفت أمور أخرى لنفس القضية:

«فاستقم كما أمرت ومن تاب معک ولا تطغوا إنه بما تعلمون بصير. ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون اللّه أولياء ثم لا تنصرون. وأقم الصلاة طرفى النهار وزُلَفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيآت ذلک ذكرى للذاكرين. واصبر فإن اللّه لا يضيع

---

[1]. ٤٢: ١٥.

اجر المحسنين».[1]

«فلذلک»: لأجل ذلک التفت العارم بین الأمم، والتحزبات المفرقة فی شرعة وشرعة، وکـذلک فی نفس کلِّ شرعة رغم أن اللّه واحد والدین واحد والشرعة واحـدة کمـا الرسـالة، لـذلک «فادع» إلی وحدة الدین والشرعة، وشِرعتک هی الدین کله، وهـی کـل شـرعة مـن الـدین قبلک، وإنها شرعة القرآن «لا تأتیه الاطل من بین یدیه ولا من خلفه تنزیل من حکیم حمیـد»[2] «فلذلک» یا قائد القیادة الجدیدة الحازمة الحاسمة المدیدة.. «فادع» إلی هذه الوحدة العریقـة الرفیقة الضاربة إلی أعماق الزمن «واستقم» فی هذه الدعوة الوطیـدة دون لفتـة الـی الاهـواء المصطرعة حولک وحول دعوتک الموحدة اعلانا بجدید الایمان بقدیم الدین المتـین الـذی شرعه اللّه للنبیین اجمعین.

ولانک النبیون أجمع تجمع کافة النبوات، وأن هذه امتهم امة واحدة، فالمکلفون أجمع أمتک أمة واحدة «فلذلک فادع واستقم کما أمرت».

هنالک دعوة تجمع دعوات الرسالات کلها، فاستقامة فی هذه الدعوة تجمع الإستقامات کلها، کما أن نبوتک تجمع النبوات کلها، وشرعتک هی الدین کلُّه، وهی الشرائع کلُّها!.

«فادع واستقم کما أمرت ولا تتبع أهواءهم» إذ هی تهـوی إلـی هـوّاة الخلافـات والتحزبـات المذهبیة، إلی شفا جرف الهلکات «لذلک فادع»: «أدع إلی سبیل ربـک بالحکمـة والموعظـة الحسنة وجادلهم بالتی هی أحسن إن ربک هـو أعلـم بمـن ضـل عـن سـبیله وهـو أعلـم بالمهتدین»[3] «لکل امة جعلنا منسکا هم ناسکوه فلا ینازعنک فی الأمر وداع إلـی ربـک إنـک لعلی هدی مستقیم»[4] «ولا یصدنک عن ایات اللّه بعد إذا أنزِلَـت إلیـک وأدع إلـی ربـک ولا تکونن من المشرکین. ولا تدع مع اللّه إلها آخر لا إله إلاّ هو کل شیء هالـک إلاّ وجهـه لـه

---

[1]. ١١: ١١٥.

[2]. ٤١: ٤٢.

[3]. ١٦: ١٢٥.

[4]. ٢٢: ٦٧.

الحكم وإليه ترجعون».[1]

هنا يمنع شرعته عن كيان الشرك أن يقول: أنا على شرعتى وأنتم على شرايعكم إبقاءً على التحزبات المذهبية ــ لا! وإنما هذه الدعوة دعوة إلى توحيد الأمم أن يتضامّوا تحت راية واحدة.

١ ــ ٢ «فادع واستقم» أُطلب القوامة: لزوم المنهاج القائم دون عِوَج وعَرَج، طلبا من ربك أن يقيمك كما أمر، ومن الأمم أن يستقيموا كما أمر، دون موآربة ولا مسايرة ولا أنصاف حلول، ومن استقامتك «أن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين»[2] «فاقم وجهك للدين القيم»[3] ف «إن هو إلاّ ذكر للعالمين. لمن شاء منكم أن يستقيم»[4] حيث الإستقامة فى هذه الدعوة والداعية والمدعوة، إنها كيانها وقوامها، دون أن يحرفها حارف أو يجرفها جارف «فلذلک فادع واستقم كما أُمرت ولا تتبع اَهواءهم»:

«إن الذين قالوا ربنا اللّه ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[5].. تتنزل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون. نحن أولياءكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدَّعون. نُزُلاً من غفور رحيم. ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى اللّه وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين».[6]

لقد أُمرت الأمم قبلئذٍ «أن اقيموا الين ولا تتفرقوا فيه» فلم يأتمروا إلا قليلاً، ثم الرسول محمد صلی‌الله‌علیه‌وآله يؤمر أخيرا أن يحقق هذا الأمر «واستقم كما أمرت» ومن ثم «ومن تاب معک» فقد حُمِّل هو ومن معه تحقيق هذه الرسالة الموحِّدة وقد حقق كما حُمِّل فى دعوته الصارمة،

---

[1]. ٢٨: ٨٧.

[2]. ١٠: ١٠٥.

[3]. ٣٠: ٤٣.

[4]. ٨١: ٢٨.

[5]. ٤٦: ١٣.

[6]. ٤١: ٣٣.

وعلى الذين معه حمل هذه الرسالة حتى يحققوها كما وسوف تتحقق فـى الدولـة المباركـة المهدوية عليه آلاف التحية والسلام.

ولقد كانت هذه الرسالة الجمة الهامة حِملاً عليه ثقيلاً لحدٍ «قال: شمروا فمـا رؤى ضـاحكا»[1] وكما يروى عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله: «شيبتنى هود وأخواتها» والشورى كبيرة أخواتها حيث تخصه آيتهـا بالإستقامة إذ قيل له صلى‌الله‌عليه‌وآله: لِمَ ذلک يا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله! فقال: لأن فيهـا «فاسـتقم كمـا أُمرت»[2] ولم يذكر ومن تاب معک وإنما «كما أُمرت» فهى فى الشورى أعلى منها فـى هـود، ولن تطيق الأمة الإسلامية تحقيق الإستقامة التى أُمر بها الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله إلاّ على حدها، لأنهـا الخروج من كافة المعهودات، والقيام بين يدى الحق على حقيقـة الصـدق المطلـق لتحقيـق كافة الرسالات ولُبِّها فى العالمين.

الدخول فى أمر اللّه ـ لا سيما إذا كانت الرسالة العليا ـ هو طبعا صـعب، ولكنمـا الإسـتقامة فيه أصعب فإنه التمكن فى المأمور به لحد يصبح المأمور راسخا فيما أُمِـر بـه غيـر محتمـل الزوال ولا الخمول، وحتى يصبح هو هو الأمر والإستقامة فى الأمر كمـا أمـر وقـد روى «مـا نزلت آية كانت أشق على رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله من هذه الآية»[3] حيث تحمـل إثباتـات ونفيـا: «ولا تتبع أهواءهم» وإنما هوىً واحدة هى هدى اللّه: «قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا ومـا انا من المهتدين»[4] «ولئن اتبعت اهواءهم بعد الذى جاءک من العلم ما لک من اللّـه مـن ولـى ولا نصير»[5] «.. إنک إذا لمن الظالمين»[6] «ولو اتبع الحق أهواءهم لفسـدت السـماوات والأرض

---

[1]. الدر المنثور ٣: ٣٥١ ـ اخرج ابن ابي حاتم وابو الشيخ عن الحسن رضى‌الله‌عنه في قوله تعالى «فاستقم كما امرت ومن تاب معك» قال: شمّروا.. اقول: فاذا هو شمر بعد نزول هذه الآية المشتركة بينه وبين من معه فما كانت اذا حالته لمّا نزلت آية الاستقامة الخاصة به صلى‌الله‌عليه‌وآله!.

[2]. تفسير روح البيان للحقي ج ٨ ص ٢٩٩.

[3]. تفسير بيان السعادة ج ٢ ص ٣٤٢.

[4]. ٦: ٥٦.

[5]. ٢: ١٢٠.

[6]. ٢: ١٤٥.

ومن فيهن».[1]

٤ ـ «وقل آمنت بما أنزل اللّه من كتاب» دون فرق فى هذا الإيمان وإنما فى التطبيق، حيث الكتاب الأخير يحتل دور التطبيق فلا يبقى بما أنزل قلبه إلاّ إيمان وتصديق، ردا لإيمان العالمين كلهم إلى أصل واحد، وردا على المفرقين بين اللّه ورسله: «إن الذين يكفرون باللّه ورسله ويريدون أن يفرقوا بين اللّه ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً. أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا. والذين آمنوا باللّه ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان اللّه غفورا رحيما».[2]

فالرسول يؤمن هكذا إيمان، ويأمر الأمم أن يؤمنوا هكذا إيمان: «آمن الرسول بما انزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌ آمن باللّه وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله..»[3] «قولوا آمنا باللّه وما أنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أؤتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون. فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم اللّه وهو السميع العليم. صبغة اللّه ومن أحسن من اللّه صبغة ونحن له عابدون».[4]

٥ ـ «وأُمرت لأعدل بينكم» «لأعدل» تعنى كلا العِدل والعَدل، فقد أمرت لاجعلكم عِدل بعض فى هذه الدعوة الموحدة، كأسنان مشط على سواء، دونما ترجيح لجماعة على آخرين، وكذلك أن اعدل بينكم بحكمٍ عَدل.

ف «بينكم» حيث توحى إلى بينونات فى هذه الأمم، يؤمر الرسول أن يدعو عدلاً ويحكم عَدلاً لكى يزيل هذه البينونات فيجعلهم أُمة واحدة، فيا لها من دعوة عادلة عاقلة لا تتبنى

---

[1]. ٢٣: ١٧١.

[2]. ٤: ١٥٣.

[3]. ٢: ٢٨٥.

[4]. ٢: ١٢٨.

عنصرية أو قومية أو طائفية أو إقليمية أم ماذا، اللّهم إلاّ «صبغة اللّه ومن أحسن من اللّه صبغة ونحن له عابدون».[1]

إنها تسوية بين كتب إيمانية، وتسوية بين عباد اللّه دعوة إلى هذا الإيمان.

٦ ـ «اللّه ربنا وربكم» لا أرباب متفرقون لكى نتفرق هنا وهناك وإنما هى إعلامٌ عامٌ بربوبية واحدة فعبودية واحدة، فنحن كلنا كعبيد سواءٌ فى هذه الربوبية الواحدة: «قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلا اللّه ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون اللّه فإن تولوا فقوا اشهدوا بأنا مسلمون»[2] .. وبعد إعلان الربوبية الواحدة تعلن فردية التبعة:

٧ ـ «لنا أعمالنا ولكم أعمالكم» لا ينفعنا صالح أعمالكم ولا يضرنا طالح أعمالكم، وكما لا تنفعكم أو تضركم أعمالنا، فليست هذه الدعوة الموحدة لنا تجارة أو لكم خسارة، وإنما «سلام عليكم»: «وقالوا لنا أعمالنا ولكن أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين».[3]

إنها ليست دعوة استثمارية لصالح هذه الشرعة الأخيرة أو رسولها والمتشرعين لها، وإنما هى بسط الرحمة الإلهية و«ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم» «إنْ حسابهم إلاّ على ربى لو تشعرون»[4] «ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء».[5]

٨ ـ «لا حجة بيننا وبينكم» وترى وما هى الحجة المنفية فى هذا البين؟ وهذه كلها حجج إلهية على هؤلاء الإنعزاليين!

أقول: إنها قد تعنى بعد هذه الحجج الموحِّدة للدين، التى سلفت، حيث أزالت البينونات، فلم تبق حجة لازمة لإزالة البين إلاّ بُيِّنت ف «لا حجة بيننا وبينكم».. أم وتعنى حجة ـ بعد

---

[1] . ٢: ١٣٨.

[2] . ٣: ٦٤.

[3] . ٣٨: ٥٥.

[4] . ٣٦: ١١٣.

[5] . ٦: ٥٢.

ذلك ـ تبيِّن وتفرق.. فبأية حجة نتفرق أيادى سبا إلى مسلمين وهود ونصارى، فقد استجيبت الحجة الموحدة لمن استسلم للّه وأسلم وجهه للّه، فلم تبق ـ إذا ـ حجة إلاّ داحضة: «والذين يحاجون فى اللّه من بعدما استجيب له حجتهم داحضة..»ف «لا حجة بيننا وبينكم» تنفى الحجة الحقة، سواءً المثبتة لهذه الوحدة وقد تمت، أو المفرقة ليست اللهم إلاّ داحضة! أم ولا حجة بيننا وبينكم تثبت رجاحة شرعة على شرعة حيث الكل شرائع اللّه من دين واحد للّه، أم ولا خصوم بيننا وبينكم، ولماذا نتخاصم والوحدة لائحة، اللهم إلاّ أن يخاصم داعى الوحدة الدينية دعاةَ التفرقة.

٩ ـ «اللّه يجمع بيننا وبينكم» إله واحد يجمعنا بجمع واحد فى صعيد واحد بحساب واحد، «قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا وهو الفتاح العليم»[١] «قل اللّه يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة»[٢] «يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلک يوم التغابن»[٣] وكما «اللّه ـ هناک ـ يجمع بيننا وبينكم» إنه ربنا جميعا ف «إنا للّه وإنا إليه راجعون» إنه يجمع بيننا وبينكم ليوم الجمع التغابن كما جمع بيننا وبينكم هنا ليوم الفرق والتعاون، جمعا فى دينه وشرعته، وسوف يفتح بيننا فيما كنا فيه مختلفين وهو الفتاح العليم.

١٠ ـ «وإليه المصير» إليه وحده لا شريک له، لا إلى ارباب متفرقين، ف «انا للّه وإنا اليه راجعون» شرعة واحدة ـ سير واحد ـ إله واحد ومصير واحد ففيمَ إذا نتباغض ونتعارض؟

«وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِى اللّه مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ».[٤]

الحجة هى الدليل القاصد لإثبات أمر أو إبطاله، والمحاجة هى تبادل الحجة وتضاربها، فقد تكون حقا بالتى هى أحسن عن علم وحلم، أو تكون باطلاً فيما ليس لهم به علم: «ها أنتم

---

[١]. ٣٤: ٢٦.

[٢]. ٤٥: ٢٦.

[٣]. ٦٤: ٩.

[٤]. ٤٢: ١٦.

هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم».[1]

والمحاجة فى اللّه قد تكون فى كونه أو توحيده وكيانه، أو وحيه وشرعته: «قل أتحاجوننا فى اللّه وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن لـه مخلصـون».[2] «فـإن حـاجوک فقـل أسلمت وجهى للّه ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين ءَأسلمتم فإن أسـلموا فقـد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليک البلاغ واللّه بصير بالعباد».[3]

هنا توحى «من بعد ما استجيب له» أن المحاجة كانت فـى شـرعة اللّـه الأخيـرة، واعتبـرت الإستجابة الصادقة له حجة قاطعة لا مرد لها ولا حاجة معها إلى حجة أخرى، لا مثبتة حيـث ثبتت بالإستجابة، ولا نافية فإنها عند ربهم داحضة.

وترى أن استجابة جماعة لشرعة هى برهانٌ أنها إلهية؟ فلتكن كل شرعة حقةً وإلهية! أم لهـذه الإستجابة شروط ومقومات، فما هى مقوماتها حيث كانت فى الشرعة الأخيرة فـلا محاجـة ـ إذا ـ إلاّ وهى داحضة؟!.

ولأن الدحض هو الزلق، فالحجة الداحضة هى الزالقة، الضـعيفة غيـر الثابتـة ولا متماسـكة، الواطىء الذى تضعف قدمه فيزلق عن مستوى الأرض ولا يسـتمر علـى الـوطء، وداحضـة بمعنى مدحوضة بنفسها أنها تدحض نفسها بنفسها لضعف سنادها ووهاء عمادها، فهـى هـى المبطلة لنفسها من غير مبطل غيرها، لظهور أعلام الكذب فيها وقيام شواهد التهافـت عليهـا، وإنما اطلق تعالى إسم الحجة عليها وهى شبهة واهية لاعتقاد المُدلى بها أنها حجـة وتسـميته لها بذلک فى حال النزاع والمناقلة حيث يوردها موردهـا مـورد الحجـة، ويسـلکها طريقهـا ويقيمها مقامها.

حجج داحضة:

من حجج اليهود والنصارى أن التوراة أو الانجيل متفـق عليـه بيـنهم وبـين الـذين أسـلموا،

---

[1]. ٣: ٦٦.

[2]. ٣: ١٣٩.

[3]. ٣: ٢٠.

والقرآن مختلف فيه، فليأت المسلمون لوحى القرآن ببرهان دوننا حيث الإستجابة للتوراة والإنجيل تجمعنا دون القرآن.

فيقال لهم: إن هذه الحجة داحضة: باطلة زائلة فى ميزان الحق لا تستحق إلفات نظر، نسألهم اولاً ما هى ماهية الإتفاق بيننا وبينكم فى الكتابين؟ ألأننا كلنا نؤمن بآله واحد، فاستجابتكم لكتاب سابق من اللّه بآيات صدقة وبينات رسوله تحملنا على تصديقه، فعليكم كذلك تصديق القرآن لاستجابتنا له بآيات كمثلها أو هى أحرى وأهدى سبيلاً، إذا فحجتهم داحضة!

أم لأن القرآن المستجاب لنا ببينات صدقة القاطعة يحملنا على تصديق الكتابين دون حجة أخرى، حيث الحجة المصدقة لهما ليست فيهما، فإنها منفصلة عنها وهى معجزات موسى وعيسى حيث تحمل مَن شاهدها بتصديق كتابيهما، إذا فاستجابة حجة القرآن هى التى تحملنا على تصديق الكتابين فكيف تنقلب حجةً علينا تتطلب حجة أخرى بعد المتفق عليها ولا حجة لنا إلاّ هيه، إذا فحجتهم داحضة.

ثم القرآن لا يحملنا إلاّ على تصديق الكتابين المبشرين به وبنبيّه: «الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل واتبعوا النور الذى أنزل معه اولئك هم المفلحون. قل يا أيها الناس إنى رسول اللّه إليكم جميعا.. فآمنوا باللّه ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن باللّه وكلماته وابتعوه لعلكم تهتدون»[1] «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون»[2] «.. الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون»!.[3]

إذا فلا نشارككم فى تصديق الكتابين دون شروط، إنما نصدق الذى بشَّر بنبينا وبكتابه، إذا فحجتهم داحضة.[4]

---

[1]. ٧: ١٥٨.

[2]. ٢: ١٤٦.

[3]. ٦: ٢٠.

[4]. وفي حوار بين الإمام الرضا عليه‌السلام وجاثليق عظيم النصارى...

ثم الذى يستندون إليه فى استجابتهم لتورات او انجيل ليس إلاّ معجزات من الرسولين شهدها من حضرها دونهم، وإنما استجابوهم دون حجة حاضرة، وإنما لحسن الظن بأسلافهم، والكتابان محرفان لا حجة فيهما وحتى قبل التحرُّف إذ لا معجزة فيهما، فهذه إذا استجابة فاشلة، ولكنما المسلمون يستجيبون دعوة القرآن لأنه معجزة بنفسه وهو أوضح برهان لرسالة رسوله، فقد استجابوا وعلى مر الزمن لوحى القرآن بحجة حاضرة غير محرفة، إذا فحجة اليهود والنصارى داحضة زائلة عند ربهم، إنْ فى اثبات وحى الكتابين أو فى رد وحى القرآن، فلما استجيبت دعوة القرآن بحجته الحاضرة لم يكن نكرانهم لما استجيب له إلاّ كفرا باللّه وآياته، إذا ف «حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد»!.

شارع الشرعة والقانون هو اللّه

«أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنْ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللّه وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».[1]

إنما الدين كله للّه، والشارع من الدين كله هو اللّه، لا شريک له لا فى الدين ولا فى شرع الدين، وإنما المرسلون حَمَلة دين اللّه وشرائعه، ومبلغوا شرعة اللّه ومؤسسوا دولته تطبيقا لها وذودا عن ساحتها وسماحتها.

ترى ما هو موقف «أم» هنا وهى لعطف الإعراض؟ .. قد يكون المعطوف عليه مما يلى: أليسوا هم بحاجة إلى شرعة من دين اللّه إذ لا يعبدون اللّه وإنما أوثانهم وطواغيتهم؟ أم هم شرعوا لأنفسهم من الدّين ما أذن اللّه أو ما لم ياذن به اللّه؟ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم ياذن به اللّه؟ وشركائهم هم الذين اتخذوهم شركاء للّه فهم إذا شركائهم لا شركاء اللّه.

[1]. ٤٢: ٢١.

ليس من المعقول أن الدين الطاعة للّه، ثم يشرع مِن دينه مَن سواه دون إذنه، تدخلاً عارما طاغيا فى طاعة اللّه، ويكأن اللّه لا يملک شرعة من دينه فشركائهم شرعوا لهم من الدين ما لم ياذن به اللّه!.

فاللّه وحده هو الشارع لعباده من دينه وطاعته، فإنه مبدئهم ومبدعهم والكون كله، يدبره بالنواميس التكوينية والتشريعية سواء، وليست الحياة البشرية إلاّ ترسا صغيرا فى عجلة هذا الكون الشاسع الواسع، فليتحكمها شرعة تتمشى مع تلكم النواميس وتمشّى الإنسان إلى قمم الكمال المعدة له فى هديه، فكيف يشرع من دين اللّه من سوى اللّه، أولاية على اللّه؟ وهو الولى الحميد! أم حيطة على النواميس ومتطلبات الحياة؟ ولا يحيطون بأنفسهم علما! أم ماذا.

مع وضوح هذه الحقيقة لحد البداهة فمن الحماقة والبلاهة المحاولات الطائلة لسَنٍّ القوانين لإدارة شؤون الأفراد والجماعات حتى من أعقل العقلاء وأعدل العدول، وحتى المرسلين، فما هم بمشرعين من الدين، إنما هم رسل يحملون شرائع من الدين شرعها اللّه، ثم لا تدخُّل لهم فى أية كبيرة أو صغيرة.

وليس لمن يستنبط إلاّ استنباط التشريعات الجزئية المتجددة مع حاجيات الحياة، على ضوء القرآن والسنة الرسالية والرسولية، دون سنٍّ لافيه صغيرة أو كبيرة من عند أنفسهم، وإنما استنباط واجتهاد لأهله على شروطه.

هكذا تدخُّل عارم فى شرعه اللّه مما لم ياذن به اللّه يحق له القضاء الصارم من اللّه «ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم»: كلمة التأجيل لأجل إلى الساعة، دون تعجيل قبل الساعة.

يوم الدنيا ليس يوم الفصل وإنما هو يوم الأخرى: «هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون»[1] «إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين»[2] «هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين»[3] «إن يوم الفصل كان

---

[1]. ٣٧: ٢١.

[2]. ٤٤: ٤٠.

[3]. ٧٧: ٣٧.

ميقاتا».[1]

كلمة الفصل تحمل ميقات يوم الفصل، والإمهال والتأجيل ليوم الفصل، كما تحمله آيات الإمهال والتأجيل إلى يوم الفصل، حيث يقضى بينهم ويفصل ففريق فى الجنة وفريق فى السعير «وإن الظالمين لهم عذاب أليم» وهؤلاء من أظلم الظالمين حيث يتدخلون فى ولاية اللّه بعد إشراكهم باللّه: أن شرع لهم شركائُهم من الدين ما لم يأذن به اللّه.

«تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِى رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ».[2]

ترى الظالمين وَجِلين ما كسبوا على عناية علَّهم ينجون وهو واقع بهم، لا جزاءه انتقاما، بل إن ما كسبوا هو واقع بهم وقوع الشاهد القارع، حيث الأعمال والأقوال تشهد شهادة ذاتية عينية على عامليها، ومن ثَم وقوعا لحقائقها التى تبرز يومها ولا يظلمون نقيرا، حيث ينقلب عذابا لا مخلص منه ولا محيد.

هؤلاء الظالمون المشفقون مما كسبوا، ومن ثم مؤمنون مشفقون «والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات» كما قدموها بما كسبوا وعند اللّه مزيد «لها ما يشاءون فيها ولدينا مزيد»[3] عما يشاءون، «وهم فيها اشتهت أنفسهم خالدون»[4] «وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين»[5] «ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدَّعون».[6]

«ذلک» من روضات الجنات ولهم ما يشاءون عند ربهم «وهو الفضل الكبير»! فهناک جنات هى لسائر أهل الجنة، وهنا روضات الجنات وهى البقاع الشريفة المتميزة فيها للذين آمنوا

---

[1]. ٧٨: ١٧.

[2]. ٤٢: ٢٢.

[3]. ٥٠: ٣٥.

[4]. ٢١: ١٠٢.

[5]. ٤٣: ٧١.

[6]. ٤١: ٣١.

وعملوا الصالحات، لا الذين «خلطوا عملاً صالحا وآخر سيئا».[1]

وترى ان ثواب الجنات بروضاتها ليس عن استحقاق فلا يجب على اللّه حتى يكون فضلاً كبيرا؟ أقول: نعم وكلاً.. كلاّ حيث الإيمان وعمل الصالحات لا يرجعان بفائدة إلى اللّه إلى العاملين فلا استحقاق لأجر، ونعم: حيث «كتب على نفسه الرحمة» ووعد اللّه الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنة، فقد فرض على نفسه الفضل، حيث لا أصل الفضل واجب عليه ولا كبيره، فهو فضل على فضل.

«ذَلِکَ الَّذِی يُبَشِّرُ اللّه عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبَی وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنا إِنَّ اللّه غَفُورٌ شَكُورٌ».[2]

بشارة عظمى بعطية كبرى لعباد اللّه المؤمنين الصالحين، أترى أن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله يسألهم على عَنَت لدعوة بوعثاءها وأعباءها والبشارة بعقباها فی أولاها وعقباها، أيسألَهم عليه أجرا؟..

«قل لا أسألكم عليه أجرا إلاّ المودَّة فی القربی»!

وهذه سنة اللّه الدائبة فی رسله ألاّ يسألوا المرسل إليهم أجرا، ولا جزاءً ولا شكورا، لا ماديا ولا معنويا، فأجرهم مضمون لهم عند اللّه، وهم ليس لهم أجورهم «أم تسألهم اجرا فهم من مغرم مثقلون».[3]

وهكذا نسمع الرسل منذ نوح يواجهون الأمم بأمر اللّه بالقول: «وما أسألكم عليه من أجر إن أجری إلاّ علی رب العالمين»[4] وهود (١٢٧) وصالح (١٤٥) ولوط (١٦٤) وشعيب (١٨٠) ومَن قبلهم وبينهم وبعدهم مِن المرسلين: «اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون»[5] كعامة

---

[1]. ٩: ١٠٢.

[2]. ٤٢: ٢٣.

[3]. ٥٢: ٤٠.

[4]. ٢٦: ١٠٩.

[5]. ٣٦: ٢١.

المرسلين وحتى يوصل وبأحرى إلى خاتم المرسلين: «قل لا أسألكم عليه أجرا إلاّ المودة فى القربى» وليست هذه المودة ـ أيا كان ـ أجرا وإن كانت بصيغة الأجر: «قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلاّ على اللّه وهو على كل شىء شهيد»[1] فهو إذا أجر لا يرجع بفائدة إلاّ لهم فى سبيل الإيمان بربه: «قل ما أسألكم عليه من أجر إلاّ من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلاً»[2] بعد قوله: «وما أرسلناک إلاّ مبشرا ونذيرا» لا تاجرا تتعامل ببلاغ الرسالة، والصيغة المجردة فى سلبية الأجر سارية دون تكلف: «قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من التكلفين. إن هو إلاّ ذكر للعالمين. ولتعلمن نبأه بعد حين»[3] «أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مُثقَلون»؟[4] «وما تسألهم عليه من أجر إنْ هو إلاّ ذكر للعالمين».[5]

آيات ثلاث تنفى عنه صلی‌الله‌علیه‌وآله سؤال الأجر كاستمرارية للسنة الرسالية، وثلاث أخرى تُعالج موقف المودة فى القربى أنها ليست فى الحق أجرا وإنما «هو لكم» وسبيل إلى ربكم، ودخول إلى مدينة علم الرسول من أبوابها المقررة لكم.

إذا فلتكن المودة فى القربى لصالحهم كمسلمين، وسبيلاً إلى رب العالمين، فلتكن مودة فى أبواب مدينة علم الرسول، واستمرارية لرسالة الرسول، لا مودة فى أقرباءه بسبب القرب سببيا أو نسبيا أم ماذا من القرابات التى لا يحسب لها حساب فى ميزان اللّه.

ومن المعلوم دون ريب أن وجهة الخطاب هم المؤمنون المبشر لهم بروضات الجنهات حيث آمنوا وعملوا الصالحات، دون الظالمين المشفقين مما كسبوا، إذ الناكرون لأصل الرسالة لا يعقل طلب الأجر منهم جزاءً لهذه الدعوة وهم ناكروها حتى يقول «لا أسألكم عليه أجرا» ثم يطلب منهم بدل الأجر مودتهم له صلی‌الله‌علیه‌وآله وهم ألدُّ أعداءه حيث يسب آلهتهم.

---

[1]. ٣٤: ٤٧.

[2]. ٢٥: ٥٧.

[3]. ٣٨: ٨٨.

[4]. ٥٢: ٤٠.

[5]. ١٢: ١٠٤.

ثم هل من المعقول سؤال الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله **المؤمنين برسالته أن يودوه في قرابته منهم، وليسوا هم كلهم من قرابته، ولم يكونوا يعادونه بعد الإيمان حتى يطلب وُدَّه نفسه لقرابته! أم ماذا من تأويلات عليلة.**

إن القربى هنا كما تقول آياتها ليست إلاّ القربى التى تقربهم المودة فيهم إلى اللّه زلفى: «إلاّ من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً» فإنما هى لهم لا له: «قل ما سألتكم من أجر فهو لكم» إذاً فهم الأقربون إلى بيت الرسالة المحمدية «على وفاطمة والحسن والحسين» تنزيلاً[1] و«التسعة

[1]. الدر المنثور ٦: ٧ ـ اخرج ابن المنذر وابن ابي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية قالوا يا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت مودتهم؟ قال: علي وفاطمة وولداهما ورواه مثله احمد بن حنبل في مسنده عن ابن عباس عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله والثعلبي في تفسيره بسند صحيح عنه وابراهيم الحمويني من اعيان علماء السنة بسنده عنه وابو نعيم صاحب حلية الابرار بسنده عن الاعمش عن سعيد بن جبير عنه والمالكي في كتاب الفصول المهمة عنه وصاحب المناقب الفاخرة في العترة الطاهرة بسنده عنه ـ كل ذلك يرويه ابن عباس عن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله.
وفي إحقاق الحق ١٤: ١٠٦ ـ أخرج مثله جماعة من أعلام القوم منهم العلامة ابن المغازي في مناقبه ١١٢ مخطوط عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله ومنهم الحساكي في شواهد التنزيل ج ١: ١٣٠ ط بيروت بعدة طرق اخبرنيه الحاكم الوالد.. وأخبرنيه أبو بكر السكري... وأخبرناه أبو عبد اللّه الشيرازي.. وحدثنيه أو حازم الحافظ من أصل سماعه.... وأخبرنا أبو نصر المفسر... وأخبرنا محمد بن عبد اللّه الرزجاهي... وحدثنا الحاكم أبو عبد اللّه الحافظ.... وأخبرنا أبو سعد ابن علي... ومنهم العلامة الحضرمي في وسيلة المال ص ٦٦ نسخة الظاهرية بدمشق، ومهم العلامة الشيخ عبد القادر الشافعي السنندجي في تقريب المرام في شرح تهذيب الأحكام ص ٣٣٢ مطبعة الأمرية ببولاق، كل ذلك عن ابن عباس أم غيره عن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله «هم علي وفاطمة وولداهما»!.
وفي المصدر عن العلامة الحسكاني في شواد التنزيل ج ٢: ١٤٢ بإسناد متصل عن علي عليه‌السلام قال: فينافي «آلم حم» آية لا يحفظ مودتنا إلا كل مؤمن ثم قرأ «لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى» ورواه أيضاً مصبح بن هلقام عن عبد الغفور فاسنده إلى النبى صلى‌الله‌عليه‌وآله! وروى مثله العلامة باكثير الحضرمي في وسيلة المآل ص ٦٥ نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق من طريق ابي حيان والواحدي عن علي بعين ما تقدم.
واخرج أبو نعيم والديلمي من طريق مجاهد عن ابن عباس قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: لا أسألكم عليه أجراً إلى المودة في القربى ـ ان تحفظوني في اهل بيتي وتودوهم بي، واخرج سعيد بن منصور عن سعيد بن جبير إلا المودة في القربى قال: قربي رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله وروى ما يعنيه من ان القربى قربى رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله في الجمع بين الصحاح الستة عن ابن عباس وعلى بن الحسين بن محمد الاصبهاني في كتاب مقاتل الطالبين في خطبة للحسن بن علي عليه‌السلام بعد استشهاد ابيه عليه‌السلام انا ابن من فرض اللّه مودتهم في كتابه حيث قال: «ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا» والحسنة حبنا اهل البيت، والمالكي عن السدي عن ابن مالك عن ابن عباس عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله ان الحسنة هنا هي مودة آل محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله وابن المغازلي الشافعي في كتاب المناقب بسنده عن الحكم بن ظهير عن السدي مثله، اخرجه كله في علي وفاطمة والحسنين وفي قربى رسول اللّه وآل محمد واهل البيت السيد هاشم البحراني في كفاية الخصام ص ٣٩٥ ـ ٣٩٦ الباب ٧٢، ثم اخرج من طريق اهل البيت عليهم‌السلام انهم هم والأئمة عليهم‌السلام كلهم اثنين وعشرين حديثا وكما الخرج من طريق اخواننا سبعة عشر حديثا وكما اخرج في البرهان ونور الثقلين احاديث متواترة في هذا المعنى فراجعها.
واخرج ابن جرير عن ابي الديلم قال: لما جيء بعلي بن الحسين عليه‌السلام اسيرا فاقيم على درج دمشق قام رجل من اهل الشام فقال: الحمد للّه الذي قتلكم واستأصلكم فقال له علي بن الحسين عليه‌السلام اقرأت القرآن؟ قال: نعم ـ أقرأت آلم حم؟ قال: لا ـ قال: اما قرأت: قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى؟ قال: فانكم لأنتم هم؟ قال: نعم ورواه مثله الثعلبي في تفسيره عن ابي الديلم مثله وبسند آخر عن ام سلمية مثله وفي تفسير البرهان ٤: ١٢٦ ح ٢٥ الثعالبي بسند متصل عن ابي ديلم مثله.
وينقل الآلوسي في تفسيره روح المعاني ج ٢٥ ص ٣٢ شعرا في حب آل البيت عن الإمام الشافعي قائلاً:
يا راكبا قف بالمحصب من منواهتف بساكن خيفها والناهض
سحرا إذا فاض الحجيج الى منفيضا بساكن خيفها والناهض
ان كان رفضا حب آل محمدفليشهد الثقلان اني رافضي
وفي مجمع البيان باسناده الى القاسم الحسكاني مرفوعا الى ابي امامة الباهلي قال: قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ان اللّه تعالى خلق الانبياء من اشجار شتى وخلقت انا وعلي من شجرة واحدة فانا اصلها وعلي فرعها وفاطمة لقاحها والحسن والحسين ثمارها واشياعنا اوراقهافمن تعلق بغصن من أغصانها نجا ومن زاغ عنها هوى ولو أن عبداً عبد اللّه بين الصفا والمروى ألف عام ثم ألف عام حتى يصير كالشن البالي ثم لم يدرك محبتنا أكبه اللّه على منخريه في النار ثم تلى «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في

المعصومون من ولد الحسين» تأويلاً، وكما أخرجه زهاء اثنين وخمسين من فطاحل إخواننا[1]

القربى».

وفي الدر المنثور ٦١: ٧ وأخرج الترمذي وحسنه وابن الانباري في المصاحف عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله أني تارك فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض فأنظروا كيف تخلفوني فيهما، وفيه أخرج الترمذي وحسنه والطبراني والحاكم والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله وأحبوا أهل بيتي لحبي وأخرج البخاري عن أبي بكر الصديق قال: أرقبوا محمداً صلى‌الله‌عليه‌وآله في أهله بيه، وأخرج ابن عدي عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: من أبغضنا أهل البيت فهو منافق.

وينقل الفخر الرازي في تفسيره الكبير عن صاحب الكشاف أنه يروى عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله: قوله «من مات على حب آل ممد مات شهيداً ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له، إلا ومن مات على حب آل محمد مات تئاباً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها، إلا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومن مات على حب آل محمد جعله الله مزار ملائكة الرحمة، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة، ألا من مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة.

أقول: ثم يعلق الفخر الرازي على هذا الحديث قوله: «ولا شك أن فاطمة وعلياً والحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله أشد التعلقات وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل، وأيضاً اختلفت الناس في الآل قيل هم الأقارب وقيل هم أمته فإن حملناه على القرابة فهم الآل وأما غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل فمختلف فيه.

[1]. منهم أحمد بن جنبل في صحيحه والطبري في تفسيره بثلاثة أسانيد ولاحاكم في المستدرك والزمخشري في الكشاف وأخطب خوارزم في مقتل الحسين وأبن الاثير في جامع الأصول والرازي في تفسيره وابن بطريق والعمدة وابن طلحة في مطالب السؤال والكنجي في كفاية الطالب بسندين والبيضاوي في تفسيره والطبري في ذخائر العقبى بسندين والنسفي في تفسيره والحويني وصاحب المناقب الفاخرة والنيسابوري في تفيسره وأبو حيان في البحر المحيط وابن كثير في التفسير بسندين والهيثمي في مجمع الزوائد والمهايمي الهندي في تفسير تبصير الرحمان وابن حجر العسقلاني في الكافي الشاف بثلاثة اسانيد وابن صباغ المالكي في فصول المهمة والسيوطي في الدر المنثور بثلاثة اسانيد وفي الاكليل بتسعة اسانيد وفي احياء الميت باربعة اسانيد وابن همام في حبيب السير وابن حجر في الصواعق المحرقة بثلاثة اسانيد والخطيب الشربيني في السراج المنير والبركرى في الأربعين والمير محمد صالح الترمذي في مناقب مرتضوي والمحلى في الحدائق الوردية والمولى حسين الكاشفي في روضة الشهداء وفي المواهب والشبراوي في الاتحاف بثلاثة اسانيد والصبان في اسعاف الراغبين من ٣ والشوكاني في فتح الغدير (٦) والألوسى في روح المعاني (٤) وارجح المطالب والقندوزي في ينابيع المودة (٨) والبرزندي والطبراني وابن حنبل في المناقب وابن ابي حاتم في التفسير والحاكم في المناقب والنيسابوري في الوسيط وابن جرير في جامع البيان والحقاني والشبلنجي في نور الابصار والسيد صديق حسن خان في هداية السائل في أادلة المسائل (٢) والحضرمي في رشفة الصادي والتونسي في السيف المسلول والحداد في القول الفصل (١٧) والخوارزمي في المقتل والطبري في ذخائر العقبي هؤلاء الفطاحل رووا عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله نزول آية ذوي القربى في الخمسة الطاهرة عليهم‌السلام.

وفي ملحقات الاحقاق ٩: ٩٢ يستدرك ما اخرجه في ٣ كما هنا بقوله ومنهم الثعلبي في الكشف والبيان والخواجه محمد پارسا البخاري في فصل الخطاب على ما في الينابيع ٣٦٨ والبدخشي في مفتاح النجا ١٣ والقندوزي في ينابيع المودة ١٠٦ والطبراني في المعجم الكبير ١٣١ وابو نعيم الاصبهاني في نزول القرآن مخطوط والزمخشري في تفسيره ٣: ٤٠٢ والامر تسرى في ارجح المطالب ٦٢ والحضرمي في القول الفصل ١: ٤٨٢.

وعبد الكافي الحسيني في السيف اليماني المسلول ٦٤ والخوارزمي في مقتل الحسين ٥٧ والطبري في ذخائر العقبى ٢٥ وابن تيمية في منهاج السنة ٣: ٢٥٠ والتفتازاني في شرح المقاصد ٢: ٢١٩ والقسطلاني في المواهب اللدنى ٧: ٣ و١٢٣ والعسقلاني في الكاف الشاف ١٤٥ ومحمد صديق حسن خان ملك بهوپال في فتح البيان ٨: ٢٧٠ والسيوطي في احياء الميت ١١٠ والميبدي في شرح ديوان امير المؤمنين مخطوط والخضرمي في رشفة الصادي ٢٢ والشبراوي في الاستحقاق ٥ و١٣ والشافعي في المناقب ٧٠ مخطوط والامر تسرى في ارجح المطالب ٥٧ والبدخشي في مفتاح النجا ١٢ مخطوط والبلخي في ينابيع المودة ٢٦١ والادريسي في رفع اللبس والشبهات ٨ والقاضي بهجت افندي في تاريخ آل محمد ٤٤ والنبهاني في الشرف المؤيد ٧٢ وفي الانوار المحمدية ٤٣٣ والساعاتي في بلوغ الاماني المطبوع ذيل الفتح الرباني ١٨: ٢٦٥ وابن حنبل في فضائل الصحابة ٢١٨ مخطوط وفي مسنده على ما في الينابيع والزمخشري في تفسيره ٣: ٤٠٢ والخوارزمي في مقتل الحسين ١ و٧٥ والرازي في تفسيره ٢٧: ١٦٦ وابن بطريق الحلي في العمدة ٢٣ والكنجي في كفاية الطالب والشافعي في مطالب السؤول ٨ والبيضاوي في تفسيره ٤: ١٢٣ والنسفي في تفسيره ٩٥ والحمويني في فرائد السمطين والنيسابوري في تفسيره ٢٥: ٣١ وابو حيان في البحر المحيط ٧: ٥١٦ وابن كثير في تفسيره ٤: ١١٢ والبيهقي في مجمع الزوائد ٩: ١٠٣ والكوكتي في تفسيره تبصير الرحمن ٣: ٢٤٧ والصباغ في الفصول المهمة والسيوطي في تفسيره ٦: ٧ وفي اكليله ١٩٠ وفي احياء الميت ١١٠ وخواندمير في حبيب

وكثير من أصحابنا عن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله لأنهم أبواب مدينة علمه وهم الثقل الثانى: عترته، وهم خلفاءه فى أمته، كما تواترت بذلک الروايات من طريق الفريقين، مهما يهرف الهارفون ويخرف الخارفون فى اختلاق روايات تناقضها أو تأويلات، حيث القرآن هو الميزان لا سواه، وهنا «المودة فى القربى» لا «للقربى» ولا «مودة القربى» حيث القربى جُعلوا مكانا للمودة، أن تتمكن المودة فيهم كسبل إلى اللّه، لا مودتهم والمودة لهم لكى يُتخذوا أصولاً وأهدافا، لا! وإنما هم السبل إلى اللّه والأدلاد على مرضات اللّه، إذا فليس واجب المودة هنا «إلا المودة فى القربى» حيث توصلكم إلى اللّه!.

إن «القربى» هى مؤنث الأقرب كما وهى مصدر ـ وبطبيعة الحال ـ هى بمعنى الأقربية، ولا تخلو فى سائر القرآن عن كونها فعلى التفضيل او مصدره[1] ولا تجد القربى مجردة عن «ذى ـ ذوى ـ أولى» إلاّ هنا، حيث الأقربية الرسالية هى المعنية دون ذويها، ولذلک قال «فى القربى» لا «للقربى» أو «القربى».

فحاصل المعنى من المودة فى القربى إلى الرسول كمدينة علم الرسالة، فإلى اللّه حيث الرسالة تكرّس ككلٍّ إلى اللّه: «.. إلاّ من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً» فكانوا هم السبيل إليه والمسلک إلى رضوانه.

فليست القربى إذا ـ فقط ـ أقربية الرسول الى اللّه ممن سواه وإن كانت تشملها كأصل، ولكنما المودة فى القربى إنما تكون لهم كسبيل كاملة إلى اللّه إذا اتخذوا إلى مدينة علمه سبيلاً هى أبوابها: «ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اخذت مع الرسول سبيلاً. يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلاً. لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولاً».[2]

السير والترمذي في المناقب المرتضوية ٤٩ والكاشفي في المواهب ٢: ٢٤٣ والشبراوي في الاتحاف ٥ والطبراني في المعجم الكبير وابن ابي حاتم في تفسيره والحاكم في المناقب والواحدي في الوسيط وابو نعيم في حلية الأولياء والزرندي في نظم درر السمطين وابن حنبل في المناقب والحقاني في فلك النجاة والطبري في جامع البيان وعبدالكافي الحسنى في السيف المسلول ٩ والحداد في القول الفصل.

[1]. كما في ستة عشر موضعا من «ذي القربى» و«ذوي القربى» و«اولوا القربى» و«ذا قربى» و«اولى القربى».

[2]. ٢٥: ٢٩.

فالرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله **هو أفضل السبل إلى اللّه، فالسبيل مع الرسول ليس هو الرسول وإنما سبيل مع الرسول إلى اللّه، هل لأن الرسول لا يكفى سبيلاً إلى اللّه حتى يثنَّى بسبيل معه؟ أم إن السبيل معه هو القرآن؟ والقائل: يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً، لا ينقصه إلاّ سبيلٌ مع الرسول، وأما الرسول والقرآن فهما توأمان، حيث الإيمان بأحدهما إيمان بالآخر، والقرآن هو الدليل لرسالته، فكيف يُتخذ الرسول سبيلاً دون القرآن، فالسبيل هنا ليس هو الرسول ولا القرآن، وإنما هو سبيل إلى رسول القرآن وقرآن الرسول فإلى اللّه، وليس إلاّ «المودة فى القربى»: الأقربين إلى الرسالة فإن مودتهم ـ لأنهم أبواب مدينة علم الرسول** صلى‌الله‌عليه‌وآله **ـ تتبع اتخاذهم سبيلاً مع الرسول وكما تواتر عنه** صلى‌الله‌عليه‌وآله: **«أنا مدينة العلم وعلى بابها».**

ثم ولا تعنى القربى ـ وبأحرى ـ أقربية الرسول إليهم[1] ولا أقربيتهم إليه، لو تعنى قرابة نسبية أم ماذا من غير الرسالية، فإنها ليست لهم ولصالحهم فى اتخاذها سبيلاً إلى ربه، على أن المخاطَبين وهم المؤمنون برسالته آمنوا به لرسالته وهى قربى روحية فهى أقرب وأحرى فى المودة من القربى غير الروحية الرسالية.

فالمودة فى القربى ـ التى لها صلة بأجر الرسالة وليست به فإنها لهم، وهى ممن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً ـ إنها ليست هى الرسالة حيث صدقوها، وليست أجرا لنفسها، اللهم إلا تعرُّفا سليما إلى الرسالة واستمرارية لها وليس إلاّ ب «المودة فى القربى» عترته صلى‌الله‌عليه‌وآله **الأقربون إليه فى معرفة الرسالة وحملها.**

هنالك مودة فى الرسالة تجعلهم يتعلمون من الرسول ويطيعونه كما يستطيعون حسب ما يودون رسالة اللّه ويحبون اللّه: «قل إن كنتم تحبون اللّه فاتبعونى يحببكم اللّه»[2] وهذه المودة تتطلب مودة السبل إلى الرسالة ومدينة علم الرسول، وليست إلاّ «المودة فى القربى» حيث تقربهم إلى الرسول فإلى اللّه زلفى، ثم لا نجد قربى إلاّ هيه، اللهم إلاّ واهية، إلاّ قربى اللّه

---

[1]. كما في الدر المنثور ٦: ٦ ـ اخرج ابن ابي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال لهم رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: لا اسألكم عليه اجرا الا ان تودوني في نفسي لقرابتي منكم وتحفظوا القرابة التي بيني وبينكم ـ اقول وهذا خلاف المستفاد من القربى كما عرفناها من الآية وخلاف النقل المتواتر عن ابن عباس نفسه وخلاف اجماع اهل البيت عليهم‌السلام.

[2]. ٣: ٣١.

وليست لغير المعصومين اللّهم إلا سبلاً إلى اللّه، وهم السبيل الأعظم والصراط الأقوم، وهم أهل بيت النبوة، وموضع الرسالة، ومهبط الوحى، ومعدن الرحمة، وهم الدعوة الحسنى، وحجج اللّه على أهل الدنيا والآخرة والأولى، وهم الدعاة إلى اللّه، والأدلاء على مرضات اللّه، والمستقرين فى أمر اللّه والتأمين فى محبة اللّه.

فى الحق إن المودة فى القربى ليست أجرا للرسالة، وإنما هى طلب المزيد من تصديق الرسالة بالمودة فى الملاصقين الأولين بالرسالة، وُدا تحملهم على ملازمتهم فى الأخذ عنهم أهل البيت، فأهل البيت أدرى بما فى البيت!.

فلأن الأجر هو أجر الرسالة لا أجر محمد إلا كرسول، فلتكن المودة فى القربى هى فى قربى الرسالة: من هو أقرب إليها من بيت الرسالة، ثم وهو لهم كمؤمنين بالرسالة وهو ممن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً، لاقرب محمد كسائر البشر إليهم ولاقربهم إليه، فإن المودة فى هذا القرب وذاك ليست إسلامية ولا تمتُّ بصلة لرسالته أم ماذا؟.

ثم المودة فى قرباه إليكم ليست إلاّ له لا لهم «قل ما سألتكم من أجر فهو لكم» كذلك هى والمودة فى قرباهم إليه ليست اتخاذ سبيل إلى الرب اللهم إلاّ قربى الرسالة، سبيلاً إليها فإلى اللّه وهى الأئمة من عترته صلى‌الله‌عليه‌وآله.

فلئن قلت لا قربى أقرب من قربى اللّه فلتكن هذه المودة فى قرب اللّه «أن تتقربوا إليه بطاعته»؟[1] قلنا: كما المودة فى طاعة اللّه تحملكم عليها ثم قربى بها إلى اللّه، كذلك المودة فى الأدلاّء ءلى الرسول فإلى اللّه، فلولا معرفة الرسول والرسالة كاملةً لم تعرفوا طاعة اللّه حتى تقربكم إلى اللّه زلفى «قل لا أسألكم عليه أجرا إلاّ من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً» فلو كان السبيل إلى الرب هى الطاعة المعروفة لكل أحد فكيف يسألهم المودة فيها كأجر الرسالة، فإنما هذه سبيل جديدة يعرِّفها لهم حيث هم يعلِّمونهم ما خفى عنهم وعزب عن علمهم فهم أبواب مدينة علم الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله.

«ومن يقترف حسنة» تصديقا للرسالة الإلهية، وتذرعا بالمودة فى القربى إليها فإلى اللّه زلفى،

---

[1]. الدر المنثور ٦: ٦ ـ اخرج احمد وابن ابي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه من طريق مجاهد عن ابن عباس عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله في الآية: قل لا اسألكم على ما اتيتكم به من البينات والهدى اجرا إلاّ ان تودوا اللّه وان تتقربوا اليه بطاعته.

أم ماذا من حسنة عقائدية أو عملية؟ «نزد له فيها حسنا» حسنا على حسنة نورا على نـور «إن اللّه غفور» حيث التقصير والقصور فى اقتراف حسنة لمن استغفر وأناب «شكور» لمن يقترف حسنة، ولمن يتوب بعد السيئة وقد «يبدل اللّه سيآتهم حسنات».[1]

ولقد كانت هذه الآية الغُرة اليتيمة تذكرة لهم أمام مشهد روضات الجنات وحرية المشيآت فيها، وهى حصيلة الدعوة الرسالية الصعبة الملتوية ليل نهار، ذكرى أنه لا يسألهم على هـذا أجرا إلاّ المودة فى القربى وهى لهم، وإلاّ من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً.

لقد كان الإستثناء منقطعا معنويا حيث المودة هذه لم تكن أجرا، وإن كان متصلاً لفظيا حيث سماها أجرا وما هى بأجر، ثم وليس مجرد عدم تناول الأجر بل ويتناولون هم أجـرا وزيـادة «ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا..»! ثم ومن بعد الأجر وزيادته غفرا وشكرا.

فخصيصة هذه المودَّة أنها ليست أجرا له، وهى لهم، وهى السبيل إلى ربهم، وليست القربى أشخاصا، وإنما هى الأقربية إلى الرسول رساليا وإلى اللّه بعد الرسول معرفيا وعبوديا، المتمثلة فى الإئمة من عترته المعصومين عليهم‌السلام، والحمد للّه الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا اللّه.

«أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللّه كَذِبا فَإِنْ يَشَأْ اللّه يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِکَ وَيَمْحُ اللّه الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».[2]

هذه الآية لا تمت بصلة لآية الأجر إلاّ كونها موضع ريبة لجماعة من المسلمين، كما القرآن كله عند الناكرين، قولة فى الجو الإسلامى الذى لم يسلم تماما عن الإنحراف ممن ثقلت عليهم المودة فى القربى[3] حيث قلبها بعضهم إلى العداوة كما عادوا النبى كالمنافقين،

---

[1]. ٢٥: ٧.

[2]. ٤٢: ٢٤.

[3]. نور الثقلين ٤: ٥٧٦ ح ٨٢ في تفسير علي بن ابراهيم بسند عن محمد بن مسلم قال: سمعت ابا جعفر عليه‌السلام يقول في قول اللّه عز وجل: قل لا اسألكم عليه اجرا.. الى ان قال: ففرض اللّه عليهم المودة في القربى فان اخذوا اخذوا مفروضا وان تركوا تركوا مفروضا قال: فانصرفوا من عنده وبعضهم يقول: عرضنا عليه اموالنا فقال لا ـ قاتلوا عن اهل بيتي من بعدي وقالت طائفة: ما قال هذا رسول اللّه وجحدوه وقالوا كما حكى اللّه عز وجل: «ام يقولون افترى على اللّه كذبا» ـ فقال عز وجل: «فان يشاء اللّه يختم على قلبك» قال: لو افتريت «ويمح اللّه الباطل» يعني: يبطله «ويحق الحق بكلماته» يعني بالائمة والقائم من آل محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله «انه عليم بذات الصدور».
وفي الدر المنثور ٦: ٧ ـ اخرج الطبراني والخطيب من طريق ابي الضحى عن ابن عباس قال: جاء العباس الى رسول اللّه

وآخرون مذبذبون عوانٌ دون عناد ولا وداد إلاّ مودة كسائر المسلمين أو هى أعلى دون أن تتخذ إلى الرب سبيلاً، ثم قليل منهم متعهدون.

ثم قولة لغير المسلمين إن القرآن ككلٍّ مفترى على اللّه، «أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله»[١] «.. فاتوا بعشر سور مثله مفتريات»[٢] «.. إن افترتيه فعلى إجرامى وأنا برىءٌ مما تجرمون»[٣] «.. إن افتريته فلا تملكون لى من اللّه شيئا».[٤]

أو أن بعضه مفترى كالمودة فى القربى عند البعض من المسلمين، أم ماذا من غير المرغوب عندهم حيث يقولون:«إئت بقرآن غير هذا او بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى..»[٥] والجواب الحاسم هنا وفى الحاقة:«ولو تقول علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا عنه الوتين. فما منكم من أحد عنه حاجزين. وإنه تذكرة للمتقين».[٦]

و«أم» هنا عطف إعراض عما لا يستحق الذكر كأن كذب اللّه «أم يقولون افترى على اللّه..» فهنالك مفترون على اللّه الكذب من غير رسل اللّه، وهم مفضوحون إذ لا حجة لهم ـ فيما يفترون ـ باهضة، إلاّ داحضة، وهم لا يصدَّقون فى صدقهم على اللّه دونما رسالة إلهية أم ماذا، فكيف يصدَّقون فى فريتهم على اللّه.

وأما أن رسولاً صادق الرسالة بآياته يفترى الكذب على اللّه، ثم اللّه يستمر فى رسالته دون أن يأخذ منه بيمين القدرة ويقطع عنه وتين الرسالة، فهذه خيانة إلهية ان يأتمن الخائن فى

صلى‌الله‌عليه‌وآله فقال: انك تركت فينا ضغائن منذ صنعت الذي صنعت فقال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله: لا يبلغوا الخير او الايمان حتى يحبوكم.

[١]. ١٠: ٣٨.

[٢]. ١١: ١٣.

[٣]. ١١: ٣٥.

[٤]. ٤٦: ٨.

[٥]. ١٠: ١٥.

[٦]. ٤٩.

رسالته، وإضلال فى موقف الهداية.

ف «إنه عليم بذات الصدور» لا يرسل ويأتمن الخائن، ولو أُرسل من تتاتى منه الخيانة فليختم على قلبه، قلبا لقلب الرسالة ولسانها وأحوالها وآياتها إلى غيرها، حسما لمادة الخيانة، ثم قلبا إلى غير الايمان جزاءً بما خان.

وسنة اللّه دائبة على محو الباطل وإحقاق الحق أيا كان ومن أى كان، فهلا يمح الباطل من رسول الحق، وهلا يحق الحق فى رسول الحق؟ أجل: «ويمح اللّه الباطل» بكلماته «ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور».

علمه بذات الصدورلا يدعه يرسل الخَوَنة، ولو أرسل فلأنه يعلم موضع الخيانة يختم على قلب الخائن، ولأنه يعلم الحق والباطل ككل، «يمح اللّه الباطل ويحق الحق بكلماته» ودلالاته.

فما كان للّه ليخفى عليه ما يدور بخلد الرسول قبل أن يرسله أو يقول، فكيف بما بعده «إنه عليم بذات الصدور»!.

«وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنْ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ».[1]

و«هو» لا سواه «الذى يقبل التوبة عن عباده» فلماذا القنوط من رحمته واللجاج فى معصيته او اللجوء إلى سواه، فباب التوبة مفتوحة على مصراعيها لم تاب إلى اللّه، وقبول التوبة لمن أرادها، أن يتوب اللّه على العاصى ليتوب إلى اللّه ثم يتوب اللّه عليه ليقبلها عنه: «ثم تاب عليهم ليتوبوا إن اللّه هو التواب الرحيم»[2] «وأرنا مناسكنا وتب علينا»[3] والتوبة الصالحة هى بعد الإستغفار: «وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه»[4] ومن بعد التوبة الإيمان والإهتداء والعمل

---

[1]. ٤٢: ٢٦.

[2]. ٩: ١١٨.

[3]. ٢: ١٢٨.

[4]. ١١: ٣.

الصالح: ﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن اللّه يتوب عليه﴾[1] ﴿وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾[2].

وقد تنتهى التوبة إلى الاجتناب كما فى آدم: ﴿وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه فتاب عليه وهدى﴾[3] فقد عصى فتاب إلى اللّه فتاب اللّه عليه ثم هداه هدىً ثانية بعدما اهتدى فى توبته ثم اجتباه بالرسالة.

«ويعفو عن السيآت» وترى العفو هنا عن السيآت بتوبة؟ وقبول التوبة يشمله! اَم دون توبة فكيف هو؟! إن السيآت هى ما دون الكبائر، والعفو عن السيآت دون توبة موعود شريطة اجتناب الكبائر: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم وندخلكم مدخلاً كريماً﴾[4] فمقترف الكبائر والسيآت دون توبة لا تعفى عنه السيآت دون توبة.

«ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات» اللّه فيما دعاهم إلى دينه والتوبة إليه كما «ويستجيب» اللّه دعاءهم وتوبتهم «ويزيدهم» فى استجابتهم إياه واستجابته إياهم «من فضله» وأما «الكافرون»، ف «لهم عذاب شديد» إذ لم يستجيبوا لربهم فلا يستجيبهم ربهم، ولهم عذاب شديد.

وقد تعنى التوبة هنا ــ والإستجابة فيما تعنى ــ توبة من تقوّل عليه أنه افترى آية القربى على اللّه كذبا واستجابته.[5]

---

[1]. ٥: ٣٩.

[2]. ٢٠: ٨٢.

[3]. ٢٠: ١٢٢.

[4]. ٤: ٣١.

[5]. نور الثقلين في المجمع وذكر ابو حمزة الثمالي في تفسيره حدثني عثمان بن سعيد بن عمير عن سعيد بن جبير عن عبداللّه بن عباس عن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله حين قدم المدينة واستحكم الاسلام قالت الانصار فيما بينهم: نأتي رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فنقول له ان تعرك امور فهذه اموالنا تحكم فيها غير حرج ولا محظور عليك فأتوه في ذلك فنزلت «قل لا أسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى» فقرأها عليهم وقال: تودون قرابتي من بعدي فخرجوا من عنده مسلمين لقوله فقال المنافقون: ان هذا شيء افتراه في مجلسه اراد ان يذللنا لقرابته من بعده فنزلت «ام يقولون افترى على اللّه كذبا» فارسل اليهم فتلاها عليهم فبكوا واشتد عليهم فأنزل اللّه «وهو الذي يقبل التوبة عن عبادة» الآية فارسل في اثرهم فبشرهم وقال: ويستجيب الذين آمنوا ـ وهم الذين سلموا لقوله.

«وَلَوْ بَسَطَ اللّه الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ».[١]
ولكن:
«يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا»[٢] ف «إن الانسان ليطغى. أن رآه استغنى».[٣]
فلأنه تعالى بعباده خبير ما هى طبيعتهم، وبصير إلى ما تصير حالتهم لو بسط فى رزقهم ككل، لذلک جرت سنته على أن ينزل من رزقه لهم بقدر: كميَّة معيَّنة معنيَّة، وهندسة خاصة مقضية، من سعة وقدْر وعوان بين ذلک.
فغزارة الحياة الأخرى للمؤمنين أن رزقهم كما يشتهون ولدى اللّه مزيد مصلحةٌ لهم إذ لا تنازع هناک ولا طغوى وبغى حيث يُخرج أضغانهم فهم صالحون.
ونزارة الحياة الدنيا بجنب تلک الغزارة لحد لا تحسب بشىء، هذه النزارة مُهندَسة مقدرة لهم بقَدَر، فإن الخيير البصير يعلم أن عباده كهؤلاء البشر لا يطيقون الرزق إلاّ بقدر، فهم صغار لا يملكون التوازن حيث هم فى بلاء الأرض، فسيبقى فيضه المبسوط بغير حساب لمن ينجحون فى محنة الدنيا وابتلاءها، وقد يبسط هناک لمن لا ينجحون ويبغون بسنن أخرى حاكمة على هذه السنة، كسنة تعجيل العاجلة لمن كان يريدها دون الآجلة توفيةَ الجزاء فيها:
«من كان يريد الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يُبخسون. اولئک ليس لهم فى الآخرة إلاّ النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون».[٤]
وسنة الإستدراج والإملاء: «سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأملى لهم إن كيدى متين».[٥]
فسنة الإصلاح ككلٍّ بتقدير الأرزاق، سنةٌ ابتدائية عامة تتبنى صالح المجموعة، وسنة

---

[١]. ٤٢: ٢٧.
[٢]. ١٧: ٣٠.
[٣]. ٩٦: ٧.
[٤]. ١١: ١٨.
[٥]. ٧: ١٨٢.

الإستدراج وتوفية الجزاء، سنة هامشية خاصة لمن يستحقونها.

ففى حيث قدسى: «إن من عبادى من لا يُصلحه إلا السقم ولو صححته لأفسده وإن من عبادى من لا يُصلحه إلاّ الصحة ولو أسقمته لأفسده وإن من عبادى من لا يصلحه إلاّ الغنى ولو أفقرته لأفسده وإن من عبادى من لا يصلحه إلاّ الفقر ولو أغنيته لأفسده وذلك انى أُدبِّر عبادى لعلمى بقلوبهم».[1]

ف «لو فعل لفعلوا ولكن جعلهم محتاجين بعضهم إلى بعض واستعبدهم بذلك ولو جعلهم أغنياء لبغوا ولكن ينزل بقدر ما يشاء مما يعلم أنه يصلحهم فى دينهم ودنيا هم إنه بعباده خبير بصير.[2]

وقال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: إن أخوف ما أخاف عليكم ما يُخرج اللّه لكم من زهرة الدنيا وزينتها فقال له رجل يا رسول اللّه أوَ يأتى الخير بالشر؟ فقال إن الخير لا يأتى بالشر وإن مما ينبت الربيع يقتل حبطا او يلم إلاّ آكلة الخضر فإنها كلت حتى امتلأت خاصرتاها فاستقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت، وإن المال حلوة خضرة، ونعم صاحبها المسلم هو ان وصل الرحم وانفق فى سبيل اللّه ومثل الذى ياخذه بغير حقه كمثل الذى يأكل ولا يشبع ويكون عليه شهيدا يوم القيامة».[3]

وفى نص آخر عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله جواب آخر هى هذه الآية «ولو بسط اللّه الرزق..» ثم استمر فى جوابه صلى‌الله‌عليه‌وآله.[4]

حكم الرسول متبع لكافة المكلفين

---

[1]. نور الثقلين ٤: ٥٧٩ ـ عن مجمع البيان روى انس عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله عن جبرئيل عن اللّه.

[2]. المصدر في تفسير عن علي بن ابراهيم في الآية عن الصادق عليه‌السلام.

[3]. الدر المنثور ٦: ٩ ـ اخرج احمد والطيالسي والبخاري ومسلم والنسائي وابو يعلي وابن حيان عن ابي سعيد الخدري قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله وبين سؤال السائل وجوابه ـ فسكت عنه رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فرأينا انه ينزل عليه فقيل له ما شأنك تكلم رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ولا يكلمك فسرى عن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فجعل يمسح عنه الرحضاء فقال: اين السائل فرأينا انه حمد فقال:...

[4]. المصدر اخرج ابن جرير عن قتادة في الآية ذكر لنا ان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله قال:...

«وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللّه إِنَّ اللّه شَدِيدُ الْعِقَابِ»:[1]

توحى الآية بأن البعض من المسلمين ما كانوا يرضون بتقسيم الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله إذ كان يحرم بعضا ويؤتى بعضا، وكان يزيد بعضا على بعض حسب ما يراه، وكما يُروى عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله أنه قسم الفيء بين المهاجرين ونفر من الأنصار المحاويج، فاعترضه الباقون وتسائلوه فى ذلك، فصدرت ضابطة عامة أن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله مفوض إليه الأمر فى دَولة الحكم ودُولة المال وكما يروى عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله وعن الأئمة من آله عليهم‌السلام[2] دون أن تختص الآية بإيتاء المال والنهى عنه، مهما نزلت بهذه المناسبة.

فهذه هى النظرية الدستورية الاسلامية ان أصل القانون من اللّه لا سواه، وتطبيقه من رسول اللّه، لا سواه، خلاف كافة النظريات الدستورية الوضعية طول التاريخ، التى تؤصل الأكثرية فى سَنّ القوانين، أو تحصر حق التقنين برئيس الدولة الذى هو بشر كسائر البشر يخطأ ويسهو ويجهل ويميل.

نحتج بهذه الآية فيما نحتج لحجية سنة الرسول قولاً وعملاً وتقريرا، أنها من سنة اللّه، وان ما سنه ليس إلا بما أراه اللّه.

ثم تختم الآية بذيل يربط هاتين القاعدتين الرئيسيتين بتقوى اللّه: «واتقوا اللّه إن اللّه شديد العقاب»: تقوى فى دُولة المال ودَولة الحال، فللّه الدوَل على أية حال، يؤتيها من يشاء ويمنعها عمن يشاء، فدُولة المال عامة لجميع الشعوب حسب الحقوق والمساعى بما قررها اللّه، ودَولة الحال وهى الحكم بين الناس، إنها للّه ولرُسل اللّه الحاملين المبلغين رسالات اللّه، ولا يخشون أحدا إلا اللّه وكفى باللّه حسيبا.

ثم آية الأنفال تختصها باللّه والرسول، وآية الفىء تعمهما والأربعة الباقية، ثم الآية التالية تختص بالذكر الفقراء المهاجرين.. مما يوحى بتفويض الرسول فى الفىء والأنفال، وأن

---

[1]. ٥٩: ٨.

[2]. الكافي باسناده إلى الميثمي عن أبي عبداللّه الصادق عليه‌السلام: ان اللّه عز وجل أدب رسوله حتى قومَّه على ما أراد ثم فوض إليه فقال عز ذكره «ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا»فما فوضه اللّه إلى رسوله فقد فوضه إلينا.
أقول: وهذا المعنى متواتر عن أئمة آل البيت ـ راجع تفسير البرهان ٤: ٣١٤ ـ ٣١٦ ونور الثقلين (٥: ٢٧٩ ـ ٢٨٤).

النسب ليس شرطا أصيلاً فى استحقاقها:

«لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللّه وَرِضْوَانا وَيَنْصُرُونَ اللّه وَرَسُولَهُ أُوْلَئِکَ هُمْ الصَّادِقُونَ».[1]

«للفقراء» علّة بدلٌ عن «اليتامى والمساكين وابن السبيل» كما اللام توحى بذلك «للّه وللرسول ولذى القربى و «للفقراء..»: مهما كانوا من يتامى الهاشميين ومساكينهم وأبناء سبيلهم، أم من المهاجرين والأنصار، كما يروى أن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله قسم فى بنى النضير بين المهاجرين وثلاثة من فقراء الأنصار، مما يبرهن على عدم اختصاص الفىء بالهاشميين، وللرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وأولى الأمر فيه الخيرة.

«للفقراء المهاجرين» الذين هاجروا أرض الوطن فى سبيل اللّه «الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم»: من وظائفهم وأشغالهم ومصالحهم وأموالهم، تركوها كلها حفاظا على شريعة اللّه بدافع الإيمان باللّه: «يبتغون فضلاً من اللّه ورضوانا» لا يبتغون من غيره جزاءً ولا شكورا، وإنما «فضلاً من اللّه» أن يعيد اليهم مسكة الحياة الدنيوية، «ورضوانا» وهو الأصل فيما يبتغون، «وينصرون اللّه» بقلوبهم وسيوفهم فى أحرج الحالات، لا ملجأ لهم سواه، ولا جناب لهم إلا حِماه «ورسوله» حيث يتبعونه فيما يفعل أو يقول، دون تحرُّج مما قضى «اولئک هم الصادقون» فى إيمانهم دون شائبة ولا عائبة.

فهؤلاء الكرام لهم نصيب من الفىء، للفقر والإيمان والجهاد، وهم أفضل من يستحقون الفىء، وكذلک من بوّء لهم دار الهجرة، بواءَ المكانة والمكان قبل أن يهاجروا:

«وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِکَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ».[2]

«والذين تبوّءوا الدار»: دار الهجرة، المدينة المنورة، فإنها من أسمائها العشرة كما يروى عن

---

[1]. ٥٩: ٩.

[2]. ٥٩: ١٠.

الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله[1] و«الإيمان» تبوَّءا لهما على سواء، فكما يطمئن الإنسان إلى داره، واطمأن هؤلاء الأماجد إلى إيمانهم الرصين الحصين واستوطنوه، وطنا أليفا أمينا للروح، كما الدار مأمن للجسم.

فالتبوُّء من البواء: مساواة الأجزاء فى المكان، خلاف التَّبوئه وهى منافاة الأجزاء، فالتبوُّء هو التكلف فى البواء للراحة والطمأنينة، سواء أكان بواءً فى المكان والدار، أو المكانة والإيمان، ف (الإيمان بعضه من بعض وهو دار، وكذلك الإسلام دار والكفر دار كما فى الصادقى عليه‌السلام).[2]

فهؤلاء الأنصار تبوّءوا مكانا يناسب الإيمان، عمّروهما وتهيئوا لاستقبال الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله والمهاجرين فيها، مكانا تتساوى أجزاؤه لهم وللوافدين المهاجرين، وهذه هى التبوئة الحقيقية العادلة، فإن المهاجرين المضطهدين كانوا بحاجة إلى هكذا بواء الذى فيه كل رواع قلبا وقالبا، بعدما اضطهدوا ولاقوا ما لاقوا من الأذى طيلة المقام بمكة، فإن أهلها كانوا يدمرون الدار والإيمان، فهاجروا إلى من يعمرون الدار والإيمان، لهم ولمن سواهم سواء، يملكهم الحب فى اللّه ويملكونه (وهل الدين إلا الحب؟).[3]

«يحبون مَن هاجر اليهم» حبا لهم واستقبالاً عديم النظير فى التأريخ، فقد كانوا يتسابقون إلى إيوائهم، واحتمال أعبائهم، لحدّ كان المهاجرون يقترعون لأنفسهم لدور الأنصار، إذ كانت مفتحة لهم الأبواب أكثر من الحاجة «ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أُوتوا»هم، مهما كانوا محاويج فى متطلبات عيشتهم، ولا سيما مع الضيوف: الواردين، ولكن نفوسهم الأبيّة، وصدورهم المنشرحة، لم تكن توجد فيها حاجة مما أُوتوا من بلغة العيش رغم حاجتهم المدقعة اليه، ولا حاجة مما أُوتى المهاجرون من الفىء، بل «ويؤثرون على أنفسهم» الفقراء المهاجرين «ولو كان بهم خصاصة»: حاجة مدقعة، والخصاصة فى الأصل هى الفُرجة، وهم

---

[1]. الدر المنثور ٦: ١٩٥ ـ أخرج الزبير بن بكار في أخبار المدينة عن زيد بن أسلم قال قال رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله: للمدينة عشرة أسماء هي: المدينة وهي طيبة وطابة ومسكينة وجابرة ومجبورة وتبدد ويثرب والدار.

[2]. الكافي بإسناده الى أبي عبداللّٰه الصادق عليه‌السلام في حديث طويل يقول فيه:...

[3]. محاسن البرقي بإسناده الى باقر العلوم عليه‌السلام في حديث: الدين هو الحب والحب هو الدين يعني الحب في اللّٰه.

لم يكن لهم ما يسدُّ فرُج الحياة، ورغم ذلک، ومع حياتهم المعيشية المختلة، هؤلاء الأنصار المحاويج آثروا المهاجرين على أنفسهم مرتين: فيما أُوتوا من الفیء، وفی أموالهم الخاصة، تشجيعا لجنود الهجرة، وترغيبا للتضحية فی سبيل اللّه، والإيثار على النفس، رغم شحِّها أو حاجتها، إنه القمة العليا من الإنفاق، وقد بلغها الأنصار فی تلک الظروف الصعبة الملتوية، وکم من بون بينهم وبين من يؤثرون الحياة الدنيا وهم أغنياء: «بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى».[1]

ولقد قال النبی صلى‌الله‌عليه‌وآله **للأنصار: (إن شئتم قسمتم للمهاجرين من دورکم وأموالکم وقسمت لکم من الغنيمة کما قسمت لهم، وإن شئتم کان لهم الغنيمة ولکم ديارکم وأموالکم، فقالوا: لا، بل نقسم لهم من ديارنا وأموالنا ولا نشارکهم فی الغنيمة، فأنزل اللّه «ويؤثرون على أنفسهم ولو کان بهم خصاصة».**

وهذه الآية تعمّ جميع الذين يؤثرون على أنفسهم ولو کان بهم خصاصة، إلى يوم الدين، دون اختصاص بمن نزلت فی شأنهم من الأنصار وسواهم کما فی أسباب التنزيل.[2]

«ومن يوقَ شحَّ نفسه»: بُخل نفسه وتضيّقها «فاولئک هم المفلحون» فإن شح النفس، وهو الحالة الرديئة التی تُبخل الإنسان فی العطاء وتحرصه فيما بأيدی الناس،[3] إنه من اصول موانع الفلاح، فواقعه يفلج وزواله يفلح، وداؤه العضال حاضر الأنفس: «وأحضرت الأنفس الشح»،[4] وحاضر الداء هو دوما حاضر البلاء، إلا لمن توقى فوقاه اللّه «ومن يوق شحّ نفسه فاولئک هم المفلحون».

وحينما يمدح اللّه تعالى من يوقَ شحّ نفسه، بوقاية صاحبها وتأييد اللّه، يندد بمن لا يوقَ،

---

[1]. ٨٧: ١٦.

[2]. التفسير الكبير للرازي ج ٢٩: ٢٨٧، عن ابن عباس.

[3]. من لا يحضره الفقيه روى الفضل بن أبي قرة السمندي انه قال: قال لي ابو عبداللّه أتدري من الشحيح؟ قلت: هو البخيل، فقال: الشح أشد من البخل، إن البخيل يبخل بما في يده والشحيح يشح بما في أيدي الناس وعلى ما في يده حتى لا يرى في أيدي الناس شيئا إلا تمنى أن يكون له بالحل والحرام، ولا يقنع بما رزقه اللّه.

[4]. ٤: ١٢٨.

فهو شحيح على المؤمنين وعلى الخير أينما حلّ وارتحل: «قل يعلم اللّه المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلّم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً. أشحةً عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليک تدور أعيهم كالذى يُغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سَلقوكم بألسنةٍ حدادٍ أشحّةً على الخير اولئک لم يؤمنوا فأحبط اللّه أعمالهم وكان ذلک على اللّه يسيرا».[١]

وكما أن لشحِّ النفس دركات، كذلک لوقايته درجات، منها ألا تشح عن أداء الواجبات من زكاة وسواها، وكما عن على عليه‌السلام،[٢] كما وأن منها ألا شح عن المندوبات كقرى الضيف كما عن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله: (ثلاث مَن كنَّ فيه فقد برىء من الشح: مَن أدى زكاة ماله وقرى الضيف وأعطى فى النوائب)،[٣] وكلمة الفصل عن الشح بصيغة شاملة قول الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله: (ما محقَ الإسلامَ محقَ الشحِّ شىءٌ قط)،[٤] و(شر ما فى الرجل شحٌ هالع وجُبن خالع)،[٥] وإلى غير ذلک من كلماته صلى‌الله‌عليه‌وآله حول خطورة الشح.[٦]

وحدّ الإيثار أن يتجاوز نصف ما عنده، فالنصف سواءٌ وليس إيثارا، فضلاً عما دون النصف، وكما فى الصادقى عليه‌السلام[٧] وأرقى الإيثار ما فعله مَن «يطعمون الطعام على حُبِّه مسكينا ويتيما

---

١. ٣٣: ١٩.

٢. الدر المنثور ٦: ١٩٦ ـ أخرج ابن المنذر عن علي بن أبي طالب عليه‌السلام قال: من أدى زكاة ماله فقد وقى شح نفسه.

٣. المصدر ـ أحرج ابن مردويه عن جابر بن عبداللّه: سمعت رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله يقول:...

٤. المصدر ـ أخرجه الحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن مردويه عن أنس قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله:... وفي من لا يحضره الفقيه: ثم قال صلى‌الله‌عليه‌وآله: إن لهذا الشح دبيبا كدبيب النمل وشعبا كشعب الشرك.

٥. المصدر ـ أخرجه ابن أبي شيبة وأبو داود وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله.

٦. كما في المصدر أخرج أحمد والبخاري في الأدب ومسلم والبيهقي عن جابر بن عبداللّه أن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: إتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم.

٧. الكافي عن ابان بن تغلب عن أبي عبداللّه عليه‌السلام قال: سألته فقلت: اخبرني عن حق المؤمن على المؤمن؟ فقال: يا ابان ! دعه لا تزده، قلت: بلى جعلت فداك، فلم أزل أرد عليه، فقال: يا ابان! تقاسمه شطر مالك، ثم نظر إلي فرأى ما دخلني، فقال: يا ابان! ألم تعلم أن اللّه عز وجل قد ذكر المؤثرين على أنفسهم؟ قلت: بلى جعلت فداك، فقال: أما إذا أنت قاسمته فلم تؤثره بعد، إنما أنت وهو سواء، إنما تؤثره إذا أعطيته من النصف.
وفيه أيضا عنه عليه‌السلام عن الرجل ليس عنده إلا قوت يومه أيعطف من عنده قوت يومه على من ليس عنده شيء، ويعطف من عنده قوت شهر على من دونه؟ والسنة على نحو ذلك؟ أم ذلك كله الكفاف الذي لا يلام عليه؟ فقال: هو أمران أفضلكم فيه أحرصكم على الرغبة والاثرة على نفسه، فإن اللّه عز وجل يقول: «يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة»، والأمر الآخر لا يلام على الكفاف، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول.

وأسيرا» كما شرحناه فى سورة الإنسان فى تفسير الفرقان.

ولا يعنى الإيثار أن يترك الإنسان نفسه وعياله جياعا عُراة، فإن ذلك تهلكة وليس إيثارا، وكما فى الصادقى عليه‌السلام نقلاً عن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله: (خمس تمرات أو خمس قرص أو دنانير أو دراهم يملكها الإنسان وهو يريد أن يمضيها فأفضلها ما أنفقه الإنسان على والديه، ثم الثانية على نفسه وعياله، ثم الثالثة على قرابته الفقراء، ثم الرابعة على جيرانه الفقراء، ثم الخامسة فى سبيل اللّه وهو أحسنها أجرا)، وقال صلى‌الله‌عليه‌وآله للأنصارى، حين أعتق عند موته خمسة أو ستة من الرقيق ولم يكن يملك غيرهم وله أولاد صغار: (لو أعلمتمونى أمره ما تركتكم تدفنوه مع المسلمين بترك صبية صغار يتكففون الناس).[1]

أجل، وكما قال اللّه: «والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما».[2]

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».[3]

إنهم لا ينفعهم الإعتذار، بل: «ولا يؤذن لهم فيعتذرون»[4] فممَّ يعتذرون؟ هل من أعمالهم النحِسة التى أصبحت لزام ذواتهم؟ وليس جزاؤهم إلا أعمالهم! «إنما تُجزون ما كنتم تعملون»: فى صور الأعمال وأصوات الأقوال، والإنحرافات النفسية التى تتجلى لهم فيفضحون، وفى حقائقها التى تبرز لهم فهم بها يعذبون: «لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرُك اليومَ حديد».[5]

هذا ـ ولكنما المؤمن له اعتذار يوم الدنيا بتوبة نصوح، ويوم الدين بما يكفّر له، فان كبائر الحسنات والسيئات فعلاً وتركا تعذره عن صغائرها:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللّه تَوْبَةً نَصُوحا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ

---

[1]. علي بن ابراهيم القمي عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة في حديث طويل عن أبي عبدالله الصادق عليه‌السلام يشرح فيه حدود الإيثار والإقتار نور الثقلين ٥: ٢٨٨.

[2]. ٢٥: ٦٧.

[3]. ٦٦: ٧.

[4]. ٧٧: ٣٦.

[5]. ٥٠: ٢٢.

جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...».[١]

إن التوبة النصوح هى البالغة فى النصح، أن يناصح فيها التائبُ نفسَه، ويبذل مجهوده فى إخلاص الندم، إزالة لآثار العصيان الغابر، والعزم على تركه فى المستقبل والحاضر، فان التوبة وهى الرجوع الى اللّه عن حجاب الذنب، إنه درجات، كما ان المعاصى دركات، فأفضل درجات التوبة هى النصوح: الناصحة للقلب المخلّصة له من رواسب المعاصى وعكارها، الحاضّة للعمل الصالح بعدها، العائشة القلب مذكرة مكررة النصح بعدم العَود:

(أن يندم العبد على الذنب الذى أصاب فيعتذر الى اللّه ثم لا يعود اليه كما لا يعود اللبن الى الضراع)[٢] (وأن يكون باطن الرجل كظاهره وأفضل)،[٣] وتُرى (أينا لم يعد..؟) ولكن (.. اللّه يحب من عباده المفتن التوّاب)،[٤] فأدنى النصوح فى التوبة هكذا تصميم، وأعلاه التطبيق.

وفى هذه التوبة الحاسمة تكفير للسيئات كلها «عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم»: ما تقدم منها وما تأخر، ما عشتم التوبة النصوح، إضافة الى تكفير الكبائر التى تبتم عنها توبة نصوحا، وإلى منعها حصول السيئات من بعد.

وتُرى كيف تكفر السيئات، وقد كتبها كتبة الأعمال ويكتبونها، وقد سجلت فى مختلف السجلات الإلهية من أعضائك وفضائك وأرضك ومكانك وزمانك؟: إنه تعالى (يُنسى ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب، ويوحى الى جوارحه: اكتمى عليه ذنوبه، ويوحى الى بقاع الأرض: اكتمى ما كان يعمل من الذنوب، فيلقى اللّه حين يلقاه وليس عليه شىء يشهد عليه

---

[١]. ٦٦: ٨.

[٢]. الدر المنثور ٦: ٢٤٥ ـ أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي‌الله‌عنه قال قال معاذ بن جبل: يا رسول الله، ما التوبة النصوح؟ قال:... وأخرج مثله ان ابي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان عن أبي بن كعب عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله: هو الندم على الذنب حين يفرط منك فتستغفر الله بندامتك عند الحاضر ثم لا تعود اليه أبدا.
وفي معناه ما في نور الثقلين ٥: ٣٧٤ عن الكافي عن ابي الصباح الكناني قال: سألت أبا عبدالله عليه‌السلام عن الآية، قال: يتوب العبد من الذنب ثم لا يعود فيه.

[٣]. نور الثقلين عن معاني الأخبار عن ابي عبدالله عليه‌السلام قال:...

[٤]. فيه عن القمي عنه عليه‌السلام في الآية بعد التفسير المسبق قلت: وأينا لم يعد؟ فقال:...

بشیء من الذنوب).[1]

وهذه التوبة من أنجح الوقایات عن النار بعد وقایة التقوى، تكفر السیئات وتدخل الجنات «ویدخلكم جنات تجری من تحتها الأنهار» إضافة الى سائر المكفِّرات المكررات طیّات آیاتها.

«... یَوْمَ لاَ یُخْزِی اللّه النَّبِیَّ وَالَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ یَسْعَی بَیْنَ أَیْدِیهِمْ وَبِأَیْمَانِهِمْ یَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّکَ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ».[2]

هذه المكرمة الإلهیة للمؤمنین الواقین أنفسهم وأهلیهم نارا، التائبین توبة نصوحا، إنها تكون «یوم لا یخزی اللّه النبی والذین آمنوا معه..»: أن یسوِّی بینهم وسواهم، ویا له من تكریم عظیم أن یضمهم الى نبیه فیجعلهما فی صف واحد فی المكرمة یوم الخزی، لأنهم «آمنوا معه»: إیمانهم من إیمانه، فالمعیة الإیمانیة توحی بدرجات عالیة من إیمان، مهما كان المؤمنون معه درجات، فإن اللّه یضمُّ التائبین إلیه إذ كانوا من حزبه معه، مهما قصُروا أو قصّروا، ما كان حیاتهم ـ كمبدء ـ ایمانیة تائبة آئبة.

«نورهم یسعى بین أیدیهم وبأیمانهم».. «نورهم» الخاص بهم بسعیهم «یسعى» لا ـ نورٌ ـ فنورهم لیس ظاهریا منفصلاً عنهم حتى یمكن الإقتباس منه، وإلا لم یختص بما بین الأیدی والأیمان: نورا ضنینا لا یشمل! «یوم یقول المنافقون والمنافقات للذین آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قیل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا...»[3] فهو النور الذی حصله المؤمن من ورائه: حیاته الدنیا، وهو لزام لأله لا یعدوه «ومن لم یجعل اللّه له نورا فما له من نور».[4]

إنه برهان ونور إلهی: «.. قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إلیكم نورا مبینا»[5] وهو الإیمان

---

[1]. فیه عن الكافي بإسناده عن معاویة بن وهب قال: سمعت أبا عبدالله علیه‌السلام یقول: إذا تاب العبد توبة نصوحا أحبه الله فستر علیه في الدنیا والآخرة، فقلت: وكیف یستر علیه؟ قال: ینسي...

[2]. ٦٦: ٨.

[3]. ٥٧: ١٣.

[4]. ٢٤: ٤٠.

[5]. ٤: ١٧٤.

الناتج عن نور البرهان «أفمن شرح اللّه صدره للإسلام فهو على نور من ربه»[1] وهو العمل الصالح الذى ينتجه الإيمان، ومن ثم هو نور الفرقان وتأييد الرحمان لناتج عن مثلث النور «إن تتقوا اللّه يجعل لكم فرقانا».[2]

ومربع النور ـ هذا ـ يتوحّد فيصبح نورا واحدا يسعى بين الأيدى والأيمان، فقسم العمل الصالح والإيمان والفرقان سوف يكون على الأيمان، فإن المؤمن يؤتى كتابه بيمينه، وقسم الهداية يكون بين الأيدى، ومنه الهداة الى اللّه من النبيين والأئمة، او أنهما يكونان فيهما كما توحى له وحدة النور،[3] فالنور المربع بالأيمان يعده للحساب الحاضر، وهو بين الأيدى يبشره بالثواب المستقبل، فهناك للمؤمن حساب ثم ثواب، كما للكافر حساب ومن ثم عذاب، فإنه يؤتى كتابه بشماله او وراءَ ظهره، إذ كان يسعى فى شماله (شهواته) ووراء ظهره (دنياه)، طالما سعىُ المؤمن فى يمينه (إيمانه)، وبين يديه (آخرته) فإنها إشارات لمختلف المساعى والغايات، دون الجهات الظاهرية.

وأما الشمال ووراء الظهر فهما لغير المؤمنين إذ يؤتون كتابهم فيهما، ثم لا إمام لهم أمامهم إلا الأئمة الذين يدعون الى النار.

وهذا النور الساعيبين الأيدى والأيمان ينير لهم سبيلهم الى الجنة، وهم يستزيدون غير التام من أقسامه، فالهداية الإلهية تامة لا تحتاج الى الإتمام، وإنما مثلث النور غير التام يتطلب التام:

«يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنک على كل شىء قدير» وهذه هى الشفاعة الأخيرة التى قد تُشفع بشفاعة الشافعين المأذونين، بعد شفاعة الوقاية والتوبة النصوح، وبعد ترک كبائر السيئات والإتيان بكبائر الحسنات، فيصبح المؤمن نورا خالصا فينضم الى نور الأنوار: محمد وآله الطاهرين الأبرار.

---

[1]. ٣٩: ٢٢.

[2]. ٨: ٢٩.

[3]. نور الثقلين عن القمي بإسناده الى صالح بن سهل عن ابي عبدالله عليه‌السلام في الآية، قال: يسعى أئمة المؤمنين يوم القيامة بين أيديهم وبأيمانهم حتى ينزلوا منازلهم في الجنة ٥: ٣٧٥.

فهنالک يُلهم المؤمن ذلک الدعاء، حين يُلجم غيره عن کل دعوۀ ودعاء، وذلک الإلهام علامۀ الإستجابۀ، وإلا فلماذا السماح به؟ وأنه من إکرامه، کما أن فی رده خزيه، فالغفر عن نقصان الإيمان وما يتطلبه الإيمان، إنه تتميم لمثلث النور بين يديه وعن يمينه، مهما کان نور الهدايۀ تاما لا يحتاج إلی الإتمام.

«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدْ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».[1]

فإن المنافق والکافر نار حيثما دار، وإخماد النار واجب المؤمنين الأحرار، ولکی تبقی الحياۀ سليمۀ أمينۀ.

إن جهاد المنافقين والکفار ـ وهو بذل الجهد فی إصلاح الأمر ـ هو من مخلفات الوقايۀ للأنفس والأهلين، فالواجب علی المؤمنين حمايۀ المحضن الذی تتم فيه الوقايۀ من النار، فلا تُترک العناصر المفسدۀ تهاجم المسلمين من خارج کما الکفار، ولا من داخل کما المنافقون، مهما اختلف الجهاد الحربی بينهما، دفاعا فی المنافقين، وحربا فی الکفار، فالکافر يُحمل إما علی الإسلام الإقرار، أو الجزيۀ أو لحرب، فإلی دار البوار، والمنافق يُحمل علی الإيمان أو دفع الشر، فان حارب حورب، دون جزيۀ ولا حرب بدائيۀ بغيۀ الإقرار، وفيما إذا طلب أمر الإصلاح للجماعۀ المسلمۀ الغلظ عليهما «واغلظ عليهم» بما يدفع شرهم ويخمد نارهم. وقد يکون الغلظ علی المنافق أشد منه علی الکافر، لأنه عدوّ من داخل، فخطورته أکثر، وکما أن عذابه أحيانا أشد وأوفر: «انَّ المنافقين فی الدرک الأسفل من النار» ـ «ومأواهم جهنم وبئس المصير».

وأخيرا مثال واقعی للمؤمنين يُطمئنهم فی الإيمان، وللکافرين يخيِّب آمالهم:

«ضَرَبَ اللَّه مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللَّه شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ».[2]

---

[1]. ٦٦: ٩.

[2]. ٦٦: ١٠.

ختام فيه تأنيب رعيب على زوجتى النبى المظاهرتين عليه،[1] وعلى كل من له صلة النسب أو السبب، أم أية صلة من الصلاة بأولياء اللّه، أنها لا تنفعهم ما لم يكونوا متقين.

فامرأة نوح وإمرأة لوط مثلٌ للكافر، و«كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين» يعنى بها التحتية فى المنزلة، لقيامه عليها، وغلبته على أمرها «الرجال قوامون على النساء بما فضل اللّه بعضهم على بعض» وكما يقال: فلان الجندى تحت يدى فلان الأمير، إذا كانمن شحنة عمله، أو متصرفا على أمره، ثم المرأة ـ إضافة إلى ذلک ـ تحت الرجل بحكم اللّه فى كل ما تتطلبه الزوجية، ومنها عمل الجنس واتباع أوامر الزوج لصالحها وصالح العائلة وصالح الأمة، وهذه النحتية التكوينة والتشريعة تقتضى تلون المرأة بلون صلاح الزوج كما فى نوح ولوط، ولكنهما خانتاهما، رغم كونهما عبدين صالحين، وفى ذكر الوصفين بدل الإكتفاء باشارة الضمير تعظيم لمقام العبودية الصالحة، وأن صلاح الزوج لا ينفع الزوجة، ما لم تصلح هى نفسها.

«فخانتاهما» ترى ما هى الخيانة التى ارتكبتاها فارتبكتا فيها هنا وفى الآخرة؟ إن الخيانة خلاف الأمانة، والقدر المفهوم هنا منها الخيانة فى أمانات الزوجية، وقد أوحت إلى مثلث منها «تحت عبدين من عبادنا الصالحين» وهى وجوب كونهما تحت زوجيهما فى متطلبات الزوجية دون نشوز عنها، حافظتين لأماناتها وأسرارها ومصالحها، وأن تتصبغا بصلاح العبودية، ائتمارا بأمر الوقاية للأهلين «.. وأهليكم نارا».

ثم إنها خيانة تدخل صاحبها النار، فليست إذا نشوزا فى الامور البيتية العادية فحسب، وإنما التى تحقق جزاء النار من الكفر ومخلفاته، ومنها ثالث ثلاثة: «وأهليكم نارا» فلم ترضيا إلا التخلف عن الوقاية، ومنها كشف السرِّ، وكما يُروى فى امرأة لوط (أنها كانت تخرج فتصفِّر، فإذا سمعوا الصفير جاءوا)[2] يعنى قومه، كما وان امرأة نوح كانت تسخر منه مع الساخرين،

---

[1]. تفسير البرهان ـ شرف الدين النجفي قال روي عن أبي عبدالله عليه‌السلام في الآية: مثل ضربه الله سبحانه لعائشة وحفصة ان تظاهرتا على رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله وافشتا سره.

[2]. نور الثقلين ٥: ٣٧٦ في علل الشرائع عن أبي عبدالله عليه‌السلام قيل له: كيف كان يعلم قوم لوط انه قد جاء لوطا رجال؟ قال: كانت امرأته...

وتقول إنه لمجنون مع القائلين.

ومن الاولى نستطيع أن نحمّلهما كل شىء إلا فاحشة الزنا، وكما يُروى عن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله ـ بعد نص القرآن ـ (ما بغت امرأة نبى قط)،[1] فبهـذا الثـالوث المنحـوس، ولا سـيما أقنـوم الكفر، استحقتا دخول النار رغم أن زوجيهما نبيّان:

«فلم يغنيا عنهما من اللّه شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين»: فلا تعنـى مـن اللّـه إلا تقـوى اللّه، دون أواصر القربى مع أولياء اللّه، فقد دخلتا النار (فى البرزخ) وستدخلانها يوم القيامـة، مع الداخلين، دون ميزة ولا كرامة، إنما مهانتين كسائر المهانين اليها، والقائل مجهول «وقيـل» إشارة إلى أن القيل لهما كسائر القيل لسائر الداخلين، بـل إن مهانتهمـا أكثـر ممـن سـواهما لأنهما هتكتا ساحة النبوة ولوَّثتا جوّها بإطالة ألسنة الناس على العبدين الصـالحين «يـا نسـاء النبىِّ مَن يأتِ منكن بفاحشة مبيِّنة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلک على اللّه يسيرا».[2]

وهكذا يكون دوما دور الكفر والخيانة الكافرة، ان لا يبررها ولا يغنى عنهـا مـن اللّـه شـىء، مهما كانت القرابات والأنساب والإتصالات لهم بالصالحين، كضابطة عامة لا تسد، فالنجسـة الأخلاق والنحسة، لا يطهرها بيت النبوة، إلا قدر ما تأخذ مـن طهارتهـا، كمـا وأن الطـاهرة الزكية لا يدنسها بيت الكفر والفرعنة، بل وبالإمكان أن تمثل أهل بيت النبوة:

«وَضَرَبَ اللّه مَثَلاً لِلَّذينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِى عِنْدَکَ بَيْتا فِى الْجَنَّة وَنَجِّنِـى مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِى مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»:[3]

هنا تتقدم امرأة فرعون على مريم أُم المسيح، لا لسبق زمنى فحسب، بل ولكى يدلنا أن امومة المسيح واخوة هارون وبنوة عمران لا تغنى عنها شيئا، وإنما هـى تقـوى اللّـه تغنـى، فـامرأة فرعون متحللة نسبيا وسببيا عن كل ذلک، ولكنها بتقواها فى جوِّ الطغوى تستحلُّ مكانة عليـا، لحدِّ تقدُّمها فى الذكر على مريم عليهاالسلام.

---

[1]. الدر المنثور ـ أخرجه ابن عساكر عن اشرس الخراساني يرفعه إلى النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله...

[2]. ٣٣: ٣٠.

[3]. ٦٦: ١١.

أظنها الإمرأة الوحيدة، فی مملكة عريضة، عند أعظم ملوک الأرض وأقواهم وأطغـاهم، فـی قصر عديم النظير، تجد فيه المرأة كل ما تشتهيه، فهی فی هذه الأوساط الكافرة، تحت ضغط الملک والحاشية والبلاط، وضغط المجتمع السامّ، فی خضمِّ هـذه الظلمـات الطاغيـة... إنهـا وحدها ترفضها كلها وتعتبرها سجنا وشرّا ونحسا تستعيذ باللّه منها.

تطلب من اللّه تعالی أن يبنی لها بيد الألوهية بيتا فی الجنـة يعوضـها بـه عـن قصـرها، وأن ينجيها من شرّ الطاغية (فرعون) وهی ألصق الناس به! ومن عمله، وهی تعيش تحت رحمتـه! ومن آله وأتباعه: «ونجِّنی من القوم الظالمين»!.

وإنها لنموذج عالٍ فی الإستعلاء علی عَرَض الحياة وزَهرتهـا فـی أجمـل صـورة وأزهرهـا، والتجرُّد للّه من كافة الجواذب المتخلفة، والهواتف المضللة، والمعوقـات القويـة، ولتسـمح لنفسها أن تطلبه هذا الطلب العظيم:

«ربِّ ابنِ لی عندک بيتا فی الجنة»: ف «ربِّ» توحی باختصاصها بتربية خاصة إلهيـة تنجيهـا عن هذه الورطة المهلكة، و«ابنِ لی» رفض لكل عامر ملائكی وسواه الـی معمـار الكـون أن يبنی لها بيتا بمشيئته دون وسائط، و«عندک» لا تعنی عندية مكانية فانه تعالی ليس لـه مكـان، إنما عندية المكانة أن يبنی بيتها فی أرفع مكان وأعلی مكانة فی الجنة حيث مسكن الأنبياء!.

ثم تطلب النجاة المثلث من: «فرعون» الجاهل «وعمله» الباطل و«من القوم الظالمين» الباطلين الجاهلين.

ومتی تطلب؟ هل بعد أن تأخذها الورطة الفرعونية الـی حزبـه؟ فكيـف طلبـت أولاً أقـرب لأقربين! كلا! إنما تطلب نجاتها بالنزوح عن هذا الجو الطـائش الـی جـوار رحمـة اللّـه، أن يقبضها اللّه إليه، وقد كانت فی اللحظات الأخيرة من حياتها تحت مختلـف ألـوان العـذاب الفرعونی، ومنها انه (وتدَ لامرأته أربعة أوتاد فی يديها ورجليها وأضجعها علی صدرها جعل علی صدرها رحی واستقبل بها عين الشمس، فكانوا إذا فرقوا عنها أظلَّتها الملائكة، فرفعـت رأسها الی السماء فقالت: «رب ابن لی عندک بيتا فی الجنة ـ الی ـ الظـالمين» فكشـف لهـا

عن بيتها فى الجنة فرأته).[1]

«وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنْ الْقَانِتِينَ»[2]

رغم أن القرآن لا يذكر امرأة باسمها، يردد ذكر مريم عليهاالسلام أربع وثلاثين مرة، تكريما لها، وذودا عن كرامتها التى مُسَّت بتُهَم اليهود، وتدليلاً على أن المسيح عليه‌السلام وُلد دون أب «عيسى بن مريم» مما لم تجتمع من غيرها من النساء مهما كانت البعض منهن أفضل منها كفاطمة عليهاالسلام، فان الأخيرين دافعان مستقلان لذكرها، وليسا من الفضائل الهامة للمرأة، وإنما إبراز معجزة إلهية ودفع تهمة إلتصقت بها عبر هذه المعجزة: (حَملها دون زوج يُعرف).

هذا، ولكن ترى كيف يذكر حفظ الفرج هنا وفى آية اخرى فى عداد فضائلها، ويفرَّع عليه نفخ الروح فيه، كما هنا، وفيها كما فى الاخرى: «والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا»[3] مع أن حفظه لا يختص بها، وأنه من اوّليات واجبات الإيمان؟ ثم تُرى، ما هو المنفوخ فيها وفى فرجهاأ وماذا حملت فى هذا النفخ؟ أروح المسيح، أم هى مع جسمه، أم نطفة الرجولية مع الروح، أم ماذا؟..

فهل إن ذكر إحصان الفرج لدفع تهمة اليهود الفاجرة «وقولهم على مريم بهتانا عظيما»[4] «يا أُخت هارون ما كان أبوكِ امرَ سَوْءٍ وما كانت أُمكِ بغيا»؟[5] ولدفع اختلاق النصارى لها عشيقا خطيبا هو يوسف النجار، لتخفيف وطأة التهمة؟ فهذا وذاک وإن كانا من الدوافع لذكره، ولكن لا يتفرغ على إحصان الفرج ـ هذا ـ أن ينفخ فيه من روح اللّه!.

أو ولأنها كانت معرَّضة للحملة الجنسية، ولجمالها، وأنها نذرت لخدمة البيت فكانت فيه ليل

---

[1]. الدر المنثور ٦: ٢٤٦ ـ أخرجه من عدة طرق عن عدة من الأصحاب والتابعين.

[2]. ٦٦: ١٢.

[3]. ٢١: ٩١.

[4]. ٤: ١٥٦.

[5]. ١٩: ٢٨.

نهار، ولكنها غلبت على مختلف النوازع والعراقيل قانتة مجاهدة رافصة للجنس حرامه وحلاله، ولأنه ينافى وحريتها فى خدمة البيت، وقد نذرت أُمها ما فى بطنها محررا: «فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أُنثى.. وإنى سمّيتها مريم وإنى أُعيذها بك وذرِّيتها من الشيطان الرجيم. فتقبَّلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا..»:[1] تقبَّلها ربها مريم كما سميت وهى: الغالبة، وتقبّل إعاذتها وذرِّيتها من الشيطان الرجيم، فهى إذا غالبة معوَّذة من الشيطان عند اللّه، ونابتة نباتا حسنا عند اللّه، ومن غلبتها التغلب على النوازع الجنسية وجواذبها وهى فى عنفوانها، وهى بمعرض مختلف الرجال فى بيت اللّه ليل نهار، فهذا الإحصان مما يتطلب إحسانا عاليا لها من اللّه المنّان ومن أحسنه أن نفخ فى محل الإحصان روحا منه، فقد جمع الى الدافعين الأولين لذكر الإحصان فى هذا الثالث فاكتمل لها مثلث الإحصان فاختصت بكامل الإحسان أن أصحبحت أُم السيد المسيح عليه‌السلام، ثم وعلى حدِّ المروى عن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله سوف تكون من أزواجه صلى‌الله‌عليه‌وآله فى الجنة.[2]

ثم وماذا حملت؟ فطالما الآية الاخرى «.. فنفخنا فيها من روحنا» أجملت عن مدخل الحمل، فآيتنا «فنفخنا فيه من روحنا» تصريحة ان مدخله الفرج لمكان ذكورة الضمير «ه» فالمرجع إذا «فرجها» لا هى نفسها، ولا جيبها، رغم ما حاوله جمع، فانه كلام فارغ، لأنها أحصنت فرجها، لا جيبها، والروح نفخت فى فرجها، لا فرج جيبها!.

فمن كون الآلة التناسلية النسائية هى المنفخ المدخل هنا لروحٍ من اللّه نتعرف الى كيان هذه الروح وهذا اللقاح، أن ناب لقاحَ الرجل دون رجلٍ، فلم يكن حملها المسيح بمقاربة كالعادة، بل بالنفخ والإلقاء الإلهيين فى فرجها، فان المسيح وهو الروح والكلمة الملقاة الى مريم «إنما المسيح عيسى بن مريم رسول اللّه وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه»[3] فالروح

---

[1]. ۳: ۳۷.

[2]. الدر المنثور ٦: ٢٤٩ ـ أخرج الطبراني عن سعد بن جنادة قال قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: إن الله زوجني في الجنة مريم بنت عمران وامرأة فرعون وأخت موسى.
أقول: وهذا لا ينافي بقاء بعض أزواجه مثل خديجة في زواجه صلى‌الله‌عليه‌وآله إذ لا تحتاج الى زواج جديد.

[3]. ٤: ١٧.

نفخت من المجرى التناسلى، مما يدلُّ على كونها جسما مًّا، وعلَّها كانت مع النطفة الرجولية المعبر عنها بالكلمة الملقاة، فبالإقاء هذا تمكنت النطفة إلى عمق الرحم فتزاوجت مع النطفة الانوثية، فأصبحتا جنينا، ثم انضمت إليها الروح فها هو المسيح عيسى ابن مريم عليه‌السلام.

ثم الروح هذه كسائر الأرواح الإنسانية فى الجوهر وأنها مخلوقة، وإضافتها الى اللّه «روحنا» تشريفية تشرفها وتفضلها على كثير من الأرواح، وليست جنسية تعنى أنها جزء من اللّه او من روحه، وكما الروح المنفوخة فى آدم تملك هذه النسبة «فإذا سوَّيته ونفخت فيه من روحى»[1] مما يفضل روح آدم على غيره، وكذلك المنفوخة فى بنى آدم كلهم: «ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة».[2]

فأرواح بنى آدم تمتاز عن غيرهم من ذوى الأرواح كما هنا، وأرواح المؤمنين منهم تمتاز علس سواهم (٥٨: ٢٢) وأرواح النبيين على سواهم (٤٠: ١٥) والمسيح على غيره (٤: ١٧١) ثم روح خاتم النبيين تمتاز على الأرواح كلها (٤٢: ٥٢)، فالإضافة الى اللّه فيها كلها تشريفية لا تعنى أنها بعض من ذات اللّه! وسبحان اللّه!.

وقد وافيناكم بتفصيل هذا الحمل المبارك فى طيّات آياتها المفصلة كالسورة المسماة باسم مريم عليهاالسلام.

ثم الآية تبيِّن بعد فضيلة الإحصان، تصديقها بكلمات ربها وكتبه، وأنها كانت من القانتين: المطيعين، وتذكير الضمير فى «القانتين» دون «القانتات» تذكير لنا أن القنوت فى الرجل يتغلب على ما فى النساء عِدةً وعُدةً، فكان من الأفضل أن تعد فى قنوتها من عداد الرجال، رجولة فى قنوطا وبطولة فى تصديقها.

* * *

---

[1]. ١٥: ٢٩.

[2]. ٣٢: ٩.

كونوا مع الصادقين اشخاصا وجماعات

فى عبادات وسياسات

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّه وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.[1]

الصادقون هنا هم الصادقون فى إيمانهم بأيمانهم وسواها من قالاتهم وحالاتهم وفعالاتهم، ف «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه..» صدقا طليقا حقيقا بصالح الإيمان.

فالكون مع الصادقين فى كينونة الصدق هو من معارج تقوى اللّه، وهنا مدارج ثلاث: «آمنوا ـ اتقوا اللّه ـ كونوا مع الصادقين» فمن كمال الإيمان هو تقوى اللّه عمليا كما آمنتم لفظيا وقلبيا، تقوىً عن كل ما لا يرضاه اللّه، ثم من كمال التقوى هو الكون مع الصادقين[2] وهم أئمة المؤمنين المتقين الصادقين، فهم ـ لأكمل مصداق ـ أئمة الدين[3] وكما تظافر به

---

[1]. ٩: ١١٩.

[2]. في الدر المنثور ٣: ٢٩٠ عن ابن مسعود قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وان البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى كتب عند اللّه صديقا وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند اللّه كذابا» وفيه عن أسماء بنت يزيد أن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله خطب فقال: ما يحملكم على أن تتبايعوا على الكذب كما يتتابع الفراش في النار كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب في خديعة حرب أو إصلاح بين اثنين أو رجل يحدث امرأته ليرضيها، وعن أبي بكر أن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: الكذب مجانب للإيمان، وعن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: يطبع المؤمن على كل شيء إلا الخيانة والكذب، وعن أبي برزة عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: الكذب يسود الوجه والنميمة عذاب القبر، وعن أسماء بنت عميس قالت كنت صاحبة عائشة التي هيأتها فأدخلتها على النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله في نسوة فما وجدنا عنده قرى الأقداح من لبن فتناوله فشرب منه ثم اوله عائشة فاستحيت منه فقلت: لا تردي يد رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فأخذته فشربته ثم قال: ناولي صواحبك فقلت لا نشتهيه فقال: لا تجمعن كذبا وجوعا فقلت إن قالت إحدانا لشيءٍ تشتهيه لا نشتهي أيعد ذلك كذبا فقال: إن الكذب يكتب كذبا حتى الكذيبة تكتب كذيبة، وعن الحسن بن علي عليهما‌السلام سمعت رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله يقول: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة وإن الكذب ريبة، وعن ابن عباس قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: في خطبته: إن أعظم الخطيئة عند اللّه اللسان الكاذب ذلك ومن طرائق الإلتزام بالصدق ما يروي أن واحدا جاء إلى النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله وقال: إني رجل أريد أن أؤمن بك إلا أني أحب الخمر والزنا والسرقة والكذب والناس يقولون إنك تحرم هذه الأشياء ولا طاقة لي على تركها بأسرها فإن قنعت مني بترك واحد منها آمنت بك فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله: أترك الكذب فقبل ذلك ثم أسلم فلما خرج من عند النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله عرضوا عليه الخمر فقال: إن شربت وسألني الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله عن شربها وكذبت فقد نقضت العهد، وإن صدقت أقام الحد علي فتركها ثم عرضوا عليه الزنا فجاء ذلك الخاطر فتركه وكذا السرقة فعاد إلى رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله وقال: ما أحسن ما فعلت لما منعتني عن الكذب انسدت أبواب المعاصي علي وتاب عن الكل.

[3]. الدر المنثور ٣: ٢٩٠ ـ أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: مع علي بن أبي طالب عليه‌السلام وأخرج ابن عساكر عن أبي جعفر مثله.

الحديث نفسه، ولا يحفظوا منهجهم فيالمواطن التى تحضر فيها نهجه، إقتداءً به وإتباعا لأثره.

ذلک، وهم الذين تبنَّوا هذه الحركة المباركة الإسلامية بمناصرة المهاجرين، فهم أهلوها الأقربون، فهم بها ولها ولهذا الدين الجديد كأس وأثافى، فقد آووا رسول اللّه صلىاللهعليهوآلهونصروه وعزروه واتبعوا النور الذى أنزل معه، فباتوا يمثلون القاعدة الصلبة الرصينة المتينة للإسلام فى الجزيرة كلها، وإلى كل المعمورة، وكذلک القبائل الضاربة من حول المدينة منذ أسلمت وباتت تؤلف الحزام الخارجى للقاعدة، فهؤلاء وهؤلاء ليس لهم أن يتخلفوا عن رسول اللّه صلىاللهعليهوآله ولا أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه فى صلاح الإسلام ودولته.

ذلک، ولكنه ليس يختص بهم حيث التكاليف الإيمانية عامة لا تختص بفريق دون آخرين.

فقد تحلق طاعة الرسول صلىاللهعليهوآله فيما يفعل أو يقول، والرغبة فيه، تحلقان على كل عصر ومصر من ساكنى القصور إلى ساكنى الأكواخ، حيث التكليف رسالى تعم كل زمان ومكان وأيا كان من المكلفين إلى يوم الدين وأيان.

ولقد كان الرسول صلىاللهعليهوآله يقود الأمة إلى كل خير وهو السبَّاق إليه، ومن قوله فى السرايا التى كان يتركها: «والذى بعثنى بالحق لولا ضعفاء الناس ما كانت سرية إلا كنت فيها».[1]

ذلک، ولا يعنى التخلُّف عن رسول اللّه إلاَّ التخلف عن أمره، فإذا نهى عن الخروج معه كان الخروج معه تخلفا عنه، كما أن عدم الخروج معه حين يأمر به تخلف عنه.

ثم «لا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه» تعنى لا تحجبهم أنفسهم بمشتهياتها ورغباتها أن يرغبوا لها عنه صلىاللهعليهوآله فالباء هنا للسببية والمصاحبة: لا تكن أنفسهم سببا للرغبة عنه ولا مصاحبة لها، بل عليهم أن يقدِّموا رغباته على رغباتهم ف «من يطع الرسول فقد أطاع اللّه».

وليست الآية لتأمر بالقتال معه صلىاللهعليهوآله وإنما الإئتمار بأمره صلىاللهعليهوآله مهما كان قعودا، كما للقاصرين والعُجَّز وغير المحتاج إلى حضورهم، أم خروجا وهو لقدر الكفاءة، فلا تنافى آية النفر ـ التالية ـ حتى تنسخ بها.

هذا، وذلک التأليب والتأبيب بمن يتخلف عن رسول اللّه أو يرغب بنفسه عن نفسه، وذلک

---

[1]. الدر المنثور ٣: ٢٩٢ ـ أخرج ابن أبي حاتم من طريق عمرو بن مالك عن أصحاب رسول اللّه صلىاللهعليهوآله قال: لما نزلت هذه الآية «ما كان لأهل المدينة..» قال رسول اللّه صلىاللهعليهوآله:..

التشجيع بطاعته وولايته الطليقة، كل ذلک يرجع إلى صالحهم أنفسهم كمؤمنين بهذا الـدين، ف:

«ذلک بأنهم لا يصيبهم ١ ـ ظمأ ولا ٢ ـ نصـب ولا ٣ ـ مخمصـة فـى سـبيل اللّـه ٤ ـ ولا بطاءون موطئا يغيظ الكفار ٥ ـ ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صـالح إن اللّـه لا يضيع أجر المحسنين».

فظماً فى سبيل اللّه فى الهاجرة الحارقة، ونَصَب فى سبيل اللّـه تعبـا ناصـبا، ومخمصـة فـى سبيل اللّه جوعا مُدقعا، وطأة فى سبيل اللّه موطئا يغيظ الكفار، ونيلا من عدو اللّه فـى سـبيل اللّه فى نفس أو نفيس، كلٌّ «كتب لهم به عمل صالح» فى مخمَّسه.

ومن ثم «٦ ـ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة» فى سبيل اللّـه «٧ ـ ولا يقطعـون وايـا» فـى سبيل اللّه «إلا كتب لهم» به عمل صالح «ليجزيهم اللّه» بهذه الوفرة الغالية «أحسن مـا كـانوا يعملون» وهو هنا هذه السبعة المباركة لهؤلاء السالكين إلى اللّه.

ولقد أثر ذلک البلاغ البالغ فى قسم من المؤمنين لحد عزموا على وليس، وقد يعدو ـ إضـافة إلى ذلک ـ أن أهل الكتاب غير داخلين فى «اقتلـوا» وهـم تـاركوا الصـلاة والزكـوة وكـل الواجبات الإسلامية؟ فكيف يقتل المسلم لتركه إياهما؟.

ولكن المرجو من المسلم غير المرجو من غيره كتابيا وسواه، إلا أنـا نجـدد السـؤال بالنسـبة لمن هو مسلم يقيم الصلاة ويؤتى الزكوة ثم يتركهما فهل يقتل بـذلک؟ ودون إثباتـه خـرط القتاد!.

ذلک، وقد يعنى «وأقاموا الصلاة وآتوا الزكـوة» بعـد أن «تـابوا» الإعتقـاد بوجـوب الصـلاة والزكوة، ثم وتطبيقهما دليل ذلک الإعتقاد، فالذى يتوب عن الإشراک ثم لا يقيم الصـلاة ولا يؤتى الزكوة، لا يُعلم منه أنه ـ حقا ـ تاب، إذ ليست لفظة التوبة هى التوبة، إنما هى الرجـوع عن عقيدة الإشراک، ثم يُعلم ذلک الرجوع بإمارة هامة لتلک العقيدة هى إقام الصـلاة وإيتـاء الزكوة كرأسين أصليين لزوايا الإيمان عمليا.

فقصارى المستفاد من الآية وجوب قتال المشركين، ومن تاب عن إشـراكه هـو خـارج عـن «المشركين» فلا قتل إياه، ثم «فخلوا سـبيلهم» المشـروط «بإقـام الصـلاة وإيتـاء الزكـوة» لا

يختص بالتخلية من قتلهم، بل وسائر المذكورات معه ک «خذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد» فهذه الثلاثة الأخيرة هى أعم فى التائب التارک للصلاة والزكوة، من القتل، فيستثنى القتل لخروجه عن الإشراک، ويبقى الباقى لترک العمودين، حيث المفروض أخذ تاركهما بكل مأخذ وحصره وقعود كل مرصد له حتى يقيم الصلاة ويؤتى الزكوة، فإنَّ «خلوا سبيلهم» تعنى تحريرهم عن كل ما ذكر، فلم يقل «لا تقتلوهم» حتى تختص التخلية بترک قتلهم، إنما هو تحريرهم طليقا، وليس يحرَّر طليقا تارک الصلاة والزكوة أيا كان.

ثم وهذا النص قصاراه أنه كان يواجه واقعا متميزا فى مشركى الجزيرة يومذاک، فما كان أحدهم ليعلن توبته ويقيم الصلاة ويؤتى الزكاة إلا وهو يعنى الإيمان بالإسلام كله، إذا فالتارک لهذين العمودين ـ حينذاک ـ مع ظاهرة التوبة، لم يک يعرف منه صالح التوبة، فقد يكون نفاقا أم وفاقا غير صالح.

إذا فالأشبه أن ترک الصلاة والزكوة دون هذه الملابسات التى تدل على نكرانهما لا يبرِّر قتل تاركهما على أية حال، وما يروى من قتال تاركى الصلاة والزكاة محمول على مواضع النكران لهما، دون تركهما على إيمان وتصديق تساهلاً فيهما وتكاهلاً.

ذلک، ثم المشركون الأفراد الذين لا يجمعهم تجمع جاهلى تصديا للإسلام وتعرضا بأهله قتلاً أم إضلال، لا يتصدى لهم الإسلام حرب إبادة، بل ويكفل لهم الأمن ترغيبا لهم ليسمعوا كلام اللّه ثم يُبلَغوا مأمنهم تروِّيا يمنعهم عن التردى، وكما يأمر اللّه سبحانه رسوله بمثل الأمر التالى:

«وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَکَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّه ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِکَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ».[1]

هنا إستجارة المشرک المرفوع عنه الأمان عند الملاحقة للقتال هى موضوع لواجب الإجارة، لا فحسب، بل و«حتى يسمع كلام اللّه» حيث الإستجارة قد تلمح بأنه متجرٍّ عن الحق المُرام، ولا فحسب أيضا بل «ثم أبلغه مأمنه» عند أهليه ورَبعه، وطبعا فى غير المعسكر المعادى فإنه

[1]. ٩: ٦.

ليس مأمنا، و«ذلک» المثلث من الرحمة الرحيمة للمشركين المستجيرين «بأنهم قوم لا يعلمون» فعن جهل هم مشركون وان كان جهلاً مقصِّرا، والجهل القاصر المطلق لا يتصور فی الإشراک باللّه ولذلک «إن اللّه لا يغفر أن يشرک به ويغفر ما دون ذلک لمن يشاء»[1] ثم الجهالة العامدة ممن «جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا» غير مغفور هناک ولا معذور هنا فلا يشمله «إستجارک» حيث الإجارة هنا إجارة لعاند عامد لا يرجی منه خير، اللّهم إلاّ إذا احتمل خيره أم ـ ولأقل تقدير ـ دفع شره، فهو أيضا داخل فی الإجارة.

وحين تجب إجارة أحد من المشركين عند إستجارته، فبأحری إستجارة المجموعة الشركية، ولأن «إستجارک» طليقة، فكذلک «أجره حتی يسمع كلام اللّه ثم أبلغه ما منه».

فلا تفتكر أنه قد يخدعک باستجارتک كاذبا فلا تأجره، بل تأسره، اللّهم إلاّ بأكيد الكيد الخطِر اللعين المكين، حيث يعنی خطرا علی الصف المسلم، فالأصل ـ إذا ـ هو الإجارة بالإستجارة، إلا فيما يستثنی حفاظا علی الأهم من صالح المجموعة المسلمة.

ولكن «أحدٌ من المشركين» أيا كان، وهو فی إجارة قيادة القوات المسلحة، لا يخشی منه خطرٌ علی فرد فضلاً عن المجموعة، فلكی تكون حجة الحق هی العليا قد نجيره لمَّا يستجير، آمنين عن كيده وميده، ثم «أبلغه مأمنه» حيث الموضوع هو طليق الإستجارة فله طليق الإجارة وإبلاغ المأمن.

ذلک، فاحتمال أن أحدا من المشركين يستجير لكی يستنير يمنع عن ملاحقته، حيث القص منها دفع نائرة الفتنة القاطعة، فحين يرجی زوالها جرا إلی الإيمان والرحمة فلماذا بعدُ استمرار الملاحقة،[2] بل وإذا لا نحتمل فعلَّ الواقع الخارج عن الإحتمال يحتمل تحرِّيه أو تنبهُّه، بل وإذا نتأكد ألاّ خير فيه ولا شرَّ.

وهنا «حتی يسمع كلام اللّه» قد تفسر المعنی من هذه الإستجارة أنها تقصد التحری عن الحق

---

[1]. ٤: ٤٨.

[2]. في تفسير الفخر الرازي ١٥: ٢٢٦ نقل عن ابن عباس انه قال: إن رجلاً من المشركين قال لعلي بن أبي طالب عليه‌السلام: إن أردنا أن نأتي الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله بعد انقضاء هذا الأجل لسماع كلام اللّه أو لحاجة أخرى فهل نقتل؟ فقال علي عليه‌السلام: لا ـ إن اللّه يقول: «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره..».

المُرام، ولكن «حتى يسمع» ليس جزاءً للشرط، إنما هو من الغايات الصالحة للجزاء.

ثم إذا يسمع كلام اللّه لا ينتظر منه فورُ الإيمان، بل «ثم أبلغه مأمنه» ليجيد التفكر ويعيد النظر إجالة له دون عُجالة حتى يرتكن الإيمان فى قلبه، وهذه العناية الأدبية هى غاية ما يمكن رعايته منها، تحريا عن مواضع الإسترشاد فالرشاد، دون رفض للمستجير زعم أنه كاذب أو محتال، فالأصل ـ على حائطه ـ صدق المستجير، ما فيه محتَمله «فأجره حتى يسمع كلام اللّه».

وهل هذه الإجارة تختص بالرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله؟ أم ومن يخلفه فى القيادة الحربية؟ أم تعم كل المؤمنين المحاربين حتى تكون الإجارة صالحة لا تحمل خطرا على جيش الإسلام.

«أجره» بعد خطابات جامعة تصلح خطابا لكل فرد فرد من المؤمنين وكما يروى عن النبى صلى‌الله‌عليه‌وآله قوله: «من استجاركم فأجيروه»[1] و«يجير على المسلمين أدناهم»[2] حتى «النساء والعبيد».[3]

وهنا «كلام اللّه» الطليق فى صيغته، لا يعنى طليقا منه فى محتواه، إنما هو «كلام اللّه» الذى يهديه هديا صالحا إلى اللّه، فتلاوة آيات الطلاق والعدة وما أشبه ليست لتنفع المشرك، إنما هى الآيات المبرهنة لتوحيد اللّه وصدق هذه الرسالة، حاملة الحكمة والموعظة الحسنة، فإن لكلٍّ مجال مقالاً ولكل مقال مجالٌ.

فقد خصصت هذه الآية ـ آيةً: «أقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» وخصتها بالمعاندين الذين ليسوا ليسمعوا كلام اللّه تحريا عن الحق، فإنما هم فاتنون ضالون مضللون صادُّون عن سبيل اللّه حيث يبغونها عوجا، ولأن الفتنة أكبر وأشد من القتل ف «قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين للّه»[4] وعلى ضوء هذه الآية تعرف الحقائق التالية:

---

[1]. مفتاح كنوز السنة نقلا عن حم ـ ثان ص ٩٩.

[2]. المصدر عن حم ـ ثان ص ٢١٥ و٣٦٥، رابع ص ١٩٧، خامس ص ٢٥٠، هش ـ ص ٤٦٩، قد ـ ص ٣٣٩.

[3]. المصدر بعنوان «إجارة النساء والعبيد» عن بخ ـ ك ٥٨ ب ٩، بد ـ ك ١٥ ب ١٥٥، تر ـ ك ١٩ ب ٢٦، مى ـ ك ١٧ ب ٥٨، عد ـ ج ٨ ص ٢١.

[4]. ٢: ١٩٣.

١ ـ السمع الصالح لكلام اللّه للتحرى عن الحق يكفى حجة للحق، مما يدل على حجة القرآن البالغة، الدالة على ربانية آياته، وأنها دون أى مساعد آخر يُرشد السالكين المتحرين عن الحق إليه، فقيلة أن القرآن لا يُفهم إلاّ بدلالة وتفسير السنة كأصل، إنها غيلة وحيلة على القرآن الذى هو بيان للناس، ولأن المعدات والقابليات مختلفة فعلى القيادة الحربية إسماعه كلام اللّه لحدّ يُقنعه تماما دون أى خفاء لكيلا يبقى له عذر فى رفض الحق.

٢ ـ الإستجارة لسمع الحق تفرض على أهله عندها الإجارة الصالحة له، وإتاحة الفرصة بعده حتى يتروى فيما سمع ـ كما تشير له «ثم» المراخية لإبلاغه مأمنه ـ مما يبرهن على أن معرفة أصول الدين ليست إلاّ بالإجتهاد قدر الجهد والإمكانية الذاتية، ثم الإستعانة الإستجارة بمن يعرف الحق بصورة مقنعة، فلا تعنى الإستجارة هنا فقط فسح المجال بين المستجير وبين سماع كلام اللّه لمكان القصور الذاتى أو الحالى للبعض من المستجيرين، فعلى أهل اللّه أن يبينوا كلام اللّه قدر ما يقنع المستجير.

٣ ـ وبطبيعة الحال لا تعنى «حتى يسمع كلام اللّه» مجرد السماع لمجرد الكلام وإن لم يفهم معناه ومغزاه كالذى لا يعرف لغة القرآن، أو يعرفها ولكنه لا يعرف مغازى الكلام لحد تنتجه صالح النتيجة.

٤ ـ ولأن هذه الآية تحمل فرضا فطريا عقليا صالحا للدعوة الربانية الصالحة التى لا مرد لها ولا حِوَل عنها، لذلک فلا تتحمل النسخ حيث «لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى» ولا ملاحقة قبل بيان الحجة وتمامها، فليست أمثال «قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة» مما تنسخ هذه الآية.

٥ ـ ولأن الخطاب هنا يخص الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله فى «إستجارک فأجره» فقد نتلمح قرن البيان الرسولى إلى بيان القرآن، الرسالى، ولمكان «وأنذر بالقرآن من يخاف وعيد» مما يفرض المحاولة الصالحة المقنعة لكامل السمع لكلام اللّه، دون مجرد الكلام أيًا كان ومن أىّ كان مهما يحمل كل القرآن، إنما هو «وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغا» يبلغ إلى شغاف أنفسهم، فعلى قيادة الجيش الإسلامى هذه الرعاية الشاملة الكاملة الكافلة لإسماع حجة الحق على ضوء كلام اللّه.

٦ ـ ولأن «استجارک» تفرض السماح لسماع كلام اللّه، فكذلک فى بدء القتال والملاحقة من المفروض الدعاء الحق قبله بما يُقنع ثم القتال، ف «إن أحد المشركين» الـذين لـم يسـمعوا إلى كلام اللّه، أم سمعوا والتهوا، أم على أية حـال لـم يقتنعـوا أم تمنَّعـوا عـن سـماعه ثـم استجاروا «فأجره..» حيث القصد من القتال توجيههم إلى اللّه بداية أم نهاية وعلى أية حـال، ف «لا يجر منكم شنآن قوم على ألاَّ تعدلوا ءعدلوا هو أقرب للتقوى».

ذلک، فمجرد إحتمال أن المشرک فى طريق التحـرى، لـيس فقـط ليحـرم ملاحقتـه قـتلاً أو حصرا، بل ويسمح للإستغفار له وكما فعله إبراهيم لمـا سـمع آزر يقـول «واهجرنـى مليـا» فاستفاد من ذلک أنه يعنى مهلة للتفكير فاسـتغفر لـه، ف «مـا كـان للنبـى والـذين آمنـوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعدما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم. وما كـان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين أنه عدو للّه تبرء منه..»[1]

ذلک، وهل تختص هذه الإستجارة بما تعنى سماع كلام اللّه لمكان «حتى يسمع كلام اللّـه»؟ طليق «استجارک» يطلقها إلى غير هذا المعنى، فقد يعنى ذلک الإطلاق اغتنام الفرصة فى هذا المجال لإسماعه كلام اللّه، حيث الإضطرار يحمل الناكر للحق أيـا كـان ليسـمع كـلام اللّـه حفاظا على صالحه المقصود من إستجارته، فإذا سمع كلام اللّه سمعَ التـدبر لا الإدبـار «ثـم أبلغه مأمنه» إذ لا يُعنى من «يسمع» إلاّ سمع التفكر والإهتداء دون سواه مِـن سـمعٍ لا يغنـى سامعه شيئا حيث لا يعنى الاستنارة به.

فالمشرک المستجير عند الملاحقة يُجار على أية حال «حتى يسمع كلام اللّه» سـواءٌ أكانـت استجارته لذلک أم لسواه، فإنما القصد هنا «المتفقه فى الدين أشد على الشـيطان مـن ألـف عابد»[2] و«لكل شيءٍ عماد، وعماد هذا الدين الفقه».[3]

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنْ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللّـه مَـعَ

---

[1]. ٩: ١١٤.

[2]. المصدر ٢٤٥ غوالي اللئالي قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله:..

[3]. المصدر ٢٤٥ بصائر الدرجات عن أبي جعفر عليه‌السلام.

الْمُتَّقِينَ».[١]

صحيح أن «قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله للّه»[٢] تعم الذين يلونكم والبعيدين عنكم، إلاَّ أن القدر المستطاع قبل قيام صاحب الإمر بالدولة الإسلامية العالمية، ليس المستطاع قبله إلا قتال الذين يلونكم[٣] وكما الإنذار والدعاية الإسلامة آخذان فى خطواتهما من الأقربين الملاصقين، كذلک القتال، فهما الحد الأدنى والخطوة الأولى من الناحيتين السلبية والإيجابية الممثلة لكلمة التوحيد، سلبا للكفر وإيجابا للإيمان.

ذلک «وليجدوا فيكم غلظة» تحذروهم ـ أولاء وسواهم من الكفار ـ عن النيل منكم، فلا بد للمؤمنين إضافة إلى واقع القتال قوة إرهابية عادلة ترهب أعداء اللّه: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة..»[٤] ثم «واعلموا أن اللّه مع المتقين» فى القتال والغلظة، إتقاءً عن الإفراط والتفريط، مشيا على معتدَل الجادة فى سبيل اللّه كما أمر اللّه، وبصورة جادة.

فحين تشكَّل دولة إسلامية بغياب صاحب الأمر عجل اللّه تعالى فرجه الشريف، فلا عليها ولا لها إلاَّ أن تقاتل جيرانها الأقربين من الكفار المقاتلين المفسدين، إتقاءً عن التجاوز عنهم إلى الآخرين، حيث الكفر ملة واحدة، فقد يجنِّد جنوده دفعة واحدة وحملة فاردة لاجتثاث الدوالة الإسلامية التى غاية قوتها الحفاظ على نفسها من بأس الذين يلونهم من الكفار.

ذلک، ولأن «الذين آمنوا» لا تختص بالدولة الإسلامية، وهم مبعثرون فى المعمورة، فعليهم القتال الدائب قدر المستطاع بصورة متواصلة سوما للعذاب على الكفار المفسدين الخَطِرين عليهم، حتى تُعبَّد الطريق لدولة المهدى عليه‌السلام العالمية.

---

[١]. ٩: ١٢٣.

[٢]. ٨: ٣٩.

[٣]. نور الثقلين ٢: ٢٨٥ في تفسير القمي في الآية قال: يجب على كل قوم أن يقاتلوا ممن يليهم ممن يقرب من بلاءهم ولا يجوزوا ذلك الموضع ـ.
وفي الدر المنثور ٣: ٢٩٣ ـ أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن جعفر بن محمد عليهما‌السلام انه سئل عن قتال الديلم فقال: قاتلوهم فإنهم من الذين قال اللّه تعالى: قاتلوا الذين يلونكم من الكفار، وفيه ابن مردويه عن ابن عمر انه سئل عن غزو الديلم فقال سمعت رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله يقول: «قاتلوا الذين يلونكم من الكفار» قال: الروم.

[٤]. ٨: ٦٠.

فهنالک للمجموعة المسلمة مثلث من الجهاد فی مثناه: دعائیا وحربیا، فالضلع الأوَّل «الذین یلونکم من الکفار» لکل دولة أو دویلة أو مجموعة أو منظمة إسلامیة سلیمة، والثانی أن تتعاون کافة المجموعات الإسلامیة فی شتی أنحاء المعمورة، مترابطین مع بعضهم البعض ومرابطین وکما قال اللّه تعالی: «وإذ تأذن ربکم لیبعثن علیهم إلی یوم القیامة من یسومهم سوء العذاب..» والثالث والأخیر ـ وهو من حصائل ذلک الجهاد الإسلامی المتکافل وفصائله ـ هو تأسیس الدولة الإسلامیة العالمیة بقیادة صاحب الأمر وولی العصر حجة بن الحسن العسکری عجل اللّه تعالی فرجه وسهل مخرج، وأما الحرب الباردة الدعائیة فلا حد لها إلا کافة الدعایات الکافرة، أن نحاربها بألسنتنا وأقلامنا.

وقیلة القائل الغائل إنها منسوخة ب «قاتلوا المشرکین کافة» منسوخة بأن «کافة» هی وصف للمقاتلة المستفادة من «قاتلوا» فلتکن مقاتلة کافَّة بأسهم عن المسلمین، تکفهم عنهم وتجعلهم فی أمن منهم، فهم ـ إذا ـ «الذین یلونکم من الکفار» یلونکم جوارَ المکان والحدود الجغرافیة، أم ویلونکم جوار البأس مهما کانوا بعیدین، وهما لیسا إلاَّ قتال الدفاع، دون هجوم بدائی أیّا کان.

ولقد کانت سنة الحروب للقائد الرسولی صلی‌الله‌علیه‌وآله هکذا فی خطوات، من «أنذر عشیرتک الأقربین» فی العهد المکی حربا عقیدیة، تبنیا لأعضاء الدولة وأعضادها فی المدینة، وإلی حرب المشرکین المدنیین ثم المکیین ثم سائر الجزیرة وإلی الشام والروم، حیث الجمع بین کل الأعداء فی حرب واحدة منذ البدایة، إنسحاق لأصل الدعوة بمجموعتها الدینین، ما لم یفعله قائد القوات الرسولیة فی زمنه فضلاً عمن سواه!.

فلمحاربة الأعداء الأقربین، ولا سیما الدخلاء الداخلیین، تقدم حسب کل التکتیکات الحربیة، کما وهی أقل مؤنة وأکثر معونة وأوجب دفعا للخطر الحادق الحاذق.

ثم «الذین یلونکم من الکفار» إن کانوا أقویاء، کان تعرُّضهم لدار الإسلام أکثر وتبرزهم أخطر من البعیدین، فهم أولی بالدفع ممن سواهم، وإن کانوا ضعفاء کان إستیلاءهم علیهم أسهل، وإبقاءهم علی حالهم إشتغالاً بالبعیدین یخلق لهم مجالاً للإستعداد، وعلی أیة حال ف «لقد کان لکم فی رسول اللّه أسوة حسنة لمن کان یرجوا اللّه والیوم الآخر وذکر اللّه

كثيرا»[1] فقد إبتدأ فى كلا الغزو والدعوة بالأقربين، مراعيا سياسة الخطوة الخطوة حتى ملك الجزيرة بكاملها، ثم إلى غير الجزيرة من الروم وما أشبه، سنة سارت عليها الفتوحات الإسلامية. تواجه من يلون دار الإسلام مرحليا، فلما أسلمت الجزيرة أو كادت، ولم تبق إلا فلول منعزلة لا تؤلف طاقة خطرة بعد فتح مكة، كانت غزوة تبوك على أكناف الروم، ثم انساحت الجيوش الإسلامية إلى الروم وفارس إلى أن وحّدت الرقعة الإسلامية وتواصلت حدودها ببعضها البعض، فإذا هى كتلة ضخمة شاسعة الأرجاء، واسعة الأنحاء، متماسكة الأطراف، ثم لم تمزقها إلاً الحدود المختلفة المختَلقة المتخلّفة بين ديار الإسلام فأصبحت دويلات فشكلت ويلات على المسلمين أجمع.

ذلك، وترى «وليجدوا فيكم غلظة» تعنى الخشونة والفظاظة التى تنافى فى صالح الدعوة؟ إنها غلظة رهيبة فى القوات المسلحة وسائر الإستعدادات أمام المحاربين دون سائر الكفار فضلاً عن المؤمنين، فقد تعنى «غلظة» منكرةً، الغلظة التى لا بد منها أمام المعاندين، فلا تنافى اللينة فى الدعوة والرحمة فى الدعاية ف «لا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتى هى أحسن الاّ الذين ظلموا منهم»[2] فحين لا تؤثر الرحمة إلاّ زحمة فهنالك الغلظة أمام غلظة، حيث الرحمة أمام الظالم المعاند العامد، إنها زحمة وقسوة على المظلوم، فهى ـ إذا ـ غلظة أمام غلظة، بلا هوادة ولا تميُّع ولا تراجع، إنها قوة وصلابة ومهابة «حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله للّه».

ذلك، وكما أن الرأفة والرحمة فى الدعوة الربانية من تقوى اللّه، كذلك الغلظة فى محالها من تقوى اللّه، فالرأفة مكان الغلظة كما الغلظة مكان الرأفة هما خارجتان عن تقوى اللّه إلى الطغوى على حكم اللّه.

ولقد كانت الحروب الإسلامية بقيادة القائد الرسولى أو الرسالى، مبنية على تقوى اللّه: «إن اللّه يحب المتقين» فلا يحب الطاغين.

---

[1]. ٣٣: ٢١.

[2]. ٢٩: ٤٦.

ولقد كان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله إذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى اللّه تعالى ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال: إغزوا باسم اللّه، فى سبيل اللّه، قاتلوا من كفر باللّه، إغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثِّلوا ولا تقتلوا وليدا، فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فإن أجابوک فاقبل منهم وكف عنهم، ثم أدعهم إلى التحول من دارهم إلى دور المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلک فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم اللّه تعالى الذى يجرى على المؤمنين، ولا يكون لهم من الغنيمة شىءٌ إلاَّ أن يجاهدوا مع المسلمين، وإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن أجابوک فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن باللّه تعالى عليهم وقاتلهم...».[1]

إذا فلا تعنى الغلظة إلاَّ فى ضوء التقوى، وليست هى الوحشية والبربرية مع الأطفال والنساء والشيوخ وسائر العُجَّز غير المحاربين، إنما هى الخشونة التى لا تميِّع الحركة ولا تفسح مجالاً لأعداء الدين أن يهاجموا المؤمنين، فهذا الدين ـ كما هو اللّه ـ «أرحم الراحمين فى موضع العفو والرحمة وأشد المعاقبين فى موضع النكال والنقمة».

ذلک، وأحرى من الدفاع و الحرب الحارة الحارقة، الدفاع والحرب الباردة وهى الدّعائية بعد تقديم البراهيم البينة الدُّعائية.

وهنا خطوات أولاها واَولاها الدعوة الداخلية بمختلف واجهاتها، كيلا ينصدم المسلمون بدعايات مضلِّلة يحملها المتظاهرون بالإسلام، ومن ثم سائر المهاجمين على المقدسات

---

[1]. أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي، وأخرج أبو داو عن رجل من جهينة أن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: لعلكم تقاتلون قوما فتظهرون عليهم فيتقونكم بأموالهم دون أنفسهم وذراريهم فيصالحونكم على صلح، فلا تصيبوا منهم فوق ذلك فإنه لا يصلح لكم.
وعن العرياض ابن سارية قال: نزلنا مع رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله قلعة خيبر ومعه من معه من المسلمين وكان صاحب خيبر رجلاً ماردا متكبرا فأقبل النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله فقال: يا محمد! لكم أن تذبحوا حمرنا وتأكلوا ثمرنا وتضربوا نساءنا؟ فغضب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله وقال: يا ابن عوف إركب فرسك ثم ناد: إن الجنة لا تحل إلاّ لمؤمن وإن اجتمعوا للصلاة فاجتمعوا ثم صلى بهم ثم قال فقال: أيحسب أحدكم متكئا على أريكته، قد يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئا إلا ما في القرآن، ألا وإني قد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء، إنها لمثل القرآن أو أكثر وإن الله لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا باذن ولا ضرب نسائِهم ولا أكل ثمارهم إذا أعطوا الذي عليهم.
ورفع إليه صلى‌الله‌عليه‌وآله ـ بعد إحدى المواقع ـ إن صبية قتلوا بين الصفوف فحزن حزنا شديدا فقال بعضهم: ما يحزنك يا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله وهم صبية للمشركين، فغضب النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله وقال ما يعني: إن هؤلاء خير منكم، إنهم على الفطرة، أو لستم أبناء المشركين، فإياكم وقتل الأولاد إياكم وقتل الأولاد.

الإسلامية السامية.

فهؤلاء الربانيون الحافظون لحدود اللّه هم ثقات الإسلام وحصونه، الذين يصدون الهجمات الهمجات المضلِّلة للمسلمين.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[1]

رجعة فى نهاية السورة إلى تتمات من مواصفات المنافقين والكافرين، أنهم «إذا ما أنزلت سورة» يتساءلون هازئين أنفسهم والمؤمنين «أيكم زادته هذه إيمانا» والجواب الحاسم القاصم ظهورهم «فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا» على إيمانهم «وهم يستبشرون» ببشائرها «وأما الذين فى قلوبهم مرض» وريبة رَجِسة «فزادتهم رجسا» بمزيد كفرهم «إلى رجسهم» من كفرهم «وماتوا وهم كافرون» ـ: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلاّ خسارا﴾.

أجل وقضية إختلاف القلوب سعة وضيقا هى اختلاف إنعكاس القرآن عليها، فالطاهر القلب، المنشرح الصدر، المتحرى عن الحق يزيدهم القرآن إيمانا كلما نزلت آياته البينات أو تليت عليه، ف ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر اللّه وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون﴾.[2]

والنجس القلب ورَجِسه الضال الشاك،[3] والضيِّق الصدر يزداد به ضلالاً ورجسا إلى رجسه: ﴿فمن يرد اللّه أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حَرَجا كأنما يصَّعَّد فى السماء كذلك يجعل اللّه الرجس على الذين لا يؤمنون﴾.[4]

---

[1]. ٩: ١٢٤ ـ ١٢٥.

[2]. ٨: ٢.

[3]. نور الثقلين ٢: ٢٨٦ في تفسير العياشي عن زرارة بن أعين عن أبي جعفر عليه‌السلام في «رجسا إلى رجسهم» يقول: شكا إلى شكهم.

[4]. ٦: ١٢٥.

ف «رجسا إلى رجسهم» تعنى ضلالاً على ضلالهم، حيث سمى الضلال هنا رجسا، وهو مرض القلب، ف «بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة، وبالزيادة فى الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند اللّه، وبالنقصان دخل المفرطون النار»[1] و«الإيمان يبدو لمظة ـ نقطة بيضاء ـ .
﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الأيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُون﴾.[2]
فطالما الأخوة فى الدين هى التى بين المؤمنين، فقد تشمل هؤلاء المشركين شريطة التوبة، وإقام الصلاة وإيتاء الزكوة كما فصلناها من ذى قبل، وهى الأخرى بين المؤمنين وأدعيائهم غير المعروف آباءهم: ﴿.. وما جعل أدعياءكم أبناءكم.. ادعوهم لآباءهم فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم..﴾[3] ثم لا رابعَ إلاّ اليتامى ولكنهم لأنهم صغار غير مكلفين لم يصرح لهم بالأخوة فى الدين: ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم..﴾[4] ولكن نسبتهم إلى المؤمنين فى الأخوة قد تجعلهم إخوة فى الدين، ما تتطلبه هذه الأخوة وراء التكاليف الخاصة بالمكلفين، فعليهم أن يراعوهم بأخوة فى الدين، وليس عليهم أولاء لصغرهم فرض فى حقل الأخوة الدينية، اللّهم إلاّ ما يفرض على أولياءهم من تأديبهم وتدريبهم على الدين.
وحين تثبت الأخوة فى الدين بين المؤمنين ككل[5] وحتى بالنسبة للقاصرين فهلاّ تثبت بين فريقى المسلمين شيعةً وسنةً أماهيه من الفرق، وهم ككل حاصلون على هذه الثلاثة، وحتى التاركين منهم للصلاة والزكوة، المصدقين لهما، هم غير خارجين عن هذه الأخوة الشاملة رَبع الإيمان، فقد تثبت حرمة اغتيابهم بعضهم بعضا بنص آية الحجرات منضمة إلى هذه الآيات «إنما المؤمنون أخوة» و«ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه

[1]. نور الثقلين ٢: ٢٨٥ في أصول الكافي عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبداللّه.

[2]. ٩: ١١.

[3]. ٣٣: ٥.

[4]. ٢: ٢٢٠.

[5]. في تفسير العياشي جابر عن أبي جعفر عليهماالسلام «فان تابوا» يعني فإن آمنوا فإخوانكم في الدين.

ميتا فكرهتموه».

فقيلة حلية اغتياب أهل السنة غِيلة على وحدة الأخوة الإسلامية، وحيلة لوهدتها أعاذنا اللّه من سوء الفهم والعصبية الجاهلة العمياء!، فإنما «نفصل الآيات لقوم يعلمون».

فحين يصبح المؤمنون الجُدد ـ على سوابقهم المزرية ـ ثم الأدعياء غير المعروف آباءُهم، حين يصبح هؤلاء وهؤلاء ومعهم يتاماهم إخوانا لهم فى الدين، أفلا يكون سائر المسلمين إخوانا لنا نحن الشيعة الإمامية، زعم أن الإيمان فالأخوة الإيمانية تختص بنا، ويكأن آيات الإسلام والإيمان والأخوة الإيمانية تخاطبنا فحسب دون سوانا؟! وهكذا الغلطة المغلّظة بين جمع من إخواننا السنة حيث يرفضون أخوتنا الإيمانية، أم ويفضلون اليهود والنصارى علينا!. وهكذا نزغ شيطان الإستعمار والأستحمار بيننا لحد جعلنا شذر مذر، تاركين لوحدة الإعتصام بحبل اللّه هابطين لوهدة الإنقسام عن حبل اللّه، عاملين على بث الخلافات وحثّها فيما بيننا، وهذه هى بغية أعداءنا لكى يكونوا علينا ـ المتفرقين المفترقين ـ ظاهرين قاهرين!.

والقول إن إخواننا فاسقون فى عقيدة الدين متجاهرين، فهم ممن يحل اغتيابهم؟ غول من القول، حيث الفسق المتجاهر به فى حقل حلّ الإغتياب هو الذى يعترف صاحبه بأنه فسق، ثم لا يبرِّر سائر الفسق المستور أن يغتاب فاسد العقيدة فيه، والأكثرية المطلقة من إخواننا قاصرون وإن كان عن تقصير، فليسوا هم يعاندون الحق فينكرونه لعنادهم، بل هم حسب بيئتهم وملابساتهم ظلوا فى تلكم العقائد، وعلى الدعاة إلى اللّه أن يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلوهم بالتى هى أحسن.

ولو حلت الغيبة بين فرق المسلمين لفرقت بينهم أكثر مما هم متفرقون، وهم مأمورون بالوحدة قدر المستطاع، إعتصاما بحبل اللّه جميعا دون تفرق وتمزق، فكيف يجوز اغتيابهم فيما هم غير متجاهرين من فسوق، أم هم غير مقتنعين أنه فسوق، فمن شروط الأمر والنهى ثم جواز الإغتياب، أن يكون الواجب والمحرم واضحين للمأمور والمنهى وضحَ النهار، فإن تخلف بعدُ فأمر أو نهى، ثم إن أصر وجاهر فإصرار فى الحمل على شرعة اللّه وجهار فى عرض مآسيه عليه ينتهى.

«وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ

لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ.[1]

هنا نكث اليمين والطعن فى الدين يُردفان عطفا مما يدل على أن ذلک العهد المؤکد باليمين کان على المحايدة تجاه الدين، ألا يحارِبوا المؤمنين فى الدين، ولا يطعنوا طعنة أخرى فى الدين کالدعاية ضده أو مظاهرة عدو على المؤمنين، فعند نکثهم وطعنهم «فقاتلوا أئمة الکفر» الناکثين الطاعنين، «إنهم لا أيمان لهم» قاتلوهم «لعلهم ينتهون» عن کفرهم، أم ـ لأقل تقدير ـ عن نکثهم وطعنهم.

وهنا تبرز من ملامح الحرب الإسلامية أنها فقط حرب دفاعية أمام الهجمة الکافرة على نفوس المؤمنين أم على عقائدهم وسائر نواميسهم، فحين ينتهون عن الطعن فى الدين فلا قتال، کما لا قتال حين لا يقاتلونکم.

ولأن الأصل فى نکث اليمين والطعن فى الدين بين جموع الکافرين، هو من أئمة الکفر دون المأمومين لهم، لذلک «فقاتلوا أئِمة الکفر» وطبعا بمن يساندهم من هؤلاء الأتباع الأغباش «لعلهم ينتهون» والقصد الأصيل فى ذلک القتال ليس هو الإنتقام، بل الإنتهاء عن النکث والطعن فى الدين، ثم علياه هى الإنتهاء عن الکفر.

وقد تشمل «أئمة الکفر» ـ جريا ـ کل من يحمل راية الضلالة والمتاهة کأصحاب الجمل ومن أشبه حيث يشکِّلون على الإسلام خطرا علَّه أخطر ممن سواهم من الکفار الرسميين.[2]

---

[1]. ٩: ١٢.

[2]. نور الثقلين ٢: ١٨٨ في قرب الإسناد للحميري عن حنان بن سدير قال سمعت أبا عبدالله عليه‌السلام يقول: دخل علي أناس من أهل البصرة فسألوني عن طلحة والزبير فقلت لهم: كانوا من أئمة الكفر، إن عليا عليه‌السلام يوم البصرة لما صف الجمل قال لأصحابه لا تعجلوا على القوم حتى أعذر فيما بيني وبين الله وبينهم فقام إليهم فقال: يا أهل البصرة هل تجدون علي جورا في حكم؟ قالوا: لا، قال: فحيفا في قَسم؟ قالوا: لا، قال: فرغبة في دنيا أخذتها لي ولأهل بيتي دونكم فنقمتم علي فنكثتم بيعتي؟ قالوا: لا، قال: فأقمت فيكم الحدود وعطلتها في غيركم؟ قالوا: لا، قال: فما بال بيعتي تنكث وبيعة غيري لا تنكث، إني ضربت الأمر أنفه وعينه فلم أجد إلا الكفر أو السيف، ثم ثنى إلى أصحابه فقال: إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: «وإن نكثوا إيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون»، فقال أمير المؤمنين عليه‌السلام: والذي فلق الحبة وبرء النسمة واصطفى محمدا صلى‌الله‌عليه‌وآله بالنبوة إنهم لأصحاب هذه الآية وما قوتلوا منذ نزلت، ورواه العياشي عن حنان بن سدير عنه عليه‌السلام أقول: مغتصبوا الخلافة هم من أهل هذه الآية ولكن الملابسات منعت الإمام عن القيام بالسيف أمامهم.
وفي أمالي المفيد باسناده عن بي عثمان مؤذن بني قصي قال سمعت علي بن أبي طالب عليه‌السلام حين خرج طلحة والزبير على قتاله: عذرني الله من طلحة والزبير، بايعاني طائعين غير مكرهين ثم نكثا بيعتي من غير حدث أحدثته ثم تلا هذه الآية، ورواه العياشي في تفسيره عن أبي عثمان المؤذن وأبي الطفيل والحسن البصري مثله، ورواه الشيخ في أماليه عن أبي عثمان المؤذن وأبي الطفيل والحسن البصري مثله، ورواه الشيخ في أماليه عن أبي عثمان المؤذن وفي حديثه قال بكير: فسألت عنها أبا جعفر عليهما‌السلام فقال: صدق الشيخ هكذا قال علي هكذا كان وفيه عن العياشي عن الحسن البصري قال: خطبنا علي بن أبي طالب عليه‌السلام على هذا المنبر وذلك بعدما فرغ من أمر طلحة والزبير وعائشة، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ثم قال: يا أيها الناس والله ما قاتلت هؤلاء إلا بآية تركتها في كتاب الله، إن الله يقول: «وإن نكثوا إيمانهم..» أما والله لقد عهد إليّ رسول الله

ذلك، ففرض قتال ائِمة الكفر طليق على أية حال، فإنهم بطبيعة حالهم الشريرة يؤمُّون الكفر بكل بنوده السلبية للإيمان والإيجابية لنفسه، قتلاً للأنفس وطعنا فى الدين بكل ما يملكونه أو يُمَّلكون من طاقات وإمكانيات فى مؤاتية المجالات.

فالقادة الأئمة هم بين أئمة الإيمان وأئمة الكفر، فلا بد لأئمة الإيمان برُبعهم أن يقاتلوا أئمة الكفر بربعه: ﴿ولولا دفع اللّه الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن اللّه ذو فضل على العالمين﴾[1] ف «أئمة الكفر» هنا ظاهرة بديل ضمير: «فقاتلوهم» عبارة قاصدة لموضوعية إمامة الكفر لفرض القتال مهما لم يكن نكث لأيمان وسواها.

وهنا «لعلهم ينتهون» تعنى ـ لأقل تقدير ـ عن إمامة الكفر فتنة وإفسادا على المؤمنين وسائر المستضعفين، ثم إنتهاءً عن أصل الكفر، وإذا فهم إخوانكم فى الدين.

ثم «لا أيمان لهم» بعد «إن نكثوا أيمانهم» تعبير قاصد إلى أن أيمانهم لم تكن أيمانا قاصدة صادقة، فإن طبيعة حال الأيمان هى الوفاء دون النكث، فالأيمان المنكوثة ليست فى الحق بأيمان، وإنما هى قالتها دون حالتها وفعالتها، وصِرف القالة فى اليمين قالة غائلة.

هؤلاء أئمة الكفر وهم دركات، كما وأئمة الايمان درجات علياها الأئمة من آل الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله، الأعزة عند الرسول على حد تعبيره صلى‌الله‌عليه‌وآله: «لا يزال الإسلام عزيزا إلى إثنى عشر خليفة كلهم من قريش»[2] و«الأئمة من المهاجرين».[3]

وترى «إن نكثوا..» تختص واجب قتال أئمة الكفر ـ فقط ـ بما إذا نكثوا وطعنوا، فغير المعاهَد الطاعن لا يقاتَل؟ «أئمة الكفر» موضوعا ل «قاتلوا» تكفى دليلاً أن لها الموضوعية التامة الطامة فى حكم واجب القتال، فسواءٌ فى ذلك المعاهَد الناكث وغير المعاهَد ما دام الطعن فى الدين بإمامة الكفر قائما، فذلك ـ إذا ـ حكم يحلق على كافة أئمة الكفر الطاعنين

صلى‌الله‌عليه‌وآله وقال: يا علي لتقاتلن الفئة الباغية والفئة الناكثة والفئة المارقة.

[1]. ٢: ٢٥١.

[2]. مفتاح كنوز السنة بخ ـ ك ٩٣ ب ٥١ ومس ـ ك ٣٣ ح ٥ ـ ١٠ وتر ـ ك ٣١ ب ٤٦ وحم أول ص ٣٩٨ قا ٤٠٦، خامس ص ٨٦ و٨٧ و٩٣ و٩٤ و٩٥ و٩٦ و٩٧ و٩٨ و٩٩ و١٠٠ و١٠١ و١٠٦ و١٠٧ و١٠٨ وط ـ ح ٧٦٧ و١٢٧٨.

[3]. المصدر ط ـ ح ٩٢٦ و٢١٣٣.

فى الدين للطول التأريخى والعرض الجغرافى.

ذلك، ومن أبرز النكث للإيمان فالطعن فى الدين هو نكث يمين الإيمان المدعى إرتدادا عنه جاهرا، مما يفت عضد الدين ويضعف ساعد اليقين حيث يخيِّل إلى بسطاء المؤمنين أنه ارتدوا عنه بما وجدوا فيه من خلل فجحدوه لهذه العلل وما نجدوا، وهو طعن فى الدين وقلوب الدَّينين، طعنا عمليا يعمل فى إضلال البسطاء سراعا، ودليلاً باهرا على الشمول إضافةً إلى ظاهرة العموم، أن «نكثوا» هنا بعد «فإن تابوا..» فهو فى الأصل نكث بعد التوبة، ثم يشمل كل نكث، ثم كل إمامة للكفر، وقد سبق ذلك النكث ما يعممه تماما، فسابق «كيف يكون للمشركين عهد» مع «إن تابوا» مرتين، دليل باهر لذلك التعميم.

فلا تختص «أئمة الكفر» بمن يطعنون فى الدين وهم كفار جاهرين، بل وأنحس وأنكى منهم كبراء بزعم الناس، يُظهرون الإيمان مضمِرين الكفر ثم يرتدون، وذلك كاف فى زعزعة إيمان البسطاء المستضعفين.

إذا فنكث الأيمان يشمل نكث الإيمان ـ وبأحرى ـ لأنه أيضا يمين من الأيمان، بل وأحرى مما سواه من أيمان، فقضية طليق «أئمة الكفر» بنقض الأيمان والطعن فى الدين هى وجوب قتال كل من يحمل مشعل الضلالة والطعن فى الدين، ملحدا أو مشركا أو كتابيا أم ومسلما يحمل ما يحملون بل هو أخطر وأنكى، فأصحاب البدع الجاهرة، الذين يُبدعون خلاف الضرورة من شرعة الحق هم من أئمة الكفر، وترى إذا انتهى المرتد عما فعل وأبرز الإيمان، فهل يثبت قتاله بعدُ أم لا؟ «لعلهم ينتهون» حيث تُنهى قتالهم لغاية إنتهاءهم، دليل نفيه عندئذٍ، اللّهم إلاَّ أن يدل قاطع الدليل على إستثناء المرتدين.

وهل للكافر يمين لمكان «نكثوا أيمانهم» حيث النكث لها دليل واقعها؟ أم لا ـ ل «إنهم لا أيمان لهم»؟ إن لهم يمينا ما لم ينكثوا، فحين نسمع منه يمينا لا نتأكد كذبه فقد نعامله صادق اليمين على حذر لأنهم ـ كأصل ـ لا أيمان لهم، إذ لا مولى لهم به يحلفون.

«أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْما نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّه

أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ». [١]

هذه الآية بما بعدها تواجه ما حاك فى نفوس ضغيفة لم يتعرض الإيمان بعدُ فيها، من تردد وتهيُّب للإقدام على هذه الخطوة الحاسمة الجاسمة القاصمة، ومن تعلل ورغبة وتَعِلَّة فى أن يفىء المشركون الباقون إلى الإسلام دون اللجوء إلى القتال الشامل، ومن خوف على نفوسهم ومصالحهم، ركونا إلى أيسر وسائلهم فى مسائِلهم.

فالقرآن يواجه هذه المشاعر بملابساتها الملبَّسة على أصحابها، والتعِلاّت والمخاوف الملحقة عليها، استجاشة لقلوب المؤمنين بذكريات وأحداث ورغبات صالحة، تذكرة بنقض المشركين عهودهم بعد إبرامها وسائر ما افتعلوه فحق الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله والذين معه.

وهنا سرد مختصر غير محتصر لثالوث أئمة الكفر: «نكثوا أيمانهم» ـ «وهموا بإخراج الرسول» «وهم بدءوكم أوّل مرة» وكل واحدة من هذه الثلاثة تكفى فى فرض قتالهم فضلاً عن الثالوث كله.

و«ألا تقاتلون» إستفهام إنكارى ممن يتهاون ولا يتعاون فى قتال هؤلاء الناكثين البادئين فى الحرب وقد «هموا بإخراج الرسول» مما يدل على مدى تعرق الكفر فى نفوسهم النحيسة البيئسة.

١ ـ «نكثوا أيمانهم» مع الرسول ـ كما هو شيمتهم الشنيعة ـ: نقضا لعهد الحديبية ف «إن بنى بكر الذين كانوا دخلوا فى عقد قريش وعهدهم وثبنوا على خزاعة الذين دخلوا فى عقد رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله وعهده ليلاً.. فقاتلوهم للضغن على رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله..» [٢] وكان صلى‌الله‌عليه‌وآله قد قبل من شروطهم ما حسبه الخليفة! عمر قبولاً للدنية!.

ثم وفى لهم أحسن الوفاء وأدقَّه، ولكنهم نقضوا عهده صلى‌الله‌عليه‌وآله وخاسوا به بعد عامين لأول فرصة سانحة.

---

[١]. ٩: ١٣.

[٢]. الدر المنثور ٣: ٢١٥ ـ أخرج ابن إسحاق والبيهقي في الدلائل عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة قاذلا كان في صلح رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله يوم الحديبية بينه وبين قريش إن من شاء أن يدخل في عقد النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله وعهده دخل فيه ومن شاء أن يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل فيه فتواثبت خزاعة فقالوا: ندل في عقد محمد وعهده، وتواثيب

٢ ـ «وهموا بإخراج الرسول» مرات عدة، يوم الندوة، ويوم الشعب، وليلة الفراش التى انتهت إلى الهجرة، ثم وكل أيامهم كانت تحمل هما بالغا قالاً وحالاً وفعالاً لإخراج الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله عن عاصمة الدعوة، وذلك أنحس وأنكى ما حصل منهم طول همومهم بخصوصهم وعمومهم، ثم ولم يكونوا يكتفون إحراجَه بإخراجهِ عن مكة، بل وهموا بإخراجه أيضا عن المدينة لما أقدموا عليه من المشورة والإجتماع على قصده بالقتل، فهمهم لإحراجه فى المدينة همٌّ لهم لإخراجه عنها كما أخرجوه عن مكة المكرمة.

٣ ـ «وهم بدءوكم أوّل مرة» بدءً بالقتال والنكال منذ بزوغ الدعوة، ومن ثم بعد الهجرة خلال بضع أشهر، فى حرب بدر التى أصبحت خلاف قصدهم ـ بادرة القوة الاسلامية ضدَّهم.

فلقد بيتوا عليه فى بيت اللّه الذى يأمن فيه القاتل والسارق، فمحمد صلى‌الله‌عليه‌وآله لا أمان له فى ذلك البيت الأمين لأنه يدعو إلى الهدى، ويردهم عن الردى، بيتوا عليه على حريته واراقة دمه دونما تحرُّج ولا تذمم، وبكل تهرُّج، حتى أخرجوه عن مكة بعد كل ما أحرجوه، ثم أصروا على إبادته فى مهجره بقيادة أبى جهل فى بدر، ثم قاتلوهم بادئين فى أحد والخندق، ثم جمعوا لهم فى حنين ولا يزالون وكما قال اللّه: «ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا» مما يبين الطبيعة الشركية النكدة اللئيمة.

وكما هم بدءوكم فى قصة خزاعة، والبادىء بالقتال يحق قتاله على أية حال.

«ألا تقاتلون» هؤلاء الأنكاد البعاد؟ «أتخشوهم» أنتم «فاللّه أحق أن تخشوه»فأتمروا بأمره «إن كنتم مؤمنين» به «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين».[1]

و«من خاف اللّه أخاف اللّه منه كل شىء ومن لم يخف اللّه أخافه اللّه من كل شىء»، فلا يُخاف فى سبيل اللّه أيُّ مخيف إلا اللّه الذى يأمرنا أن نسلك سبيله دون خوف ممن سواه.

«قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّه بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ*وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللّه عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللّه عَلِيمٌ حَكِيمٌ»[2]

---

[1]. ٣:١٣٩.

[2]. ٥٩:١٤ و ١٥.

هنا «يشف صدو ر قوم مؤمنين» دون «صدوركم» أو «صدور المؤمنين» ككل، مما يلمح بنزول الآية بشأن ناقضى عهد الحديبية حيث إن بنى بكر وثبوا على خزاعة الداخلين فى عقد رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله واثخنوهم قتلاً جرحا وتشريدا.

أجل «قاتلوهم» أولاء الناقضين، وبالنتيجة «يعذبهم اللّه بأيديكم» القوية بالإيمان، وقلوبكم الندية بالإيمان ثم «ويخزهم» كما أخزوا فريقا من المؤمنين «وينصركم عليهم» بصورة قاطعة لا قِبَل لهم بها، ثم «يشفِ صدور قوم مؤمنين» مظلومين مهضومين «ويُذهب غيظ قلوبهم» الغائظة على تلك الحالة المخزية المزرية «ويتوب اللّه على من يشاء» منكم مقاتلين ومن هؤلاء المظلومين المقتص لهم، ثم ومن الناقضين الذين قد يتوبون إلى اللّه عما نقضوا وأبغضوا اللّه ورسوله حين يرون نصرا كمؤمنين، إحساسا لهم أنهم منصورون بغير ظاهرة القوة الحربية، فتفتح بصيرته على الهدى.

«واللّه عليم» بكل ما حصل ويحصل وما هو صالح أم طالح لكم ولمن سواكم «عليم» بالعواقب المخبوءَة وراء هذه التقدمات، «حكيم» فيما يأمر وينهى ويقضى ويقدر، «حكيم» يقدر نتائج الأعمال والحركات والنيات.

ذلك، فطبيعة الحال تقضى بأن المؤمنين تغيظ قلوبهم بما يلمسون من مثل ذلك الكبت الشديد والنقض العنيد، فذلك العذاب بأيديكم المؤمنة والخزى للناقضين ونصرتكم عليهم، إن فيها لشفاءً لصدورهم عما جرحت وضيقت وحرجت، وإذهابا ـ بالنتيجة ـ لغيظ قلوبهم.

ولقد تجرى هذه الآية فيمن يدعى الإسلام، وهو ناقض لعهده مفض يديه منه حيث يعامل المسلمين كما يعامَل الكافرون.[1]

---

[1]. نور الثقلين ٣:١٩٠ عن تفسير العياشي عن علي بن عقبة عن أبيه قال: دخلت أنا والمعلى على أبي عبد اللّه عليه‌السلام فقال: ابشروا أنكم على أحدي الحسنيين شفى اللّه صدوركم أذهب غيظ قلوبكم وأنا لكم على عدوكم وهو قول اللّه «ويشف صدور قوم مؤمنين» وإن مضيتم قبل أن يروا ذلك مضيتم على دين اللّه الذي رضيه لنبيه صلى‌الله‌عليه‌وآله ولعلي عليه‌السلام، وفيه عنه أبي الأغر اليمني قال: إني لواقف يوصفني إذا نظرت إلى العباس ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب شاكٍ فـ̈ السلاح على رأسه مغفر وبيده صفيحة يمانية وهو على فرس أدهم إذ هتف به هاتف من أهل الشام يقال له عرار بن أدهم ياً عباس هلم إلى البراز، قال: ثم تكافى بسيفهما مليّا من نهارهما لا يصل واحد منهما إلى صاحبه لكمال لأمته إلى أن لاحظ العباس وهيا في درع الشامي فأهوى إليه بالسيف فانتظم به جوانح الشامي وخرّ الشامي صريعا بخده وأمّ في الناس وكبر الناس تكبيرة ارتجت لها الأرض فسمعت قائلاً يقول: «قاتلوهم يعذبهم اللّه بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب اللّه على من يشاء» فالتفت فإذا هو أمير المؤمنين عليه‌السلام والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة.

وترى «يعذبهم» لا تنافى «وما كان اللّه ليعذبهم وأنت فيهم» وان الدنيا دار عمل ولا حساب والآخرة دار حساب ولا عمل؟.

العذاب المسلوب كما قدمناه هو عذاب استئصال وما أشبه بيد القدرة الربانية دون وسيط الإنسان، ثم العذاب هنا ليس حسب الحساب المخصوص بالأخرى، إنما هو شطر ضئيل منها تتقدم هنا لتكون كلمة اللّه هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

والقتل والحصر والتشريد وما أشبه، كما الحدود والتعزيرات، هى عذابات مأمور بها بأيدى المؤمنين على المتخلفين عن شرعة اللّه تأديبا لهم وتأنيبا وردعا وتقليلاً للفساد.

ذلك «وقاتلوهم» هذا قد يمتد أمره إلى فتح مكة التى تجمع كل هذه المواصفات، فسائر الحروب الفاتحة لم تكن تحمل منها إلا يسيرا قصيرا، وإنما فتح مكة هو الذى حمل كل هذه المواصفات لقبيل الإيمان.

وهنا «غيظ قلوبهم» فى إذهابه رحمة عليهم خروجا لقلوبهم عن التغيظ التشيق بما أصيبوا من مكائد الكفار، فهى رحمة صالحة لهم، وهناك غيظ آخر فى ذهابه رحمة عليهم وعلى الآخرين الذين يجب كظم الغيظ عنهم لكونهم مؤمنين، وهذا مجال قول النبى صلى‌الله‌عليه‌وآله: «وما من جرعة يتجرعها الإنسان أعظم أجرا عند اللّه من جرعة غيظ فى اللّه».[1]

والقصد من جرعة الغيظ هنا الصبر عند الإهتياج، واللظم عند الإنزعاج، وترك إتباع نوازع النفس إلى ما تدعوا إليه فى تلك الحال من شفاء غيظ، أو تنفيس كرب، و إطلاق عقال، أو فعل مراقبة اللّه سبحانه تنجزا، واحتجازا عن عقابه، فشبه صلى‌الله‌عليه‌وآله تلك الحال بالجرعة، كأن الإنسان بالكظم لها والصبر عليها قد ضاق بها مرارة، وأساغ منها حرارة.

«أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمْ اللّه الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللّه وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللّه خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ»[2]

---

[1]. المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي ٩٦.

[2]. ٩:١٦.

«أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون»[1] «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مسَّتهم البأساءُ والضراءُ وزلزلوا حتى يقول الرسولُ والذين آمنوا متى نصر اللّه ألا إن نصر اللّه قريب»[2] «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم اللّه الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين».[3]

«أم حسبتم أن تتركوا» لحاكم دونما ابتلاء وإمتحان وتمحيص «ولمّا يعلم اللّه الذين جاهدوا منكم» عَلْما وعلامة بواقع الجهاد الذى هو علامة النجاح، كما أن تركه علامة السقوط، فلهذه المجاهدات المفروضة أبعاده، منها تميُّز المجاهدين الواقعيين عن المدعين الجهاد «يقولون فى المجالس كيت وكيت فإذا جاء الجهاد فحيدى حياد».

و«جاهدوا» الطليقة هنا تعم الجهاد الأنفسى إلى الآفاقى والآفاقى إلى الأنفسى، وجهاد النفس هو أعظم، وهو أتم مهاد لجهاد سائر الأعداء، ولا يعنى جهاد النفس قتل النفس الأمارة بالسوء، إنما هو جعلها سليمة أمام العقلية الإيمانية، خارجة عن طيشها وعيشها المتخلف عن شرعة اللّه، فتفسير جهاد النفس بقتل النفس غلط رائج دارج لا يعبأ به!.

«جاهدوا ولم يتخذوا» أية وليجة تلج فى صفوفكم وصنوفهم «من دون اللّه ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة» فالوليجة الربانية هى المعرفة التقية، والتقوى المعرفية أماهيه، الوالجة فى قلوبهم الحاكمة فى صفوفهم، ثم من الوليجة الرسولية تقبُّل قيادته العليا من اللّه، ومن ثم الوليجة الإيمانية ولوج المؤمنين بعضهم فى بعض، مندغمين مع بعضهم البعض صفا كأنهم بنيان مرصوص، وليس ذلك الإمتحان ليعلم اللّه الذين جاهدوا منكم إلاّ عَلما لا عِلما «واللّه خبير بما تعملون».

ف «يا معشر الأحداث اتقوا اللّه ولا تأتوا الرؤوساء، دعوهم حتى يصيروا أذنابا، لا تتخذوا

---

[1]. ٢٣: ١١٥.

[2]. ٢: ٢١٤.

[3]. ٣: ١٤.

الرجال ولايج من دون اللّه أنا واللّه خير لكم»[1] و«إياكم والولايج فإن كل وليجة دوننا فهى طاغوت ـ ند».[2]

وهكذا «فان كل سبب ونسب وقرابة ووليجة وبدعة وشبهة منقطع إلاّ ما أثبته القرآن»[3] ولأن «المؤمنين» درجات فأولج الولايج منهم وأبهج المناهج هم ولاة الأمر المعصومون عليهم‌السلام، **فإنهم استمرارية كاملة شاملة لكيان الرسول** صلى‌الله‌عليه‌وآله **بينهم.[4]**

فكما الوليجة الرسولية هى ـ فقط ـ «رسوله» كذلك الوليجة الرسالية بعده ولوجا قياديا بينهم ليسوا إلاّ خلفاءَه المعصومين عليهم‌السلام، **ومن ثم الدرجات التنازلية لسائر المؤمنين قضية صالح الملابسات والمناسبات.**

فمما لا مرية فيه أن الإنسان أيا كان لا يقدر أن يعيش عيشة صالحة بشخصه مهما كان شخيصا محيصا، اللّهم إلاّ بوليجة ربانية تلج قلبه وفكره، مرشدا أو مناصرا ليكون على بصيرة ومسيرة فميصرة صالحة لأمره فى حياته.

فالمجاهدون من المؤمنين فى مختلف حقول الجهاد هم الذين لا يتخذون وليجة فى جهادهم وجهودهم إلاّ «اللّه ـ ورسوله ـ والمؤمنين» فوليجة اللّه ـ كالإخلاص له فيه ـ دائبة لا تنفصل إلا بانفصال الإيمان، وطالما الوليجة الرسولية منفصلة بانفصاله عنا ولكنها الوليجة الرسالية مستمرة معنا، فى كيانه الرسالى بسنته صلى‌الله‌عليه‌وآله **والآخر المتمثل فى عترته** عليهم‌السلام، **ومن ثم الوليجة الإيمانية من المؤمنين على كتاب اللّه وسنة رسوله، فمختلفة الولايج من المؤمنين مرفوضة، والصالحة منها مفروضة، ولتكون هذه الولايج النيرة الربانية زادا صالحا فى هذه السفرة الشاقة البعيدة المليئة بالأشلاء والدماء، كما أن «فى سبيل اللّه» راحلتهم التى ترحلهم.**

---

[1]. نور الثقلين ٣: ١٩١ في تفسير العياشي عن ابن أبان قال سمعت أبا عبداللّه عليه‌السلام يقول:.. ثم ضرب بيده إلى صدره.

[2]. المصدر عن أبي الصباح الكنائي قال قال أبو جعفر عليهما‌السلام:..

[3]. المصدر عن أصول الكافي عن أحمد بن محمد بن خالد مرسلاً قال قال أبو جعفر عليهما‌السلام:..

[4]. المصدر عن أصول الكافي عن أبي جعفر عليهما‌السلام في الآية يعني بالمؤمنين الأئمة عليهم‌السلام لم يتخذوا الولايج من دونهم.

فكما أن جهاد المؤمن محصور فى سبيل اللّه، محسور عما سواها وسواه، كذلك وليجته فى جهاده هى وليجة اللّه ابتغاء رضاه ورجاء لطفه تعالى فى غناه، ثم وما يرضاه من الرسول والمؤمنين، وذلك هو الجهاد الصالح دون سواه، فقد انتقشت كلمة لا إله إلاّ اللّه فى زادهم «فى سبيل اللّه» لا سواه، وراحلتهم «وليجة اللّه و..» لا سواها.

وعبارة أخرى عن «وليجة» هى «بطانة» ف «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودُّوا ما عنتُّم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا الآيات إن كنتم تعقلون».[١]

ذلك «وقد أخبرك اللّه عن المنافقين بما أخبرك ووصفهم بما وصفهم به لك، ثم بقوا بعده فتقربوا إلى أئمة الضلالة والدعاة إلى النار بالزور والبهتان، فولوهم الأعمال، وجعلوهم حكاما على رقاب الناس، فأكلوا بهم الدنيا، وإنما الناس مع الملوك والدنيا إلا من عصم اللّه».[٢]

فعلى المؤمن أن يتزود فى قلبه ونيته وليجة اللّه، وفى كيف يجاهد؟

الايمان الصامد غالب غير مغلوب

وترى بإمكان الفاسقين منهم ان يضروا خير أمة اخرجت للناس، المتوفرة فيها المواصفات السابغة السابقة؟ كلا!:

«لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذىً وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ».[٣]

الأذى هى دون الضرر او الضرر الأدون وإلاّ لتناقض المستثنى منه إلا بانقطاعه منه، وعلّ القصد منها ما يقولونه بألسنتهم تعريضا بكم وتعييرا لكم، دون واقع الاصطدام بايقاع الغليظ المكروه الشديد.

---

١. ٣: ١١٨.

٢. نهج البلاغة الخطبة ٢٠٨ عن الإمام أمير المؤمنين عليه‌السلام.

٣. ٣: ١١١.

أم وأذى الجراح والقراح والقتل بدنيا إن يقاتلوكم، دون ضرر الغلبة بحجة أم سلطة عسكرية أماهيه، فحسن استثناء «أذىً» من «لن يضروكم» حيث إن تلك الأذى هى بالنسبة لتلك الاضرار كأنها لا تضر إذ لا تؤثر عميقا ولا تجحف، فحاصل المعنى «لن يضروكم الا ضررا قليلاً».

ولم تذكر الأذى فى سائر القرآن إلاّ فى قليل الضرر اللّهم إلا إذا أفردت بذكر، فعامته ك «ان الذين يؤذون اللّه ورسوله لعنوا فى الدنيا والآخرة».

ذلك ومتى بلغ الأمر الى المدافعة والمقاتلة وانتهى الوعيد إلى المواقعة كان المؤمنون أقوى ظهورا وأشدا استظهارا، والكفار أنقض ظهورا وأضعف عمادا وأكثر استدبارا، وذلك من ملاحم الغيب ودلائل صحة هذه النبوة السامية وكما رأينا فى ماضى تاريخنا المجيد أن اليهود لم يقاتلوا المسلمين إلا منحوهم وأجزروهم لحومهم كبنى قريظة وبنى قينقاع، ويهود خيبر وبنى النضير وكم لهم من نظير!.

ف «لن» لها دور الإحالة لمدخولها وهو هنا «يضروكم» وهم فسقة اهل الكتاب وافسقهم اليهود و«لن يضروكم» هؤلاء بحذافيرهم أى ضرٍّ بأنفسكم وعقائدكم وكل كيانكم الإسلامى السامى «إلا أذى» وهو دون ضرٍّ «وان يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون» عليكم.

أترى بعدُ أن تلك الإحالة تعم كافة المسلمين وهو خلاف الواقع الملموس طول القرون الإسلامية حتى الآن؟.

كلاً، فإنها خاصة بمن خوطبوا من ذى قبل بتحقيق شروط السيادة: إعتصاما باللّه ـ حيث تتلى عليهم آيات اللّه وفيهم رسوله ـ وبتقوى اللّه حق تقاته، وأن يعيشوا على طول الخط مسلمين للّه، وأن يعتصموا بحبل اللّه جميعا ولا يتفرقوا، وتكن منهم أمة داعية آمرة ناهية، وأخيرا يصبحوا من خير أمة أخرجت للناس، إذا ف «لن يضروكم»أنتم المخاطبون بهذه الأوامر، المحققون لها كما أمرتم «لن يضروكم إلاّ أذىً وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون»!.

فلأن الأذى هى دون الضرر فالإستثناء ـ إذا ـ منقطع، أو هو الضرر القليل الضئيل فمتصل، وعلى أية حال فالنص يبشر باستحالة الضرر من فسقة أهل الكتاب على هؤلاء المؤمنين

القائمين بشرائط الإيمان، المسرودة من ذى قبل.
فالإنهزامات العقيدية والثقافية والعسكرية أماهيه لمن يسمون مسلمين ليست إلا من خلفيات الانهزامات الإيمانية «وان ليس للإنسان إلاّ ما سعى».
إنها ليست صيغة الإسلام والإيمان هى العاصمة لحامليها عن الشر والضر، الكافلة للخير، ولا أن صيغة التهود والتنصر هى القاضية على حامليها، إنما الكافل هو الإيمان الصامد ايا كان ف «ليس بأمانيكم ولا امانى أهل الكتاب من يعمل سوء يجزيه ولا يجد له من دون اللّه وليا ولا نصيرا»

دعائم أربع فى سياس الحفاظ على المؤمنين

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللّه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».[1]
تلحيقة ختامية لهذه السورة تحلق على كل شروطات الايمان المفلح فرديا وجماعيا، كنموذجة شاملة كاملة عن ناجح الايمان وفالحه وكل صالحه، حيث يحافظ على كافة المصالح الايمانية السامية.
هنا يُدعم مفلح الايمان على دعائم اربع: الصبر ـ المصابرة ـ المرابطة ـ التقوى، والنتيجة: «لعلكم تفلحون».
وهذه الاربع كلها مربوطة بسبيل اللّه لا سواه، كما الزاوية الرابعة هى تقوى اللّه فى كل شروطات الايمان ولا سيما الصبر والمصابرة والمرابطة.
١ ـ «إصبروا» فى الأفراح والاتراح، فى البأساء والضراء، فى تكاليف الايمان ايجابية وسلبية، فالصبر ـ وهو رأس الايمان ـ هو زاد الطريق فى هذه الدعوة الطائلة الشاقة، الحافلة بالعقبات والحرمانات والشهوات والرغبات، وعلى تنفَّج الباطل ووقاحة الطغيان وفاحشة العصيان ووساوس الشيطان، وعلى الجملة الصبر فى كل عسرة ويسرة على طاعة اللّه وترك معصية اللّه، والقوامة لشرعة اللّه، فلا يعنى صبرَ التخاذل والتكاسل والتغافل فى حقول

---

[1]. ٣: ٢٠٠.

الايمان فانه من الشيطان.

ولان واجب الصبر ـ فقط ـ شخصيا لا يفى بصالح الجماعة المؤمنة وحده او صالح عامة الشرعة الالهية فلذلك:

٢ ـ «وصابروا»: صابروا فى مختلف طاقاتكم ورغباتكم صيانة عن تفلُّتها او تلفُّتها فى غير صالح، وصابروا مع إخوانكم تعاونا على البر والتقوى، وتواصيا بالحق وتواصيا بالصبر، تكريسا لكل الطاقات لحمل بعضكم بعضا على الصبر كما تحملون انفسكم عليه، تعاونا وتآزرا فى التصابر، وصابروا على شهوات المؤمنين ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصورهم وانحراف طبائعهم وأثرَتهم وغرورهم والتوائِهم.

وصابروا على تنفج الباطل وتبلُّجه عند اهله، وعلى انتفاش الشر والضر، وقلة الناصر، وكثرة الغادر.

وصابروا على مرارة الجهاد وما تثيره فى النفس من مختلف الانفعالات، فى الانتصار والإنهزام سواء.

وصابروا أعداء الإيمان فى سباق الصمود على العقيدة، حيث الأعداء يحاولون جاهدين ان يقل صبر المؤمنين فيفلَّ، فلا ينفذ صبركم على طول الجهاد، فذلك رهان فى الصبر بينكم وبين أعداءكم، يبرزون فيه ويبارزون لمقابلة الصبر بالصبر والإصرار بالإصرار ثم تكون لكم عاقبة الأشواط، فاذا كان الباطل يصر ويصبر ويمضى قدما إلى الأمام، فما أجدر الحق ان يسبق فى رهان الصبر.

٣ ـ «ورابطوا» رباطا بين طاقاتكم الشخصية، وآخر بين طاقاتكم الجماعية ومنها الصلاة الجماعة[1] واخيرا فى معارك الشرف والكرامة رباطا فى الحرب ورباطا فى المحراب، فى الحروب الباردة الدعائية، وفى الحروب الحارة، حفاظا على ثغور الاسلام زمنيا وروحيا.

و«رابطوا» فى كل ذلك مع قياداتكم الزمنية والروحية المتمثلة فى الإمام، بعد اللّه وبعد النبى،

---

[1]. الدر المنثور ٢: ١١٤ ـ اخرج جماعة عن ابي هريرة عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: ألا اخبركم بما يمحو اللّه به الخطايا ويرفع الدرجات، اسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا الى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذالكم الرباط فذالكم الرباط فذالكم الرباط.

فالإمام هو الرباط الأدنى[1] فى هذه الثلاث واللّه هو الاعلى والنبى هو الاوسط، والرباط مع القائد يشملهم على مراتبهم متوحدة فى سبيل اللّه.[2]

ولقد كانت الجماعة المؤمنة لا تغفل عيونها أبدا، ولا تستسلم للرقاد، فما هادنا أعداءها قط منذ أن نوديت لحمل أعباء الدعوة، اللّهم إلا من حُمِّلوها فلم يحملوها فاصبحوا غثاءً للنسناس اذ لم يلتزموا بشرعة الناس، وطاعة إله الناس.

فلا بد من مرابطة دائِمة فى الثغور العقيدية والأخلاقية والعلمية الثقافية، والسياسية، والاقتصادية والحربية، حيث الكل هى ميادين السباق بين الكتلة المؤمنة والزمة الكافرة، فالعلماء الربانيون مرابطون فى الحقول الروحية كما هم قواد فى سائر الحقول.

والجيوش الإسلامية مرابطون فى الحروب الدامية الحامية المستمرة بين فريقى الحق والباطل، والأغنياء الأثرياء المؤمنون مرابطون فى الحقول الاقتصادية.

والساة الازكياء الاذكياء مرابطون فى ميادين السياسة بكل حراسة وكياسة.

وكل هؤلاء المرابطون يترابطون فيما بينهم لتنسيق الوحدة ووحدة التنسيق، حتى يصبحوا يدا واحدة على من سواهم، تسعى بذمتهم أدناهم.

٤ ـ «واتقوا اللّه» فى الصبر والمصابرة والمرابطة ألا تنفلّت عن سبيل اللّه، «واتقوا اللّه» فى

---

[1]. نور الثقلين ١: ٤٢٥ عن تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن ابي عبداللّه عليه‌السلام في الآية: «اصبروا» يقول عن المعاصي «وصابروا» على الفرائض «واتقوا اللّه» يقول ائتمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ثم قال: واي منكر انكر من ظلم الامة لنا وقتلهم ايانا «ورابطوا» يقول في سبيل اللّه ونحن السبيل فيما بين اللّه وخلقه ونحن الرباط الأدنى فمن جاهد عنا فقد جاهد عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله وما جاء به من عند اللّه «لعلكم تفلحون» وفيه في رواية اخرى عنه عليه‌السلام «ورابطوا» قال: المقام مع امامكم.. وفيه عن ابي جعفر عليهما‌السلام «وصابروا» يعني التقية «ورابطوا» يعني الائمة، وفي المعاني عن الصادق عليه‌السلام في الآية اصبروا على المصائب وصابروهم على الفتنة ورابطوا على من تقتدون به.

[2]. الدر المنثور ٢: ١١٤ ـ اخرج ابو نعيم عن ابي الدرداء قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: يا ايها الذين آمنوا اصبروا على الصلوات الخمس وصابروا على قتال عدوكم بالسيف ورابطوا في سبيل اللّه، وفيه عن فضالة بن عبيد سمعت النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله يقول: كل ميت يختم على عمله الا الذي مات مرابطا في سبيل اللّه فانه ينمو عمله الى يوم القيامة ويأمن فتنة القبر، وفيه عن ابن عابد قال خرج رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله في جنازة رجل فلما وضع قال عمر بن الخطاب لا تصل عليه يا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فانه رجل فاجر فالتفت رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله إلى الناس قال صلى‌الله‌عليه‌وآله: هل رآه احد منكم على الاسلام؟ فقال رجل نعم يا رسول اللّه حرس ليلة في سبيل اللّه فصلى عليه رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله وحثى عليه التراب وقال: اصحابك يظنون انك من اهل النار وانا اشهد انك من اهل الجنة، وقال صلى‌الله‌عليه‌وآله يا عمر انك لا تسأل عن اعمال الناس ولكن تسأل عن الفطرة، وفيه اخرج ابن ماجة عن ابي بن كعب قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله لرباط يوم في سبيل اللّه من وراء عورة المسلمين محتسبا من غير شهر رمضان أفضل عند اللّه وأعظم أجرا من عبادة مائة سنة صيامها وقيامها، ورباط يوم في سبيل اللّه من وراء عورة المسلمين محتسبا من شهر رمضان افضل عند اللّه واعظم اجرا من عبادة الفي سنة صيامها وقيامها فان رده اللّه الى اهله سالما لم تكتب له سيئة وتكتب له الحسنات ويجري له اجر الرباط إلى يوم القيامة، وفيه اخرج البيهقي عن ابي امامة ان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: ان صلاة المرابط تعدل خمسمائة صلاة ونفقة الدينار والدرهم منه افضل من سبعمائة دينار ينفقه في غيره.

كل حركات الحياة وسكناتها، وفى كل ثكناتها الحربية ضد أعداء الايمان.

فالتقوى والتقوى فقط هى الحارسة اليقظة فى كل كارثة سلبية او ايجابية، فهى هى زاد الطريق وراحلتها «لعلكم تفلحون».

وهذه التفاصيل هى قضية الإطلاق فى هذه القواعد الأربع ـ ف:

«اصبروا» فى ـ على ـ ل ـ من.... «وصابروا» بين ـ فى ـ ل ـ على... «ورابطوا» بين ـ مع ـ على ـ فى ـ ل... «واتقوا اللّه» فى هذه وسواها «لعلكم تفلحون» فى سبيل الرحمان كما تفلجون سبيل الشيطان «فبأى آلاءِ ربكما تكذبان»!.

اجل وان المرابطة فى سبيل اللّه فى كل حقولها هى السياج الصارم للمجموعة المؤمنة عن التفلت والتفكك والإنهيار، ولا سيما المرابطة فى الثغور العقيدية ومن ثم الثغور الجغرافية، وعلى ضوءها سائر الثغور: السياسية والاقتصادية والثقافية أماهيه.

والروايات الواردة عن النبى صلى‌الله‌عليه‌وآله فى فضل المرابطين تعمم المرابطة فى سبيل اللّه وافضلها سبيل الحفاظ على العقيدة وعلى ضوءها سائر الثغور الإسلامية.

فكل ثغر من الثغور الاسلامية بحاجة إلى مرابطة ممن يأهل لها ويقومون بحقها وحاقها، فالحافظون لحدود اللّه ـ ككل ـ هم المرابطون فى سبيل اللّه، دفاعا عن الحرمات الايمانية بألسنتهم وأقلامهم وسائر جهادهم وجهودهم ما لزم الأمر.

فالربط فى أصله هو الايثاق، فالمرابطة هى المواثقة، ايثاقا من الجانبين فيما يحتاجه للحفاظ على كيان المسلمين، رباطا «بين» ورباطا «فى»، و«ل» و«مع» للكتلة المؤمنة بينهم، ورباطا «على» لهم على اعدائهم.

ذلك والآيات فى الترابط الجماعى بين المؤمنين كثيرة ومن اوضحها بين الناس كافة آية التعارف: «يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند اللّه أتقاكم»[1] وآية السخرى: «نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا

---

[1]. ٤٩: ١٣.

بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا».[1]

وبين المؤمنون خاصة «واعتصموا بحبل اللّه جميعا ولا تفرقوا...» و«إنما المؤمنون إخوة فاصلحوا بين اخويكم»[2] «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان»[3] «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم».[4]

«ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون».[5]

فالمسئولية الإيمانية مزدوجة وليست فردية انعزالية، فانها صناعة لَبنات بناية الإيمان، ثم صناعة البناية بهذه اللبنات، أن يصنع كل واحد نفسه مسلما ثم يحاول فى صنع الآخرين، محاولة جماعية جماهيرية فى تحسين وتحصين بناية رصينة متينة إسلامية لا تتهدم أمام أى قصف من أى قاصف، ولا تتهدر من اى عصف لأى عاصف، فلا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف.

لذلک نرى ان الاسلام يؤكد على التجمعات الإيمانية كأصل ايمانى وحتى فى العلاقات والصلاة الشخصية بين المسلم وربه كالصلاة والحج وما أشبه، فانهما كافضل النماذج الجماعية فى العبادات تربطان المؤمنين بعضهم ببعض فى صفوف متراصة من كل صنوفهم ولا سيما فى مؤتمر الحج العالمى الذى يهدف ـ فيما يهدف ـ توحيد الدولة الاسلامية على مدار الزمن، وفيما يسأل الرسول صلى‌الله‌عليه‌و‌آله عن صلاة الجماعة لمن ظل وحده فأهله وولده فى الشغل، يقول: «المؤمن وحده جماعة».[6]

---

[1]. ٤٣: ٣٢.

[2]. ٤٩: ١٠.

[3]. ٥: ٢.

[4]. ٨: ٤٦.

[5]. ٣: ١٠٤.

[6]. مضمون الحديث فيما اذكر ان قرويا يسأله صلى‌الله‌عليه‌وآله انا اؤذن واقيم وورائي أهلي وولدي هل نحن جماعة؟ قال: نعم ـ قال قد يذهب ولدي الى الشغل فتبقى معي أهلي فهل نحن جماعة؟ قال: نعم ـ قال: وتذهب اهلي واظل وحدي هل لي جماعة: قال: نعم المؤمن وحده جماعة.

بعد ما بيَّن اللّه حق وحدة الألوهية ووحدة الحب إلهيا لنفسه، هنا يقرر حق التشريع له وحده، مناحرا لما كان يفعله المشركون من تحليل او تحريم لا يرجع الى دليل:
«يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الْأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبًا وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ».[1]

الحلال فَعال من الحِلِّ والحَلِّ مقابل العقد، فالشىء غير المعقود ولا المحظور حلال، سواءٌ سبقه عقد الحظر ام لم يسبقه، وليس للمأكول مما فى الأرض سابق حضر كأصل، إلاّ انه اللّه، فلا يحل اكله إلاّ بمرضات اللّه، وهو يُحِله فى أمثال هذه الآية كأصل وضابطة عامة تُحِلُّ الحظر عما يؤكل.
والطيب ـ هنا ـ هو كل ما تستطيبه النفس أكلاً، وطبعا النفس الباقية على الطبع الإنسانى الأولى، دون المنحرف عنه، المنجرف الى دركات الحيونة الوحشية التى تستطيب أكل كل ما يمكن ابتلاعه، مهما كان حشرة، كما فى الطباع الأوروبية المنحرفة عن إنسانيتها.
ثم هى النفوس ككل، دون كل نفس، فقد يستطاب أكل شىءٍ عند أشخاص خصوص متخلفة عن الجماهير، ام يُستقذر كذلك، والمعيار هو الإستطابة الجماهيرية بالطباع الأوّلية، حيث الأحكام الشرعية يراعى فى تشريعها جمهرة الناس دون الخواص.
أترى «مما فى الأرض» تبعيض لمأكولات الأرض، أن: كلوا بعض المأكولات، ثم «حلالاً طيبا» بيان لذلك البعض؟ فهما ـ إذا ـ حالان ل «مما فى الأرض» ام مفعولان ل «كلوا»؟ فالآية ـ إذا ـ مجملة بالنسبة ل «حلالاً» إذ لم يبين الحلال مهما عرف «طيبا» بما تعرفناه!.
فلنعرف خصوص الحلال مما فى الأرض، الطيب، حتى يُسمح لنا أكله، فحين نشك فى حلّه الخاص لا يحل أكله، وهذه هى أصالة الحظر، المطرودة بنصوص كقوله تعالى «هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا»[2] وقد تنافى ـ ايضا ـ سماحة هذه الشرعة وسهولتها!.

---

[1]. ٢: ١٦٨.

[2]. ٣: ٢٩.

أم إن «مما فى الأرض» تبعيض لما فى الأرض، فان منه مأكولاً ومنه غير مـأكول، ولـم يقيـد النص «ما فى الأرض» بالمأكول، حتى يبعَّض بأداته، فمطلق النص «مـا فـى الأرض» يشـمل كل ما فى الأرض، ثم «من» تبعِّضه بالبعض المأكول.

إذا ف «كلوا مما فى الأرض» سماح عام لأكل كلٍّ مـا يؤكـل، فهـل إن «حـلالاً طيبـا» همـا مفعولان ل «كلوا مما فى الأرض» تقييدا لسماح الأكل؟ فكذلك الأمـر! حيـث الآيـة ـ إذا ـ مجملة فى الحلِّ، ثم «كلوا من طيبات ما رزقناكم» دون قيد الحل، و«انمـا حـرم..» الحاصـرة الحرمة فيما حصرت مهما كان نسبيّا هما لا تساعدان على أصالة الحظر، أم إجمال الآية فـى الحِلِّ!.

أم انهما حالان ل «مما فى الأرض» كما ل «كلوا» أكلاً حلالاً طيبـا، ممـا فـى الأرض حـلالاً طيبا، حلاً عاما كضابطة لأصل الجواز، وطيبـا تقييـد لـذلك الحـل كـاوَّل مـا يقيـد الأكـل والمأكول، وكما تؤيده «كلوا من طيبات ما رزقنـاكم..» إذا ف «حـلالاً» حـال لواقـع الأكـل والمأكول على أية حال، ثم «طيبا» حال ثان او وصف تقييدى ل «حلالاً» يخرجه عن إطـلاق الحلِّ، أم إن «طيبا» لها دور «حلالاً» بيانا لأصالة الطيب، ألاّ يسمح باستقذار مأكولٍ ممـا فـى الأرض إلاّ ما ترفضه الطباع الإنسانية، فتصبح «طيبا» أوسع مجالاً مما كان تقييدا، إذا فيكفـى فى حلِّ المأكول عدم استقذاره نوعيا واقعيا، لا واستطابته كذلك.

وقد يقيد الأكل عن حلّه العام بعد طيبا ب «ما رزقناكم» و«مما غنمـتم»: «فكلـوا ممـا غنمـتم حلالاً طيبا»[1] «فكلوا مما رزقكم اللّه حلالاً طيبا»[2] تقييدا للحل بكونه مما ملكته من مشروعه: «لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلاّ أن تكون تجارةً عن تراض منكم»[3] إذا فكـل مـأكول طيِّـبٍ يحل أكله بغير باطل، كضابطة عامة، إلاّ ما استثنى من حل الأكل مادة او مدة، كمـا او كيفـا، فالمشكوك جواز أكله داخل فى ضابطة الحل إلاّ ما ثبت الحظر عنـه بـدليل مـن كتـاب أو

---

[1]. ٨: ٦٩.

[2]. ١٦: ١١٤.

[3]. ٤: ٢٩.

سنة.

ومن القيود العامة لحل الأكل فى آيتنا «ولا تتبعوا خطوات الشيطان» وكخطوة الإسراف والتبذير فانهما من الشيطان، وخطوة التحريم لغير المحظور أكله والتحليل للمحظور أكله، وكخطوة أصالة الحظر، مهما اختلفت هذه الدركات فى الخطوات، وعلى أية حال فاتباع خطوات الشيطان هو الإنجذاب فى قيادة، ان تكونوا سيِّقةً للشيطان فيما يخطوه.

ولأن الخطوة هى ما بين القدمين من المسافة حالة المشى، فقد تعنى خطواتُ الشيطانوسائله وذرائعه الى بغيته الأخيرة وهى الإشراک باللّه والإلحاد فى اللّه، فليس الشيطان ليورد الإنسان إلى أخيرة المهالک إلاّ بخطوات من صغيرة الى كبيرة الى كبرى، فعند ذلک الطامة الكبرى وكما قال اللّه:

«إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللّه مَا لاَ تَعْلَمُونَ»[1]

فالسوء هنا هو ما دون الفحشاء، كما الفحشاء هنا هى دون «أن تقولوا على اللّه ما لا تعلمون» وبصيغة أخرى الفحشاء هى أقبح أنواع السوء، «وأن تقولوا» هى أقبح انواع الفحشاء، فالفحشاء هى المعصية المتجاوزة حدَّها إما فى نفسها ام الى غير العاصى، ام تجمعهما، ثم العقيدة السيئة، والفاحشة هى أفحش من عملية السوء.

فاتباع خطوات الشيطان محظور فى كل الحقول، أكلاً كما هنا، أمّا سواه من أفعال وتروکٍ كما: «يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين»[2] ـ «ومن الأنعام حَمولة وفرشا كلوا مما رزقكم اللّه ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين. ثمانية ازواج.. قل ءَآلذكرين حرم أم..»[3] ـ وعلى أية حال:

«يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء

---

[1]. ٢: ١٦٩.

[2]. ٢: ٢٠٨.

[3]. ٦: ١٤٣.

والمنكر..:[1] «انما يأمركم بالسوء والفحشاء وان تقولوا على اللّه ما لا تعلمون»، هنا «وان تقولوا..» هى قولة الفرية على اللّه فى تحريم او تحليل ما لم يأذن به اللّه، وأفحش منه المشاقة الصريحة لحكم اللّه، أننى أحرم مهما أحل اللّه، أم أحلّل مهما حرم اللّه.

وقبلهما سوء وفحشاء على وعقيدى، فمن سوء عملى أكل الحرام الخفيف مادة وحرمة، ومنه عقيديا تحليله افتراءً على اللّه، ومن فحشاء الحرام المغلظ والعقيدى منه فريته على اللّه، والسوء والفحشاء العقيديان هما أسوء وأفحش منهما عمليا، فلذلك يفرد العقيدى بالذكر بعد مطلق السوء والفحشاء: «وان تقولوا..».

فقد يعصى العاصى معترفا انه عاصٍ، وأخرى محللاً له تقصيرا فى التفتيش عن دليل، فتوى بغير علم، ام افتراءً على اللّه بمعارضة الدليل، ام مشاقة للّه بمصارحة أننى أحلل وأحرم، رغم ما حكم اللّه، وذلك ثالوث منحوس بدركاته الثلاث قد تعمه «وان تقولوا على اللّه ما لا تعلمون» ام قد يفلت الأخير من نصها داخلاً فى الأولوية.

فالقول على اللّه بغير علم ـ بدركاته ـ هو أسوء من السوء وأفحش من الفحشاء العمليين، مهما كان القسم الأوّل من الثالوث سوءً أمام الثانى، وهذا فحشاء أمام الثالث من الناحية العقيدية.

فمن السوء عمليّا فى ظلال آيتنا ترك أكل ما لم تثبت حرمته، اللّهم إلاّ حائطة ثابتة بدليل، ومنه عقيديا أصالة الحظر.

كما من الفحشاء عمليا أكل الثابت حرمته، ومنها عقيديا القول بحليته دون علم، ثم بعلم، ثم فوقهما عمليّا التورط فى المحرمات الكثيرة الكبيرة، وعقيديا تحليلها افتراءً على اللّه، ام مشاقة علنية لحكم اللّه، وكما منه الإستناد الى القياس والإستحسان أما شابه ليس دليلاً شرعيا، بل الأدلة الشرعية تعارضه، كل هذه تشمله ثالوث خطوات الشيطان بمختلف دركاتها.

فحذارَ حذار من ويلات خطوات الشيطان، فانه لا يحمل المؤمن المتقى على ثالثة الدركات

---

[1]. ٢٤: ٢١.

إلا أن يخطو به أولاها ثم ثانيتها، عمليّا او عقيديا، حتى يورده فى مسيره الى مصير الهلاك الأخير «جهنم يصلونها وبئس المصير».

وإنها ثالوث الخطوات فى حصر «إنما» وليست وراءها خطوة، وهى بين آفاقية عملية: «السوء والفحشاء» وأخرى انفسية: «وان تقولوا» قولاً بغير علم!.

أترى الشيطان يأمر ـ فقط ـ بالسوء و..؟ ونراه قد يأمر ـ فيما يأمر ـ بالخير! إنَّ أمره بغير السوء هو فى الحق أمر بالسوء فأمر سوءٌ، إذ يتذرعه إغراءً إلى سوءٍ، كمن يأمره بقراءَة القرآن، ثم يجمِّده على حروفه ويصرفه عن أحكامه فيصبح صاحبه تاليا للقرآن والقرآن يلعنه.

ففى الحق لا يأتى من الشيطان إلاّ عملية الشيطنة وعقيدتها مهما أمر فى ظاهر الحال بخير، ثم لا يتمكن الشيطان ـ ام أيٌّ كان ـ أن يأمر بسوء وفحشاء بمقدمات كلها شريرة، وإنما يخلط حقا بباطل وباطلاً بحق وهو بدء وقوع الفتن كما يروى عن قاطع الفتن على عليه‌السلام: «إنما بدء وقوع الفتن أهواء تُتَّبع وأحكام تُبتدع يُخالَف فيها كتاب اللّه ويتولّى عليها رجالٌ رجالاً فلو أن الحق خلص لم يكن للباطل حجة ولو أن الباطل خلص لم يكن اختلاف ولكن يؤخذ من هذا ضِغثٌ ومن هذا ضِغثٌ فيُمزجان فيجيئان معا فهنالك استحوذ الشيطان على اولياءه ونجى الذين سبقت لهم من اللّه الحسنى».

فخير الشيطان شرٌّ إذ يبوء الى شر، وشر الرحمن خير إذ يبوء الى خير «ونبلوكم بالخير والشر فتنة والينا ترجعون».[1]

وقد يجرّ الشيطانُ الإنسانَ من الأفضل إلى الفاضل ليتذرع به لإخراجه الى غير الفاضل وإلى الشر، أم يجره من الفاضل الأسهل الى الأفضل الأشق ليشق عليه فيترك الفضل عن بكرته!.

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزلَ اللّه قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئا وَلاَ يَهْتَدُونَ».[2]

---

[1]. ٢١: ٣٥.

[2]. ٢: ١٧٠.

وذلک هو الدرک الأسفل من الخطوات العقلیة الإبلیسیة، مشاقَّةُ اللّه فی حکمه بحکم الآباء القدامی التقلیدیین، معارضة الدلیل بالتقلید الخاوی عن الدلیل، وقبله خطوة الحکم غیر التقلیدی خلاف حکم اللّه، وقبله القول علی اللّه بغیر علم دون أیة حجة من کتاب أو اثارة من علم قیاسا او استحسانا أما شابه، وقبله الفتوی دون تفتیش صالح عن دلیل، درکات اربع عقائدیة فی خطوات الشیطان، وقبلها او معها خطوات عملیة من سوء إلی فحشاء.

هنا «قالوا بل» رفض لاتِّباع ما أنزل اللّه إلی «ما ألفینا علیه آباءَنا» إتباعا عملیا وعقیدیا، فی تقلید جاهل قاحل «أو لو کان آباءُهم لا یعقلون شیئا ولا یهتدون».